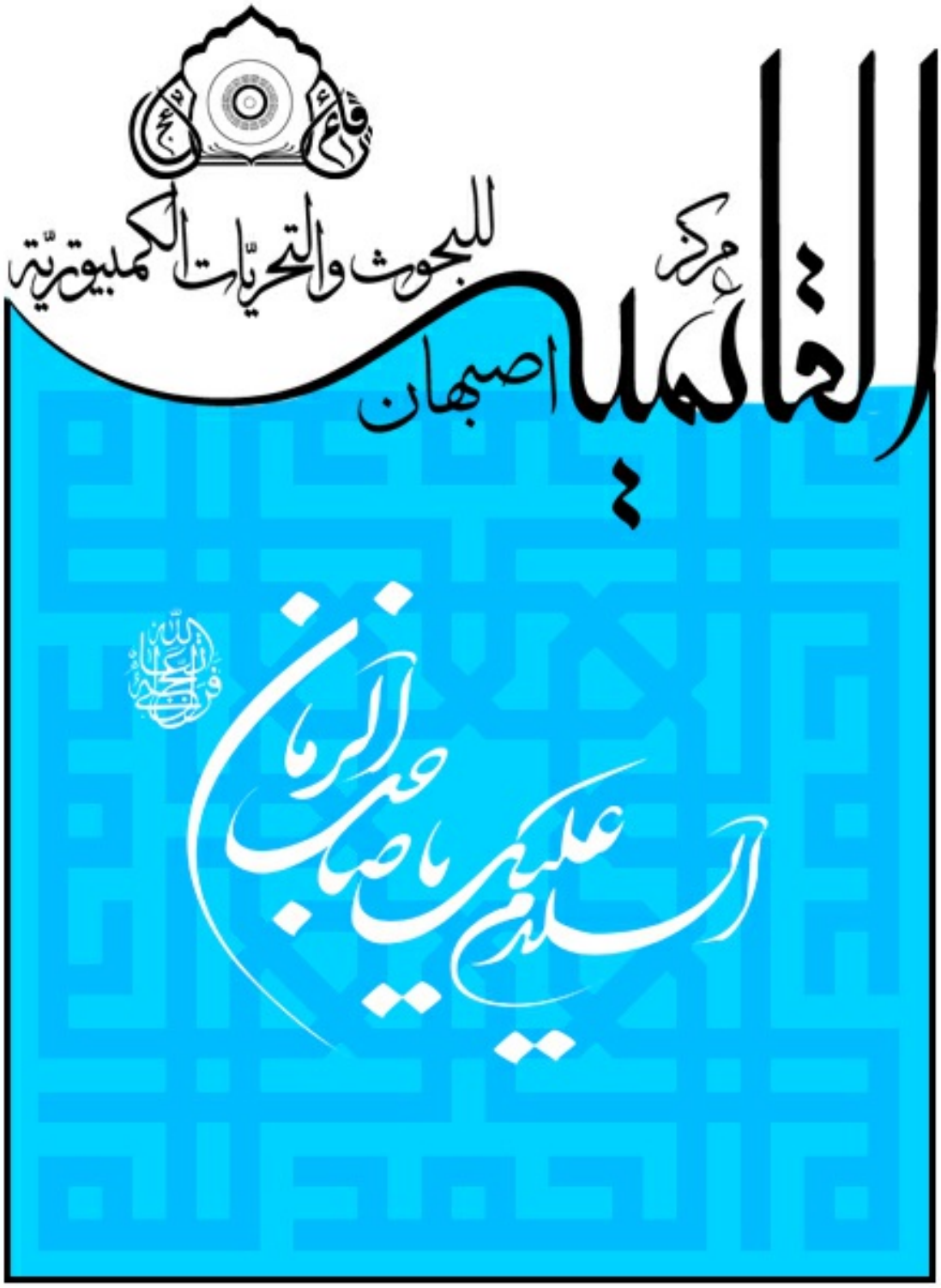

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

هشام جعيط

نشأة المدينة العربية الإسلامية

الكوفة

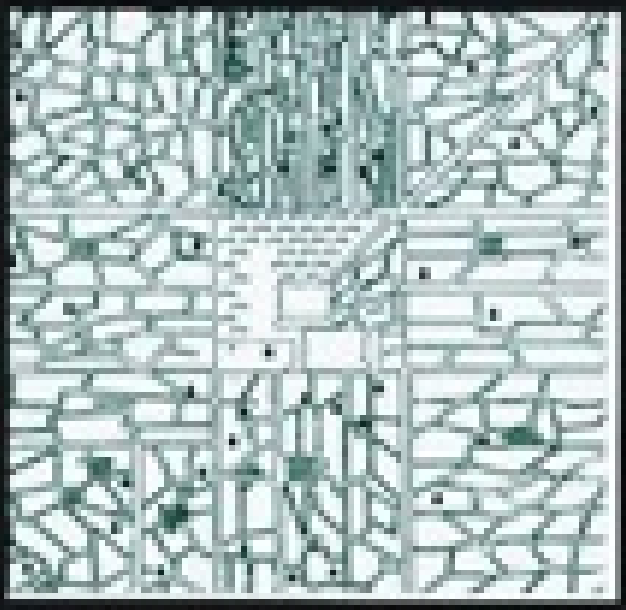

دار الطليعة - بيروت

بسم الله الرحمن الرحیم

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة

كاتب:

هشام جعيط

نشرت فى الطباعة:

دارالطليعة للطباعة و النشر

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵

نشأة المدينة العربية الاسلامية ----- ۱۲

اشارة ----- ۱۲

الباب الأول الفتح العربى للعراق و تأسيس الكوفة ۱۲- ۱۷ ه/ ۶۳۳- ۶۳۸ ----- ۱۲

اشارة ----- ۱۲

- ۱- إشكالية الفتح ----- ۱۳

اشارة ----- ۱۳

وضعية العراق قبل الفتح العربى ----- ۱۴

- ۲- من الأيام إلى القادسية ----- ۱۹

اشارة ----- ۱۹

الأيام ----- ۱۹

مرحلة وسيطة: الجسر و البويب (۱۳- ۱۴ ه/ ۶۳۴- ۶۳۵) ----- ۲۲

اشارة ----- ۲۲

۱) أبو عبيد و معركة الجسر (شعبان أو رمضان ۱۳/ أكتوبر أو نوفمبر ۶۳۴). ----- ۲۲

۲) البويب ----- ۲۳

المسيرة العربية إلى العراق و التوطئة لوقعة القادسية (محرم ۱۴- رجب ۱۵) ----- ۲۵

معركة القادسية ----- ۲۸

۱) الاستعدادات النهائية ----- ۲۸

۲) قضية التأريخ: ----- ۳۰

۳) سير المعركة: ----- ۳۰

۴) تفسير وقعة القادسية و دلالتها: ----- ۳۲

- ۳- إنهاء فتح العراق و تنظيم السواد (۱۶- ۱۷ ه/ ۶۳۷- ۶۳۸) ----- ۳۴

اشارة ----- ۳۴

الاستيلاء على المدائن ----- ۳۵

جلولاء (۱۶ ه/ ۶۳۷ م): المعركة الأخيرة من أجل العراق ---- ۳۸
تنظيم السواد: ---- ۴۰
- ۴- انشاء الكوفة (أواخر سنة ۱۷ ه/ ۶۳۸) ---- ۴۴
الباب الثانى المخطط المدنى الاول ---- ۴۷
اشارة ---- ۴۷
- ۵- تشابک المشاکل ---- ۴۷
اشارة ---- ۴۷
تخطئة بعض التصورات. قضايا حقيقية و قضايا خاطئة ---- ۴۸
الإطار الزمنى ---- ۵۱
- ۶- الكوفة الأولى (۱۷- ۲۴ ه/ ۶۳۸- ۶۴۴) هل كانت مجرد معسكر أم مدينة حقيقية؟ ---- ۵۲
اشارة ---- ۵۲
مشكلة المراحل حسب البلاذرى و سيف بن عمر: ---- ۵۳
البلاذرى: ---- ۵۳
سيف بن عمر: ---- ۵۴
الرواية الأولى: ---- ۵۴
الرواية الثانية: ---- ۵۴
- ۷- بنية المجال الداخلى: المدار المركزى ---- ۵۶
اشارة ---- ۵۶
المجال المركزى: ---- ۵۶
المسجد الأصلى: ---- ۵۹
التخطيط الأول للصحن حسب رواية سيف ---- ۶۰
القصر: ---- ۶۱
الرحبة و السوق و الآرى: ---- ۶۳
السوق: ---- ۶۶
الآرى: ---- ۶۸
التخطيط الثانى للصحن حسب رواية سيف و الشواهد الأثرية ---- ۶۹

دلالة المركز: ---------- ۶۹

- ۸- بنیة المجال الداخلی: الحزام السکنی أو الخطط ---------- ۷۰

اشارة ---------- ۷۰

الخطط القبلیة حسب روایة سیف ---------- ۷۴

قطائع العشائر و التقلبات الأولی ---------- ۷۵

- ۹- التخطیط و التطور اللاحق ---------- ۷۹

الباب الثالث الاستشراق و المدینة الاسلامیة ---------- ۸۰

اشارة ---------- ۸۰

- ۱۰- من النظام إلی الخلل ---------- ۸۱

- ۱۱- مدینة بلا وجه ---------- ۸۲

- ۱۲- المدینة العفویة و المدینة المنشأة ---------- ۸۳

الباب الرابع التأثیرات و الجذور. من بابل إلی مکة ---------- ۸۸

اشارة ---------- ۸۸

- ۱۳- قوّة الماضی: الشرق و الهلینیة و امتداداتهما ---------- ۸۸

اشارة ---------- ۸۸

تعددیة الشرق و وحدته. إرث العصر الاول ---------- ۸۹

بابل ---------- ۹۰

خریطة العراق العربی فی العصر الکلاسیکی (القرن ۱ و ۲ ه/ ۸ و ۹ م) ---------- ۹۲

تأثیر الهلّینیة ---------- ۹۴

فارس و روما و بیزنطة ---------- ۹۶

- ۱۴- قوّة الماضی: الارث العربی القدیم ---------- ۹۹

اشارة ---------- ۹۹

الزّمان الکونی، الزّمان الخرافی و الزّمان التاریخی ---------- ۱۰۱

السابقون للعرب و العرب الأوائل و العرب ---------- ۱۰۲

الهویة العربیة و الترحل و المدینة ---------- ۱۰۴

التلاحم بین المدن و القبائل: ---------- ۱۰۶

مفهوم المدينة و واقعها فی بلاد العرب ----- ۱۰۹
الميراث المدنی ----- ۱۱۲
اليمن ----- ۱۱۳
مكة ----- ۱۱۴
الطائف ----- ۱۱۵
المدينة: ----- ۱۱۵
الباب الخامس التمدن و الاستقرار. الذروة التاريخية ۵۰- ۸۰ ه/ ۶۷۰- ۷۰۰ ----- ۱۱۷
اشارة ----- ۱۱۷
- ۱۵- المجهود المعماری فی عهد زياد ۵۰- ۵۳ ه/ ۶۷۰- ۶۷۳ ----- ۱۱۸
بناء القصر و المسجد ----- ۱۱۹
مسجد زياد ----- ۱۱۹
قصر زياد ----- ۱۲۰
- ۱۶- التمدّن و التنظيم ----- ۱۲۲
اشارة ----- ۱۲۲
الطموح المعماری و الجمالی ----- ۱۲۲
البنايات الخاصة تضيّق على المركز ----- ۱۲۳
تحوير الهياكل العسكرية و الإدارية ----- ۱۲۵
- ۱۷- الكشف عن الكوفة: ثورة المختار (۶۶- ۶۷ ه/ ۶۸۵- ۶۸۶ م) ----- ۱۲۷
اشارة ----- ۱۲۷
مسير ابراهيم بن الأشتر: ----- ۱۲۹
وقائع المختار، مشاكل تحديد المواضع ----- ۱۳۰
اشارة ----- ۱۳۰
المرحلة الأولى: ثورة المختار ----- ۱۳۰
المرحلة الثانية: ثورة الأشراف ----- ۱۳۳
حصار مصعب للكوفة و نهاية المختار (۶۷ ه/ ۶۸۷) ----- ۱۳۶
قضية الماء: ----- ۱۳۷

من جديد نقاط الدخول: السبخة و الجبانة و الكناسة. ---- ۱۳۹
تسليط الأضواء على المركز ---- ۱۴۰
- ۱۸- شبيب (۷۶- ۷۷ ه/ ۶۹۵- ۶۹۷): استطلاع ثان ---- ۱۴۳
اشارة ---- ۱۴۳
عودة إلى سيف بخصوص دار الرزق ---- ۱۴۷
حصيلة تصورنا ---- ۱۴۸
الباب السادس التطور و الاستكمال ۸۰- ۱۵۵ ه/ ۷۰۰- ۷۷۲ ---- ۱۵۰
اشارة ---- ۱۵۰
- ۱۹- أجيال جديدة، عصور أخرى ---- ۱۵۰
اشارة ---- ۱۵۰
منعرج الثمانينات ---- ۱۵۰
التطوّر الديموغرافي ---- ۱۵۲
- ۲۰- الاستمرارية، الاضافات و الابتكارات ---- ۱۵۵
اشارة ---- ۱۵۵
۱) بناء خالد القسرى للأسواق: ---- ۱۵۶
۲) الأسواق المحيطة. الكناسة و الدور الجديد للحيرة ---- ۱۵۷
۳) القنطرة و الحمامات: ---- ۱۶۰
القنطرة أو الجسر المبنى: ---- ۱۶۰
الحمامات الداخلية و الخارجية: ---- ۱۶۱
- ۲۱- رجوعا إلى التقاليد العربية: الجبّانات و الصحارى ---- ۱۶۲
- ۲۲- مساجد الكوفة ---- ۱۶۹
اشارة ---- ۱۶۹
قائمة مساجد الكوفة ---- ۱۷۰
قائمة إضافية بأسماء مساجد قبيلة كندة التى وردت عند هشام الكلبى و لم ترد عند غيره ---- ۱۷۱
المصطلحات ---- ۱۷۳
- ۲۳- وضع السكك: السور و الخندق ---- ۱۷۴

الباب السابع الكوفة كنموذج للمدينة الاسلامية؟ ---- ۱۷۶
اشارة ---- ۱۷۶
- ۲۴- الكوفة و المدن المنشأة بالعراق قبل بغداد ---- ۱۷۶
اشارة ---- ۱۷۷
الكوفة و البصرة: ---- ۱۷۷
الكوفة و واسط: ---- ۱۷۹
- ۲۵- الكوفة و بغداد ---- ۱۸۲
خاتمة الوجه المدنى للكوفة- مصير الكوفة و هويتها- ---- ۱۸۵
ملاحق ---- ۱۸۷
اشارة ---- ۱۸۷
ملحق (۱) الكوفة فى تاريخ الإسلام ---- ۱۸۷
اشارة ---- ۱۸۷
- مدينة الكوفة ---- ۱۸۸
-II السياسة و الإيديولوجيا و الثقافة فى الكوفة ---- ۱۹۴
بيبليوغرافيا ---- ۱۹۸
الكتب الكلاسيكية المعروفة: ---- ۱۹۸
ملحق (۲) اليمنيون فى الكوفة فى العهد الأموى ---- ۲۰۰
اشارة ---- ۲۰۰
I- انطلاق القبائل اليمنية فى العصر الأول ---- ۲۰۱
اشارة ---- ۲۰۱
«هجرة مسلحة»: ---- ۲۰۱
الاستقرار فى الكوفة: ---- ۲۰۲
موقع اليمنيين فى التنظيم العسكرى الإدارى: ---- ۲۰۳
II- توزّع العشائر اليمنية فى العصر الأموى ---- ۲۰۴
اشارة ---- ۲۰۴
۱- عشائر النواة اليمنية: ---- ۲۰۵

اشارة ---------- ۲۰۵
همدان: ---------- ۲۰۵
مذحج: ---------- ۲۰۷
۲- عشائر الأطراف اليمنية: ---------- ۲۰۷
۳- مقارنة مع الأمصار الأخرى: ---------- ۲۰۹
III- اليمنيون و صراعاتهم السياسية ---------- ۲۱۰
۱- المشكلة" الشيعية": ---------- ۲۱۰
۲- العصبية أو الصراع فوق القبلى: ---------- ۲۱۳
IV- دور اليمنيين الحضارى و الثقافى ---------- ۲۱۴
فهرس المصادر و المراجع ---------- ۲۱۸
۱- المصادر ---------- ۲۱۸
۲- المراجع ---------- ۲۲۱
فهرس ---------- ۲۲۱
تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ---------- ۲۲۳

نشأة المدينة العربية الاسلامية

اشارة

نام كتاب: نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة

نويسنده: جعيط، هشام

موضوع: جغرافياى شهرها

زبان: عربى

تعداد جلد: ١

ناشر: دار الطليعه للطباعة و النشر

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ٢٠٠٥ م

نوبت چاپ: سوم

==========

پديدآورنده:

هشام جعيط

موضوع:

كوفه - تاريخ

شماره رديف: ۴٠٩١۶

شماره مدرک: ١٨۴٠۵ = عنوان

سرشناسه فارسى: جعيط، هشام

محل انتشار: بيروت، لبنان = دارالطليعه = م١٩٩٣.= ١٣٧٢

صفحه: ۴٠٨ ص .: نقشه

توضيحات: عربى

كتابنامه: كتابنامه .: ص . ٣٩٩ - ۴٠۵؛ همچنين به صورت زيرنويس

رده بندى كنگره:

DS٧٩/٩/ ج۶ن۵

الباب الأول الفتح العربى للعراق و تأسيس الكوفة ١٢- ١٧ ه/ ۶٣٣- ۶٣٨

اشارة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۶

– ١– إشكالية الفتح

اشارة

لا مراء فى أن إنشاء الكوفة سنة ١٧ من الهجرة الموافق لسنة ٦٣٨ ميلادية ارتبط مباشرة بفتح العرب للعراق. فحالما فرغ العرب من السيطرة على العراق، بعد طرد فلول القوات الساسانية إلى النجد الإيرانى، و بعد أن استولوا على جلولاء و المدائن، مكتسحين السواد كله، شعروا بالحاجة إلى إنشاء دار هجرة على تخوم البلاد المفتوحة، تكون بمثابة المعسكر و المركز للهجرة فى الوقت نفسه. و على ذلك، تشكل الكوفة ثمرة مباشرة لعملية من عمليات الفتح الخاطف معللة إياها و مشكلة بدورها امتدادا لها، ضامنة لها، راسمة معالمها على التربة، ذلك أن الكوفة تحتل موقع القلب من المنطقة، تلك المنطقة التى كانت تدور فيها المعارك بين العرب و الامبراطورية الساسانية؛ منطقة معدة لكى يعمرها أول من يعمرها المشاركون فى القتال و يستقر فيها أغلب المجاهدين العرب. و على هذا، فستتأثر الكوفة كثيرا، و بدرجة أعظم مما حصل فى البصرة، بالحدث التاريخى المتمثل فى الفتح، كما سيؤثر فيها العيش على ذكراه، و سيظهر ذلك التأثير فى عناصرها البشرية التى جسمت كيانها، و فى بنيتها الاجتماعية، و فى الحركات السياسية الدينية التى ستهزها. و فضلا عن ذلك، يتجاوز الفتح العربى للعراق مصير الكوفة بصفته قضية تاريخية، ذلك أن الكوفة تندرج ضمن ظاهرة كونية هى ظاهرة الفتح العربى الذى اكتسح العالم. و لا يبدو لنا مفيدا أو ضروريا التعمق فى بحث القضية فى جملتها، بل نرى أنّ من الأهم البحث فى اندراج الفتح العربى ضمن فضاء معين، بمواقيت خاصة به و بعناصره البشرية. و لكن، بقدر ما يكون الارتباط مباشرا لا محالة بين الظروف التاريخية المحيطة بإنشاء الكوفة و ظاهرة الفتح بصفة عامة، فمن المفيد أن نلمح دون إطالة إلى قضية نشأة الفتح العربى و دلالته.

يستحسن التذكير بأن المؤلفين المحدثين و منهم كايتانىCaetani و شعبانShaban الذى تلاه بعد ثلاثة أرباع القرن، قد طرحوا مسألة النظر فى أسباب الفتح العربى و معناه،

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٧

ارتباطا بالغارات الأولى التى شنت على أرض الرافدين. نعنى غارات سنة ١٢ ه/ ٦٣٣ م، التى كانت منطلقا لظهور القدرة الحربية العربية بعد وفاة الرسول، و بذلك يمكن أن يتجه التفكير إلى إمكان بلوغ العناصر التى كانت أصلا للفتح العربى فى جملته، لو أمكن تسليط الضوء على الظروف التى أحاطت بهذا الدفع الأول. نميل فعلا و من أول وهلة إلى تأريخ انطلاق الأحداث فى محرم سنة ١٢ ه/ مارس ٦٣٣ م ردا على الرؤية التقليدية، و نسبة الغارات التى جدت فى السواد إلى مبادرة من بكر بن وائل تجاوب معها إقدام خالد بن الوليد و قد خرج منتصرا من حرب الردة قبل مدة قصيرة. و لعلها كانت بداية لمغامرة كبرى فى التاريخ العالمى، إنما تجذرت فى الغموض و التهميش. و من أول وهلة يبدو أن الفتح تقرر مصيره فى الجنوب الشرقى من بلاد العرب، بعيدا عن قرار الحكم المركزى.

و استنادا إلى الأسبقية الزمنية للغارات على السواد بالمقارنة مع المعارك التى دارت فى الشام و فلسطين، يطرح كايتانى بهذا الصدد قضية كبرى هى قضية الفتح العربى برمته، و كأنه صار مسلما بأن حركة الفتح انطلقت من هذه الغارات العراقية.

الواقع أن شيئا من ذلك لم يكن. لا شك أن الأيام التى جدت سنة ١٢ ه، قد أثرت على قرار عمر الذى اتخذه فى السنة التالية، و الخاص بالشروع فى فتح السواد. على أن هذا القرار يكون غير معقول بدون الانتصارات على البيزنطيين. و ينزع السياق التاريخى برمته، كما المطالعة المتيقظة للمصادر، إلى الدلالة على أن مواجهة الشام كانت تعتبر الجبهة الرئيسية و الجبهة التى كانت فكرة الفتح عامة توضع فيها على محك الاختبار.

هـذا و ينبغى الإنطلاـق من الأحـداث الملموسـة فى ميـدان يتصف بمثـل هـذه الضـبابية. اتجه الرسول بنظره إلى الشـمال قبل أن يتـوفى، فشـكل فى محرم من سـنة ١١ ه/ ٦٣٢ جيشـا للشـام بقيـادة أسامـة بن زيـد، و أمره ب «أن يوطىء الخيـل تخوم البلقـاء و الداروم من أرض فلسـطين» كما روى الطبرى نقلا عن إبن إسـحاق. و لا يكفى أن يكون التقليد الإسـلامى أفاض فى القول كما شاء فى الغايات التى رسـمها الرسول للغزو الخارجى لكى ننكر أو نخفّف من وجود نيّـة توسّـعية فى حياة الرسول نفسه. و إلا فلا يمكن فهم الإلحـاح الـذى أحـاطت به الروايـات جيش أسامـة، مباشـرة بعـد مبايعـة أبى بكر، فى حين بـدأت تطرح مسألـة الردة الخطيرة، و لا نفهم بالخصوص إلا بعسر أنه بعد إنهاء حروب الردة (فى أواخر سنة ١١ ه)، و بعد أن تكلل بالنصر تسلل خالد إلى السواد فعلا، قامت الدولة فى المدينة بقيادة الفتح

الرسـمى العلنى نحو الشام و فلسطين، فجهزت ثلاثة جيوش مهمّة (فى بداية سنة ١٣ ه/ ٦٣٤). و هكذا فإن وجدت استمرارية فى النوايا منـذ عهـد الرسول و روح عزم و قرارات باتّـة من لدن دولة المدينة فإن ذلك كان موجها نحو الشـمال، فضـلا عن احتمال وجود أسباب أخرى موضوعية أملتها الأوضاع القائمة فى الخارج. و يبدو لنا أن شعبان قدّم عن دراية افتراضا مفاده أن البيزنطيين كانوا يتأهبون للقيام بتـدخل وشـيك، درءا للحملات العربية على حدودهم. لقد كانوا أكثر اطلاعا من الفرس على ما كان يجرى فى بلاد العرب، و كانوا راغبين أيضا فى إعادة الخطوط التجارية التقليدية التى انقطعت بسبب تقدم الإسلام.

و المقصود من كل هذا النقاش أنه إذا وجب طرح قضـية الفتح عامة، فمن حصافة الرأى أن يكون هذا الطرح بخصوص الشام لا بخصوص العراق. على أن مشـروع الفتح امتد سـريعا جدا إلى العراق فى أثناء خلافة عمر، إذ أعاد عمر النظر فى العمليات الأولى التى قادها المثنّى و خالد، فوسع فيها و عقلنها بداية من سنة ١٣ ه/ ٦٣٤. و بذلك يتبين أن تطور الفتح فى العراق يوضح توضيحا ممتازا كل ما يتعلق بأسباب التوسع. تتجلّى هذه الأسباب بتطور الظاهرة ذاتها فى تنوعها الملموس. ذلك أن الفتح العربى الخاضع منـذ البدايـة إلى دفع مركزى، حـالفه التنوع المرتبط بتنوع الأقاليم المفتوحـة، و تضـمن هـذا التنوع البـذرة التى نبتت فيها القضايا المقبلـة التى سـتواجه المجتمع العربى المهـاجر. كـان الفتـح فعلا «هجرة مسـلحة»، كما جاء فى تعبير كايتانى الجيـد، و هى عبارة تنطبق على العراق أكثر ممـا تنطبق على أيـة جهـة أخرى. أما أن يعتبر كرجوع لا شـعورى إلى حركـة بعيـدة فى الزمن، كما فعل المستشـرق الإيطالى، و بمثابـة ظاهرة تـدفع بانتظام موجات الساميين بعيدا عن موطنهم الأول فى بلاد العرب، فذلك يعنى تأويلا للتاريخ عرقيا مشـطا. ذلك أن كلمة ساميين تشـمل بشرا متنوّعى الأصناف وحّدهم التبحر العلمى الأوروبى فى القرن التاسع عشر بأن جـدد بناء لغاتهم فربط بينهم ربطا خياليا. و عوض أن نرجع إلى العصور الغابرة من الأجدر بنا أن نبذل الجهد للاحتفاظ فقط من تاريخ العراق الذى سبق الإسلام مباشرة بما من شأنه أن يوضح

الاستقرار العربى.

وضعية العراق قبل الفتح العربى

ساد الفرس على هـذا البلد منذ ما يزيد على ألف سـنة، و كان قطرا معروفا بغرينه الثرى، و اقتصاده المائى، فكان حقا هبة دجلة و الفرات. ورث الفرس نسق بابل للرى فى أساسه و قد ذكر الخطيب البغدادى أنهم لم يقوموا سوى بتحسـينه فحفروا قنوات ثانوية، لأن القنوات الرئيسـية كانت سابقة لهم. لكنهم طبعوا البلاد بطابعهم فكانت التقسـيمات الإدارية و تقسـيم الأراضـى تحمل أسماء فارسـية و كـانت تنسب إلى ملوك الفرس، و لاـ سـيما الساسـانيين منهم. و لقـد أقـام الملك عاصـمة ملكه كله فى المـدائن (أو

طیسفون). و کان علیه أن یعود صیفا إلی اصطخر المدینهٔ المقدسهٔ. و العراق بفضل ثرائه و موقعه الجغرافی، و موارده البشریهٔ و ماضیه، صار مرکز الامبراطوریهٔ الفارسیهٔ فی العهد الساسانی. و مع ذلک، فقد ظل متمیزا عن الموطن الإثنی الأصلی- أی فارس ذاتها- حیث کان للشعب المهیمن جذوره العمیقهٔ. و بالفعل فبعد تجاوز الحد الشرقی من حلوان، کان النجد الإیرانی یشرف بکامل ارتفاعه علی الأراضی السفلیهٔ لبلاد الرافدین. و قد لجأت فلول جیش یزدجرد إلی هذا المکان، بعد أن طردها العرب من العراق. و کان الخط الفاصل بشریا بین الشعوب الساميهٔ الناطقهٔ بالآرامیهٔ، من الأهالی الخاضعین أو النبط، و الشعوب الإیرانیهٔ و هی قوام السیطرهٔ الساسانیهٔ، کان هذا الخطّ یقع أسفل سفوح جبل زاغروس. و لکن علی الرغم من أن العراق کان قطرا مفتوحا خاضعا مستغلا، و لم یکن قطرا «قومیا»، فهو مرتبط بالامبراطوریهٔ إلی درجهٔ أنه لوضاع العراق لضاع کل شیء، کما دلت علیه الأحداث فیما بعد، خلافا لما وقع فی الشام و فی الامبراطوریهٔ البیزنطیهٔ. لقد میز العرب قطعا بین العراق-

الذی اشتمل علی الأهواز، و خوزستان فی الجنوب الشرقی- و بین فارس و الجبال، و أصر عمر علی رفضه مهاجمهٔ الفرس فی بلدهم الأصلی و دام رفضه بضع سنوات. لکن الأمر الدال هو أن أهم ما فی الجهاز الدفاعی الإیرانی استقر بالعراق. ثم أن خط الدفاع ضد «البرابرهٔ» القادمین من الغرب، لم یکن موجودا فی أسفل جبل زاغروس، بل علی مرتفعات الطّف، وراء الفرات، و مواجها للبادیهٔ العربیهٔ.

لا شک أن العرب ما انفکوا یتسللون فی کل العصور، من بلاد العرب إلی بلاد الرافدین. و لو اقتصرنا علی المؤرخین العرب کالطبری و المسعودی، لکان شعورنا أن محاولات الاستقرار التی قامت بها الجموع العربیهٔ تعود إلی عهد سحیق مع ملاحظهٔ أن أولئک المؤرخین کانوا یخلطون بین القدیم و الحدیث، و ما کان قابلا للتصدیق و ما لم یکن کذلک. روی الطبری أنه وجد تجار عرب فی بلاد الرافدین زمن نبختنصر الذی عاش فی عصر معدّ بن عدنان (کانت هذه المعاصرهٔ أسطوریهٔ لکنها کثیرهٔ الأهمیهٔ کعلامهٔ ذهنیهٔ). و قد تلقی الملک من الرب أمرا بالقضاء علیهم، لکنه بنی لهم حیرا (معسکرا) ثم تخلی عن هذه الفکرهٔ، فاستقروا عند ذلک فی الأنبار. و روی الطبری کذلک فی موضع آخر، أن العرب أقاموا بالحیرهٔ و الأنبار فی عهد ملوک الطوائف أی زمن دولهٔ الأرصسیدیین

Arsacides .

و قد استفاد عناصر من تغلب و قیس و غطفان و ایاد، کانوا تجمعوا فی البحرین تحت إسم تنوخ الجامع لرایتهم، و لعل عناصر من لخم و الأزد انضموا إلیهم، استفادوا من انقسام الفرس، فأقاموا غرب الفرات حسب خط متواصل یمتد من الأنبار إلی الحیرهٔ. و تقول المصادر أنهم حافظوا علی شخصیتهم، حیث کانت لهم شخصیهٔ مستقلهٔ ثابتهٔ بصفهٔ خاصهٔ.

کانوا لا یسکنون إلا الخیام، و لم یختلطوا بالأهالی، و قد سمّی أولئک العرب المقیمون بالطّف بعرب الضاحیهٔ أی عرب الأطراف. علی أن جمیع العرب الذین أقاموا خارج شبه الجزیرهٔ، من الأبلّه إلی الشام مرورا بالجزیرهٔ، عاشوا عیشهٔ مهمشهٔ و اتصفوا بصفات مشترکهٔ و ربطوا علائق قرابهٔ وثیقهٔ بینهم، حیث کانوا محاصرین بین العالم العربی الداخلی و الهیاکل الامبراطوریهٔ الخارجیهٔ. و ما یدل علی ذلک أن جمهرهٔ ابن حزم، صنفت تنوخ، و غسان،

خارج تسلسل الشجرهٔ المشترکهٔ و ظهرت أیاد و النمر لا محالهٔ بمظهر هامشی بارز. ثم إن الأمر یختلط علی نسابینا و مؤرخینا، فخلطوا بین هجرهٔ قضاعهٔ و استقرار عرب الضاحیهٔ و استقرار تغلب و النمر و أیاد فی الجزیرهٔ. لکن هذا الشتات العربی کان یربط الصلات حیثما کان.

فهل هذا أصل مشترک؟ أو تضامن أملاه ما کانت علیه ظروف العیش من تشابه، أم کانت سهولة فی التحرک مردها استمرار الترحال؟ یری المسعودی أن الاستقرار الأول فی الحیرة، تم بواسطة انفصال جموع من المهاجرین فی الشام، فوصف جذیمة الأول بأنه تنوخی. هذا و أن تسمیة تنوخ الغامضة تستند إلی الماضی البعید. الواقع أن هذه النسبة کانت نادرة فی المصادر کلما اقتربنا من الفتح. لکن إذا وجب التمییز بین خط الاتصال العربی- الفارسی بالطّف و الخاضع للحیرة، و بین منطقة الجزیرة، و بین المنطقة العربیة الداخلیة القریبة من العراق و المستقلة، فلا مناص من القول إن العناصر القبلیة لهذه المناطق الثلاث کانت متشابکة.

أ) تقیم أیاد و تغلب و النمر علی أرض الجزیرة بصورة رئیسیة، و هی ترتبط ارتباطا وثیقا بمصیر الحیرة، و توجد فی قلب السواد أیضا، تقوم علی خفارة تجار سوق قریة بغداد، أو بعین التمر حیث کانت تدافع عن الحصن برفقة الفرس، و قد قام خالد بتقتیلها. و قد تأکد من جهة أخری أن ملک الحیرة کان یعتمد علیهم و یستخدمهم ضمن فرق شرطته.

و یمکن الافتراض أنهم أکثروا من التنقل حین انهارت مملکة الحیرة، مع العلم بأنهم کانوا یتنقلون دائما، و أن مقرهم الرئیسی کان بأرض الجزیرة الفراتیة، و یبدو أن الفرس استخدموهم فی الدفاع عن حدودهم العربیة.

ب) أقام عرب داخل بلاد العرب علائق مع العالم الإیرانی، و کان بصرهم مرکزا علی العراق، و لا سیما قبیلتان کبیرتان من ربیعة هما عبد القیس و بکر. و قد بیّن ماسینیونMassignon أن عبد القیس تأثرت بالحیاة الإیرانیة إلی حد ما قبل ظهور الإسلام بمدة.

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۱۲

و من الثابت أن بعض عناصر هذه القبیلة التی ستقوم بدور رئیس فی العشرین سنة التالیة، قد تسربوا إلی منطقة الأبله و تقدموا إلی خوزستان. أما قبیلة بکر التی ارتبطت بها عجل وثیق الارتباط، فقد کانت تترحل فی البوادی خارج الطّف. و قد أنیطت مسؤولیات بعهدة بعض شیوخها، کلفهم بها الفرس، کما جری الأمر مع شیخ من بکر ولی علی الأبله.

لکن الملاحظ أنه ظهرت داخل هذه القبیلة استعدادات عدائیة تجاه الامبراطوریة الساسانیة. کانت هذه القبیلة قبیلة اتصال و مثلث أیضا رأس الرمح للعروبة تجاه العجم.

ظهر ذلک خلال معرکة ذی قار، ثم أثناء مقدمات الفتح الذی انطلق مع بکر فعلا بقیادة شیخهم المثّنی بن حارثة الشیبانی. کانت معرکة ذی قار تشکل أول مواجهة بین الفرس و العرب علی أرض مکشوفة و تستند أسباب نشوبها إلی تاریخ العلاقات بین الامبراطوریة و مملکة الحیرة، و هی العلاقات التی بلغت مرحلتها الأخیرة من التدهور. ذلک أنه لکی یقوم بنو شیبان بنجدة آخر المناذرة الذی طارده کسری ابرویز، و لکونهم رفضوا تسلیم الدروع التی أودعها النعمان عندهم، فإنهم وافقوا علی خوض نزاع کان یبدو غیر متکافیء. و قد شدت عجل أزرهم بقوة، و جسّم حنظلة شیخهم روح النضال و التحدی، أکثر من هانیء بن قبیصة سید بکر. و ما هو ذو دلالة أیضا أن قبیلة أیاد التی حاربت مع الفرس، اقترحت، حسب المصادر، خذلان أسیادها لفائدة أبناء جلدتها- و قد تجدد هذا النوع من السلوک فی بعض مراحل الفتح العربی.

و لقد أشادت أشعار کثیرة بهذا الحدث الذی کانت مراحله متعددة. و قد وصفها العرب- ذهل بن شیبان و عجل- کما وصفوا أیامهم المعهودة، فظهرت أیام قراقر و حنو، و جبابات، و ذو أجرم، و غدوان، و أخیرا المواجهة الحاسمة فی بطحاء ذی قار. و الأمر المهم الواجب لحظه أن رؤساء الحامیات العربیة بقیادة أیاس بن قبیصة الطائی رافقوا الفرس و من بینهم شخص بارقی (من الأزد) و آخر شیبانی من بیت ذی الجدین عهد إلیه بقیادة حامیة صفوان فی الطفّ. ما هی حصیلة هذه الوقعة؟ هل کانت تبشر فی واقع الأمر

بانقلاب الوضع لفائدة العرب، و تغيير علائق القوة؟ الحقيقة أن الموضوع مرتبط بحدث صغير فى حد ذاته، كان عبارة عن معركة صغيرة دارت بين بعض الجماعات العربية و بعض حاميات خط الدفاع الفارسى. على أن هذا الحدث يندرج فى سلسلة من الظواهر التى تكتسب دلالة معينة حين يقع ربطها ببعضها بعضا: منها العدوانية المقدامة التى أبدتها قبيلتا شيبان و عجل، الملتحمتان و الداخلتان فى فلك الساسانيين دخولا متفاوت الأهمية، و قد بقى بعض من عناصر هما على تلك الحال، ثم انهيار مملكة الحيرة فى شكلها التقليدى، و تغييرات طرأت على استراتيجية الدفاع الفارسى ضد العرب، و عدم استقرار هذه الاستراتيجية، و هناك أمور أخرى لم يرد ذكرها فى المصادر إلا تلميحا، و هى ترجعنا إلى بنية من العلاقات التى نخمنها: مثلا، أن يكون الفرس قد اعتبروا الغارات العربية الأولى، حتى وقعة القادسية، بمثابة دفعة حمى تسببت بها المجاعة و كأن الأمر يعنى حركة معهودة من الاضطرابات.

و أخيرا، لن ننفك دائما نلح على الدور الجديد الذى قامت به بكر بن وائل. فقد كانوا الأولين الذين بدأوا الإغارة على السواد، و إليهم يرجع فضل المبادرة فى فتح العراق، بمساندة الحكومة القائمة فى المدينة طبعا و بإذن منها.

و يتضح إذن أنه لا يمكن تعليل هذه المبادرة دون الرجوع إلى ذلك الماضى القريب، ماضى النزاعات و الاطماع و التحدى الموجه إلى أعظم امبراطورية فى العالم و الصادر عن قبيلة كانت ذهنيتها ترتبط أعمق ارتباط بشبه الجزيرة، لكنها كانت تعيش لا محالة على رباط وثيق بالعالم الخارجى و كانت مطلعة على نقاط الضعف فيه.

ج) كتب الكثير عن مملكة الحيرة. كانت الحيرة موجودة قبل الساسانيين، فهيؤوها لتكون مملكة تابعة أنيطت بها مراقبة الحدود بالخصوص، و أصبحت مملكة ذات شأن فى القرن الرابع الميلادى، على الأقل بفضل ما حصل عليه النعمان الأول من حظوة عند يزدجرد، و قد أشرف النعمان على بناء قصر الخورنق الذى استقر فيه ابن الملك الساسانى.

تضاف إلى ذلك الأسباب العسكرية و السياسية التى تفسر كيف أعطى الملك الفارسى النعمان كتيبتين للقتال، كانت الأولى متكوّنة من العرب، من ربيعة بالخصوص، و تكوّنت الثانية من

الفرس. و نمت القدرة العسكرية لهذه المملكة فى القرن الخامس و القرن السادس الميلادى، كما اتسع مجال عملها. و لكن لا يعنى ذلك أننا نجارى كيستر Kister فى رأيه القائل إن نسيج العنكبوت الذى حبكه ملوك الحيرة قد امتد إلى بلاد العرب كافة، و كأنهم أصبحوا المحور و المرجع للوجود السياسى كله فى بلاد العرب، إنما دخلت الحاشية الشرقية لشبه الجزيرة بصفة متفاوتة فى جهازهم. فكان بنو بكر صنائع لهم (من المرتزقة أو بالأحرى كانوا أعوانا مأجورين)، و النمر أيضا، و ارتبطت تميم بهم بفضل رباط الردافة، و عقد عهد بينهم و بين سليم و هوازن، و يمكن اعتبار غطفان و أسد قبيلتين حليفتين لهم.

كانت الحيرة إمارة مهمة، بل كانت تصنف ضمن الممالك الأربع التابعة التى كانت تحويها كل الامبراطورية. و كان ملكها يلقب بلقب شهداران. أما دورها الثقافى و الحضارى فيبدو عظيما إذ نصّبت نفسها مركزا للشعر العربى الأصيل و ملتقى لتأثيرات مختلفة كذلك. أما على الصعيد الدينى فقد تعايشت فيها الوثنية العربية و المانوية و المزدكية و النسطورية و المذهب التوحيدى لطبيعة المسيح. و يبدو أن المسيحيين المشار إليهم من طرف المصادر بكلمة العباد كانوا يشكلون الأغلبية، و على رأسهم أسقف من القرن الخامس.

فمثلا نجد أوزى Ose ?e أسقفا فى سنة ۴۱۰ م، على «هرته»، و كان حاضرا بمجمع سلوقيه حيث نظمت كنيسة فارس فى سنة ۵۱۰ م، و صوت نرسس Narses الأسقف النسطورى، لصالح انتخاب جاثليق جديد. و كان الجوجو تسامح، فكان هذا الملك

يبدى تشككه تجاه المسيحية و يذهب الأمر بغيره من الملوك- كالنعمان بن المنذر القديم- إلى حد اعتناق الحياة التنسكية، بانيا أديرة و صوامع. ستقتبس الكوفة كثيرا من هذه الخاصيات الحضارية و الثقافية، و لا سيما العناصر الهندسية المعمارية، و الكتابة، و عناصر الشعور الدينى و بذلك تبقى قضية تأثير الحيرة على ثقافة الكوفة كقضية أساسية.

كانت مملكة الحيرة تقوم بدور فعال، دور الحاجز بين العرب و الفرس، و طرأت عليها تغييرات ابتداء من القرن السابع. فقد أقصى كسرى أبرويز، فى ۶۰۲، الأسرة اللخمية

المالكة و كانت من المناذرة، لأسباب تبقى مجهولة لدينا إلا أن المؤرخين القدامى ربطوا هذا القرار بالدور الذى قام به عدى بن زيد الشاعر. كان عدى ذا حظوة فى بلاط الساسانيين، و يعتقد أنه أنقذ السلالة اللخمية لما أجلس على العرش النعمان الذى كان فى حمايته. و قد أثارت حظوته الخاطفة فى الحيرة الحفائظ و الدسائس. فاغتيل، و قرر الإبن الأخذ بثأر أبيه فأثار كسرى على النعمان الثالث. و أظهر النعمان العصيان و طورد من أجل ذلك إلى قبيلة طيّ التى رفضت مساعدته، ثم دخل فى ذمة هانىء بن قبيصة من ذهل بن شيبان من بكر، فكانت حمايته له ناجعة، مما أدى إلى نشوب المواجهة فى ذى قار، التى صمد فيها العرب حتى النصر. لكن هذا لم يحل دون طرد المناذرة عن الحكم، و ألحقت مملكة الحيرة إلحاقا كان مقنّعا ثم صار مباشرا. و بالفعل ولّى عربى هو أياس بن قبيصة الطائى على ثغر العرب، و من المحتمل أن الأمر تم له بعنوان الولاية لا بصفته ملكا. و خلفه أزاذابه بن ماهان الفارسى طيلة سبعة عشر عاما، منها أربعة عشر عاما و ثمانية أشهر فى حكم كسرى أبرويز. و بذلك نصل إلى سنة ۶۳۰ م/ ۸ ه. و صارت الوضعية عندئذ غامضة. فظهر أحد أحفاد الأسرة المالكة سابقا و هو أحد المناذرة الذى اشتهر باسم الغرور عند العرب، و انتهى أمره مقتولا فى البحرين.

وها أن الحيرة تبرز فى ضوء التاريخ الإسلامى، بمثابة الجزء المركزى من الأيام التى حدثت سنة ۱۲ ه. و أنشئت إلى جانبها الكوفة بعد خمس سنوات، رمزا و موطنا للعروبة الجديدة التى برزت مع الإسلام، و كانت عروبة مغايرة كل المغايرة لتلك التى جسمتها الحيرة طيلة ثلاثة قرون.

الواقع أن انهيار حكم المناذرة لا يكشف عن تناقض سياسة كسرى الثانى فقط، حتى و لو دلّ على مدى الخفة الذى بلغه عسف هذا الملك. إذ إن حالة الحيرة التى صار الولاة يتقاذفونها فى آخر طورها، تعكس تفكك السلطة الساسانية ذاتها. و لا فائدة من التعرض للأسباب العميقة للأزمة التى مرت بها الامبراطورية الفارسية. على أننا نلاحظ ما هو ماثل للعيان و هو ما لاحظه المؤرخون العرب أنفسهم. كان العهد الطويل الذى قضاه فى الحكم كسرى أبرويز (۵۹۰- ۶۲۸)، بمثابة الكارثة من وجوه عدة: اكتناز المال بصورة لا تصدق، و شطط جبائى و تجاوزات من كل قبيل، و حروب مرهقة مع بيزنطة. فضلا عن أن الهوس

التنجيمى لهذا الملك دفعه إلى القضاء عن ذريته ذاتها. فطرأت أزمة على خلافة الملك، لكون الذرية مفقودة. لم يكن البيت الساسانى مهددا بالزوال فقط، بل إن الضربة القاضية لحقت بهيبته، دون أن تتأكد فى الاثناء شرعية سياسية أخرى. فتواتر على العرش خلال بضعة أعوام الملوك و المدعون بأحقيتهم فى الملك، إضافة إلى الدسائس و الانقلابات و الاغتيارات و المقاتل. و لم يبق شيرويه فى الحكم خلفا لكسرى سوى ستة أشهر تقريبا، و خلفه ابنه أردشير و بقى سبع سنوات فى الحكم. ثم ساد الغموض بعد ذلك. و ما يمكن ذكره من أسماء فى هذا الصدد، اسما: بوران و رستم، و آخرها يزدجرد الذى توج باصطخر حينما كان الفتح العربى على أشده.

و لذا أدى الاضطراب السياسى إلى نشوب أزمة خلافة لا مخرج منها. و مما زاد الطين بلة أن الكوارث الطبيعية نزلت على

العراق، ففاض الفرات و دجلة فی سنة ۷ من الهجرة، و استحال سد الثغرات و نشأت البطائح و کانت مساحات واسعة من الماء الراکد تقع بجنوب موقع الکوفة العتیدة إلی حدود الأبله. و بذلک نزعت مساحة کبیرة کانت صالحة للزراعة و خسرها النشاط الزراعی خسارة دائمة و عجز کسری أبرویز عن إیقاف هذه الظاهرة التی استمرت و تفاقمت مع الغزوات العربیة.

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۱۷

۲- من الأیام إلی القادسیة

اشارة

انطلق الفتح العربی فی مثل هذه الظروف غیر الملائمة للفرس إطلاقا. و قد ارتکب الساسانیون خطأ کبیرا. ذلک أنهم لم یتفطنوا إلی تقییم ما کان یجدّ فی بلاد العرب، کما أنهم لم یتغلبوا علی الشعور بالمناعة الذی قضی علیهم فی النهایة.

الأیام

بینما کانت تدور حروب الردة- و قد کانت مدرسة تعلم فیها العرب الحرب تعلما ممتازا - بلغ إلی علم بنی شیبان أن مملکة فارس کانت فی أزمة خلافة، فخططوا للقیام بغارات کبیرة علی السواد. و أراد المثنّی، سیّدهم، ربط هذه العملیة بالإسلام: کان الجزء الذی یتبعه من بکر فی طریق الأسلمة و لا- سیما أنه بقی وفیا للدین خلال حروب الردة. و عمل المثنی من أجل إکساب وضعه صبغة شرعیة، فطلب الإذن من أبی بکر، لکن بعد انطلاق العملیة. و تدخل خالد بن الولید فی هذا الظرف إذ کان قریب العهد بالانتصار علی حنیفة فی معرکة عقرباء. فلا مفر من تفسیر ذلک بأن السلطة فی المدینة أرادت استرجاع المبادرة التی قامت بها قبیلة بکر، و حصرها، و حتی تسییرها. و أذن أبو بکر للمثنی بالتحرک، لکنه عمل علی إعلام خالد بالأمر، و أمره بالانضمام إلی المثنی و قیادة العملیة کلها. فنشأت عن هذا الإتصال «أیام» سنة ۱۲ ه، التی کانت منطلقا لسیطرة العرب علی العراق، ثم علی الممتلکات الساسانیة کلها فی فترة لاحقة.

هل اغتاظ المثنی من قدوم خالد؟ «و کره المثنی ورود خالد علیه و کان ظن أن أبا بکر

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۱۸

سیولّیه الأمر» کما قال الدینوری. لیس یهم إلا- قلیلا الاطلاع علی مشاعر المثنی. لکن، و خلافا لذلک، لا منازع أن مساعدته کانت فعالة و ثمینة و أنه جسّم عنصر الاستمرار و الدوام فی مشروع الفتح الذی تعطل عدة مرات. کان البلاذری و الدینوری محقین فی منحه مکانا مرکزیا فی انطلاق المغامرة العراقیة، فی حین أن الطبری نزع إلی إغفال دوره، فیما نقله لنا من روایات باستثناء تلک التی یعتمد فیها أبا مخنف. و علی کل، فخلافا لما اتصف به کتاب الدینوری من إیجاز و وضوح و تبویب، إذ ربط أحداث الأیام بعرض حول تدهور الأحوال فی الامبراطوریة الساسانیة، و قصرها علی الاستیلاء علی الحیرة و حصونها الثلاثة، و کذلک علی وقعة عین التمر، و خلافا أیضا لما یبدو علیه نص البلاذری من الوجازة، فإن النصوص التی أوردها الطبری تستهدف الشمولیة، فجاءت کثیفة، مفرطة التفاصیل، مترامیة الأطراف. وردت روایات مطولة لأحداث الأیام، و تجاوزت کثیرا ما کان یترقب منها من أهمیة عسکریة حقة. و تجلی هذا الأمر فی کتب الفقه، و المغازی و التاریخ. أما حقیقة الأمر، فإن المناوشات الأولی علی حدود العراق تبدو فی نظر المؤرخ الحدیث المتتبع لسیاق الأحداث، بمثابة الأحداث الصغری بالنظر للمعارک الحاسمة- و منها معرکة القادسیة- التی هزت الأمبراطوریة الفارسیة فی قوتها ثم فی وجودها هزا لا رجعة فیه. فضلا عن أن

نتائجها الإيجابية كخضوع الحيرة و خضوع بعض قرى السواد منها أليس و بانقيا كانت غير ثابتة، لأن عودة الفرس إلى الهجوم جعلتها لاغية، و هكذا انطلق العرب من الصفر فى القادسية، كأنه لم يقع شيء. فلم هذا التضخيم لحدث الأيام فى الروايات؟

يمكن تعليل اهتمام الفقهاء بالتطورات الأولى للفتح بمحاولتهم العثور على قاعدة فقهية عامة مستمدة من صور خاصة، هى قاعدة الصلح المتميزة عن وضعية العنوة. و من الممكن أيضا أن سكان الحيرة أرادوا التملص من النظام المشترك للسواد، مستظهرين بمعاهدة أبرمت مع خالد. و بذلك يمكن للمشاغل النوعية الخاصة بالقرن الثانى (إمكانية التصرف بالبيع فى أرض السواد أم لا، نظام خاص أو غير خاص للمجموعات التى طالبت به باسم الحقوق التاريخية) أن تفسر اهتمام الفقهاء بأحداث تبدو ثانوية من الوجهة التاريخية.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ١٩

هناك تعليل آخر صبغته اجتماعية تاريخية. لقد تحقق الفتح على مراحل متوالية، و كان التمييز بين المحاربين على أساس الأقدمية فى الخدمة («السابقة»). فجسم هذا الأمر إسقاطا على الأحداث التى تلت وجود الرسول، لزمنية نبوية و إسلامية محضة. و عندما جدّت نزاعات اجتماعية دينية فى خلافة عثمان و على و معاوية، و فى الكوفة بالذات، كانت جميعها أو كادت تدور حول اختيار سلم الرتب، و كان التيار الإسلامى ينزع طبعا إلى تمييز السابقة الزمنية فى القتال. و قد آل الأمر إلى أن يكوّن أبطال الأيام مجموعة متماسكة كانت لها مطامح سياسية و اجتماعية فى البداية، ثم تحولت إلى مجرد مطامح تاريخية و أدبية. «كان أهل الأيام من أهل الكوفة يتوعدون معاوية عند بعض الذى يبلغهم، و يقولون: ما شاء معاوية، نحن أصحاب ذات السلاسل، و يسمون ما بينها و بين الفراض ما يذكرون ما كان بعد احتقار لما كان بعد فيما كان قبل».

لعل هذه المجموعة النشيطة فى خلافة عثمان، التى خلت إلى ذكرياتها فى عهد معاوية، هى التى غذت رواية الأساطير حول الأيام سنة ١٢، فتقصت الأحداث الصغرى و الأشعار المنظومة على نموذج مستمد من العصر الجاهلى بصورة غريبة. فنجم عن ذلك مصدر جديد للأثر التاريخى قائم على الأخبار لا على الفقه و قد استوحى صبغة ذات خصوصية- استهدفت المصلحة الأدبية لمجموعة معينة- و صبغة إسلامية فى الآن نفسه قامت على مفهوم إسلامى للعزة، و صبغة عربية جاهلية المظهر أخيرا. فمن جهة هناك شعور بعزة شبه أسطورية ناشئة عن أن أهل الأيام كانوا أول من انطلق فى مغامرة هشة فى بدايتها، لكنها عظيمة فى نتائجها آخر الأمر، إذ إن الأشياء لا تقاس بأهميتها الظاهرة بل بصوفية الانطلاقة، و بالحركة الأولى التى تلهب التاريخ و التى ترجع إلى زمن النبى. و من جهة أخرى يعود لفظ الأيام، من حيث وقعه، إلى الجاهلية الأولى: حوادث صغيرة، لا تكاد تدخل فى التاريخ، و لكنها تطبع الوعى الجماعى بقوّة. و لربما كان المقصود فى نطاق أيامنا العراقية تكييف تكتيك الحرب القبلية إلى تكتيك الحرب الشاملة بين شعب و شعب.

الحقيقة أن هذا التدرب تحقق بعد وقت قصير زمن أبى عبيد و جرير بن عبد اللّه البجلى،

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٠

خلال المرحلة الثانية من الفتح. أما فى مرحلة الأيام، فالأمر بقى مرتبطا بأحداث كانت تدور بين العرب أنفسهم: فى الحيرة مثلا أو فى عين التمر، حيث المهزومون الرئيسيون كانوا من عرب الحدود أكثر مما كانوا من الفرس، و كأنّ ذلك، بشكل من الأشكال، امتداد لحرب القضاء على الردة.

إن تاريخ الطبرى هو أضمن المصادر بهذا الصدد رغم مظهره المتشعب. أما البلاذرى فيخلط بين التواريخ و تشتبه لديه الأحداث و يدخل فيها جانبا لا يستهان به من غريب الرواية و الوعظ. أما كتاب أبى يوسف فهو جيد لكن يعوزه التحديد.

يروى الطبرى عدة روايات منكرا صحتها، و قد ورد فيها أن خالدا مرّ بالأبله و اتجه شمالا حتى الحيرة. الواقع أن الساحة الرئيسة

للعمليات كانت تقع فى موقع الكوفة العتيدة حيث جرى الاستيلاء على الحاميات و فى الإمكان أن يكون العرب قد تقدموا فى مرحلة ثانية إلى السواد حتى دجلة، محتلين إياه فى واقع الأمر، بحيث أن دجلة لا الفرات هى التى قامت مقام الحاجز بين العرب و العجم فى مطلع عام ١٣. و دعى خالد، فى المرحلة الأخيرة، لنجدة الجيوش فى الشام فسار إلى أعلى الفرات و دخل الجزيرة فقمع بشدة القبائل العربية على حدود الشام، ثم عبر الصحراء فتفرع جيش الأيام فرعين: فرع رافق خالدا تحت اسم أهل العراق و عاد فورا لا محالة بعد وقعة القادسية، و بقى قسم آخر مع المثنى فى الحيرة، و هم فى اعتقادنا أنصار المثنى بالذات، و سيكون نصيبهم المشاركة فى كل مراحل المغامرة العراقية.

إن الحصون التى استولى عليها خالد و المثنى هى أليس و الحيرة و بسما و بانقيا و أمغيشيا. توجد أليس على الفرات و كانت فى حماية قائد عسكرى فارسى يسمى جابان و قد لعب دورا ما فى حروب الفتح حتى وقعة القادسية. كان جابان يعتمد على أعوان عرب

إما من عرب الضاحية (الحيرة)، و إما جندوا من القبائل المتحالفة: و هى قبائل عجل و أياد و ضبيعة. و انتهت القضية بتقتيل حقيقى لهؤلاء العرب و الاستيلاء على أمغيشيا، و كانت أليس قلعة لها. كما وقع الاستيلاء على الحيرة بالعنف نفسه. فقد ضرب الحصار على حصون القصر الأبيض و قصر العدسيين، و قصر بنى مازن، و قصر ابن بقيلة حيث كان يوجد عمرو بن عبد المسيح الحامى الرئيسى للحيرة. و نشبت المعركة و دخل الجيش البيوت و الأديرة، و بدأ التقتيل، فطلب سكان القصور الصلح، لما كانت عليه المدينة و الأديرة من عجز عن الدفاع، و قبلوا بدفع جزية تبلغ ١٩٠ ألف درهم، و وعدوا، فوق ذلك بإرشاد الجيوش الإسلامية. و تجدد المشهد نفسه تقريبا فى كل مكان: الشروع فى التقتيل فى المدينة الملاصقة للحصن، و استسلام المدافعين عن الحصن بعد التفاوض على إبرام اتفاق. و كان يتم أحيانا إبرام معاهدة صلح بعد حصول اقتحام واضح لا جدال فيه:

حدث ذلك فى بانقيا و عين التمر. و يروى الطبرى الأمور و كأنه يريد إطلاعنا على القواعد الفقهية التى اعتمدها الفتح فى البداية و قد يتعلق الأمر أيضا بإسقاط على الماضى.

و يظهر خالد فى هذه الروايات بمظهر أول شخص ينظم الفتح و يكتشف و يمارس قواعد تنظيمه الأساسية: مبدأ الصلح، و العهد، و بقاء الفلاحين فى أراضيهم، و التمييز بين العمل و الثغر.

و هكذا أنهى فتح نصف السواد (حتى دجلة) بعد إنجاز ضربة خاطفة، ساعد عليها غياب الفرس من الساحة غيابا كاد يكون تاما؛ و يمكن القول إن خالدا تعهد الفتح و كأنه وقع احتلال نهائى. روى أنه بقى سنة فى الحيرة يقوم بدور الوالى الحقيقى على المنطقة الموجودة بين الفرات و دجلة. و إن هو انطلق شمالا و قاد حملة قصيرة، فذلك لكى ينجد أحد ضباطه المسمى عياض بن غنم الذى كان فى وضع صعب. وجدّ فى الأثناء يوم

الأنبار و يوم عين التمر، و يوم دومة الجندل. كانت عبارة عن هجمات عنيفة طلبا للغنيمة و التخويف، و قد ذهب ضحيتها عرب الضاحية. فقتّلت النّمر و تغلب و أياد فى عين التمر داخل الحصن، و اشتهر هذا الحصن لوجاهة الأسرى الفتيان الذين أسروا فيه (و لا سيما سيرين و يسار و نصير). و قد واجه خالد فى دومة الجندل قبائل كانت تقيم بين الشام و الجزيرة هى بهراء و كلب و غسان و تنوخ. ندرك فى هذا الصدد الوجه الجاهلى العروبى الموجود فى الأيام، إدراكا جيدا، فضلا عن كونها تظهر أيضا بمظهر حروب الردة، الذى لا- يرحم غير المسلمين. فوقع تقتيل الأسرى العرب، إلا- من كانوا من كلب لأنهم كانوا فى حماية حلف مبرم مع تميم. و على هذا النحو حصلت القطيعة مع عرب الضاحية فى الجزيرة كما فى العراق، و انضمت العناصر

الخارجية من ربيعة إلى الفرس.

عاد خالد بعد هذه الجولة العسكرية إلى الحيرة و هناك دعى إلى اللحاق بالشام، فانتهت الأيام العراقية بعد نشوب بعض المعارك، بيوم الفراض. و قد حددها أصحابها أنفسهم، نعنى أهل الأيام، على هذا النحو من الوجهة الزمنية. و برزت هذه التشكيلة كإحدى التشكيلات الاجتماعية المقبلة التى ستكون لها أهمية كبرى فى الكوفة. الواقع أنه بقبولنا رواية هذه الأحداث على هذا النحو، ندرك ما كان من تمجيد هؤلاء الرجال للأيام، و ندرك مبررات هذا التمجيد بصورة من الصور، ذلك أن هذه الأيام تمثل الملحمة الكاملة- و لو بصورة مجملة و وتيرة لاهثة- لفتح العراق.

مرحلة وسيطة: الجسر و البويب (١٣- ١٤ ه/ ٦٣٤- ٦٣٥)

اشارة

إذا ارتأت حكومة المدينة لزوم توجيه خالد لنجدة جيوش الشام و لم تقم بالعملية المعاكسة على الرغم من الإنتصارات الساحقة التى سجلتها الأيام، فإن هذا يرجع إلى كون الجبهة الحقيقة الجدية و الوحيدة التى تخضع لاستراتيجية موضوعة مسبقا هى جبهة الشام.

الواقع أن العمليات التى وجهت ضد البيزنطيين بكامل الجدية، أعطت نتائج إيجابية فورية بفضل انتصار أجنادين (جمادى الأول من سنة ١٣/ ٦٣٤) الذى تمّ و أبو بكر على قيد الحياة.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٣

و تولى عمر الخلافة فتابع مخططات أبى بكر، دون أن يدخل عليها من البدء تغييرات تذكر. و لا يبدو قابلا للتصديق أن ننسب إليه، كما فعل سيف، مشروعا واضحا محددا و واسع النطاق، يكون شرع فيه منذ سنة ١٣، و يتمثل فى تصور الفتح صراحة بمثابة غزو للهجرة، و فى إرادة إشراك كل العرب من شبه الجزيرة- و منهم المرتدون- فى التحرك العراقى. كما أنه لا يمكننا على العكس مجاراة كايتانى حين يؤكد أن عمر لم يهتم جديا بالعراق إلا بعد وقعة اليرموك. معنى ذلك أنه لا يمكن أن نحصر كامل العمل الذى سيحققه عمر خلال الثلاث سنوات القادمة- و كان عملا تدريجيا حذرا و جسورا فى آن- فى نية وضعت مسبقا، إذ تصير بداهة تنظيرا إسقاطيا لما سيتم تحقيقه بعد ذلك. فماذا فعل عمر و ماذا كان يقدر أن يفعل؟ أن يتابع ما سنه أبو بكر، و يداوم الضغط على الحدود الساسانية، ترقبا لظروف أخرى تكون أكثر ملاءمة، بمعنى أن يسهر على إعداد آلة الحرب. لقد استعان فى المدة الأولى بنخبة محاربة صغيرة من الأنصار و أقنع فى فترة ثانية قبيلة بجيلة بالاستقرار فى العراق، و قام بخطوة حذرة فى اتجاه الانفتاح على المرتدين. كانت سنة ١٣- ١٤ ه عبارة عن مرحلة وسيطة لكنها تجاوزت مرحلة الأيام، بقوة المجابهات التى جدّت. ذلك أن السلطة الفارسية استعادت تماسكها و أخذت فى ردّ الفعل فى حين أنها اكتفت إلى ذلك الوقت بالاعتماد على الحاميات العربية- الفارسية الساهرة على خط الدفاع.

لكن شعور الفرس الجديد بالخطر العربى لم يكن قويا بما يكفى، حتى يعدلوا عن منازعاتهم الداخلية فكانت ردودهم ظرفية، قوية أحيانا لكنها غير مسترسلة و غير مثمرة.

١) أبو عبيد و معركة الجسر (شعبان أو رمضان ١٣/ أكتوبر أو نوفمبر ٦٣٤).

كلف عمر أبا عبيد بن مسعود الثقفى برئاسة سرية من ألف رجل لمدّ يد المساعدة

للمثنى، و قيادة العملية العسكرية فى العراق، فربطها هكذا بالحكم المركزى. ضمن هؤلاء المقاتلين الألف نجد صفوة من المسلمين من الأنصار، مع أنه يمكن الخلوص إلى تأكيد وجود عدد مهم من أبناء ثقيف أيضا، إعتمادا على إشارات كثيرة وردت فى رواية سيف.

لقد واجه العرب المسلمون مع أبى عبيد جيشا فارسيا نظاميا، لأول مرة، كان بقيادة بهمن جاذويه و انضم إليه جالينوس، و كانا قائدين مهمين. و بدأت المعركة، بعد حصول بعض عمليات نهب، بقرقس الواقعة على ضفة الفرات اليسرى، لكنها احتفظت باسم معركة الجسر، اعتمادا على إسم المشهد الرئيسى الذى أثر فيها و حيث أشرف العرب على الكارثة. لقد أرهبتهم الفيلة، فأخفقوا فى تفجير قلب الجيش الفارسى رغم الحملات العنيفة التى شنوها عليه. و ما لبثوا أن أجبروا على التقهقر إلى شاطىء الفرات دون أن يقدروا على عبوره من جديد- ذلك أن الجسر المتكون من مراكب انقطع بمبادرة عابثة قام بها أحد العرب- فقتلوا و أغرقوا. روى سيف أن عدد القتلى ارتفع إلى ۴۰۰۰ و فرّ ألفان، و لم ينج سوى ۳۰۰۰ رجل من بكر من رجال المثنى. لقد أنقذ المثنى الجيش، برباطة جأشه، من هلاك لا هوادة فيه. أما أهل المدينة فلجأوا إلى الصحراء استحياء من الفرار، و قتل أبو عبيد بعد أن برهن على شجاعته أكثر مما برهن على خبرته. إن الصدمة التى أثرت فى الأنصار رفقاء أبى عبيد تبرهن بقوة على ماهية الإيديولوجيا الإسلامية التى استلهمت الفتوحات روحها منها إلى مدى بعيد، فبدا الفرار فى نظر أهل المدينة و كأنه ضعف لا- يغتفر، لا بمعنى الشرف العربى المعهود بل كخطيئة اقترفت تجاه اللّه. و لم يكن ينوى عمر توجيه الاتهام إليهم بل إنه قام بعملية نفسية من شأنها رفع الشعور بالإثم عنهم. و يرجع الفضل له

و للمثنى فى التغلب على صدمة الهزيمة ناسبا إياها إلى الخطأ لا إلى ضعف عسكرى هيكلى.

و لو لا إصرار عمر، و لو لا ما بذله المثنى من جهد تنظيمى حيث نراه دائما مستعدا لتصحيح أخطاء الآخرين، خاضعا لتدخلات السلطة بالمدينة و عزمها على إبعاده عن القيادة، لبدا فتح العراق بعد انهيار الجسر أمرا بعيد المنال بالنسبة للعرب. و من يدرى، لعل فتح الشام أيضا ستهدده بعد ذلك و على المدى المتوسط الدولة الفارسية لو أتيح لها الوقت لاسترداد قواها.

۲) البويب

بقى المثنى وحيدا من جديد. و تعذر استغلال التقدم الذى اكتسبه الفرس فى معركة الجسر، لما كانوا عليه من خلافات داخلية. لكن المثنى احتاط و تراجع إلى الطفّ، فبلغ إمّا أليس الصغرى، أو أقام بين خفان و القادسية تاركا الحيرة. عند ذلك قرر عمر توسيع التجنيد، و تجاوز الدائرة المدنية- القرشية- الثقفية من العرب المستقرين الأوفياء للسلطة الحاكمة، و قرر تعبئة القبائل و العشائر داخل جزيرة العرب. كان هذا الانفتاح تدريجيا لا محالة، يجرى حسب نظام التطوع كالعادة و بمساعدة شيوخ العشائر، و لم يتقرر، بعد آنذاك استنفار العناصر التى أمعنت فى الردة. كان عمر يقصد محو هزيمة الجسر و حمل العرب أيضا على قبول فكرة الهجرة إلى العراق، فوجهت الدعوة إلى قبيلة بجيلة. و كانت بجيلة من أصل يمنى، و أقامت قبل ذلك بالسراة ثم دحرت و شتت، و تفرقت (تحت ضغط الأزد؟).

و كان جرير بن عبد اللّه البجلى و هو من صحابة النبى و من المقربين لعمر، يسعى إلى جمع أفراد هذه القبيلة المتفرقين، و يحاول أن يعيد تشكيل قبيلته فردا فردا. فالتقى مشروع

جریر بمشروع عمر: کان الأول فی حاجة إلی فکرة و هدف جدید و طموح، و کان الثانی محتاجا إلی مهاجرین و محاربین مسلمین أوفیاء لیدفع بهم إلی العراق. علی أن جریرا لم یرض بمقترح عمر إلا مترددا، لأن قومه کما العرب کافة، باستثناء بکر دون شک، کانوا یفضلون الشام علی العراق. و تم الاتفاق، بعد بذل الوعد لبجیلة أن تمنح هبات خاصة عند الانتصار و تقرر أن تأخذ ربع الخمس من الغنیمة کما جاء فی أغلب المصادر، أو «الثلث بعد (أخذ؟) الخمس»، کما أشار إلی ذلک البلاذری إشارة غامضة أو ربع البلدان المفتوحة کما کان محتملا کثیرا. و یبقی الشک یسیطر علی هذه المساومة، نظرا لأن المرحلة التی بلغها الفتح فی العراق لم تکن تؤهل للوعد بأی شیء. و مما له دلالة أن جریرا تخلی عن کل مطلب علی السواد، بعد الانتصار، لأسباب معنویة صرف. هذا و قد تحولت قبیلة بأکملها کانت تعد ۲۰۰۰ رجل، إلی العراق بهدف الهجرة نهائیا، مفتتحة بذلک الحرکة الکبری للهجرة اللاحقة.

و إلی جانب بجیلة، أشیر إلی تدفق الحشود من الأزد، و کنانة، و ضبة، و خثعم و الرباب، و بنی سعد، و بنی عمرو، و عبد القیس، کما حضرت قبیلة النمر من ربیعة و قد کانت إلی جانب الفرس إلی ذلک الوقت، تدور بدرجة متفاوتة فی فلک الساسانیین، و بعد أن سلط علیها خالد قمعا شدیدا. لعل عناصر عبد القیس و النمر، و حتی تغلب و قد شهدت البویب أدمجت من طرف المثنی فیما یمکن تسمیته بجیشه الخاص أو القبلی، طالما کان

استقلاله کبیرا بالنسبة للسلطة فی المدینة. أما الآخرون فإن السلطة هی التی استحثتهم علی التنقل و الواقع أن منهم عشائر وقادة تورطوا فی حروب الردة، منهم عامر بن ربعی، و عدی بن حاتم. و بما أن سیف بن عمر انفرد بذکرهم، یمکن القول انه سبق الأحداث، و یمکن التفکیر کذلک أن عمر بتوجیهه هذه الفرق الصغیرة، أراد اختبار صلاح أهل الردة.

إن روایات سیف جیدة بصورة عامة، فیما یخص القبائل و ترکیب الجیش العربی، و ترتیب وصول الجیش و عدد المقاتلین، فی حین أنها تخطیء فی خصوص ضبط التواریخ. فما قولنا فی کل ذلک سوی أن عمر قرر علی الأرجح منذ مطلع سنة ۱۴ ه، و ربما حتی منذ أواخر سنة ۱۳، الشروع فی مسیرة القبائل الطویلة، بهدف فتح العراق فتحا حقیقیا، دون أن یترقب نتائج العملیة الدائرة فی الشام؟ و من هذه الوجهة تمثل هجرة بجیلة، و رحیل ضبة و خثعم و غیرهما، التی تمت عن طواعیة، توطئة لما سیجدّ علی صعید أوسع بمشارکة سعد، کما تمثل البویب معرکة تدریبیة تعد العدة لمعرکة القادسیة. کان ینبغی الانتصار لا محالة فی البویب، بلوغا لهذا المطلب.

سمی هذا الصدام بیوم مهران أیضا علی اسم القائد الفارسی المهزوم و المقتول، عند موقع الکوفة العتیدة، فیما بین خطة السکون و الفرات أو دار الرزق- و بنی سلیم، حیث کان البویب بمثابة المصب العتیق للفرات. و دارت المعرکة وراء الفرات، علی مدی المجال الذی ستحتله مدینة الکوفة. المؤکد أن الرهان کان مهما. قد یتسبب انتصار للفرس بالبویب فی دحر العرب، کما أن انتصارا للعرب قد یجبر الفرس فعلا علی خوض المجابهة النهائیة لإنقاذ العراق و الامبراطوریة کافة أو التخلی عنهما. لا شک أن الفرس شعروا عند انهزامهم بالبویب، بواقع الخطر العربی عند فوات الأوان، أما العرب، فقد استمدوا من نصرهم جسارة لا تقهر. بقی أن نتحدث الآن عن مشکل تأریخ الأحداث.

رفض کایتانی بحق التأریخ الذی اقترحه سیف و الذی جعل وقعة البویب تقوم بعد شهر من معرکة الجسر، یعنی فی رمضان ۱۳ ه/ نوفمبر ۶۳۴، و حجته علی ذلک جیدة.

لقد قدم سیف تأریخ وقعة البویب لأنه قدّم تأریخ القادسیة. و بما أنه أساء تأریخ الیرموک و فتح دمشق، فقد أجبر علی تنقیح

كل التواريخ. و من جهته أخذ كايتانى مؤشرين بعين الاعتبار صعودا و نزولا استمدهما من مدرسة المدينة- مدّة سنة بين معركة الجسر و معركة البويب، و ثمانية عشر شهرا بين وقعة البويب و القادسية- فكان عليه أن يؤخر التواريخ كلها. و حيث اننا نلتزم بتأريخ معركة القادسية فى رجب أو شعبان ١٥ ه/ ۶۳۶ م فإن تاريخ رمضان من سنة ١۴ ه يبدو لنا تأريخا متأخرا جدا بالنسبة لوقعة البويب، و قد فضلنا عليه تاريخ ذى الحجة من سنة ١٣ ه أو محرم من سنة ١۴، و بذلك نكون قد احتفظنا بمدة الثمانية عشر شهرا التى تفصل بين المعركتين.

على أن المهلة كانت نسبية تماما، لأن العرب شرعوا فى اكتساح السواد و استغلوا حيرة أعدائهم و اضطراب أمورهم، فشنوا الغارة فيما بين الحيرة و كسكر و سورا و الصراة و فيما بين الفلّوجتين، و النهرين، و عين التمر. ثم أنهم نهبوا تكريت و سوق بغداد، فانتزعوا أموال التجار الآراميين من الأعالى، كما نهبوا حماتهم العرب- الخفراء- من قضاعة و ربيعة.

لكن فى الاثناء و بفاعل الضغط العربى أخذت السلطة الفارسية تعمل من أجل إعادة تنظيم صفوفها و قد تعالت الشكايات الصادرة عن دهاقين السواد المنهوك. و هكذا توّج يزدجرد

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٩

ملكا، و قد كان حفيدا لكسرى أبرويز و أنهيت و صاية بوران، و سلمت قيادة الجيش الموحدة إلى رستم. و وازن هذا التأهّب الفارسى من أجل المواجهة الحاسمة، المسيرة الطويلة التى قادها سعد بن أبى وقّاص، من المدينة إلى القادسية، و تنظيم جيش عربى جديد تحت قيادته.

المسيرة العربية إلى العراق و التوطئة لوقعة القادسية (محرم ١۴- رجب ١۵)

إن فكرة كايتانى الرئيسية هى أن عمرا لم يكن يقدر حقا على أن يأخذ على عاتقه القضية العراقية إلا بعد أن يكون قد حسم الأمر مع البيزنطيين فى اليرموك (رجب ١۵/ أغسطس ۶۳۶). لكن هذا تأريخ مردود إذ يفسح وقتا قصيرا جدا لسعد لكى يجمع جيشا يعد ثلاثين ألف رجل. فلا موجب لإبداء الشك فى الأرقام التى ذكرها سيف، و لا للتقليل من أهمية المعركة ذاتها. يذكر كايتانى أن عمرا لم يكن ليقدر على «تقسيم قواته»، لكن لم تكن هناك فوات لكى تقسم، ذلك أننا لا نجد المادة البشرية نفسها هنا و هناك، فى الشام و العراق. إن تزامن العمل هو إحدى خاصيات الفتح العربى (مع استثناء تنقل صغير من الشام إلى العراق و العكس) و قد سبق ليوسف فى بحث نشر منذ ثلاثين سنة، أن لا حظ أن بطء مسيرة سعد كان يفترض مسبقا مدة طويلة فأرخ قرار عمر بداية سنة ١٣ ه.

الواقع أن عمر لم يحتج إلى أن يترقب معركة اليرموك للعودة إلى الهجوم على العراق، ذلك أن عزمه على مواجهة الفرس كان واضحا من قبل، حيث حثّ بجيلة و عربا آخرين من قلب الجزيرة على الهجرة. و لم يكن ليلقى بسعد فى المغامرة النهائية بكل تأكيد قبل ظهور نتيجة إيجابية فى واقعة البويب، أى قبل محرم من سنة ١۴ ه أو ذى الحجة ١٣ ه/ فبراير- مارس ۶٣۵ م.

و مما يدل على ذلك أن عمر اختار صحابيا قرشيا كبيرا مكلفا بجمع الجباية الشرعية من هوازن و هو سعد بن أبى وقاص لقيادة المجابهة الكبرى مع العلم بأن هوازن كانت مع أهل الردة. الواقع أن مسيرة سعد بين المدينة و القادسية، مرورا بصرار وزرود،

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣٠

و شراف، و العذيب و هى آخر مرحلة فى الطفّ قبل دخول السواد، تبدو قبل كل شىء مسيرة لحشد قبائل معروفة مهمّة أصيلة فى عروبتها، كانت من الرّحل المشاركين فى الردة. و هكذا تجاوزت السلطة الحاكمة فى المدينة و كادت تتجاوز سياسة الاعتماد على جموع مستقلة (بكر)، أو هامشية (بجيلة و كذا شظايا الأزد و اليمن). كما لم يعد يمكنها توجيه فرق صغيرة مدنية

صرف أو شغل القوات المقاتلة فى الشام لكنها تولت قيادة الفتح و الهجرة فاتحة الباب لجموع الردة الكبيرة القوية، و وسعت دائرة الأطر البشرية و السياسية و العسكرية لصالح الاسلام الغازى. لقد عمل عمر بهذا على تطابق الدين الإسلامى و شبه جزيرة العرب، فطرد من بلاد العرب كل من لم يكن إسلاميا. و بذلك تغلب على الصّدع الذى دب فى الهيكل العربى مع ظهور الإسلام، و شحن الإسلام بمحتوى قومى- ثقافى لكنه فى الآن نفسه طبعه بطابع البداوة و التسيّس مشكلا بذلك الهيكل المقبل للحضارة التى ستتحدد معالمها فى الكوفة و البصرة.

خرج سعد من المدينة برفقة ۴۰۰۰ رجل- منهم ۳۰۰۰ يمنى و من السراة، و ۱۰۰۰ قيسى أكثرهم من بنى هلال -و حين حط سعد الرحال أول مرة، لحق به ۴۰۰۰ مقاتل منهم ۲۰۰۰ من غطفان. و لما كان فى زرود و هى من مراعى تميم و أسد اختار بنفسه ۷۰۰۰ رجل من هذه التجمعات القبلية. و تجمع ۳۰۰۰۰ رجل فى الجملة فى شراف و التحموا بجيش فى تضخم مستمرّ منهم فيما بين ۷۴۰۰ إلى ۹۴۰۰ من اليمنيين، و يرتبط تغيّر هذا العدد بحسب ما يلتصق بنسبة اليمنى من تضييق أو توسيع. و عدت ربيعة ۸۰۰۰ رجل منهم ۶۰۰۰ من بكر و ۲۰۰۰ من قبائل أخرى (النمر، أياد، تغلب). و حضر بشراف ۱۱۰۰۰ رجل من مضر منهم ۴۰۰۰ من قيس، و ۴۰۰۰ من تميم و حلفائها، و ۳۰۰۰ من أسد فمالت النسبة لصالح مضر. لكن الأمر الأكثر دلالة أن نسبة العناصر التى

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۱

حاربت من البداية لفتح العراق (من بكر و عجل و بجيلة) تقهقرت لصالح اللاحقين، و ضعفت نسبة المخلصين القدامى للإسلام لصالح المرتدين السابقين، و أخيرا تناقصت أعداد العناصر المحتكّة بحضارة المدن المرتبطين من قديم بالخارج لصالح المجموعات البدوية الضاعنة الكبرى التى برزت من أعماق بلاد العرب. هذا ما يمكن استنتاجه على الأقل من شعور يوحى به الوصف المفضل الذى قدمه سيف بن عمر و الذى عملنا على استكماله (راجع الجدول على ص ۳۲- ۳۳).

لقد شكك كايتانى فى هذا الوصف، معتمدا روايات أهل المدينة فقط، التى كانت قليلة الإسناد و المعلومات، فألغى حضور المرتدين متهما سيفا بالمودة المتحيزة للبدو أجداد سكان مدينة الكوفة. صحيح أن سيفا يقدّم وقعة القادسية كأنها انتصار للموجات المتأخرة من البدو، فلم يعد يتحدث عن بكر، و هو على العكس يمجد القادة المرتدين الكبار- و هذا يبرر نقد كايتانى- لكن بخصوص سير المعركة لا غير. ذلك أن مصداقية سيف أكيدة فى كل ما يتعلق بتجمع الجيش، و تركيبه، و هيكلته، و كلّ ما يذكر من توافد الرجال من أسد و تميم، و الرباب، و غطفان. و كيف نقبل أنه لم يكن يوجد فى القادسية سوى ۶۰۰۰ أو ۷۰۰۰ رجل فى حين أن جيش المثنى وحده كان يعد العدد نفسه.

كيف يتاح لنا فهم الكوفة العتيدة دون وجود جيش سعد فى شراف كما وصفه سيف؟

لا مناص من التأكيد على أن كايتانى لم يفهم لا معنى و لا أهمية استخدام أهل الردّة فى عملية الفتح، و قد لفت شعبان Shaban فقط النظر إلى هذه الظاهرة منذ مدة قريبة. و لنا مزيد من التدقيق فيما ذكره سيف بهذا الصدد، إذ يقول: «استنفرهم عمر و لم يولّ منهم أحدا».

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۲

جدول القبائل العربية التى شهدت القادسية

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۴

الواقع أن الاحترازات بقيت عنيدة على مستوى المؤسسات، و لن تبدأ فى التبدد إلا بعد وقعة القادسية فعلا، كأن القادسية كانت فرصة للتكفير عما سلف أو بوتقة للتوحيد.

لقد صاحب القادة الكبار المرتدون، منهم الأشعث بن قيس و طليحة بن خويلد و عمرو بن معديكرب، قبائلهم إلى الحرب، لكنهم لم يتحصلوا على أية صفة عسكرية قيادية فى شراف. إن قادة الأعشار التى كانت عبارة عن وحدات كبيرة- و التى ستتحول بعد ذلك إلى أسباع- و كذلك الذين كانوا على رأس وحدات الجيش الكبرى المتأهبة للقتال- و هم أمراء التعبئة- سواء على الميمنة، أو الميسرة، أو القلب، أو المشاة، أو الفرسان، قد اختيروا لولائهم للإسلام. و هكذا، وقع تفضيل شرحبيل بن السمط الكندى ضمن قبيلة كندة، على الأشعث الذى كان أكثر شرفا، لكنه كان مرتدا شهيرا كما يذكره سيف الذى يشير إلى أن الأمور ستتغير بعد ذلك قائلا: «و كان قد غلب الأشعث على الشرف فيما بين المدينة إلى أن اختطت الكوفة».

و يلاحظ الاتجاه الإسلامى ذاته فى مستوى القيادات الصغرى، نعنى العرافات المتركبة من عشرة رجال، على نمط عرافات الرسول و التى ستبقى بالكوفة و البصرة، و بعد أن أعيد فيها النظر من وجهة الوظيفة و العدد. روى أنه «كان فى الأعشار»، سبعون رجلا بدريا، و ثلاثمائة و عشرة من الصحابة ممن ترجع صحبته إلى بيعة الرضوان، و ولى ثلاثمائة صحابى آخر شاركوا فى فتح مكة و سبعمائة من أبناء الصحابة من كل القبائل، لكن مفهوم الصحابى مرن، و هو يشمل كل أولئك الذين كان لهم اتصال سابق بالرسول. و إذا صحت هذه الأرقام، فلعلها تعنى أنه لم يغادر المدينة عناصر كثيرة حيث لم تصلنا أسماء معروفة منهم لا فى مرحلة التنظيم و لا فى مرحلة المعركة لكنها تبرهن على أنه وقع تفضيل الأوفياء على غيرهم و أن التيار الإسلامى فضّل على التيار التقليدى ضمن عالم القبائل بالذات».

و خلافا لذلك، كان أبناء كبار الصحابة حاضرين بالشام، و قاتلوا بأجنادين كما فى اليرموك، حيث دفعوا ضريبة الدم التى كانت مرتفعة. و عندما يرد ذكر بعض الأسماء منهم فى القادسية فإن عدد الأنصار يربو على عدد القرشيين. و من باب التناقض أن يلح

سيف فى روايته المستندة فى هذا المقام إلى مجالد بن سعيد و الشعبى، فى آن واحد على متانة القيادة الإسلامية و الطابع العربى القومى للمواجهة النفسانية، و على الدور الفعلى المتفوق الذى لعبه القادة التقليديون المرتدون الذين صاروا يجسمون القيم الحربية العربية. و قد قلنا إن روايته للاستعدادات لمعركة القادسية لم تتجاهلهم، بل يبدو أنها وضعتهم فى المقدمة.

لقد انتزعت من رؤساء القبائل القيادات الكبيرة كافة، لكنهم لعبوا دورا حاسما فى التعبئة النفسانية، و أجروا المحادثات مع العدو و تولوا فعلا- قيادة أفراد قبيلتهم فى الهيجاء. فهل كان ذلك تشويها متحيزا عن وعى أو بدون وعى كما أكد كايتانى، أم كان تحويلا- طرأ على واقع الأمور، أى تجسيما لعودة القوى الحقيقية و محاولتها زعزعة الهيكل المؤسساتى؟ لا- شك فى تضافر الأمرين. إن روايات سيف دقيقة و ملحمية فى آن، و هى مطبوعة بالشمولية و الانتقائية على السواء، فالدقة تحملها على عدم تجاهل إرادة عمر الجازمة على إقرار تأطير إسلامى على أوسع درجة و انتقائيتها تحملها على تناسى الرجال الذين كانوا دعامة لتلك القيادة. كما أن رواية سيف اتصفت بالملحمية لأن هذا المؤلف أعطى المرتبة الأولى لأعمال الذين أسسوا استمرارية تاريخية فى العراق و لا سيما فى الكوفة. لكن الصحيح من جهة أخرى أن جيش العراق باستثناء فترة خالد و أبى عبيد كان مركبا فى الواقع و على الدوام من عناصر بدوية من خارج الحواضر الإسلامية، و هى لعمرى ظاهرة اتسعت مع سعد، فلا عجب بعد ذلك أن يتناسى و يتجاوز قادة القبائل سلطة المدينة؛ و من يدرى، لعل عمرا اجتهد بغية محاربة الفرس، من أجل النهوض بالقوى العربية الصرف، شريطة أن تخضخ هذه القوى للمثل الإسلامية المطروحة كهدف أسمى؟

و قد روى سيف أن عمرا أراد مواجهة الفرس بأفضل العرب، بمعنى أبطالهم و خطبائهم و شعرائهم. و لعله سمح لبعض قيم الجاهلية بالعودة إلى النشاط و لا سيما القيم التى لم تكن تعارض الإسلام إلا قليلا. كان ذلك نتيجة منطقية للانفتاح على الردة و

الاختيار الأساسى المتمثل فى تفضيل الفتح الواسع على الفتح المحدود، و توسيع الإسلام بدل تعميقه. و قد لاحظ سيف وجود رجال من أهل الشجاعة- على رأسهم عمرو بن معديكرب و طليحة، و قيس بن هبيرة- و رجال من أهل الرأى- كالمغيرة بن شعبة و حذيفة، و عاصم- و شعراء- كالشماخ، و الحطيئة، و أوس بن المغراء، و عبدة بن الطبيب.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۶

أما عن الوفد الموجه إلى رستم، فقد انتقى سعد قادة تقليديين من الرؤساء، و لكنهم رجال الإسلام أيضا، منهم ربعى بن عامر و المغيرة بن شعبة، و النعمان بن مقرّن. و ما له دلالة كبيرة رواية الحوار الذى دار مع رستم، و هو حوار كان بمثابة المواجهة الإيديولوجية التى سبقت الصدام المسلح. من البديهى أن هذه الرواية أعدت بالكوفة، لكن متى؟ هل تمت قبل انبثاق الشعوبية أم بعده؟ هل كانت تعبر عن وعى بالارتباط بعملية الفتح فقط، لكونها أساسا للسيطرة العربية التى كانت قائمة فى مجتمع الكوفة، فيما بين سنة ۱۰۰ و ۱۳۰ من الهجرة؟ أم كانت تردّ ردّا غير مباشر على تشكيكات الشعوبية، فقدمت صورة مرضية للعرب، صورة شعب فتى متحمس يحتقر السهولة على طرفى نقيض مع صورة الفرس كشعب أبطره النعيم؟ إن رواية الصورة الذاتية المعروضة تؤيد الفرضية الأولى، فضلا عن أن الرواية المذكورة تشمل ذكريات كثيرة مستمدة من العصر الجاهلى. هناك جانب كبير من البناء الإيديولوجى تضمنه وصف ربعى الخشن و الفظ تقريبا؛ لكن مجموعة أسلحة المقاتل العربى جديرة بالاهتمام: إنه السيف المغمد فى الخرق، و الرمح، و الترس من جلد البقر، و الدرع، و هو سلاح لم يكن جيدا إلا قليلا. و كذلك الأمر بالنسبة للصورة الأخلاقية التى قدمها العرب عن أنفسهم إلى رستم، إذ من المناسب أن نميز بين الإسقاطات الاسترجاعية? projections re trospectives، و مبررات الفتح، و متبقيات الماضى الحى. ذلك أن الدوافع الاقتصادية طرحت فى الميزان دون تحفظ، و لعل الأمر كان جرى تعتيمه لو وضع الخبر فى وقت متأخر: الجوع و البحث عن الأراضى الجيدة، و اشتهاء القمح و اللحم، و الرغبة فى النساء و الأطفال، فوقع التعبير عن كل هذه العناصر بصراحة لا تدانى. اعتداء من شعب على شعب، نية الاستقرار، العزم على الخروج من الجاهلية. كلّ هذا الذى نستشفه لدى الطبرى فى ذكره رؤية فتح العراق من الجانب العربى يبدو مقبولا إذا أرجعناه إلى الفترة المبكرة حتى و لو دونت الروايات فى القرن الثانى من الهجرة، و هو وصف للعرب يظهرهم بأنهم كانوا على شعور من صلاتهم بالتاريخ. و ما يبدو أيضا قابلا- للاحتمال أن الدّعوة إلى اعتناق الإسلام قبل المعركة كانت فعلية، لكن الأشخاص الذى وفدوا على

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۷

رستم لم يقدموا الاسلام لحمل الغير على اعتناقه و إنما للتعريف بذاتيتهم الجديدة و من أجل إفهام و شرح معجزة تلاحمهم. لقد أخلى المظهر الكونى المجال لصالح البعد القومى، فكان إسلامهم إسلام البعث الاخلاقى للأمة أكثر مما كان وحيا بالمطلق. و واضح أن تأويل الإسلام فى المنحى السياسى التاريخى لم يكن من سمات الخطاب المتأخر لعصر التصنيف المذهبى. فاما أنّه يعبّر عن مجتمع مهيمن قريب من تاريخه، مستفهما مغامرته (كوفة سنة ۱۰۰ ه) و اما أنه يستعيد خاصيات عتيقة. و الأمر الأكثر احتمالا أنه تمّ المزج بين هاتين اللحظتين فى المجتمع العربى، لحظة الفتح الحقيقى و لحظة رؤية هذا الفتح.

معركة القادسية

۱) الاستعدادات النهائية

لقد تمت هذه المواجهة الايديولوجية عن طريق السفارات حين تواجه الجيشان قبيل القتال، و حين احتلت الأطراف المتواجهة

مواقعها. استقر العرب بعد مرحلة شراف، فی قلعة العذیب المهجورة حیث بقی سعد مریضا غیر قادر علی الحرکة طیلة المعرکة، بینما خرج أکثر الجیش فی اتجاه الفرات بین خندق سابور و العتیق، الملاصق لقریة قادس أو قدیس.

و یحتمل أن کلمة قادسیة لم تکن تدل فی ذلک الوقت علی اسم قریة بل علی المنطقة التی حددها الخندق و العذیب و العتیق.

أما رستم، فقد استقر فی النجف أول الأمر، ثم عسکر بین الحصن و العتیق: کان الجالینوس یوجد آنذاک إلی الجنوب، بین النجف و السیلحین و عسکر ذو الحاجب بین رستم و الجالینوس. و سیدور القتال بین العرب و الفرس وراء الفرات، علی حدود البادیة العربیة، فیبقی للعرب إمکان الرجوع إلی صحرائهم. کان هؤلاء و أولئک یوجدون فی أسفل منحدرات الطفّ، بوادی الفرات. أما الفرس فقد انتشروا علی ثلاثة عشر صفا حذو الفرات. و أما العرب فهم إلی الغرب و علی ثلاثة صفوف فقط فرسانا و مشاة و نشّابة و کان العتیق یفرق بینهم.

و قد مر معنا أن الجیش العربی کان یعد ۳۰۰۰۰ رجل علی أقل تقدیر، و ربما تجاوز

ذلک بقلیل. و کانت الأرقام المتعلقة بالجیش الفارسی تتراوح بین ۶۰۰۰۰ و ۱۲۰۰۰۰ رجل. و الواقع أن نصف الجیش الفارسی اشتمل علی الاتباع، و علی هذا فنحن نتمسک برقم ۶۰۰۰۰ مقاتل، منهم ۱۵۰۰۰ من الأشراف، أی ضعف الجیش العربی. و لم یکن ذلک بالأمر المثبط قط لکن حضور الأتباع بکثرة، و وجود ثلاثین من الفیلة، و کون المقاتلین مترابطین بالسلاسل و کون مجال القتال محدودا نسبیا، محصورا بین الفرات و قنواته و أعالی الطفّ، کل ذلک جعل من الجیش الفارسی کتلة صعبة التحرک، ثقیلة الحرکات. و مما زاده تثاقلا- أنه کان جیشا عظیم التجهیز مدرعا کله بالحدید، مع أنه صار بذلک أداة حرب هائلة. و کان العرب تجاه أعدائهم قلیلی العدة و قد روی أن المحاربین استخدموا سروج مطایاهم و أحزمتها بدل التروس و الخوذات، مما یوحی بالشعور أنه کان جیشا هشا. لکن الرجال کانوا مسلحین، و کانوا یمثلون نخبة القبائل حیث أمر سعد بألّا یجند إلا الرجال الممتلکون لأسلحتهم. و تمّ له ذلک بیسر، و هو دلیل علی ما بلغته بلاد العرب من تطور فی ذلک العصر. فلم یکن العرب برابرة بالمعنی المعهود للکلمة، بل کانوا منفتحین علی العالم الخارجی بما یکفی لکی یستطیعوا التسلح بصورة واسعة، إما عن طریق التبادل و إما بفضل الإقتباسات التکنولوجیة.

و یبدو أن رستم قد فضل استراتیجیة الاستنزاف علی الهجوم الفوری. و لا یحتمل أنه لم یدرک لحد ذلک الوقت طابع الغزو المنظم الذی اکتساه التدخل العربی فی العراق، نظرا للوضع الذی صارت علیه الأحداث: و بذلک فإن المقترحات التی عرضها علی العرب و التی استهدفت العودة إلی دیارهم عودا مشرفا، لا یمکن أن تؤوّل إلّا من باب الحرب النفسیة. فهل کان یرید حقا تلافی صدام مسلح لا یکون له غنم فیه إذا انتصر، و یفقد فیه کل شیء لو هزم؟ لقد أشارت المصادر إلی حذره، و اعتماده المنجمین الذین توقعوا له

کارثة، إلا أن الملک حثه علی القتال. کان هذا الملک قلیل التروی، و قد عیل صبر دهاقین الطفّ، فغشوه لحمله علی حسم الأمر مع العرب. و ضایق تریث رستم المبیّت الجیش العربی البعید عن قواعده، فاقتصر علی شن غارات علی السواد لضمان الغذاء للمقاتلین، لکن تزایدت صعوبة مثل تلک الغارات (یوم الأباقیر، یوم الحیتان). فأراد العرب کسر الطوق، و الخروج من موقف الانتظار الذی أصبح دقیقا و الذی قد یؤدی إلی تفتیت معنویات الجیش، فتحدد بذلک اختیار وقت القتال أکثر مما لو کان الأمر یتعلق بنفاد صبر یزدجرد.

۲) قضیهٔ التأریخ:

أشرنا سابقا إلی هذه القضیهٔ عند الحدیث عن وقعهٔ البویب حیث أن توقیت المعارک المختلفهٔ فی العراق مترابط، و قد بینا أن تأریخ سیف مردود فی جملته، و بذلک نکون متفقین فی الرأی مع فلهاوزن، و کایتانی، و یوسف. و بخصوص القادسیهٔ بالذات، لا یمکن قبول تاریخ محرم ۱۴/ فبرایر و مارس ۶۳۵. و قد اقترح ابن اسحاق آخر عام ۱۵ و اقترح خلیفهٔ بن خیاط شوال من عام ۱۵ ه. و اقترح الواقدی أواخر عام ۱۶ ه. و بعد أن قدم کایتانی الحجهٔ بصورهٔ متبحرهٔ و دقیقهٔ أیضا، مع أنها لم تکن دائما مقنعهٔ، انتهی به الأمر إلی تأریخ حرب القادسیهٔ فی ربیع سنهٔ ۶۳۷ بعد المیلاد، أی بین محرم و جمادی الأولی من سنهٔ ۱۶ ه. و أکد موافقته علی التاریخ الذی اقترحته مدرسهٔ أهل المدینهٔ، رغم فارق ستهٔ أشهر علی الأقل یفصله عن الواقدی؛ لکن یبدو لنا أن التاریخ الذی اقترحه کایتانی ینبغی رفضه لأن شواهد شعریهٔ و تاریخیهٔ کثیرهٔ تحثنا علی طرح تزامن وقعتی الیرموک (رجب

نشأهٔ المدینهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ: الکوفهٔ، ص: ۴۰

عام ۱۵ ه) و القادسیهٔ أو علی الأکثر أن نقبل فارقا ضئیلا لا یمکن أن یتجاوز شهرا. و قد تسمی أحد أیام القادسیهٔ بیوم أغواث، مذکرا بالنجدات التی وردت من الشام بعد معرکهٔ الیرموک.

و سواء أکان قیس بن مکشوح أول القادمین، أم هاشم بن عتبهٔ، أم القعقاع بن عمرو فذلک لا یهم إلا قلیلا، کما أنه لا یهم إلا قلیلا أن نعرف أن الامداد من مقاتلهٔ الیرموک و صلوا قطعهٔ واحدهٔ خلال المعرکهٔ، أم أنهم توافدوا جموعا متوالیهٔ أو فورا بعد القادسیهٔ لما انتهی کل شیء. و بالفعل فإن الروایات مختلفهٔ فی هذا المقام. و رغم الفارق الکبیر الذی صدر عن مدرسهٔ أهل المدینهٔ یسود الشعور بوجود تزامن تقریبا بین وقعهٔ الیرموک و وقعهٔ القادسیهٔ مع تأخر طفیف لمعرکهٔ القادسیهٔ، و هذا یفسر فی آن واقع الامداد و الاضطراب الذی ساد الروایهٔ التاریخیهٔ بصددها. فإذا وقعت حرب الیرموک فی رجب سنهٔ ۱۵ ه/ أغسطس ۶۳۶ م، فلا مراء أنه یجب تأریخ حرب القادسیهٔ فی ذات التاریخ أو بعد شهر من ذلک، أی فی شعبان من سنهٔ ۱۵ ه. و تتکاثر الحجج المؤیدهٔ لهذا الاختیار و المتمثلهٔ فی ضعف الامداد و فی الإشارهٔ إلی أن العرب أقاموا و سیطروا علی السواد طیلهٔ ثلاثهٔ أعوام. و یفید خبر آخر أنه مرت مدهٔ زمنیهٔ تقدر بثمانیهٔ عشر شهرا تفصل بین معرکهٔ البویب و حرب القادسیهٔ، و أخیرا هناک منطق الأحداث (اختیار عمر لوقت الغزو، و مسیرهٔ سعد، و مرحلهٔ الانتظار بالقادسیهٔ)، و قد تضافرت کل هذه الأمور علی تأیید هذا التسلسل الزمنی الاجمالی.

نشأهٔ المدینهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ: الکوفهٔ، ص: ۴۱

۳) سیر المعرکهٔ:

لیس ما یبرّر البتهٔ أن نتجه بتفکیرنا، کما فعل کایتانی، إلی القول إن المعرکهٔ دارت فی یوم واحد. و رغم أن روایهٔ سیف اکتست طابعا ملحمیا، فقد کانت أکثر تفصیلا، و لا شک أنها کانت قریبهٔ من الحقیقهٔ نسبیا. و إذا ما حاولنا کتابهٔ التاریخ العسکری الصرف لحرب القادسیهٔ، ففی الامکان تشیید إشکالیهٔ کاملهٔ للفن العسکری عند العرب، اعتمادا علی الروایات التی وصلتنا. کان ترتیب القتال قائما علی الخط، لا علی الکرادیس التی استخدمها مروان الثانی فیما بعد، مع وجود جناحین و قلب. کیف کانت الوحدهٔ التکتیکیهٔ؟ هل کانت الکتیبهٔ؟ و فی هذه الصورهٔ ما هو الدور الذی کان للعرافات المترکبهٔ من عشرهٔ و من مائهٔ رجل، و التی سبق الحدیث عنها؟ و هناک مشکلهٔ مهمهٔ أخری: کیف یتکیف النسق القبلی بالتنظیم العسکری البحت؟ هل حافظت القبائل علی وحدتها و کیانها، بعد أن اندمجت فی نظام قتالی لا یخضع مبدئیا إلا لغایهٔ خاصهٔ به؟. یدور الحدیث مثلا حول

کتیبهٔ أسد، و فی الیوم الأول من وقعهٔ أرماث، نشعر تماما أن القبیلهٔ- مثل بجیلهٔ، و أسد، و تمیم- أصبحت العامل الأساسی للتحرّک. و یمکن أن یکون قد سخر سعد عبقریته کلها لحمایهٔ تماسک وحدهٔ القبیلهٔ مع صهرها فی الوقت نفسه فی هیاکل استراتیجیهٔ و تکتیکیهٔ للجیش، بمعنی أن یجد الحل الوسط بین البنیهٔ القبلیهٔ و البنیهٔ العسکریهٔ الصرف.

أما عن العمل العسکری ذاته فتبقی الأمور غامضهٔ. یجری الکلام عن المطاردهٔ و الطراد (هل کانت ملاحقات للخیالهٔ؟)، و الجولان (دورات الخیل و مبارزات؟)، و الزحف أو

الهجوم الشامل. و قد ذکر سیف ما یلی: «کان یکون أول القتال فی کل أیامها المطاردهٔ».

و یبدو أن المطاردات کانت تتمادی علی شکل اشتباکات عنیفهٔ، لکن باستثناء الیوم الأخیر، لم یکن یعنی الأمر سوی مواجهات ظرفیهٔ، و لم یشن الهجوم العام إلا فی النهایهٔ.

و لنتعمق فی الأمور عن کثب. لقد دامت المعرکهٔ أربعهٔ أیام و لیلهٔ: یوم أرماث، و یوم أغواث، و یوم عماس، و لیلهٔ الهریر، و یوم القادسیهٔ.

أ) فی الیوم الأول، واجهت القبائل صدام الفیلهٔ، و کانت علی التوالی بجیلهٔ، ثم أسد، ثم تمیم. و قد تمثل المشکل عند العرب من وجوب التصدّی للصدام، و التنسیق بین نشاط القبائل، و إبطال تأثیر الفیلهٔ. و قد تحقق لهم ذلک حین لجأوا إلی تجریدها، و تمزیق أغطیتها الفاخرهٔ و سیورها، و تحطیم المحامل. کان یوما شدیدا علی العرب فقدوا فیه ۲۵۰۰ من القتلی و أشرفوا علی الکارثهٔ مرارا، لکن الغموض الذی اکتنف تفاصیل العملیهٔ لا یزول: فمن جههٔ، یروی أن الجهد الفارسی ترکز علی نقطهٔ محدّدهٔ من المکان الذی عسکرت فیه بجیلهٔ، و أنه وجب أن تتدخل أسد و تمیم إنقاذا للوضع. و من جههٔ أخری، تتحدث الروایهٔ عن مرحلهٔ الطراد، مرحلهٔ تشابکت فیها الکتائب و عن تکبیرهٔ رابعهٔ لسعد تأهبا للهجوم العام أو الزحف، لکن لم یتم هذا الهجوم إلا فی الیوم الرابع: فکأن الروایهٔ مترددهٔ فی تجمیع الأحداث فی یوم واحد أو فی تمییعها.

ب) یطرح یوم أغواث مشکلهٔ المساعدات القادمهٔ من الشام. هل کانت مهمهٔ و حاسمهٔ أم کانت بمثابهٔ الدعم النفسانی أکثر منها مساعدهٔ حقیقیهٔ؟ تحدث خبر عن إرسال ۶۰۰۰ رجل من أهل العراق (کانوا من المقاتلین المتمرسین الذین خرجوا مع خالد) من

طرف أبی عبیدهٔ. و ورد بخبر آخر أن ۷۰۰ رجل فقط بلغوا القادسیهٔ. و کان قیس بن مکشوح حاضرا أو أنه کان غائبا حسب الظرف؛ و هناک خبر ملحّ ورد مرارا مفاده أن المساعدات وصلت متأخرهٔ لکنها حصلت علی نصیبها من الغنیمهٔ رغم ذلک.

و من الممکن أن سیفا و مخبریه من أهل العراق، مجدوا أکثر مما یجب، دور القعقاع و هو أحد قادهٔ بعوث الیرموک الذی أصبح مدربا للجیش العربی کافهٔ. فکان یوجد فی کل مکان، و یقود أعمالا ظرفیهٔ، و هو الذی دشّن تکتیک الدفاع المتمثل فی دائرهٔ الخیل المحیطهٔ بنواهٔ من الجمال و هو الذی قتل الجالینوس، و تولی فعلا قیادهٔ العملیات آخر الأمر. لکن لا نجد له أثرا فی روایات الواقدی المدنیهٔ.

ج) کان یوم عماس أقسی یوم علی العرب. تحصل الفرس علی النجدات فی حین أن دعم هاشم لم یکن إلا رمزیا و ظهرت الفیلهٔ من جدید فتحتم قتلها هذه المرهٔ. تذکر لنا المصادر وقوع حرکهٔ تطویق فی أحد ممرات العتیق. کان عملا جسورا أنفذه طلیحهٔ و عمرو بن معدیکرب لکن من الصعب إدراک تأثیراته علی المعرکهٔ فی مجموعها.

و الأمر الأساس أن المعرکهٔ استمرت کامل اللیلهٔ- لیلهٔ الهریر- حیث توقع العرب أن یشن الفرس هجوما عاما، فقاموا بزحف کامل، مستبقین أوامر سعد، و بالکاد متخطین لأوامره. فکانت لهم الغلبهٔ فی فجر لیلهٔ القادسیهٔ، لکن مسعاهم لّما یکلل بالنصر، إذ

كان عليهم أن يتجلدوا ساعات أخر، و يقاوموا و يجالدوا حسما للأمر لصالحهم.

د) و قد تم لهم ذلك فى صبيحة وقعة القادسية. قتل رستم فانهار الجيش الفارسى انهيارا تاما. و دار التقتيل و الإغراق فى نهر العتيق. و لم ينجح فى التقهقر بانتظام إلى المدائن سوى جمع محدود العدد، لكن حتى ذا الحاجب الذى كان يقود هذا الفريق أمكن اللحاق

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۴۴

به و قتل. كان النصر العربى كاملا. أما ما يثير الاستغراب فى الجانب الفارسى فهو اتساع الانهيار أكثر من الهزيمة ذاتها، و ما لحق الفرس من تقتيل و قد تشتتوا شذرا مذرا، و استسلموا، و هو ما لم يكن متوقعا بعد صلابة المقاومة الفارسية التى استمرت ثلاثة أيام و ليلة.

۴) تفسير وقعة القادسية و دلالتها:

فتح النصر فى القادسية طريق العراق للعرب، العراق الذى يجب اعتباره الآن مفتوحا، بعد القضاء على القوة العسكرية الفارسية. و قد تضمن هذا النصر على المدى المتوسط بذور نهاية الامبراطورية الساسانية و غزو فارس ذاتها و إخضاعها. و يعترف كايتانى أن نتائج معركة اليرموك كانت أقل أهمية من نتائج معركة القادسية لكنه يجادل فى أن يكون لهذه المعركة صبغة درامية. قال: «كانت القادسية معركة ناجحة فى يوم واحد، و كانت اليرموك الخلاصة و الأزمة القصوى لحملة طويلة شاقة استمرت ثلاث سنوات». و من المؤكد كما أسبقنا أن الشام اكتسبت أهمية أعظم من العراق، فى مسيرة الفتح العربى، و أنها استقطبت القدرة العسكرية لدولة المدينة، بمعنى تلك القوة الضاربة التى أنشأها الرسول، ثم طورها أبو بكر و عمر. و خلافا لذلك، جرى اللجوء دوما إلى قوات قبلية فرعية، فى خصوص العراق، كانت مستقلة نسبيا. و يحتمل أيضا أن بيزنطة اعتبرت فى بداية الأمر الخطر الأساس الذى كان يستوجب أسرع رد ممكن، و أكثره تنظيما و تواصلا، كما اعتبرت الشام امتدادا طبيعيا لبلاد العرب. و هو ما يفسر استمرار الجهد المبذول و تماسكه بالنسبة لجبهة الشمال. لكن لا يعنى ذلك إطلاقا أنه تمّ استنقاص الفرس من الوجهة العسكرية. و من المعروف أن العرب ترددوا فى الهجرة إلى العراق، و قد مر معنا ما كان من خطورة الهزيمة التى منى بها العرب فى معركة الجسر، و هى الوحيدة التى ألحقت بالعرب و التى كان لها مثل تلك الأهمية. و تدل الأخبار الكثيرة التى وردت فى المصادر على الشعور بالنقص الذى انتاب العرب أمام القوة الفارسية، و قد وجب التغلب على إحباط نفسى حقيقى لمواجهتها.

كانت وقعة القادسية كوقعة اليرموك تتويجا لعمل دام ثلاث سنوات. و ليس لها أن تكون نصرا يسهل قطفه إلا إذا أخفق الفرس فى تنظيم أمورهم من جديد، و لم يجر الأمر على ذلك النحو. كانت حقا امبراطورية بكامل مواردها و تنظيمها، و تقاليدها العسكرية

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۴۵

تلك التى واجهت الفتح العربى فى القادسية. صحيح أنها كانت امبراطورية فى حالة ضعف عميق، لكنها استردت استقرارها مؤقتا، و كانت قائمة الذات عند وقعة القادسية.

و يعنى ذلك أن الأمر لم يتعلق فى شىء بغارة موفقة بل إن المعركة كانت جدية، دراميةً، و كانت بمثابة المأساة إلى أعلى درجة فى نظر المهزومين. كانت دراميةً بالنظر للمقاتلين لأن نتيجتها كانت محل شك. لكن مشكل المناعة العربية مطروح على المؤرخ لكثرة ما اعتبر طبيعيا أن العرب لا يمكنهم إلا أن ينتصروا.

توخى العرب تجاه خصومهم كافة سلوك انتصار محقق، و لم نعد فى حاجة إلى تعليل جانب كبير من ذلك. إنها قضية تاريخية، لكن يمكن عرض بعض العناصر فى وضع القادسية بالذات. لقد جمع الجيش العربى بين خاصتين: كان من الصنف البرابرى، و كان أيضا جيشا منظما تنظيما قويا لا محالة، كان جيشا- شعبا و جيش مهاجرين، و قد تألّف من محاربين مالكين لأسلحتهم، نعنى نخبة القبائل، فضلا عن أنهم كانوا من المتطوعين.

و كانت تحرك هؤلاء الرجال رغبة واضحة فى الفتح: ليس إرادة لتوسيع امبراطورية ما، بل صورة ملحة للعيش الأفضل. و كان جيشا من النوع البرابرى أيضا، لأنه واجه شعبا بامبراطورية، و كان ذلك الشعب قليل السلاح، لكن كانت له دوافع نفسانية فضلا عن وجود القوة التعبوية للإسلام و ندائه الموحد، و وجود سياسة منسّقة، و مسعى عقلانى. قلنا إنه كان غزوا من الصنف البرابرى لا شعبا برابريا ذلك أن ما يلفت النظر فى الروايات التى وصلتنا لم يكن من شكيلة الجسارة اللّاواعية، بل هى الشجاعة المكتسبة و المزج بين روح المبادرة و الانضباط، و فوق كل ذلك وجود تقاليد ثقافية و تقاليد عسكرية.

لا شك أن البعد المعنوى و هو الأيسر على الإدراك كان الأكثر حسما لتعليل الانتصار.

و فوق ذلك، يبدو أن العرب أقاموا استراتيجية عسكرية جديدة. كان تجهيزهم أخف، و كانوا أكثر حركة تجاه جيش قوى لكنه ثقيل، و قد مرت بهم أيضا تجربة حروب الردة و ما حصلت عليه بكر ثم بجيلة من ممارسة حربية ثمينة خلال فترة الأيام إضافة إلى خبرة القعقاع و رجاله. و لا نعلم إلا القليل عن تنظيم الجيش العربى، لكن هل آل تنظيمه إلى الرفع من قدرته على التنقل و الفعالية من الوجهة التكتيكية؟ و دور الفرسان أيضا؟ كل هذه الأمور تستوجب التوضيح.

حقيقة الأمر أن هذا الفن العسكرى شهد تطورا حاسما بدفعة من النبى، خصوصا على مستوى التعبئة أى تنظيم الجيش القتالى أو قبلها. لقد كانت الحرب مقامة فى

الجاهلية على نظام الكر و الفر أى الرجعة بعد الجولة و هذا يعنى من وجهة التعبئة أن يصطف المقاتلة على أساس قبلى و يعنى من وجهة القوة العدائية انتفاء روح الاستقلال و الصمود على نطاق واسع. و التجديد الحاسم الذى أوجده الإسلام يكمن أولا فى اتخاذ التعبئة بالصفوف بصفة مضبوطة صارمة و ثانيا فى نبذ فكرة الفر و الإبقاء على الكر و بالتالى بث روح الصمود دون استثناء. و أول ما طبق ذلك النبى فى معركة بدر حيث تذكر لنا المراجع أنه كان يسوى الصفوف كصفوف الصلاة (و هنا تبرز بصفة محسوسة العلاقة فى الإسلام بين الحرب و الصلاة) و أن المؤمنين كانوا يزحفون على العدو دون فكرة تراجع. و قد اعتبر القرآن بعد أحد كل انهزام فى المعركة دون مبرر تكتيكى أمرا كبيرا حيث يرد أن وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ.

و كان الجيش الإسلامى يتركب منذ زمن النبى على النمط التالى: الصف الأول هو صف الرماح و الثانى السهام و الثالث و الرابع السيوف. و يبدو أن الصفوف الأربعة هذه كلها مشاة، أما الفرسان فهى تكون ميمنة الجيش و ميسرته. فالنبى إذن يكون قد سنّ انقسام تعبئة الجيش إلى قسمين: القلب و هو مؤلف من المشاة، و الجناحان حيث الفرسان، و القلب بذاته منتظم صفوفا مختصة حسب السلاح. و إذا صح هذا فقد قام النبى بتجديد عميق فى التعبئة، تجديد معقلن تماما يفوق بكثير التنظيم القبلى القديم إذ يتجاوز الاصطفاف على أساس القبيلة و يقيم وحدة الجيش المقاتل. و لعل هذا يفسر إلى حد كبير تفوّق جيوش النبى على جيوش أعدائه كما تفوّق الحكم القائم بالمدينة على القبائل العربية فى حروب الردّة. و نحن نعلم أن أبا عبيدة باليرموك جعل هو بدوره الفرسان على أجناب الصفوف الثلاثة. أمّا بخصوص سعد بالقادسية، فإنّ سيفا يذكر لنا ما نصّه:

«و المسلمون على مواقفهم إلا من تكتّب أو طاردهم و هم ثلاثة صفوف، فصفّ فيه الرّجالة أصحاب الرماح و السيوف وصف

فيه المرامية، وصفّ فيه الخيول، و هم أمام الرّجالة و كذلك الميمنة، و كذلك الميسرة» و يعنى هذا أنّه احتفظ بالثلاثة صفوف و بهيكلة الجيش إلى قلب و جناحين دون تخصيص الجناحين إلى الفرسان. لكن من جهة أخرى، و قد ذكرنا ذلك، تبدو القبائل و كأنها وحدات قائمة الذات، و نحن نلحظ الشيء نفسه فى معركة صفين. و لا يمكن تفسير ذلك إلا إذا اعتبرنا توزيع القبائل إلى كتل، الكتلة حذو

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۴۷

الأخرى، لكن على جميع الصفوف.

و تبرز المصادر أيضا هذه المقدرة على الصمود و صبر المقاتلين العرب، و هذا أمر يعود بنا إلى خلفية المعنويات تجاوزا للمآثر الفردية و القبلية.

و خلافا لذلك، فقد انهارت قدرة الفرس القتالية فى آخر الأيام الأربعة بصورة يرثى لها و كان ذلك نتيجة لمعنوياتهم الرديئة كما كانت حصيلة استنقاصهم للعدو. و من المتيسر جدا إذا اعتمدنا شهادة الغالبين إبراز السلوك العشوائى الذى ساد جيشا بلا روح، و لا دافع، و لا إيمان. و هناك سؤال أكثر أهمية: من كان يقاتل مع رستم؟ هل هى الارستقراطية الفارسية بالسواد، التى كانت عنيفة فى عدائها للعرب، لكنها أثبتت عجزها قبل ذلك؟ أم جمع المرازبة و الملوك و الأسياد فى الداخل (فارس، و ميديا، و سجستان، و خراسان) المصحوبين بمواليهم و أتباعهم؟ كلاهما دون شك. لكن الشعور يحدونا أن الارستقراطيين فى السواد بقوا بحصونهم فى موقف دفاعى، و أن الارستقراطية العسكرية بالداخل لم تجند بتمامها، إذ وجب على العرب أن يقاتلوا فيما بعد أو أن يتفاوضوا مع رؤساء المدن و المناطق.

و كأن كل شيء يحمل على الاعتبار أن الامبراطورية لم تعبىء كل قدرتها العسكرية، لكن كل شيء يحمل على الافتراض أن ما جندته كان مهمّا و بما يكفى للقضاء على جانب عظيم من الارستقراطية الساسانية، بعد وقوع مقتلة القادسية. و كما أن امبراطور بيزنطة واجه العرب فى اليرموك بجموع الأرمن و عرب الشام، إضافة إلى الروم، فكذلك استخدم يزدجرد أعوانا من الأمم التابعة، من أجناس أخرى، كالأتراك و أهالى بخارى، و الديلم. و من المعلوم أن الديلم تخلوا عن الجيش و انتقلوا إلى الصف العربى. فيعود بنا الأمر دائما إلى أزمة الدولة الفارسية التى لم تتوان عن التأثير على معنويات الجيش و القيادة.

لكن ينبغى البحث عن التعليل الأساسى للنصر العربى، من وراء السياق العام، فى الشعب العربى ذاته الذى شهد تحرر قدراته فجأة، تبعا لتحول طرأ على التاريخ. و قد تجاوزت معركة القادسية فى هذا الصدد مصير العراق لتطرح نفسها كأحد الأحداث الأقوى دلالة فى تاريخ العالم.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۴۸

- ۳- إنهاء فتح العراق و تنظيم السواد (۱۶- ۱۷ ه/ ۶۳۷- ۶۳۸)

اشارة

تلاحقت الأحداث بعد القادسية، و جرى فتح سريع نسبيا و يسير شمل السواد كافة، و طرد الفرس من العراق، و أقيم نظام الأراضى و البشر، و أنشئت أخيرا الكوفة و البصرة.

و قد تطلبت كل هذه الإنشاءات سنتين أو ثلاثا، اعتبارا للسنة التى تم خلالها استقرار الأمور و تهيئتها، نعنى سنة ۱۷ أو ۱۸ من الهجرة. و كما كان الأمر بخصوص الفترة السابقة، فإن المادة التاريخية المتوافرة لدينا تختلف فى كثير من التفاصيل. لكن الوقائع

الجوهرية الثلاث:

الاستيلاء على المدائن، و احتلال جلولاء و طرد الفرس إلى النجد الإيرانى، و إنشاء الكوفة، وردت فى الروايات المتواترة كلها. قسّم كايتانى كعادته هذه المادة إلى رافدين كبيرين: الروايات المدنية (ابن اسحاق و الواقدى) التى كانت مفضلة لديه، و الروايات العراقية المرتكزة على سيف بن عمر، و هو يرفضها إن صح القول. فهو يعارض بين رواية عراقية متلونة قطعا، حية أيضا و حماسية بالخصوص، لكنها تمتاز بالأخطاء فى التواريخ و بتضخيم الأحداث البسيطة، و يراها فى جملتها تمجيدا خرافيا للأحداث العسكرية، و بين الروايات المدنية الجافة، الهزيلة، المضطربة، و لكن المتميزة حسب رأيه بمصداقيتها. هذا و إن هيل يجارى كثيرا وجهة نظر كايتانى و قد انتقد بالخصوص التسلسل الزمنى الردىء لسيف و انحيازه للكوفة و هما أمران بديهيان بخصوص فتح الجزيرة، هذا الفتح الذى جعل منه سيف امتدادا فوريا للعمليات بالعراق. إن نقائص سيف بديهية، فوجبت الحيطة بشأنها. لكنه يتميز بتماسك الرواية كما يتميّز بثراء المادة الاخبارية. و على النقيض من ذلك، فقد اتسمت روايات عراقية أخرى

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۴۹

بجفاف تجاوز ما هو موجود عند ابن اسحاق- و قد روى عنه الطبرى و هو الذى يشكل جوهر الروايات المدنية- و اعتمد البلاذرى بالخصوص تلك الروايات العراقية (رواية عوانة و مجالد بالنسبة للمدائن، و رواية أبى مسعود الكوفى و عوانة و هشام بن الكلبى و عوانة من جديد بالنسبة لجلولاء). و قد اشتملت رواية خليفة بن خياط على كثير من الأخبار المقتضبة التى كانت عراقية و مدنية، كانت أخبارا رئيسة و ثانوية، اضطرب توقيتها. أما رواية الدينورى، فقد اتصفت بشكلها العام.

الواقع أن من غزارة الروايات و تناقضاتها ذاتها يبرز منطق للأحداث يجب متابعته دون المساس بأصل الروايات أو بشكلها: تلك هى الطريقة التى توخيناها لحد الآن، و هى الطريقة ذاتها التى سنستمر فى العمل بها.

الاستيلاء على المدائن

خرج العرب إلى المدائن بعد وقعة القادسية، و دفعتهم إلى ذلك ضرورة عسكرية بديهية هى الاستيلاء على عاصمة الامبراطورية الفارسية التى كانت المقر الرئيسى للسلطة فى العراق، و المركز النابض للقيادة؛ و تبعا لذلك تقرر القضاء على الدولة الفارسية فى العراق.

كان العرب لذلك السبب على يقين من أن انتصارهم فى القادسية كان حاسما و اكتسب طابعا آخر مغايرا لما كان عليه الأمر فى البويب مثلا- و يزداد الأمر بداهة عند مقارنته بما جدّ فى الأيام المعروفة. بقى أن نعرف هل تم القضاء على الجيش الفارسى قضاء مبرما، إلى درجة أن المسيرة نحو المدائن ستؤول إلى مجرّد حوز للمدينة أم أن الفرس ما زال لديهم دافع يدفعهم، و هل كان ممكنا قلب الوضع لصالحهم؟

يبدو أن كايتانى يميل إلى الرأى الأول، و ذلك ما جعله يرّق لرواية المدنيين الجافة.

على أن ما يقبل الاحتمال هو ظهور بعض مواقع المقاومة الصغرى حتى المدائن، و صمود أشد فى أسفل جبال زاغروس، بجلولاء ذاتها. لجلولاء فى الرواية التاريخية العربية كلها مكان مفضل فى ملحمة فتح العراق، لكن أيضا فى كتب الفقه. كان حضور الناس و عدم الحضور

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۵۰

فى المدائن و جلولاء يكتسب أهمية بالنسبة لتقسيم الغنيمة و إسناد أراضى الفىء. هذا يعنى أنه ينبغى مجاراة سيف بحذر و يقظة أيضا.

و بـذلك نصل إلى طرق نقطـة أخرى كـذلك هى أنه كان للعرب رغبـة ملحـة فى الاستيلاء على الكنوز الساسانيـة. و خشـية أن تفلت منهم هـذه الكنوز بعيـدا داخـل الأـرض الإيرانيـة، انـدفع العرب إلى التعجيـل بالمرحلـة الأخيرة المتمثلـة فى الاستيلاء على المـدائن و كـذلك إلى ملاحقـة الجيش الفارسـى بجلولاـء و حتى حلوان. و بتهيئتهم المراحـل (فى بابـل، وساباـط، و بهرسـير و المـدائن)، أثبتوا جيدا ما كان لهم من حيطة فى التوغل العسـكرى، و يدل هذا الأمر كذلك على وجود مقاومة فارسـية ما، قصـد بهـا حمايـة فرار ملكهم و كنوزه. و تم هـذا الفرار على مراحـل أيضـا، فانطلق الملك من المـدائن إلى حلوان، ثم من حلوان إلى الجبال، كأن هذا الملك كان يترقب حدوث معجزة، أو كان يعقد بعض الأمل على رجاله. إذ لو اقتصر الفرس على مجرد حماية كنزهم لمـا ترقبـوا أن يبـاغتهم العرب فى المـدائن. المؤكـد أن الفرس أعـادوا تجميع قواتهم فى فـترة أولى- لتشـتت أكثرهـا- و حاولوا تعطيل التقدم العربى إلى أقصـى حد، لكن فوجىء الملك فى المدائن، ففر تاركا جانبا مهما من ماله. و مع هذا فلم يتردد فى مواجهـة العرب من قلعـة أخيرة، نعنى الجيش المعسـكر بجلولاء. كان على هـذا الجيش أن يحمى فراره، و يقطع الطريق على غزو محتمل للتراب الإيرانى، و أن يقاتل فى آن واحد من أجل الكنز الملكى أو ما تبقى منه.

أمـا بخصـوص التـوقيت، فلم يتمكن سـيف إلاـ بعسـر من التوفيق بين تـأريخه المبكر لحرب القادسـية فى ١۴ ه و الاستيلاـء على المدائن فى صفر سنة ١۶ ه. و لذا أرّخ، حسب ما ورد لدى الطبرى، أكثر الأحداث التى جدّت بين وقعتى القادسـية و المدائن فى سنة ١۵ ه. و لا شك أنه أفاض القول بسـبب ذلك فى عبور سواد الفرات فى حين أن الروايـة توحى بنفاد صبر الجيش العربى. و يقول الطبرى أيضا أن ابن اسـحاق و الواقـدى أرّخا هـذه الأحداث بالذات فى سـنة ١۶ ه، و بـذلك كـان عليهما أن يوجزا القول فيها. و اتفق جميعهم باستثناء خليفة بن خياط الذى اعتمد تواريخ كانت محض خيال، اتفقوا على

تأريـخ الاستيلاـء على جلولاـء فى ذى القعـدة ١۶/ ديسـمبر ۶۳۷. و بالفعـل، يتفق الواقـدى و سـيف، حسب الطبرى كمـا حسـب البلاذرى، على أن تاريـخ وقعتى المدائن و جلولاء يقع فى سـنة ١۶ ه. و بـذلك يكون تحديد التاريخ فى سـنة ١٩ كما جاء عند الواقـدى و ذكره كايتانى، غير مقبول اطلاقا. لا شك أنه ينبغى تأخير الاستيلاء على المدائن، كما ورد عند سـيف، بضـعة شـهور كى تتسق سلسـلة الأحـداث طبق الصورة التى وردت عنـد المؤرخين. و على ذلـك يبـدو لنـا تأريـخ الاستيلاـء على المـدائن فى جمادى سنة ١۶/ يونيو ۶۳٧، حسب ما قرّره كايتانى قريبا إلى المعقول كل القرابة.

تقـدم العرب على الطريق الرابطـة بين الحيرة و بابـل، فالمـدائن، فـالنهروان، ثم جلولاـء فى اتجاه حلوان و الرى. و كان لا بـدّ من عبور الفرات و سورا و دجلـة. نحن هنـا فى قلب بلاـد بابل، أى فى قلب السواد أو تربـة الفرات، حيث تجرى قنوات جانبيـة كثيرة رابطـة بين دجلـة و الفرات فى اشـتباك مكثّف. كانت تربة غنية عامرة بالفلاحين الخاضـعين للدهاقين، و قد سـبق أن اختار أكثر هؤلاء حلا للتعايش مع الغالب، و فرّ الفلاحون أمام التقدم العربى. كان هذا التقدم إلى المدائن مصـحوبا بغارات وقعت بين دجلة و الفرات، و روى أن ٠٠٠، ١٠٠ من الفلاـحين وقعوا أثناءهـا فى الأسـر، فى حين تحـدثت المصـادر و ألحت فى الحـديث عن هروب الفلاحين. أما القيادة فهى دائما بيد سعد فى أعلى مستوى، نائبه فيها هاشم بن عتبة ابن أخيه و قد عوض فى هذا المنصب خالـد بن عرفة الذى عيّن قائدا للمشاة. و لم تتضـمن كوكبة القادة التى أحاطت بسـعد و هاشم، قادة الردة، ولكنها اشـتملت على ثلاثة رجال رئيسيين هم زهرة بن الحوية قائد الطليعة، و عبد اللّه بن المعتّم، و شرحبيل بن السمط. و قد

روى سـيف أن «كل المسـلمين فارس مؤد». و ذلك قد يعنى أن المشاة ينتمون إلى صـفوف الأساورة و الحمراء. و بقى سعد مع أكثر الجيش، فى المؤخرة على عادته، لكنه كان يلحق بانتظام بالمقدمة.

تكللت المرحلة الأولى فى نرس بنصر صغير على بصبهرى. و فى بابل و هى المرحلة الثانية تجمعت بقايا القادسية ممن أفلت من القتل مع قادتهم و هم: النخيرجان، و مهران الرازى، و الهرمزان، و التحق بهم بصبهرى، و تولى عليهم الفيرزان قائدا أعلى، و كان سابقا منافسا لرستم، و اتضح بذلك العزم الفارسى على التصدى. و لم يعتقد زهرة أنه كان يستطيع هزمهم بمفرده، فطلب المدد من سعد الذى وجه إليه عبد اللّه و شرحبيل، ثم هاشما مع باقى الجيش الذى وصل بعد أن تم النصر. كان نصرا سريعا، تفرق بعده أكثر القادة الفرس، فجارى كل واحد منهم أطماعه أو انساق وراء المصلحة المحلية للإقليم الذى كان يمثله. فعاد الهرمزان إلى الأهواز، و رجع الفيرزان إلى نهاوند لاستغلال موارد هذا الإقليم.

و بقى النخيرجان و مهران وحدهما للدفاع عن المدائن. و يدل تفكك القيادة هذا على عدة عوامل، منها أن السلطة الملكية تلاشت تماما أو كادت، و أن الاقليمية عادت إلى الظهور فى عالم إيرانى منحلّ مهدد، و قد تأكدت دون شك حال انفجار أزمة الخلافة على الملك، و بلغت طلائع الجيش العربى بهرسير غرب دجلة بعد صدام قصير فى كوثى. و تجدد المشهد ذاته فى مواطن القتال الأخرى إذ حالما وصل زهرة مع مقدمة الجيش إلى ساباط، طلب دهقانها الصلح، بعد أن قضى زهرة على الكتيبة الخاصة لكسرى بوران، و لحق به هاشم و خاض القتال، و أخيرا وصل جميع الفرسان المرافقين لسعد أمام بهرسير و ضربوا عليها حصارا دام شهرين (أواخر سنة ١٥ و بداية سنة ١٦ من الهجرة). و خلال هذا الحصار اكتسح الجيش العربى السواد فيما بين الفرات و دجلة، و لعل الاتفاق قد تم أثناءه بخصوص وضع الفلاحين و أراضى هذه المنطقة.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٥٣

إن حصار بهرسير سبق الدخول إلى المدائن و كان تمهيدا له. و كانت بهرسير ذاتها جزءا من مجموعة المدن المكوّنة للمدائن الكبرى، فضلا عن إمكان اعتبارها مفتاح المدائن- طيسفون بالذات، بتسمية «المدائن الدنيا» تجاه «المدائن القصوى». لقد تكون مركّب المدائن أصلا انطلاقا من مدينتين هما سلوقية غرب دجلة المؤسسة بين ٣١٢ و ٣٠١ قبل الميلاد، و طيسفون شرقا (٢٢١ ق. م.) و هى وريثة أوبيس.Opis لكن فى حين أن المدينة الواقعة شرقا تطورت و أدمجت القرى المجاورة، و اتسعت أيضا بفضل إنشاء مواطن جديدة (مثلا رومية حيث وطّن المهاجرون من سلوقية الشام فى ٥٤٠ بعد الميلاد، و التى لا ينبغى أن تشتبه علينا بسلوقية توأم طيسفون)، فإن المدينة الواقعة إلى الغرب التى كانت من أصل يونانى، تبدو قد تقلصت. و لم يبق فعلا منها سوى الجزء الجنوبى الذى أعيد تسميته بيه- أردشير، من طرف الساسانيين. و يطابق هذا الاسم الصيغة المعربة «بهرسير» المشتقة من الأرامية، و كان يصل جسر بين بهرسير و المدائن و قد مكّن الفرس من إخلاء مدينة بهرسير و الاتجاه إلى الشاطىء الشرقى، دون أن يتفطن العرب إلى ذلك. ثم حطموا الجسر و سحبوا كل السفن فدخل العرب مدينة قفراء. و شاهدوا عن بعد القصر الأبيض لكسرى، و كان رمزا خياليا للعظمة و الحضارة الفارسية. إنها للحظة مشهودة فى خضمّ مغامرة خاطفة. و لا ريب أن الفرس فكروا فى الاستفادة من مهلة ما، فى المدائن الشرقية، حتى يرتبوا أمورهم، و يضمنوا إجلاء منظما للعائلات و الكنوز الملكية الهائلة. فوجه يزدجرد أهل بيته إلى حلوان بعد أن تم الاستيلاء على بهرسير. لكن العرب عجلوا باحتلال المدائن، بصورة لم يكن يتوقعها الفرس، و قصروا الإقامة فى بهرسير، فاتجه العمل العسكرى بأكمله عند ذلك إلى السباق نحو الغنيمة إذ وجب اللحاق بها قبل أن تطير.

و تم عبور دجلة عبورا ملحميا على الخيل. توجه فى البدء عاصم بن عمرو عاجلا- فى الطليعة مع ٦٠٠ رجل منهم ٦٠ مقاتلا خرجوا للاستكشاف فنجحت العملية، و فرض عاصم رقابته على ضفة النهر بعد الفراغ من مناوشات صغيرة، و سرعان ما لحق به أكثر

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٥٤

الجيش بأمر من سعد الذى كان حاضرا بنفسه. إنها لمفخرة بالنسبة لأولئك العرب الصحراويين أن يتخلصوا من خوفهم من الماء، و يتحدّوا عظمة دجلة و زبدها و موجها الأجاج، و لم يفت سيفا طبعا أن يفاخر «بيوم الماء»، لكن الواقعة وردت فى أكثر الأخبار.

بعد الوقعة و فى هذه المرة أيضا تشتت السكان، و فرّ الملك و كان لفراره طابع الفاجعة، و دخل الجيش العربى مدينة قفراء و اقتحم القصر الأبيض و الإيوان بعد استسلام المدافعين، و أقام سعد صلاة الفتح فى الإيوان بين التصاوير الحائطية و التماثيل.

و بعد قرنين من ذلك جاء البحترى متأملا منشدا شعره أمام الإيوان، فأهدى الدولة المنقرضة درة من درر الشعر العربى. و استولى الفاتحون على الغنيمة التى كانت تعادل نصف أموال الملك المقدرة بثلاثة مليارات من الدراهم. و كانت هذه الذخائر ثمرة لتقليد طويل مقام على خزن المال زاد تأكدا مع السياسة الخرقاء التى سار عليها أبرويز. و قد سلمت أربعة أخماس الغنيمة إلى الرجال و تجاوز نصيب الفرسان مرتين أو ثلاث مرات نصيب المشاة (الحمراء المتحالفين فقط أم أن هناك مشاة من العرب؟). و وجه الخمس المتبقى إلى المدينة بعد أن أجاز سعد بعض القادة. و وافق المقاتلون على عدم اقتسام كسوة الملك و جواهره، و بساط كبير مرصّع بالأحجار الثمينة، و قرروا توجيه كل هذا إلى الخليفة. و قد روى سيف حكايات شيّقة بهذا الصدد، فقال مثلا إن الغالبين العرب ظنوا الكافور ملحا، و استبدلوا بالتساوى الآنية الفضية بالآنية الذهبية. أما بالمدينة و حول عمر فقد ساد الوجوم و العبث، و الانبهار الكبير و التذكير بزيف الدنيا.

سيتبين أن الاستيلاء على المدائن كانت له أهمية قصوى من حيث منطق الفتح العربى و من حيث التنظيم الآتى للبلدان المفتوحة. و استقر بها العرب بصورة مؤقتة،

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۵۵

فصارت نقطة تعتمد لتحديد البلاد التى فتحها جيش العراق عملا بالمبدأ القائل إن لكل جيش مجالا ترابيا يصبح ملكا له و من حقه و مكسبه. فكان مهما أن يعرف من كان حاضرا فى تلك الفترة الممتازة التى كانت خلالها المدائن مرحلة، ذلك أن مثل هذا الحضور كان يعادل حقا مكتسبا فى الفيء بمعناه الأكثر اتساعا، أى الغنيمة لكن أيضا أى مكاسب ثابتة فى المستقبل. و من المدائن تحدد كذلك المجال الذى ستمنحه الكوفة فيما بعد، بصفتها وريثة للمدائن بالذات. و بهذا المعنى ينبغى فهم قول سيف: «فتوح المدائن السواد و حلوان و ما سبذان و قرقيسياء» و هذا القول الآخر: «ولى سعد بن مالك على الكوفة بعد ما اختطت ثلاث سنين و نصفا سوى ما كان بالمدائن قبلها، و عمالته ما بين الكوفة و حلوان و الموصل و ما سبذان و قرقيسياء إلى البصرة». هذا و سنعود إلى طرق مشكل امتداد فتوحات أهل المدائن و قد أصبح أكثرهم من أهل الكوفة، لكى ينبغى التأكيد على دور الاستيلاء على المدائن و الإقامة فيها كعقدة مجاليّة- زمنية فى النسق العربى، و مرحلة لزمنية تاريخية تندرج فى تسلسل معين لكنها تفرض مسبقا وجود مجال و حقوق.

جلولاء (۱۶ ه/ ۶۳۷ م): المعركة الأخيرة من أجل العراق

كان الاستيلاء على المدائن بلا قتال. أما جلولاء فهى معركة مهمة، و تكاد تكون حدثا تاريخيا فى المشروع العربى الموجه ضد الساسانيين، و معركة أخيرة. لا شك فى أن الغنيمة كانت أحد الحوافز بالنسبة لبعض الفاتحين، فقد اكتسبت وقعة جلولاء مظهر الملاحقة و حتى ما يشبه السباق من أجل الملاحقة. لكن كان الأمر بالنسبة للفرس يتعلق بالدفاع عن أملاكهم و حماية العبور إلى الجبال، و إلا فلا يفهم الغرض من اعتصامهم بهذا المكان قبل لجوئهم إلى النجد الإيرانى. كان معسكر جلولاء يشكل نقطة قصوى لتجمع الفرس قبل كارثة تشتتهم الذى نجم عنه خضوع بلدهم.

كانت جلولاء بالفعل آخر مدينة بالسهل فی اتجاه الجبال. و كانت مفترقا لطرق الشمال و الشرق، الطرق المؤدية إلى آذربيجان و طريق الجبال فخراسان فاكتسبت بذلك

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۵۶

أهمية الحاجز و الحصن، من هنا تجمّع الفرس و إسراع العرب الكبير للتحول إلى هذه النقطة. من هم هؤلاء الفرس الذين اعتصموا فی جلولاء، بقيادة مهران أو خرزاد؟ كانوا عبارة عن النواة الأخيرة المتبقية من جيش القادسية التی سبق أن تخلت عنها فضائل فضلت الانسحاب إلى النجد الإيرانی، و روی أن أمدادا قادمة من حلوان و ما والاها التحقت بها أيضا. لقد أجلی الأهالی إلى خانقين، بينما حط الملك رحاله بحلوان التی كانت أول ممرّ جبلی بالجبال، و كانت تقع تماما على التراب الإيرانی لا فی العراق كما قيل، و لذا يحدونا الشعور الجلی أن الفرس عمدوا إلى اختيار موقع جلولاء ليكون العراق مسرحا لآخر معاركهم من أجل العراق و كذلك لحماية بوّابة فارس: كانت جلولاء أهم من المدائن من حيث الأهمية الاستراتيجية.

و لم يخطىء العرب فی تقديرهم و لذا وجهوا هاشم بن عتبة نائب القائد العام برفقة ۱۲۰۰۰ فارس شكلوا نخبة المقاتلين، و نحن نستشف هذا الأمر من رواية الأحداث بل إن الروايات تؤكد ذلك. و خرج إلى القتال قادة من طراز جرير بن عبد اللّه البجلی و القعقاع بن عمرو، و قد تولوا القيادات فی حين أن زعماء الردة لم يقوموا إلا بالمساهمة فی القتال. لقد ظهرت معركة جلولاء فی نظر العرب بمظهر المعركة الجدية التی كانت محسومة سلفا، نظرا للموقف العسكری العام، و هو ما يفسر أن سعدا لم يخرج بأكثر الجيش من المدائن، فوجه جيشا مهما لا كل الجيش. و لكن يمكن القول إن ثمة مجموعة شاركت فی القتال بغية العمل من أجل كسب حقوق معنوية لاحقة، لأن الحضور بجلولاء اعتبر مخولا للفیء بمعناه الضيق (التمتع بالأراضی المغتصبة من أملاك التاج الفارسی)، و لأن الغنيمة المتكدسة كانت عظيمة.

لا فائدة من الإلحاح على العملية العسكرية و تفاصيلها. لم تكن جلولاء محصنة أصلا:

فوجب تحصين المعسكر و إحاطته بالوسائل المتاحة لكون الفرس سلكوا حتما مسلكا دفاعيا، فلم يتمكنوا من الصمود طويلا، و حاولوا الهجوم، فكانت الهجمة الأخيرة هی التی شكلت معركة جلولاء بالذات. كانت معركة حامية إذا ما صدقنا سيفا الذی عاد إلى وصفه الملحمی جاعلا من جلولاء رجعا للقادسية إلى حد ما: كان كايتانی محقا عندما أشار إلى

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۵۷

مبالغاته فی هذا الصدد. ثم بدأ تقتيل الفرس، و استولى العرب على غنيمة مهمة و حتى على بيت المال الساسانی ذاته، و قد ألحت بعض الروايات على سبی النساء، و روی أن نساء جلولاء كنّ بداية للتمازج العربی الفارسی. و يفهم من التأكيد على هذا الحدث بأن الفرس كانوا دائما يعملون على إبعاد نسائهم عن أطماع الغزاة، و يبدو أن أكثر النساء أبعدن على عجل إلى خانقين التی تم الاستيلاء عليها بعد قليل. ينبغی تسمية مجموع العمليات التی حدثت ما بين معركة المدائن و الاستقرار بالكوفة بمرحلة جلولاء و هو اسم الحدث الرئيسی، و ذلك بالنسبة للإطار المتعلق بالغنيمة، و استحقاقها، و بخصوص كل امتياز معنوی أو قانونی: هذا ما توحی به النصوص ظاهرا.

ماذا كانت هذه العمليات؟ لنقل بداية إن استيلاء جرير على خانقين، و سيطرة هاشم على سواد شرقی دجلة هما حدثان لا مجال للشك فيهما، على أن احتلال حلوان و شرقی الجزيرة يطرح مشكلا. إن البلاذری هو الذی يبرز نشوب معركة خانقين، كما أوضح بدقة أكبر من دقة سيف، دور هاشم فی إخضاع شرقی السواد، و قد كان عملية استيلاء أكثر منه عملية عسكرية. هذا السواد الشرقی كان له الاتساع ذاته و سواد الفرات، و قد أثر فيه كثيرا الحضور الساسانی و ذكريات هذا الحضور و الإنجازات المعمارية الساسانية، و هو يضاهی فی الثراء الزراعی السواد الآخر. و قد أسر ۱۳۰ ألفا من فلاحی هذه الجهة ثم أخلی سبيلهم

سريعا كما سنرى، و بذلك عاد الفارون إلى قراهم.

أما حلوان، المدينة الفارسية، مدينة الجبال المشرفة على الفج و التى تمر منها الطريق الكبرى نحو الشرق، فقد غادرها الملك بعد وقعة جلولاء متوغلا داخل البلاد. فهل استولى عليها القعقاع لكى يقيم فورا ثغرا أى حامية خارج الميدان المفتوح لكنها ساهرة على أمنه، و الثغر عبارة عن امتداد، و هو بالمعنى الحرفى ثلمة (ينبغى سدها) و بمثابة المدينة الحدودية المطلة على العدوّ و المغايرة للمصر أو المدينة- المعسكر؟ إن سيفا يعلن ذلك كما أن المصلحة الاستراتيجية تتطلب مثل هذا الأمر، و لم ينبس البلاذرى بكلمة عن ذلك لكنه

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۵۸

يتحدث عن وجود وال عربى بحلوان فى موضع آخر من كتابه.

و على النقيض من ذلك، تنسب روايات ملجّأة إلى عمر رفضه رفضا تاما المساس بأرض فارس، معبرا عن عزمه على الاكتفاء بالسواد. و يبدو جيدا، فضلا عن ذلك، أن المقاومة الفارسية هدأت و سبب ذلك قد يرجع إلى أن الفرس حصلوا على تطمينات من جانب العرب بالتوقف عند حدود العراق. لكن حلوان كانت توجد فى إيران. فهل أفهمهم العرب، و هل فهم الفرس أن ذلك الأمر يشكل استثناء يعود إلى موقع حلوان و ضرورتها لحماية العراق من وجهة نظر العرب؟ فالدينورى يقدّم وجود العرب بحلوان و الأهواز على أنه السبب فى الرد الفارسى الذى مهّد لتحرك الهرمزان كما لمعركة نهاوند، لكن العمليات العربية فى الأهواز لم تبدأ إلا سنة ۱۷ ه. و هى تنتهى سنة ۲۱/ ۶۴۲ بالاستيلاء على تستر. أم هل وضع الجيش العربى يده على حلوان ضمن عمل منفصل متأخر بالنظر لمعركة جلولاء و ربما بعد الاستقرار بالكوفة؟ يبقى السؤال بدون جواب.

و تتضح الأمور أكثر بخصوص شرقى الجزيرة لأن رواية سيف غير قابلة للتصديق.

يريد سيف حملنا على أن نصدق أن الجيش العربى انقسم نصفين فى المدائن، فاتجه قسم منه إلى جلولاء و اتجه قسم آخر إلى شرقى الجزيرة، و لا سيما الموصل التى وقع اقتحامها و الاستيلاء عليها سنة ۱۶ ه. و يكون هذا القول فى رأى هيل بمثابة التعويض بالنسبة للكوفيين الذين بقوا فى الواقع فى حالة فراغ طيلة أربع سنوات و «لم يحاولوا فتح الجزيرة الشرقية رغم خلوها من العوائق الطبيعية و فراغها من قوات معادية». ذلك أن الجزيرة فتحت فى جزئها الغربى خاصة الذى كان أكثر ثراء، انطلاقا من الشام سنة ۱۹ ه.

و لم يستول عتبة بن فرقد القادم من العراق، على الموصل و تكريت إلا سنة ۲۰ ه، مع أن هرثمة بن عرفجة الذى كان أحد الشاميين الذين شاركوا فى فتح الجزيرة بصحبة عياض بن غنم هو الذى تولى تخطيط الموصل. و ستقع هذه المدينة فى فلك الكوفة، لكن يمكن القطع بالقول إن إخضاعها لم يقع إثر وقعة جلولاء. فلا يمكن إذن إدراج الموصل، و قرقيسيا، و من باب أحرى ماسباذان- التى استولى عليها أبو موسى بعد نهاوند - ضمن

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۵۹

فتوحات المدائن لسنة ۱۶ ه، خلافا لمزاعم سيف. و لم يبق إلا حلوان التى تطرح علينا مشكلا. يعنى كل هذا أن العرب ركزوا جهودهم بعد وقعة القادسية على طرد الساسانيين فقط، و إخضاع وادى دجلة و الفرات دون التقدم خلف ذلك الخط سواء فى اتجاه الجزيرة أم فى اتجاه الأرض الإيرانية. و توارت الغاية العسكرية لصالح قضايا التنظيم و الاستقرار، كما أن اختيار الكوفة بالذات بدل المدائن كمركز للسكنى ينبىء بالرغبة فى الوقوف عند حد المواقع المكتسبة.

تنظيم السواد:

لن يتم إنشاء الكوفة قبل نهاية سنة ١٧ ه و بداية سنة ١٨، أى بعد أربعة عشر شهرا من احتلال المدائن، و بعد سنة من انتصار جلولاء بحيث أن سنة ١٧ بقيت سنة استراحة و تفكير و تنظيم. لقد تحول عمر إلى الشام فى سنة ١٧ ه، لكى ينظم أوضاع المقاتلة، و يحل مشاكل الدفاع و الاستقرار و الأعطيات، لكن هل قام بذلك بالنسبة إلى كل الأقطار المفتوحة بما فيها العراق، عند تحوله هذا؟ لا تؤيد النصوص ذلك بل هى تقول العكس، بمعنى أنه تمّ فضّ المسائل المعلقة بالشام و لم يفض سواها. و على النقيض من ذلك يحثنا الوضع العام على الاعتقاد بأن التشاور المستمر بين عمر و سعد خلال عام ١٧، أدى إلى إعداد و ضبط النظام الشامل الذى سيخضع له العراق.

فبعد أن تبلور الوضع، تحول أكثر الجيش المعسكر بالمدائن إلى الكوفة العتيدة. و لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك، لأن الاتجاه إلى اختيار تمركز الجيش بمعسكر ارتبط باختيارات مسبقة أخرى هى: عدم اقتسام البلاد المفتوحة بقوة السلاح، و إبقاء الفلاحين على أراضيهم و الاستمرار فى العمل بالهياكل الجبائية الساسانية، و العمل بفكرة تسديد نفقات المقاتلين بواسطة العطاء. كما أن الصلة واضحة بين هذه الاختيارات الأولى التى جدّت فى البلاد المفتوحة عملا برأى عمر، و الانشاء المركزى العام للديوان، و قد أدرك

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٦٠

سيف هذه الصلة لكن لا يمكن موافقته على تأريخ ذلك فى سنة ١٥. و هو بهذا يناقض نفسه لأنه يعيد الكلام فى الأمر بعد حرب جلولاء فيفصّل لنا أوامر عمر الجديدة و مقرراته بخصوص الفيء و الجزية و الخراج الخ ... على أن أخباره ثمينة المحتوى. إن الروايات العراقية الأكثر قدما و هى روايات مجالد و الشعبى جاء بها تأريخ تأسيس الديوان بآخر سنة ١٧، أى بعد إنهاء فتح الشام و العراق، و بعد جباية محاصيل الخراج الأول؛ أما الروايات المدنية كما جاءت عند الواقدى و الزهرى، فقد اقترحت تاريخ محرم سنة ٢٠/ ٦٤٠. الواقع أن هذا الخلاف يفسر كثيرا من الأمور. إن الديوان كسجلّ لتسجيل أسماء مستحقى العطاء، عملا بالترتيب الذى تصوره عمر الذى انطلق من المغامرة الإسلامية بأكملها منذ وقعة بدر، كوثيقة ضبطتها وحددتها الكتابة، و الديوان كمؤسسة لنسق توزيعى عام، تقرر إنشاؤه على الأرجح سنة ٢٠/ ٦٤٠. لكنه بهذه الصفة كان امتدادا معقلنا للاختيارات التجريبية التى جرت فى البلدان المفتوحة فور الفراغ من القتال، أى فى سنة ١٧/ ٦٣٨، بعد أن استقرت الأمور، بحيث كان صعود من أسفل إلى أعلى، لا العكس. و هذا ما يفسر أن البلاذرى قسم إلى فصلين متميزين الأحكام التى يخضع لها السواد و مؤسسة الديوان ذاتها. و قد فعل ذلك كبار الفقهاء، منهم أبو يوسف و أبو عبيد بن سلّام. فأصبح الديوان الكتابى عملا منسجما جاء بعد الوضع الناشىء عن القرارات الحية، و شمل بالخصوص النخبة الإسلامية بالمدينة و أقرها على رأس النسق. فما هى هذه الاختيارات الأساسية بالنسبة للعراق؟ يعتمد قسم من جملة المواد التى وصلتنا على الظروف التاريخية السائدة فى ذلك العصر- نعنى رواية سيف و الاخباريين- و وقف قسم آخر موقف الفقهاء، فقدم الأمور تقديما منطقيا إسلاميا. و لا يوجد أى سبب لرفض رواية دون أخرى إذ لو عمل عمر طبق تصميم سياسى قبل غيره، فلا يتصور كيف أنه فعل ذلك متجاهلا تعاليم القرآن التى حددت أعمال الرسول.

و لنترك جانبا المدن القليلة التى تمتعت بعهد و كانت مدنا ثانوية تماما، علما أنها فسخت

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٦١

هذا العهد لا محالة، حين تراجع العرب مؤقتا، فمنح العهد من جديد لبعض المدن. إن فتح العراق وقع عنوة على حساب سيد قديم- الملك الساسانى و من والاه- لكن أكثر الأشخاص العائشين فى العراق كانوا غير إيرانيين، كانوا أنباطا كما سموا فى اللغة العربية و كانوا من الساميين الآراميين. و قد أرغموا منذ ألف سنة على البقاء فى وضع الفلاحين يدفعون الطسق أو الخراج و

الجزیـهٔ: کانوا من المزارعین و العمال و الفلاحین، فشـکلوا عامّهٔ الأریاف الضـخمهٔ التی قدر عددها ب ۵۵۰۰۰۰ شخص، حسب تقدیر عثمان بن حنیف الذی أحصاهم و ختم علیهم کما روی. و بذلک کان فی العراق صنفان من الأراضی:

أراض کـانت علی ملـک التـاج و کبـار الملاـک الإـیرانیین الـذین حـاربوا العرب، و أراض اسـتقر فیها أکثر الفلاحین فی البلاد بإشـراف الدهاقین. و قد استولی الجیش العربی علی الصنفین، لأن عددا کبیرا من الفلاحین فروا أمام تقدم هذا الجیش. و حسب السـنن العربیـهٔ للحرب فالأرض و الرجال تعتبر غنیمـهٔ یقتسـمها المقاتلـهٔ. و ورد ذلک أیضا فی تعالیم القرآن الذی ینص علی أن کل ما أخذ عنوهٔ یعتبر غنیمهٔ تسـلم أربعهٔ أخماسها إلی المقاتلهٔ و الخمس الباقی یسلم إلی اللّه و رسوله أی إلی الخلیفهٔ. و یحدد القرآن الفیء کهبـهٔ من اللّه لم یکن من اللازم أن یحصل قتال من أجله و لذا فهو یعود کاملا إلی اللّه و رسوله. و من المعلوم أن النبی اسـتولی علی أموال بنی نضـیر لمساعـدهٔ المهاجرین المعوزین إذ اعتبرها فیئا. فحلّ التقسـیم کان یبدو حتمیا إذن فی العراق لکن عمر اختـار عـدم التقسـیم. فثـار نقاش کبیر فی المدینـهٔ حول هـذا الموضوع: تمسک عبـد الرحمن بن عوف و بلال خاصـهٔ تمسکا شدیدا بمبدأ التقسیم، و عارضه عمر، و کان علی أول المؤیدین له، و کذلک طلحهٔ، و عثمان، و عبد اللّه بن عمر، و معاذ بن جبل. و لجأ الخلیفـهٔ إلی تأویل اجتهـد فیه شخصـیا لإحدی آیات سورهٔ الحشـر تعلقت بالفیء فتعرضت لأوضاع المهاجرین و الأنصار، و جاء فیها بعد ذکر هؤلاء ما یلی:

وَ الَّذِینَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ فاعتبر عمر أن الآیهٔ تقصد الأجیال القادمهٔ.

نشأهٔ المدینهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ: الکوفهٔ، ص: ۶۲

من المهم أن نلاحظ، انطلاقا من فکرهٔ الاسـتمراریهٔ الزمنیهٔ للأجیال المسـلمهٔ، أن عمر اعتبر الثروهٔ العقاریهٔ فی العراق فیئا، حسـب مـا ذکر الفقهـاء. و مضـمون ذلک لیس أن الدولـهٔ تتصـرف بها حسب مشـیئتها، بمعنی أن تنزعها من المقاتلـهٔ، بل معناه أن علی الدولهٔ أن تقوم بدور الوساطهٔ، و تبتکر حلا وسـطا یجعل من الفیء ملکا مشاعا للمجتمع الإسلامی، فیشمل بدایهٔ و قبل کل شیء کل الـذین قاتلوا من أجله. و بهـذا المعنی یقع الفیء فی الوسط، بین الغنیمـهٔ المکوّنـهٔ من الأموال المنقولـهٔ و القابلـهٔ للتقسـیم، و الخاضـعهٔ لـدفع الخمس إلی بیت المال و بین التصور القرآنی للفیء الـذی یوکله تماما إلی مشـیئهٔ الرسول، فصار الفیء نوعا من الوقف تتصـرف به الدولـهٔ لمصـلحهٔ الجمیع، الحاضـرین منهم و الغائبین. و وافق أفراد الجیش علی ذلک بعـد أن استشـیروا علی تصور الأمور هذا. و أفضل من ذلک: فیما یخص الأراضـی الملحقهٔ بالتاج الساسانی و المحاربین الإیرانیین و المعروفهٔ بالصوافی، لکن أیضا بالفیء أکثر تحدیدا، فقد خوّل لهم تقاسـمها، لکنهم فضـلوا عدم التقسـیم. و قد ذکر سیف أنهم فهموا أن تفرقهم فی السواد قد یضرّ بالتأکید بوظیفتهم الحربیهٔ کما یضر بعزمهم علی البقاء معا.

لنتمعن فی الأـمور عن کثب. عـاد الفلاـحون سـکان المنطقـهٔ الواقعـهٔ بین الفرات و دجلـهٔ و کـذلک فلاـحو مـا وراء دجلـهٔ، إلی أراضـیهم بعد تبدد الرعب و لا سـیما أنهم شجعوا علی العودهٔ. فنجوا بدایهٔ من العبودیهٔ حیث أن عودتهم قامت مقام العهد و بقوا علی حالهم فی استغلال الأرض. و کل الذین لجأوا إلی الفرس و لم یعودوا عن طیب خاطر، استثنوا من

نشأهٔ المدینهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ: الکوفهٔ؛ ص۶۲

نشأهٔ المدینهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ: الکوفهٔ، ص: ۶۳

إجراء التهدئـهٔ و الادمـاج، فجری اللحـاق بهـم أو ألقی القبض علیهم، و حـتی فی هـذه الصـورهٔ فقـد خیّر عمر المقـاتلین بین أن ینتزعوا منهم أراضـیهم أو أن یسترقوهم أو یعتقوهم و یعیـدوا ادمـاجهم فی النسق، و من المحتمـل أن الحـل الأخیر هو الـذی تم لأکثرهم. أما الـدهاقین الذین لا ینبغی أن یخلط بینهم و بین أشـراف الفرس من المقاتلین، فقد اعتنق کثیر منهم الإسـلام. و مهما کـان الأمر، فإنهم سـیتحملون دورا کبیرا فی التأطیر و نقل الأوامر و الوساطـهٔ الجبائیـهٔ بین جماهیر الفلاحین و السـلطهٔ العربیـهٔ. لا

فائدة فی هذا المقام من الدخول فی تفاصیل الجبایة المفروضة علی الأرض، و التی کانت فی بدایة الأمر موحدة (درهم و قفیز لکل وحدة مساحة عرفت بالجریب)، ثم اتجهت أکثر فأکثر إلی التنوّع ارتباطا بمحصولات الأرض و بالقرب من مراکز التسویق، منذ خلافة عمر، مع استمرار الأمر زمن علی، و أخیرا فی خلافة معاویة الذی استکمل العمل التنظیمی الذی بدأه عمر. لکن ینبغی الاحتفاظ بعنصرین، أولهما أن المساحة الخاضعة للخراج کانت تساوی ۳۶ ملیون جریب و ثانیهما أن مساحة أراضی الصوافی لم تتجاوز ۷ ملایین جریب. و قد وفق الضبط الأکبر للجهاز الجبائی فی التحصیل علی دخل کان أقصاه ۱۰۰ ملیون من الدراهم من الفئة الأولی أی من أراضی الخراج. و خصص أکثر هذا المقدار لتسدید أعطیات المقاتلین المقیمین (یبدو أنهم لم یقبضوا سوی عطاء أو عطاءین فی المدائن، أی قبل الانتقال إلی

الکوفة، و لا شک أن المبلغ المذکور استخدم أیضا لسد نفقات الإدارة و الأشغال العامة.

و أخیرا تغذی بیت المال المرکزی بمداخیل العراق أساسا، و أعاد توزیع جانب من المال علی المستحقین من النخبة الإسلامیة المدنیة و المسجلین بالدیوان، بدایة من سنة ۲۰ ه. و بذلک ندرک الدلالات المتعددة التی تضمنها اختیار عمر. لم یتعلق الأمر فقط بحمایة زراعة مزدهرة من خلال المحافظة علی هیاکلها البشریة و الجبائیة، و لا بتجنب غلیان الأطماع و تراتب الناس حسب ثرواتهم، بصورة لا تتیح المراقبة، بل أضیفت إلی ذلک فکرة مفادها أن الخیار العسکری العربی أمر دائم یوجب تحریر العرب من الهمّ الاقتصادی، و الاستعاضة عن الاتجاهات الإقلیمیة التی یحتمل أن تنشأ عن الاستقرار الزراعی، بمبدأ وحدة الأمة الإسلامیة و تضامنها أیضا. و تجسم الدولة هذا التضامن و تقوم مقام الوصی و المتصرف و المنظم و الوسیط و الموزع. فأسست هکذا تراتبیتها التوزیعیة التی احتلت فیها النخبة الإسلامیة بالمدینة مقام القمّة. و بذلک فإن فیء العراق لا یوزع علی الرجال الذی افتتحوه عنوة فحسب، فقد أصبح المهاجرون و الأنصار یستحقونه، و کل الذین و فدوا علی العراق، من العرب البدو أو الروادف، و طبعا الأجیال القادمة. و بذلک تکون الطریقة التی سنها عمر قد تمیزت بتجاوز حدث الفتح البحت، و التوسیع تدریجیا لحلبة المساهمة و دعم سلطة الدولة التنظیمیة. علی أن الأمر یتعلق بتحویل فعلی لمکاسب العراقیین بصورة من الصور، یعنی ذلک تبعیة تتزاید باستمرار بطول المدة، تجاه السلطة المرکزیة.

و فیما یخص الفئة الثانیة، أی أراضی الصوافی، کان لتدخل الدولة تأثیر أقل شدة علی الأقل فی بدایة الأمر. فقد شملها المقاتلة عن طیب خاطر بمبدأ عدم التقسیم لکن ما کان مفروغا منه هو ملکیتهم لهذه الأراضی بصورة جماعیة لا یشارکهم فیها أحد. فانطبقت کلمة فیء سریعا جدا علی الصوافی بصفة خاصة عند سیف بن عمر الذی میز فضلا عن ذلک بین أهل العطاء و أهل الفیء. و بما إن هذه الأراضی کانت بالماضی ملکا للمقاتلین

الفرس، فقد کان عسیرا حرمان المحاربین العرب الذین استولوا علی السواد من التمتع بها.

فلم یرد فی هذا الباب ذکر الأجیال القادمة و لا الروادف أو الإنضمام إلی نسق الدیوان علی الأرجح، بل کان الحضور فی ساحة الوغی هو الذی یؤخذ بعین الاعتبار لا غیر. فکل محارب شارک فی القتال فیما بین مرحلة الأیام و الاستیلاء علی المدائن، له استحقاق فی الفیء- الصوافی بسواد الفرات، و کان المقصود بالذات هو الجیش الذی حضر برمّته وقعة القادسیة. لکن المقاتلین فی جلولاء فقط، أی ۱۲۰۰۰ رجل بقیادة هاشم بن عتبة، استحقوا الفیء دون الآخرین علی ما یبدو، فی ما وراء دجلة. یقول سیف: «و کان أحظی بفیء الأرض أهل جلولاء، استأثروا بفیء ما وراء النهروان و شارکوا الناس فیما قبل ذلک».

و هکذا تجعل الدائرة المضاعفة للامتیازات التضامن یربط بدایة بین أهل القادسیة ثم بین رجال جلولاء بالخصوص، الذین

تحصلوا بذلك على الأكثر، دون التوقف عن المشاركة فى الأقل. بقى أن نتعرف عليهم. لا شك أن بجيلة بقيادة جرير، و طليعة زهرة أيضا، و رجال القعقاع، و فدوا لتقديم المدد فى القادسية على رأس أهل العراق أصحاب خالد سابقا، يعنى المشاركين فى الأيام لسنة ١٢. و من المحتمل أنهم كانوا قليلى العدد نسبيا عند العودة من الشام إلى العراق. لكن لا ننس أيضا بروز عناصر من الردة فى معركة القادسية حيث رويت أسماء قادتهم الرئيسيين كطليحة و عمرو بن معديكرب خاصة. لا بد

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۶۶

أن هؤلاء القادة شاركوا أيضا فى فيء جلولاء بصفتهم شركاء فى الملكية. على أن التصرف أنيط بعهدة الأمراء، أى الماسكين بالقيادة كهاشم، و خالد بن عرفطة، و القعقاع، و زهرة بن الحوية، و جرير بن عبد اللّه البجلى، فاستثنى قادة الردة من التمتع فعلا بهذه الأراضى.

الحقيقة أن القادة الرئيسيين وقع اختيارهم من أهل الأيام، لكن لم يكونوا منهم جميعا دون شك، و بذلك يكون التعريف الذى اقترحه شعبان جريئا نوعا ما، و مفاده أن أهل الفيء هم أهل الأيام. إن العهد إلى كوادر الجيش بالتصرف فى أراضى الصوافى يعنى أن امتيازا مشطا سلم إلى هذه النخبة الإسلامية التى أراد لها عمر أن تتميز من العامة فأفردها بوضع متميز من الرؤساء التقليديين، بداية من وقعة القادسية. و كما سنرى لاحقا، فقد طرح هذا الإقصاء قضايا خطيرة. لكننا على جهل بالأهمية الحقيقية التى كان عليها التفويض الذى تمتع به الأمراء و الكيفية التى استثمروا الأرض بها، و كيف وزعوا على عامة المستحقين ما يستحقونه. و أقصى ما نعلم أن الكثيرين منهم استقروا فى قلب السواد، و نستشعر بأنهم ربما قاموا فى أراضى الصوافى بدور شبيه بدور الدهاقين فى أراضى الخراج.

تلك كانت القواعد التى أجملناها و المتعلقة بالتنظيم العربى الذى ساد العراق، و قد سبق أن وضعت خلال مرحلة المدائن. لكن من الواضح تماما أن الخيارات إذا كانت واضحة و استخدمت كمخطط للمستقبل، فلا بد أن الترتيب الفعلى ظل يكتنفه الغموض. و الأرجح أن نسب العطاء لم تتحدد إلا عند إقامة الديوان؛ كما أن إنشاء مؤسسات الإحصاء، و توزيع الأعطيات، و التجنيد، لم يتمّ إلا بعد التحوّل إلى الكوفة.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۶۷

– ۴– انشاء الكوفة (أواخر سنة ١٧ ه/ ۶۳۸)

ما ينبغى تأكيده جيدا، أن عرب العراق رغم أنهم اندمجوا فى نسق أكد التفوق الأبوى للدولة، فإنهم تمتعوا فعلا بأعظم جزء من مداخيل الولاية بفضل مؤسسة العطاء.

ذلك أن بيت المال بالمدينة تغذّى أيضا بموارد أخرى. و ما يستخلص فى التحليل الأخير أن إعادة توزيع الأموال لصالح الارستقراطية الإسلامية لم يشمل سوى قليل من الناس. و لا شك فى قلة احتياجات الدولة و فى بساطتها فى تلك الفترة، مما جعل ولاية العراق تتمتع باستقلالية ذاتية مالية لحد كبير. و كانت هذه الاستقلالية شرطا أوليا لتكوين مصر الكوفة.

لعل كلمة مصر من أصل يمنى، و لم تكن شائعة للتعبير عن إنشاء الكوفة (خلافا لكلمة تخطيط التى تعنى الاستيلاء على الأرض بعد تقسيمها). و من الممكن أن الكلمة شهدت تطورا و أنّها رسخت فى الاستعمال ارتباطا بما أوحت به من واقع. كانت توحى فى الأصل بفكرة الحدود و المعسكر الحدودى المتاخم لعالمين حيث يجرى توزيع الفيء «دون الرجوع إلى الخليفة».

لا شيء فى المصادر المتوافرة لدينا يدل على الأسباب المحتملة التى يمكننا عرضها بخصوص انتقال جيش المدائن إلى الكوفة العتيدة، كضرورة الحفاظ على الهوية الثقافية و الإصرار عليها، و الصلات المتيسرة بالوطن الأم، و الانفصال عن السكان

الخاضعين، و الاستعداد العسكرى. حقا أنّ إحدى الروايتين اللتين ذكرهما البلاذرى، و هى رواية مدنية (للواقدى)، أشارت جيدا إلى السبب الأصلى المتمثل فى الأمر الذى أصدره عمر لسعد بأن

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۶۸

يجد «دار هجرة» لا- يفصلها البحر (بمعنى النهر) عن المدينة أى أن يبقى الإتصال المكانى ببلاد العرب قائما. لكن الإشارة إلى الأسباب المناخية كانت هى الواردة فى كل الروايات الأخرى. و لنأخذ على ذلك مثل الطبرى: تستند كل الروايات الخمس المذكورة بخصوص الإنشاء، و من بينها أربع روايات رواها سيف و خبر واحد رواه أبو عوانة، إلى مشكلة المناخ. و لم يزد البلاذرى عن كونه حوّل المكان الذى انطلق منه المشكل المناخى، فلم يحدده فى المدائن بل فى المواقع المختارة مؤقتا بالأنبار و سوق حكمة.

لا بد أن المشكل كان واقعا. إذ بعد أربعة عشر شهرا من الإقامة فى المدائن تخللتها عمليات جلولاء و حلوان و سواد دجلة، ظهرت علامات التعب على العرب فلم يتكيفوا مع المناخ و اعتبروه مضرا بصحتهم، و متعفنا، و وخيما. و كانت الحشرات تنهال على الجمال و توجعها. فصار واضحا أن موقع المدائن المائى لم يناسبهم. كان موقعا غطته القنوات، فكان نديّا على الرّغم مما امتازت به مثل هذه المدينة المشيدة المنظمة من الميزات. و قد صار مؤكدا أن ضرورة التكيف مع المحيط الطبيعى لا مناص منها فى كل المواقع التى استقر فيها العرب. فأدى ذلك إلى اختيار الفسطاط بدل الإسكندرية، و القيروان بدل قرطاجة. تلك كانت الضرورة الطبيعية التى أملت على العرب اختيار موضع الكوفة على مشارف الصحراء دون شك، فأثر ذلك الاختيار بدوره على الخيارات القادمة، و سن سنّة. و عندى أنّ اختيار الموضع أملته أيضا خيارات سياسية و استراتيجية و ثقافية.

لقد كان لتعليمات عمر دور جوهرى فى هذا الاختيار، و هو الذى ينسب إليه هذا القول: «إن العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلا ما يصلح الإبل. فهل كان قوله هذا تعبيرا عن تصور رعوى للوجود العربى فى العراق و كامتداد لوجودهم فى بلاد العرب، و كيف وقع أن المقاتلين العرب فى المدائن و جلولاء قد اصطحبوا ابلهم؟ تثير هذه العبارة مشكلا متشعبا هو: استقرار العرب، و تراكب الأنماط الحياتية السابق منها و اللاحق، و آثار الحياة الرعوية أو الإرادة العنيدة فى المحافظة على نمط العرب الحضارى، رغم أنهم كانوا محمولين على تقمص دور آخر هو دور المجموعة الامبراطورية المقاتلة المقامة على توزيع المال المقتطع من الأهالى الأصليين. ستكون لنا عودة إلى هذا الموضوع.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۶۹

و الملاحظ على كلّ أن الإبل كانت حاضرة، سواء اعتبرنا هذا الحضور بقية من بقايا الماضى أم لا. و لا يستبعد أنه أثر فى قرار الانتقال إلى منطقة تشرف على البادية لأسباب نفسية أكثر منها اقتصادية، كان التكيف مع الموقع أكثرها بداهة، ذلك أن العرب لا- يتكيفون مع مكان إلا- إذا تكيفت معه مواشيهم. فكان موقعا بين البر - عالم السباسب و الصحراء- و الريف- عالم البادية المزروعة، المنظمة، غير العربية، الخاضعة «للبحر»، بمعنى أن له وضعية الحدود فيسمح بمراقبة السواد دون أن ينفصل عن بلاد العرب. و تذكر المصادر أن استكشاف الأراضى شمل الفرات على امتداده، و قد قام بالعملية سلمان و حذيفة بن اليمان، سلمان من جهته و حذيفة من جهته، ذلك أن مواضع كثيرة قد تستجيب للشروط المقررة مسبقا، و ذكرت المصادر مرارا إسم الأنبار و هى الحاضرة التى أنشأها سابور. و قد مر بها سلمان دون أن يتوقف، و هذا ما ذكره سيف. و أقام سعد فيها مدة، كما قال الواقدى، و فيها تململ الجيش من كثرة الذباب. الواقع أن الأنبار كانت تتمتع بموقع استراتيجى طيب:

كان مدينة حدودية، فضلا عن وقوعها بمدخل أول طريق مائية بين الفرات و دجلة. و قد أعدّ فيها السفاح بعد ذلك مقر إقامته. إلا أنها كانت حاضرة تقع فيما وراء الفرات، بعيدا إلى الشمال فى ظن المخططين، و كانت مدينة قائمة الذات بمعنى أنها كانت

مجمدة الهياكل، فى حين أن همة العرب تعلقت بالجديد، أى أن رغبتهم فى أن يشكلوا مجالا وفق مزاجهم، لا أن يسكنوا إطارا مبنيا طبق مقاييس حضارية مغايرة. و يحتمل أنهم لم يريدوا حتى إنشاء مدينة ما خلال المرحلة التى وقفوا عندها. بل إن همّهم كان إقامة معسكر مفتوح، كما جاء فى توصية منسوبة إلى عمر. حتى أنهم مالوا إلى اختيار أرض عراء بدل اختيار الأنبار، أو سوق حكمة و حتى الحيرة. كانت الحيرة شديدة التوغل فى البادية و لم يكن قربها من الفرات و السواد كافيا، لكنها كانت تقع بالخصوص تحت وطأة الماضى الذى أرادت العروبة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٧٠

الجديدة الانفصال عنه. و مع هذا فلا بد أن قربها قد لعب دورا فى الاستقرار بموقع الكوفة، و قد ورد خبر فريد لكنه مثير للاهتمام مذكرا بتدخل لبنى بقيلة الذين أسدوا النصح لسعد حتى يختار موضع الكوفة.

تتحدث المصادر عن ذلك و كأنه اكتشاف. لكن سبق للعرب معرفة هذه المنطقة فضلا عن أنها وافقت التصور الذى أراده عمر و فرضه. كانت منطقة مأنوسة لديهم نظرا لما شنوه من غارات على الحيرة و ضواحيها فى البداية ثم لأن معركة البويب دارت فيها، و قريبا منها دارت وقعة القادسية. لقد طرق العرب باب العراق من هذا المكان، و من هنا كان الممر الذى يسّر تسربهم. و ما يمكن استخلاصه أن أيسر خط للمرور بين بلاد العرب و العراق كان يمر من هذا المكان، و كذلك الأمر بخصوص عبور الفرات الأوسط و بلاد بابل كافة. إن موقع الكوفة يمثّل نقطة اتصال كما نقطة التقاء بين عالمين و هو ينفتح على الأمداد العربية القادمة من الصحراء، و يشرف على السواد مع كونه متأخرا عنه. تلك كانت وضعية الكوفة. و بما أن العرب فضّلوا تجميع الأمة و وقفوا ضد الانبثاث فى السواد، فقد كان منطقيا نسبيا تحديد هذا الموقع المهمش الحدودى الخارج عن المركز، مع أنه كان موقع اتصال.

و هم سيقومون بحركة معاكسة فى اتجاه الشرق، بغرض إنشاء واسط أولا، ثم بغداد، لكن بعد أن استوثقوا تماما من المجال العراقى و مما يليه من بلاد فارس.

لقد فعلت الظروف المناخية فعلها بخصوص انتقال الجيش، فوجب على موقع الكوفة أن يكون صحيا. كانت الكوفة تقع فى المكان الذى يدلع البر لسانه فى الريف المروى، فى موضع متقدم من البرّ إذن، على سطح يقع فوق شاطىء الفيضان للفرع الرئيسى للفرات فى ذلك العصر، على ارتفاع يناهز ٢٢ مترا من مستوى البحر. و يرتفع الموضع فوق النجاف غربا، الذى كان بمثابة الحوض المالح، و قد كان أصله محل نظر عند الجغرافيين العرب، و كذلك فوق البطائح جنوبا التى كانت تمتد حتى البصرة، و هذه البطائح عبارة عن مساحة غارقة فى الماء حيث ينبت القصب و الحلفاء. و أرض الكوفة مزيج من الحصباء

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٧١

و الرمل الأحمر، فأما مصدر الحصباء فهو الرسوبات النهرية و أما الرمل الأحمر فهو متأتّ من الغرب، كما يدل اسمه على ذلك (سهلة) لأن مسجد السهلة الذى استكشفته التنقيبات كان يقع بالضبط إلى الشمال الغربى من المصر. و بقدر ما نقترب من النهر فى المنطقة الغربية دائما، تكون الأرض مشكّلة من غرينات طينية تحدّد الملطاط.

إن جودة موضع الكوفة، و هواءها النقى و مواردها المائية الطيبة، كل ذلك كالت له كتب الأدب المديح، و لا سيما من خلال ذكرها للمجالس التى تواجه فيها الكوفيون و البصريون، و قد اعترف البصريون على الدوام بعيوب مدينتهم. و فوق كل ذلك، إنّ ما يجعل هذا الموضع ذا قيمة استثنائية بالنسبة للسكن البشرى، كونه محاطا من كل جانب بمناظر جغرافية تختلف شديد الاختلاف: الصحراء و النهر و البطائح و البحيرة المالحة، دون التأثر بمساوئها. و فى إمكان هذه الصلة الممتازة بين الصحراء و الأرض الزراعية، المستقرة، المائية أن تنشىء نوعا من التكامل ينبغى التعمق و التمعن فيه، لأن الأمر قد يتعلق أيضا بحل تلفيقى،

مستحیل، أو یتعلق بالتردد و عدم الاختیار.

إن تربة الکوفة لم تکن معدة للزراعة بل للاستقرار البشری. فاستقر العرب فیها، و لم یجدوا سوی ثلاثة أدیرة فصلت بینها مساحات قصب، هی دیر حرقة و دیر أم عمرو، و دیر سلسلة. کانت هذه الأدیرة شاهدا علی استقرار المسیحیة العربیة التی أشعت انطلاقا من الحیرة. و علی هذه المواضع الهادئة أقیم فی أواخر ۱۷ ه/ ۶۳۸ تجمّع هائل من القبائل العربیة و العشائر و أنصاف القبائل، أتی البعض منها من البعید النائی و البعض الآخر من البعید القریب، فجعلوا منها مکانا ساما للتاریخ المضطرب و رحما أساسیا للحضارة و الثقافة الإسلامیة قاطبة.

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۷۳

الباب الثانی المخطط المدنی الاول

اشارة

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۷۴

- ۵- تشابک المشاکل

اشارة

أشرنا حتی الآن إلی التقلبات التی طرأت علی نشأة الکوفة و إلی الأسس التنظیمیة التی ستعیش علیها. لکن، ألا یتجاوز الفتح العربی للعراق مصیر الکوفة، إذا ما شرعنا فی دراسة هذا المصر فی خصوصیته و فی وجوده الهش کمدینة؟ لا شک أن المأثرة العسکریة التی دامت خمس سنوات و التی انطلق منها العرب فخرجوا من الحجاز و نجد و الیمن إلی طیسفون، أعطت أکلها فکانت الکوفة و کانت البصرة أیضا. و کان من المحتمل أن یؤول الأمر إلی خیار آخر، مثلا إلی انبثاث فی السواد، ریفی الطابع. لکن لا مناص من الاعتقاد أن فکرة الهجرة هی التی هیمنت علی فتح العراق، بصورة أوضح مما کان علیه الأمر بالشام، و أن الاستقرار بالکوفة کان الغایة و المحرک للعمل العسکری. کان العرب یهدفون إلی احتلال مکانة الفرس بصورة محسوسة، أکثر مما کانوا یهدفون إلی تحطیم الامبراطوریة الفارسیة فی العراق، بوازع القوة. و اجتمع فی الکوفة أکثر المقاتلة، فبدت و کأنها نتیجة تمخضت عن الفتح إلی حد بعید، ذلک أن التسلسل من الفتح إلی الکوفة أقرب إلی الإدراک الفوری مما علیه فی البصرة. بقی أن نطرح المشکل الذی ألمحنا إلیه سابقا، و المتعلق باختیار النموذج المدنی کنمط للاستقرار بالعراق، أی فی الکوفة کما فی البصرة. کان اختیارا کبیر النتائج لتحکمه فی بنیة الحضارة العربیة الإسلامیة المرتقبة و فی التوسعیة العربیة کما فی الأسلوب المضطرب الذی عاشته الکوفة. ذلک أن مفهوم المصر ینطبق بدایة علی مرکز ذی اتجاه عسکری حدودی، لکنه یعنی أیضا و بصورة لا تقل قیمة، إقامة دائمة للسکن قابلة للتطور إلی مدنیة.

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۷۵

ارتبطت الکوفة فی نشأتها و نشوئها بالعمل العسکری، متحملة إیاه کهدف لها طیلة قرن. لم تکن حاضرة- امبراطوریة، بل کانت إحدی الحواضر الأساسیة لامبراطوریة أرضیة شاسعة فی حالة تکوّن، و قد ساهم رجالها مساهمة کبیرة فی خلقها و المحافظة علیها، و توسیعها. صارت الکوفة جزءا من الجهاز العربی لاحتلال و مراقبة المشرق کافة- أی العالم الساسانی- موجهة قدرتها

العسكرية إلى التراب الإيرانى الذى كان أفقا للفتح انفتح إلى ما لا نهاية. و مع هذا، كان الطابع المدنى للسكنى، و التعايش المنظم العائلى و العشائرى و القبلى، قائما منذ البداية. لم يكن الجيش فى الكوفة مقيما على شكل حامية كما هو الشأن فى مستعمرة خارجية، كما فى الماه أو الثغور تحديدا. بل استقر فى وطنه الجديد دون إبداء نية فى العودة. و بذا دلت كلمتا مصر و مصّر منذ البداية على الكيان المدنى، سواء على الصعيد البشرى أم على الصعيد الهندسى المعمارى، حتى إننا نجد ابن خلدون يستعمل ذلك باستمرار فى فترة متأخرة، تسمية للظاهرة المدنية فى نقاوتها المطلقة، و فى أشد معارضتها للحياة البدوية.

تخطئة بعض التصورات. قضايا حقيقية و قضايا خاطئة

المفارقة أن الكوفة و هى المصر المثالى، كانت مصرا للبدو فى أول الأمر. إذ لا يمكن أن تنزع عن قبائل مثل أسد و تميم و كندة، التى استقرت بكثرة فى الكوفة، السمة المزدوجة للبداوة العربية، أى التنظيم العشائرى و القبلى الذى استبقى فى الكوفة، و ماضى الترحل و الظعون. لكن الأمر يرتبط ارتباطا دقيقا بماض معين، مهما كان قريبا. أما عن الظاهرة القبلية، فقد تأطّرت بقوة التنظيم الحكومى و العسكرى و الجبائى. و لم ترتبط بالترحل و ما كان أحاط به من تيه و نهب. هنا فى هذا الزمن و المكان، بقيت القبائل مستقرة منضبطة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۷۶

متحضرة بصورة متزايدة، مع المحافظة على صلات وجدانية ببلاد العرب، على الرغم من استمرار نمط العيش السابق فى التأثير على السلوكيات و الذهنيات. و الأهم من ذلك أن الاستقرار كان له من السرعة و النجاح ما جعل الترحل يظهر جليا و كأنه كان ضرورة بالنظر للماضى و واقعا حتميا، أكثر مما كان وجودا محبوبا، مع أنه كان محبوبا بصورة من الصور. أما عن الكوفة، و البصرة أيضا، فما من شىء أغرب، بلا شك، عن واقع الأمور من الفكرة الشائعة التى تقول بهجرة فوضوية وفدت منقضة على بلاد الرافدين. إن مقابلة أو معارضة ابن خلدون بين المصر و الإنسان البدوى فى منحى التنافر بينهما، قد تكون وجيهة فى فترات متأخرة، فى الكوفة بالذات و فى غيرها، لكنها ليست كذلك قطعا فى الفترة التى تكوّن خلالها هذا المصر و ازدهر. هذا إشكال خاطىء ينبغى إحباطه. و توجد إشكالات أخرى أكثر دقة، منها إشكال الاستقرار مثلا. لقد اعتبره ماسينيونMassignon، و ريشارد بولياتRichard Bulliet أيضا، تجربة حاسمة فى الكوفة التى كانت لديهما نموذجا جديرا بأن يبدى الرأى فيه المخططون المعماريون المعاصرون، و عرض كل منهما تفسيرا لهذا النجاح العظيم الذى بلغته عملية الاستقرار. و قد عزاها ماسينيون إلى الدور الدافع الذى لعبه اليمنيون المتحضرون من قديم، و عزاها بوليات إلى فقدان الفاصل بين ظاهرة الترحل و ظاهرة الاستقرار فى ماضى الشرق قبل ظهور الإسلام، و تمادى هذا التناضح فى الكوفة و البصرة. ينبغى أن تؤخذ وجهات النظر هذه بعين الاعتبار قطعا، و لكنها تردّ دون وعى على الإشكالية القديمة و تتقمصها، حتى لو تعلق الأمر بدحضها (بوليات). الواقع أنه يمكن التساؤل عما إذا كان لفظ الإستقرار هو اللفظ الصالح فعلا فى هذا الصدد. لعل الأولى القول إنها كانت عملية تمدنية جدّت فى ظروف خاصة، اثر دعوة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۷۷

دينية و ضمن نشوء دولة إمبراطورية، و بعد الفتح. إن العنصر الإرادى كامن دائما، و لا سيما عنصر التأطير. قد يكون لمفهوم الاستقرار معنى أنفذ، لو استقر العرب المهاجرون فى السواد بصفة فلاحين، استقرارا عفويا ضمن إطار اقتصادى مندمج، منسجم تقريبا، أى فى ظروف تاريخية لم تعرف الانقلاب الهائل الذى أحدثه الإسلام. إن التغيير، بطابعه المحير، يكمن فى التدرب على التعايش بين قبائل كانت متباعدة الواحدة عن الأخرى منذ أقدم العصور، أكثر مما كان ترسيخا سكنيا لأناس اعتادوا من قبل

التنقل الترحلى، كما أنه يكمن فى امتلاك جديد للروح الحضرية، و الخضوع لدولة فوقية موحّدة. و لم يتسرب لا محالة أى شىء من المصادر، تسربا صريحا، فيما يخص الطريقة التى بها تم الاستقرار. و بلوغا لذلك، ينبغى أن نعود إلى طرح القضية ضمن منظار يخالف كل المخالفة منظار الجغرافيا الاستعمارية أو نظرية التنمية التخطيطية. و ما يلفت النظر أن النصوص القليلة المتاحة و الخاصة بالكوفة و تشييدها من الداخل، تجرّ الباحث كلما تعمق فى المطالعة إلى الاقتناع بأن الأمور تمت من أول وهلة، و أن الكوفة حصلت على خاصيات المصر الأساسية منذ انطلاقتها الأولى و فى فترة قصيرة، المصر أى مكان إقامة دائمة، مالك لنواة معمارية و منظم، و من البديهى أنه يجب إعادة النظر فى مراحل تطور الكوفة منذ خطواتها الأولى.

سبق لنا أن جلّينا مظهر الكوفة، و سنحاول التدقيق فيه، و هو فى الحقيقة يتحدى التصورات المعهودة. نحن نترقب مثلا أن تعود بقوة إلى السطح مسألة العلائق القائمة بين المدينة و الريف. الواقع أن الكوفة كانت مرتبطة فى آن بالسواد، و منه تستمدّ عيشها و قاعدتها المادية- كنقطة لامتصاص الفىء، كما يقول ماسينيون، و مرتبطة ببلاد العرب حيث تستمد جوهرها البشرى و الثقافى. إلا أن نشاطها ارتبط بالأفق الإيرانى الذى اتجهت إليه بكامل طاقتها. و لذا يظهر السواد عبر المصادر بمظهر الإطار الجغرافى، و «البستان» فى نظر أهل الكوفة، تمثلا بعبارة معروفة، أكثر منه فضاء اندمج فى الحاضرة أو غزاها. المؤكد أن المبادلات البشرية جدّت وزادت قوة بمرور الزمن، لكن يتبين أن

الانفصال كان أقوى من التناضح. هذا و لا يمكن الحديث عن عراق عربى جديد فى القرن الأول الهجرى تحتل فيه الكوفة و البصرة موقع العاصمتين السياسيتين. بل على النقيض من ذلك مثّلث هاتان البؤرتان العراقين العربيين، و استنفدتا فكرة العراق العربى، فما كان يوجد خارجهما شىء سوى سواد البصرة و الكوفة أى ميدانهما أكثر مما هو ترابهما. و قد اقتطع بعض الأفراد من أرستقراطية الأشراف قطائع و أقاموا بها من حين لآخر، و منهم المختار. لكن الحياة الزراعية استمرت على ما كانت عليه فى الماضى، مع قيام الدهاقين بمهمة الجباية، و كانوا مسؤولين أما دواوين الدولة. لقد كان الرجل العادى فى الكوفة يشعر بوزن السواد شعورا سلبيا فقط، عندما تنقص مداخيل الخراج باستحواز جماعات الخوارج على الأموال. و يعنى هذا أن العلاقة بين المدينة و الريف لا تسترعى هنا الانتباه كثيرا و لا تبرز للعيان و أنها أكثر تشعبا مما هى عليه فى وضع المجتمع المنسجم غير المتأثر بظروف الهيمنة العسكرية و العرقية، أو فى صورة الحاضرة المستقلة التى لا تعيش إلا اعتمادا على ترابها. و من المفارقات أنه بقدر ما يقوى الرباط الحميم الذى يربط بين الكوفة و السواد، يتضاءل شعورهم بهذا الرباط. و بدون أن تكون العلاقة بين الحاضرة و ريفها مفقودة، فهى تكتسى صبغة ثانوية فى هذا المجال، كأن الكوفة قد اقتلعت من الأرض

للنهوض بمشاريع يغطّى رهانها مجال الإسلام كله. لم تكن الكوفة مدينة زراعية كما أنها لم تكن مدينة تجارية. و هذا منظار آخر ينبغى تفنيده أو تقويمه: و هو يتمثل فى فكرة ما للدور التجارى من أهمية ضرورية لتفسير الازدهار الذى تبلغه حاضرة من الحواضر. و هى تتحول إلى فكرة فاتنة شديدة الجاذبية إذا تعلق الأمر بمدينة إسلامية، منذ أن أبرزت أهمية اللغة التجارية فى القرآن، مرورا بالتاريخ القوافلى لمكة، دون إغفال الاتجاه التجارى الأولى للرسول، إلى أن أوضحت خطوط الاتصال الكبرى فى العالم الإسلامى بصورة مفصّلة أكثر، و وزنه النقدى فى العصر الكلاسيكى (٦٥٠- ١٠٥٠)، و كذلك تيارات المبادلات العظيمة التى اخترقت مجال الإسلام. لم ينفك التقليد التاريخى الحديث يفرض أخذ الظاهرة التجارية بعين الإعتبار، عند القيام بأية دراسة تاريخية للمدينة، إلا أن الكوفة، و كذلك البصرة، لم تنشأ من احتياجات التجارة التى لم تكن محركا لتطورها. و فى حين أن البصرة- التى ازدهر دورها التجارى كما عرفناه، فى القرن التاسع - تمكنت لا محالة من النشوء مجددا من العدم، نظرا

لموقعها الطيب، كان المركز الدينى بالنجف العنصر الوحيد الذى خلفته الكوفة حين قضى عليها إلى الأبد. لقد تمكنت التجارة من إنقاذ البصرة إلى حد ما. و بما أن التجارة كانت ضعيفة بالكوفة، فإنه لم يتح لها مثل هذا الإنقاذ. و بعد، فقد ظهرت التجارة هنا و هناك منذ البداية، و قامت بوظائفها الأساسية فى تغذية الحاضرة و هى الحاضرة المتخمة بالعملة، لكن هذه التجارة تمت انطلاقا من المال الموجود و العمران القائم.

لم تنشأ تصورات شعبية خاصة بالكوفة، لها ثراء التصورات نفسها التى نشأت بخصوص البصرة و بغداد اللتين كثيرا ما ورد ذكرهما فى كتاب ألف ليلة و ليلة مثلا. حقا

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٨٠

وجدت رؤية شيعية كارثية، و قد حللها ماسينيون، كما وجد تصور ثقافى، ما زال حيا، متعلق بالارث النحوى، إلا أن ايقاع أطوار حياة هذه الحاضرة بقى هزيلا- فى المخيال الإسلامى. و بذلك تفرض نفسها صورة الحاضرة الإسلامية المتأخرة، الحاضرة المختنقة فى أزقتها الضيقة، المسحوقة بتشعبها الفوضوى، المأهولة بالسكان و المتلونة، و إذا كانت فكرة «المدينة» قد ظهرت بظهور العصر العباسى- التى نفترضها متراصة- و كذلك فكرة الربض المحيط، يبقى أن الكوفة تميزت بخاصيات المدينة المفتوحة الهندسية الواسعة المهوّاة و هى الخاصيات الموجودة حين كان نشاطها السياسى و العسكرى على أشده (١٧- ١٣٢ ه/ ٦٣٨- ٧٤٩)، و الموجودة مجددا فى آخر مراحل حياتها. و لذا وجب فى استقرائنا للمدينة الإسلامية من الجيل الأول إمعان النظر باتجاه الماضى القريب (العربى ذاتيا، و الماضى الفارسى و الهلنستى)، أكثر من إمعانه بالاتجاه إلى المستقبل أى نحو الجهاز الكلاسيكى، و قد أصبح هذا الجهاز يتماثل مع طول الزمن و إلى حدّ كبير بنمط المدينة العراقية القديمة).

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٨١

لا شك أن شخصية حاضرة ما و لا سيما اختياراتها الإيديولوجية تؤثر فى بنية مجالها و أكثر من ذلك فى رؤية هذا المجال، و قد أجاد ماسينيون عرض التصور الشيعى اللاحق (القرن الرابع ه/ العاشر م.) للكوفة. لكن تصور المدينة الشيعية المتميزة بطابعها الفارسى و ذات الخصوصية الكبيرة، لا يطابق فى الجملة واقع القرن الأول و الثانى من الهجرة، حيث شاركت الكوفة بقسطها فى التاريخ العربى الصميم و فى صميم مشاكل الامبراطورية. فكانت مسرحا لأعظم الحركات على اختلافها و كانت نقطة تجذر فيها الفاتحون العرب الأوائل، و بوتقة لأسلمتهم.

عند ذلك تبرز على صعيد الجغرافيا التاريخية أربعة خطوط للبحث: قضية مدنية تهمّ تنظيم المجال الداخلى، و قضية تعمير و استيطان، و قضية بيئة، و أخيرا قضية وظائف الكوفة.

من الواضح أن هذه المستويات تتشابك فيما بينها، فيكون الفصل بينها مفتعلا.

إن تاريخ الكوفة غطته فعلا كتابات كثيرة. كتب ماسينيون بحثا ثريا جاء طابعه طبوغرافيا أصلا، و هو كذلك دون شك، لكن الأمر يكون متيسرا بصورة غير لائقة لو استرجعنا هذا البحث على علاته و توسعنا فيه لا غير، كما فعل الجنابى. أما التعمير فإنه يفترض دراسة علاقاته بالمجال و ضبطا لقائمة القبائل، و هو يطرح مشكلا سكنيا، مشكل التعايش الإنسانى و مشكل العلائق بالتنظيم العسكرى الجبائى. و فى المقام الثالث يستدعى المحيط التفكير فيه من زاوية المواصلات و الاقتصاد و الإطار الطبيعى و أسماء المواضع المشكّلة لدائرة الكوفة، و الحركة المزدوجة التى تدفع الكوفة نحو السواد و نحو بلاد العرب على السواء. و أخيرا فإن قضية وظائف الكوفة العسكرية و السياسية و الإدارية تثير من جديد القضايا السابقة لكنها تتشكل أساسا حول الروابط بالعالم الإيرانى. هذا و يواجهنا عائق التحديد الزمنى و كذلك العائق التوثيقى حيثما كان.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٨٢

الإطار الزمنی

عملیا شیدت مدینهٔ الکوفهٔ علی مراحل، و أکثر المراحل بداهة بعد تحلیل أولی هی:

خلافهٔ عمر (۱۷- ۲۳ ه/ ۶۳۸- ۶۴۳) و ولایهٔ زیاد (۵۰- ۵۳ ه/ ۶۷۰- ۶۷۲)- و کانتا فترتین رئیسیتین- و ولایهٔ خالد القسری (۱۰۵- ۱۲۰ ه/ ۷۲۳- ۷۳۷)، و العصر العباسی الأول (۱۳۲- ۱۹۷ ه/ ۷۴۹- ۸۱۳)، و العصر العباسی الثانی و هو فترهٔ زمنیهٔ شاسعهٔ (۱۹۷- ۳۳۴ ه/ ۸۱۳- ۹۴۵). توحی دراسهٔ المصادر المکتوبهٔ بهذا التقسیم الزمنی أنها مؤیدهٔ تماما بما توصل إلیه علم الآثار من نتائج، فالحفریات الجدیهٔ التی جرت فی القصر أتاحت بلوغ مستوی أولی، و مستوی أموی (یمتد علی فترتین) و مستوی عباسی (یمتد أیضا علی فترتین). و الأهم من ذلک أن القصر الأموی المشید و الذی أعید بناؤه، یشکل إلی حد بعید أهم عنصر فی العمارهٔ من جههٔ الهیکل کما من جههٔ المظهر. فجاء علم الآثار مؤیدا للتاریخ فی اصطفاء العصر الأموی عصرا أساسیا فی وجود الکوفهٔ، و لم یکن ذلک علی الصعید المعماری فحسب، إذ لم یقم الولاهٔ العباسیون بغیر ترمیم القصر الأموی لصلاحه علی وضعه القائم، لکن أیضا لأن التغییر شمل کل شیء فی الکوفهٔ فلم یعد هناک مجال للخلق، بل للتدعیم انطلاقا من البنیهٔ الموروثهٔ، إذ لم تعد الکوفهٔ عسکریا و سیاسیا، أحد المراکز الحیویهٔ للامبراطوریهٔ. و لیس من باب الصدفهٔ کذلک أن تکاثرت الجزئیات بالنسبهٔ للعصر الأموی فی ما لدینا من مصادر حیث کانت الأحداث متوفرهٔ عندئذ، و قد جدّت أمور و أمور. هذا و لا یمکن أن یکون الترابط عفویا بین ما اصطبغ به المستوی الأموی من مرکزیهٔ کشف عنها علم الآثار، و ما اکتسته الأحداث التاریخیهٔ من أهمیهٔ، و إسهاب الاخباریین فی الکلام عنها. حقّا لا یستبعد أن تکون الکوفهٔ أفادت فی العصر العباسی من نماء دار الخلافهٔ بصورهٔ عامهٔ و أنها امتدت فی الفضاء فی الوقت ذاته الذی رقت خلاله الحضارهٔ أی إطار الحیاهٔ، و یشهد علی ذلک اتساع حقل الآثار و إشارات متفرقهٔ إلی

نشأهٔ المدینهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ: الکوفهٔ، ص: ۸۳

فساحهٔ المدینهٔ، و مظهر الفترهٔ الأولی من المستوی العباسی بالضبط. لکن المعلوم أیضا أن القوی الحیهٔ- الاقتصادیهٔ و الاجتماعیهٔ و الثقافیهٔ- هاجرت من الکوفهٔ إلی بغداد و أن الکوفهٔ وقع الحط من مرکزیتها علی صعید المؤسسات، و صار وضعها هشا بصورهٔ متزایدهٔ. فإذا وجد نموّ ما فی الفترهٔ العباسیهٔ فینبغی إکساؤه صفهٔ النسبیهٔ و إدراجه فی الحرکهٔ العامهٔ للعالم الإسلامی الکلاسیکی (القرن التاسع و القرن العاشر).

و خلافا لذلک، کان العصر الأول المتفرع إلی ثلاث فترات هی الفترات التی تولی خلالها الخلفاء الثلاثهٔ (عمر و عثمان و علی) یبدو بدائیا من الوجههٔ المعماریهٔ، لکن ذلک العصر کان القاعدهٔ و الأس، و یمثله مستوی الأسس فی هندسهٔ القصر. لقد رسم هذا العصر من جمیع الوجوه بنیهٔ وجود الکوفهٔ، فخطط فی خلافهٔ عمر لهندسهٔ المدینهٔ و استنبط تنظیمها، و استعمل ذلک من عدهٔ وجوه فی خلافهٔ عثمان، و أضفیت فی خلافهٔ علی الصیغهٔ التاریخیهٔ ذات الدلالهٔ الرفیعهٔ بالنسبهٔ للقرون التالیهٔ.

کانت الکوفهٔ الأولی تاریخیهٔ أکثر من الکوفهٔ الأمویهٔ التی صارت مهمشهٔ فی ما بعد، و کانت الکوفهٔ فی العصر الأموی أکثر تاریخیهٔ منها فی العصر العباسی. لکن لا شک أنه ینبغی عکس الحرکهٔ علی صعید الحضارهٔ المادیهٔ. و مصدر الطابع المیز للعصر الأموی أنه جمع فی آن عنصر الحضارهٔ و عنصر الدلالهٔ التاریخیهٔ. فالکوفهٔ تشکلت عندئذ بوصفها مدینهٔ، و أفرزت الحدث بصورهٔ صاخبهٔ بصفتها موضع تاریخ، و لذا یستدعی هذا القرن قطعا عمودیا عمیقا. لکن لا یمکن تناسی الإطار الزمنی، و کله انفصامات و قفزات و وثبات، ضمن أیهٔ دراسهٔ بنیویهٔ ذلک أنه هو الذی یسمح بصفهٔ خاصهٔ بتجمیع و ترکیب جمهرهٔ الأحداث التی تخترق حیاهٔ المصر.

۶- الكوفة الأولى (۱۷- ۲۴ ه/ ۶۳۸- ۶۴۴) هل كانت مجرد معسكر أم مدينة حقيقية؟

اشارة

يكون انطلاقنا من نص رئيس كتبه لويس ماسينيون، و استعرض فيه مراحل التمصير معرفا إياه بأنه «الانتقال من مرحلة تجمع المعسكرات إلى مرحلة التوزيع على حارات فى المدن». ثم أضاف: «من المعلوم أن الكوفة، بعد سنة ۱۷ ه (- ۶۳۸ م)، لم تكن خلال السنوات الخمس الأولى من إنشائها، سوى مجرد تجمع من خصاص القصب (- أكواخ منطقة و هران)، يقام بين حملتين بصورة مؤقتة (استمرت النساء فى مصاحبة الرجال إلى الحرب). و أثناء ولاية المغيرة (التى امتدت من ۲۲ ه إلى ۲۴ ه)، ظهرت مواقع الخيام المصففة، بصورة دائمة، فى شكل حيطان صغيرة من لبن. و بداية من سنة ۵۰ ه/ ۶۷۰ م) وقع أخيرا الشروع فى بناء دور حقيقية من آجر، و كان ذلك فى ولاية زياد».

فالأمر واضح لا مراء فى ذلك: يرى ماسينيون أنها كانت إقامة عسكرية فى البداية، غير مستقرة، و يفسّر ضعف الاستقرار كذلك بأن الكوفيين بذلوا نشاطا واسعا فى منطقة الجبال. و استقر القوم بعد معركة نهاوند تماما (۲۱ ه/ ۶۴۲ م)، و بذلك عوضت الخيام ببيوت من لبن. و يمكن أن تكون «المناهج» وحدها هى التى ابتنيت فحدّدت بحيطان صغيرة

من لبن، على أنّ ماسينيون يماثلها بصفوف الخيام. و أخيرا، لم تشيد الكوفة حقا إلا فى العصر الأموى، خلال ولاية زياد، حيث استخدم الآجر المعهود فى بلاد الرافدين. هذا التصور جذاب حقّا و هو تصوّر تحتل فيه لوازم البناء مكانا مهما فى بلورة الكوفة و تحولها إلى مدينة، كما أن واقع الترحال العسكرى يخول إضفاء صفة المعسكر و المدينة- المعسكر على الكوفة. و تؤيد هذا التصور القريب من المعقول إشارة وردت لدى البلاذرى و جاء فيها أن أهل البصرة، كانوا فى بداية الأمر يقلعون خصاص القصب قبل الخروج إلى القتال، و يتحدث ابن سعد من جهته فى خصوص الكوفة عن الخيام و أهل الخيام كما ورد أنّ أغلب سكان الكوفة كانوا يسكنون بيوت القصب. إلّا أننا لا نعثر على أى أثر فى أقدم النصوص، نعنى سيفا كما رواه الطبرى، لوصف مثل هذه الطريقة البطيئة المتسقة المتبعة فى بناء الكوفة قبل ولاية زياد، أى الكوفة كما كانت فى خلافة عمر، و لم نجد أثرا لذلك فى فتوح البلدان للبلاذرى. و تعتمد هذه الصورة تماما على خبر عارض رواه ياقوت و انفرد بروايته (القرن السابع/ القرن الثالث عشر. يتحدث ياقوت بالخصوص عن خصاص من قصب كانت تقتلع فى كل حملة، حين كانت النساء ترافق المقاتلة إلى الحرب، كما يتحدث عما سنه الوالى المغيرة بن شعبة من تغيير (دون تحديد للتاريخ، ۲۲- ۲۴ ه. أو ۴۱- ۵۰ ه فى خلافة معاوية؟) لكن مقولة ياقوت عن الكوفة، و مقولته عن البصرة أيضا، اقتبستا أغلب موادهما عن البلاذرى. فما هو مصدر هذه الزيادات؟ سبق لصالح العلى أن لاحظ أن مصدر الفروق الطفيفة الموجودة بين البلاذرى و ياقوت بخصوص البصرة، يتمثل فى تآليف مفقودة، منها كتاب الساجى خاصة. لكن ما الرأى بشأن

الكوفة؟ لم يصل إلى علمنا شيء من ذلك. يبدو الخبر الذى أورده ياقوت دقيقا جدا، فلا شك أنه مستمد من مصدر معين. على أنه غير مستبعد أن يكون ما تجمع من خبر عن البصرة قد أسقط على الكوفة، و هو ما يوحى به كتاب فتوح البلدان عند الحديث عن اقتلاع الخصاص.

و ما لا يقبل الجدال أن ماسينيون اعتمد نصا متأخرا- هو نصّ ياقوت- انفرد بالخبر لرسم مسار الكوفة فى أول عهدها، باستثناء ما أمكننا الإطلاع عليه من وثائق. و بدا هذا الوصف مستندا إلى تحديد زمنى لم يعد ثابتا تبعا لذلك. و لنكرر ما قلنا: الثابت فى كل المصادر أنه تمّ استخدام القصب ثم اللبن، و لا يمكن أن يكون هذا الأمر محل نقاش.

و على النقيض من ذلك، يتفق البلاذرى و الطبرى على عدم التحدث بتاتا عن تفكك المعسكر عند بدء الحملة. و يأخذ كلاهما بعين الاعتبار التخطيط بمثابة الأمر الأساسى، أى التصور الشامل المخطوط على الأرض، الذى كاد يظهر بسرعة فائقة، من أول وهلة، مواكبا للبناء بالمواد الصلبة، كما روى سيف بن عمر هذا الأمر.

مشكلة المراحل حسب البلاذرى و سيف بن عمر:

إنّ لهذا النقاش أهميته كما هو واضح. ذلك أن الأمر يتعلق بالتحقق من وجود إرادة تمصيرية ظهرت منذ البداية، و صدرت عن السلطة كما عن أهل الكوفة. و لنتساءل هل كانوا يشعرون بكنه مدينة جديدة، و هل طرح على النظر مشكل الاستقرار، فى بداية الأمر؟

و يطرح أيضا مشكل الموازاة بين الكوفة و البصرة.

البلاذرى:

نبدأ باعتماد البلاذرى. فقد ذكر روايات سبعا، تهمنا منها مباشرة روايتان، الأولى مقتضبة و هى مدنية (عن الواقدى)، و الثانية مطوّلة و هى عراقية بصرية (عن أبى عبيدة) و كوفية (عن هشام بن الكلبى) فى آن واحد. و ينسب الواقدى كل شىء إلى ما قام به

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٨٧

سعد فى سنة ١٧ ه، أى الاختطاط، و توزيع الخطط على القبائل، و بناء المسجد.

و لا يتحدث هشام بن الكلبى و لا من روى عنهم من أهل الكوفة، عن الخيام أو خصاص القصب. و هم يلحون على العملية الأساسية الأولى المتمثلة فى تحديد مجال مركزى وقع برمى السهام، و يضم المسجد و القصر. و خلف هذا المجال المحدد بعلامات جعلته منيعا، وهب سعد خطتين كبيرتين، واحدة لقبائل اليمن كافة فى اتجاه الشرق، و الأخرى لمضر فى اتجاه الغرب. و هما تظهران بمظهر المجموعتين الموحدتين، لكنّ الخطط وزعت على القبائل فى صلب كل مجموعة، و لم يجر الحديث عن البناء فى هذه المرحلة. بل خلافا لذلك، يحدونا الشعور أن المجال المركزى، هو الذى يسميه غرابار Grabar «الفوروم» Forum، قد وقع الإقتصار على تحديده. لكن هناك فراغا فى الرّواية إذ هى تقفز إلى المغيرة و تنسب إليه توسيع المسجد ثمّ إلى زياد الذى ابتناه. و تقترب هذه الرواية مما رواه ياقوت و اعتمده ماسينيون، لكنها تفترض فكرة التخطيط الفورى النهائى، مع أنها لم تتحدث عن بناء المسجد قبل ذلك، حتّى و لو كان باللبن. و تشير هذه الرواية إلى دور المغيرة، و قد أكّدت على هذا الدور كذلك رواية ثالثة أوردها البلاذرى (عن المدائنى)، فنسب إليه صراحة فضل بناء المسجد الذى لم يعمل زياد إلا على توسيعه. علما بأن المسجد هو ما يضفى الطابع العمرانى على المدينة، فإنه يمكن أن نستنتج من ذلك أن البناء بالمواد الصلبة ظهر فى ولاية المغيرة. لكن هاتين الرّوايتين الأخيرتين توحيان بأن العمل كان منقوصا، إذ كيف كان المسجد و القصر فى ولاية سعد؟ يصعب الإعتقاد أن الأمر يتعلق بمجرد مجال خال. لقد روى البلاذرى نفسه أخبارا أخرى ذكرت ما أحدثه محمد بن

مسلمة بالكوفة، و قد أرسله عمر لإحراق بوابة القصر الخشبى الشامخة التى كان الوالى يحتجب خلفها عن الرعية. فهل كان قصرا مبنيا من قصب و كان بابه من خشب؟. لا نرجع ذلك، و إلّا كان علينا رفض الرواية

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۸۸

القائلة بأن سعدا بنى باللبن، و قد أيد سيف بشدة هذه الرواية، و كذلك الواقدى، و اليعقوبى.

و فيما كانت الروايات التاريخية العربية واضحة بالنسبة للبصرة، فى خصوص استخدام القصب لبناء حجرة الصلاة و القصر فى المرحلة الأولى، فإنّا لا نجد ما يقابل هذا بالنسبة للكوفة. و لعل ذلك لا يرجع إلى قضية التوثيق و حسب، بل إلى ما أحاط بنشوء المدينتين من ظروف متنوعة سوف نعود إليها.

سيف بن عمر:

يتوفر لدينا نص وحيد مفصل بخصوص بداية التخطيط. يحدد هذا النص بوضوح المراحل و يؤرخها خلال سنة ۱۷، مضيفا بعض العلامات الزمنية. و يستعرض بمزيد من الوضوح القبائل المستقرة و مواقعها، و ذلك ثمين بالنسبة لكل دراسة تخص الجغرافيا القبلية. إلا أنه يتبين بعد قراءة النصوص التى تروى الأحداث السياسية اللاحقة، أن توزيعه الطوبوغرافى للقبائل أصح من الروايات التى أقرت المضرية غربا و اليمنية شرقا. الحقيقة أن قيمة سيف فى هذا الباب جيدة كما نعلم. يبقى أن أخباره المليئة بالمعلومات توحى بضعفها من الوجهة الزمنية. و هو ما لا يفيد فى حل مشكل المراحل. ذلك أنه يتحول تحولا غير معقول من ولاية سعد إلى ولاية زياد. و تجرى الأمور كما لو أراد سيف تقديم صورة متقصاة لنشأة الكوفة و تطورها، متجاوزا مجرد الإطار الزمنى المحدد إلى عام ۱۷، فتجاوز بذلك صيغة الحولية التاريخية. لكن ما يقوله عن بناء المسجد فى ولاية زياد يشبه كثيرا ما يقوله عن ذلك فى ولاية سعد. يحتفظ نص الطبرى بثرائه الإخبارى

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۸۹

الاستثنائى بعد إبداء هذه الاحترازات، و علينا أن نعتمده من جميع الوجوه. و لنستعرض الأحداث فى تسلسلها. فحالما استقر أهل الكوفة، طلبوا من عمر الإذن فى البناء بالقصب.

لم يرفض عمر ذلك مع أنه كان يفضل البقاء بالمعسكرات، و لا شك أنه كان يؤيد نصب الخيام. ثم شب حريق فى شهر شوال، فقضى على كل شىء، و حصل ذلك بعد عشرة أشهر من استقرار العرب (فى محرم). و طالب أهل الكوفة عندئذ بأن يؤذن لهم فى البناء الصلب، يعنى باللبن. فكان ذلك منطلق التخطيط، أى أن التخطيط تزامن مع قرار البناء باللبن. إن نصّ سيف واضح كل الوضوح فى هذا الشأن.

الرواية الأولى:

«فبعث سعد منهم نفرا إلى عمر يستأذنون فى البناء باللبن فقدموا عليه بالخبر عن الحريق و ما بلغ منهم و كانوا لا يدعون شيئا و لا يأتونه إلا و آمروه فيه فقال افعلوا و لا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات و لا تطاولوا فى البنيان ... ».

الرواية الثانية:

«لّما أجمعوا على أن يضعوا بنيان الكوفة أرسل سعد إلى أبى الهياج فأخبره بكتاب عمر فى الطرق أنه أمر بالمناهج أربعين ذراعا

و ما يليها ثلاثين ذراعا و ما بين ذلك عشرين و بالأزقة سبع أذرع ... ».

ثم يبدأ الوصف المفصل للأجهزة الأساسية المقامة، و الخطط القبلية، و السكك، طبق ترتيب دقيق. فتم فى آن التخطيط و التمصير فى الجملة. و لقد تحدد الفضاء المركزى(Temenos -) بالخصوص فى هذا الوقت بالذات الذى يلى تخطيط المسجد: «فأوّل شىء خطّ بالكوفة و بنى حين عزموا على البناء المسجد».

و يستنتج من نص سيف أنه:

أ) فى فترة أولى دامت عشرة أشهر و هى فترة التنزيل، برزت إلى الوجود بصفة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۹۰

فوضوية و بدون تخطيط مسبق نواة مدينة ثابتة و مبنية، بيوتها من قصب، و هى متميزة عن المعسكر العادى لكنها لا تبتعد عنه كثيرا.

ب) الرغبة فى البناء الصلب، أى فى إنشاء مدينة حقيقية، ظهرت بقوة و كانت سببا فى كافة العمليات التى تؤدى إلى تحقيق هذا المشروع، مشروع (التخطيط) بالذات. و لم يتم البناء على الأرجح إذن، انطلاقا من مجال وقع توزيعه و تقسيمه و تم فصله إلى أجزائه المتنوعة، بل إن البناء هو الذى يكون فرض تحديد هذا المجال.

و لا شك أن سيفا يعرض علينا فى هذا المقام مثلا تمصيريا إراديا، عقلانيا، سريعا بصورة عجيبة، مبتعدا عن التصور الذى اعتمده ماسينيون و الذى مفاده أن المدينة نشأت نشوء بطيئا، و هو تصوّر لا يتفق كذلك و الأخبار التى رواها البلاذرى فيما يخص وجود تخطيط تلاه البناء فى مرحلة لاحقة.

الواقع أن علم الآثار يقدم لنا يد المساعدة فى هذا المجال، شواهده تؤكد على وجود قصر شيد تشييدا صلبا فى الفترة الأولى. فمن بنى هذا القصر؟ هل بناه سعد أو المغيرة؟

هل بنى بعد ولايتهما؟. لا يمكننا الفصل فى هذا الأمر. لكن ذلك دليل على وجود مركز أثرى قبل العصر الأموى. و يتبين من قراءة المصادر الكتابية وجود عدة أصناف من مواد البناء فى اللحظة التاريخية الواحدة. فقد ظهرت فى آن واحد و تعايشت فى فترة متأخرة جدا من العصر الأموى، خصاص القصب، و مساكن من لبن، و بناءات من آجر، لأن مرحلة معينة لا تمحو المرحلة التى سبقتها.

ما من شك فى أن التردد ساد فى بداية الأمر، كما أن الاستقرار استتب بصفة فوضوية. على أنّ هذه المرحلة لم تكن لتدوم طويلا و من المؤكد على كلّ حال أنها لم تدم خمس سنوات (تلك التى ارتآها ماسينيون). ظهرت فى الأوّل الخصاص عفويا على وجه أرض

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۹۱

الكوفة، معبّرة عن الرغبة الجامحة فى الاستقرار عليها، فشكلت ما يشبه القرية العظيمة.

و جاء دور التخطيط و التمصير سريعا جدا بإشراف سعد- هذا أمر ثابت لدينا- لكن ربما بصفة مستقلة عن المادة البنائية المستخدمة. فانتصب على الأرض شكل لمدينة مقبلة قادرة على حمل وجود إسلامى جماعى (و هذا هو المعنى الصحيح لكلمة مصرّ) وجود دائم مدنى و حضرى. لعل القصب كان المادة المهيمنة فى ولاية سعد، باستثناء المسجد و القصر، خلافا لما قاله سيف، و أن المغيرة هو الذى أدخل اللبن. لكن ليس هذا أمرا ثابتا، فضلا عن أن تغيير المواد لو وقع زمن المغيرة، لدخل على بنية مدينة سابقة الوجود فلم يكن له أن يغير من تنظيم المجال الداخلى، و كذلك كان الأمر فى عهد زياد بعد ذلك. كانت نية التمصير حاضرة منذ البداية، و كذلك الجانب الإرادى فى ظهور مدينة الكوفة. هذا ما سنحتفظ به أساسا من النص المهم جدا

المنسوب إلى سيف بن عمر.
نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۹۲

– ۷– بنية المجال الداخلى: المدار المركزى

اشارة

يورد سيف بالذات تفاصيل ممتازة عن المخطط المدنى الأولى الذى ستتقيد به بنية الحاضرة المقبلة و طوبوغرافيتها. يتشكل مجال الكوفة الأولى من عناصر ثلاثة: مساحة مركزية كبرى سياسية و دينية تشمل المسجد و القصر، و هى عبارة عن مكان القيادة و تجمّع الناس، ثم تأتى الخطط القبلية للسكن، و هى تشع انطلاقا من هذه النواة المحددة من أعلى قسرا، و المحصورة، و المرسومة بمثابة المجال المقدس، ثالثا: هناك عنصر للفصل و المرور فى آن، و هى المناهج التى تمكن من تفريد الخطط القبلية و جمع المقاتلة فى أسرع وقت داخل المجال المركزى الكبير. و من المناسب قطعا أن نتساءل عن أصل هذا التصور و دلالته أيضا.
لكن ينبغى قبل ذلك تقرير وجوده و واقعه تقريرا حازما. ذلك أن سيفا خلف لنا نصا صعبا، كثيرا ما أسيئت قراءته و وقع التسرع فى استيعابه.

المجال المركزى:

و على هذا فإن قراءة مستعجلة أدت و تؤدى إلى حملنا على الظن أن هناك تخطيطا أولا ـ للمسجد أنجز برمى السهام، و أن شوارع مستقيمة انطلقت من المسجد، و أن هذه الشوارع كانت بمثابة صفوف للخيام، بمعنى أنها كانت الخطط القبلية ذاتها.
أما القصر، فلعله كان يقع (من ذا الذى حدد موقعه؟ كيف؟) إلى الجنوب الشرقى من المسجد. و قد ذهب الأمر بكرسويل Creswell إلى أن استنتج أن رمية السهم تساوى ما
نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۹۳
يقرب من ۵۵ مترا، فى حين أنه من المعلوم تمام العلم أن كل ضلع من الأضلاع التى يشكلها المسجد، كان يساوى قرابة ۱۱۰ من الأمتار. ثم أضاف قائلا: إن نقاط انطلاق المناهج كانت تشكل الأبواب و فتحات المسجد. و لم يصل أى باحث إلى استنتاج فكرة المساحة المركزية التى قصدها المخططون العرب، و أيضا الوظيفة الثلاثية للعناصر المدنية بالكوفة الذى كان مخططها موحدا. و تبدو الفكرة الأولى حاسمة إذا أمعنا النظر فى نص سيف الوارد عند الطبرى.
– تحدد موقع المسجد فى مرحلة أولى. كيف؟ لم يصلنا من أمره شىء. لكن ذلك لم يتحقق بواسطة رمية السهام قطعا.
– ثم جرى استدعاء الرامى فى المرحلة الثانية فقط، و هو رام قوى «شديد النزع»، كما يقول سيف. و لعله انتدب من بين أساورة القادسية. و يطرح لا محالة فى هذا الموضوع مشكل فيما إذا كان هذا فعلا شعائريا، أو كان تقنية لإنشاء الحواضر، و فيما إذا كان من أصل عربى أو ساسانى (الأحرى أنه كان ساسانيا). وقف الرامى فى وسط المسجد المحدد شرعا، و أطلق القوس فى اتجاهات أربعة مطابقة تقريبا للجهات الجغرافية الأربع. إلا أن القبلة و هى إلى الجنوب الغربى تعتبر المرجع الأول.
و بذلك تحددت مساحة مربعة الشكل ضلعها غلوتان– و هو المصطلح الصريح الذى إعتمده سيف و الطبرى– و تعنى الغلوة «مسافة رمية السهم». و قد أصبحت قياسا يعادل ۱/۲۵ من الفرسخ، أى ۲۴۰ مترا. فيكون ضلع المربع مساويا بذلك ۴۸۰ مترا، أى

ما يقرب من نصف كلم، و تساوى مساحته ۲۳۰۴۰۰ متر مربع، أى ۴، ۲۳ هكتارا بالضبط. هذا مجال مهم كما نرى. و من المعلوم أن مساحة مدينة أور كانت تساوى مائة هكتار، و أن بابل فى عصر هيرودوتس كانت على شكل مربع ضلعه يساوى ۱۲۰ غلوة (بابلية) (أى أكثر من ۲۳ كلم) و هو مقدار عظيم لا يمكن مقارنته إلا بأبعاد سامراء. على

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۹۴

أن ضلع معبدها و هو عنصر مركزى، كان قياسه غلوتين (قرابة ۴۰۰ متر). أما مساحة ميسانMyce ?nes، فكانت خمسة هكتارات.

إن هذا الفضاء الواسع الذى خلف القلعة القديمة لبلاد الرافدين، سيشمل المسجد ذاته، و قصر الوالى، و الأسواق، و خصص خلاء لساحة كبرى استخدمت للاجتماعات و عرفت بالميدان أو الرحبة. فلا عجب إن كان لهذا المجال مثل هذه الأبعاد، و لا سيما أن أفراد الطبقة الارستقراطية تمكنوا من قضمه بعد ذلك، مع العلم أنه صح العزم على أن يبقى خارج كل نية تروم بناء المساكن الخاصة.

من أول نظرة يبدو نص سيف مبهما و مغلطا، لكنه صريح فى كل ما سبق قوله. إذ لم تكن هناك حاجة إلى أن ترسم أولا الخطوط الأولية لمحيط المسجد، إذا وجب بعد ذلك دعوة الرامى الماهر لتحديد المسجد ذاته.

يقول سيف:

«فأول شىء خطّ بالكوفة و بنى حين عزموا على بناء المسجد، فوضع فى موضع أصحاب الصابون و التمّارين من السوق فاختطوه. ثم قام رجل فى وسطه رام شديد النزع فرمى عن يمينه فأمر من شاء أن يبنى وراء موقع ذلك السهم و رمى من بين يديه و من خلفه و أمر من شاء أن يبنى وراء موقع السهمين».

و هذه الآن الجملة الحاسمة: «و ترك المسجد فى مربعة غلوة من كل جوانبه». إنها جملة غامضة فى تركيبها. لكنها واضحة بما يكفى لاستخلاص الاستنتاجات الآتية:

أ) لا يدل لفظ مسجد على فضاء ما، بل على الجهاز الدينى المعروف.

ب) أقحم هذا المسجد المربع الشكل فى محيط مربع أيضا أوسع منه، تحددت أبعاده بالغلوة فعلا. هذا و إن رمية السهم تفصل مركز المسجد عن أقصى نقطة فى المحيط، مع وجوب مضاعفة ضلع المحيط. و هو ما يدل عليه معنى الجملة التى ذكرها: «فترك المسجد فى مربعة غلوة من كل جوانبه». ما هو الاسم الذى سمى به المؤلف هذه المساحة المركزية، إذا كان علينا أن نفهم كلمة مسجد فى خصوصيتها الدينية الضيقة؟ استخدم لذلك كلمة صحن عدة مرات بعد ذلك، علما أنه لا ينبغى فهمها بالمعنى المتأخر أى أنها ساحة مكشوفة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۹۵

فى المساجد، تقابل بيت الصلاة المغطّى (ظلّة)، بل يجب فهمها بمعناها الأول المرادف للفناء أى للساحة المركزية بأرض منبسطة. عرّف «لسان العرب» الكلمة بمعناها المتأخر (و تعنى حرفيا ساحة، صحن لمركز البيت)، و أورد التعريف الآتى:

«المستوى من الأرض مثل عرصة المربد، صحن».

و الملاحظ أن اعتماد مربد البصرة يبدو مرجعا رئيسا، و هو المجال الكبير المستخدم كسوق للدواب، و كملتقى للشعراء، و هو ما يقابل الكناسة فى الكوفة. و لنلاحظ أيضا أن مفاهيم الفلاة، و الأرض المنبسطة، و المركز بالخصوص و التى نجدها عند ابن منظور للتعريف بالصحن، تعبّر بصورة عجيبة عن الجوانب المتنوعة للمساحة المركزية، الموجودة فعلا فى أرض منبسطة كما فى مجال صحراوى.

و قد أحيط هذا الصحن بخندق فورا، لكى لا يقع اقتحامه ببناية ما، و بذلك يكاد يكتسى مناعة مقدسة، ينبغى التساؤل عن كنهها. و من هذا الصحن بالذات- و هى الكلمة التى اعتمدها سيف- تشع المناهج الخمسة عشر. و قد تحدد مفهوم الصحن بوضوح أخيرا، فكان يشمل المسجد و القصر و الأسواق:

«فكان الصحن على حاله زمان عمر كله لا تطمع فيه القبائل ليس فيه إلا المسجد و القصر و الأسواق فى غير بنيان و لا اعلام».

إن إقامة هذه المساحة المركزية كمركز للسلطة و الدين، و للتجارة بصفة ثانوية، لدليل على وجود نية تمدنية واضحة عند الحكام العرب، لكنها تدل أيضا على وجود خط متصل يرجع إلى العصور السالفة، فيما يخص تاريخ إنشاء الحواضر. إن لويس ممفورد محق فى رأيه حين يقول: «إن المعسكر المحصن (يعنى القصر)، و المعبد داخل موقع يفصله حد مقدس عن الدنيا، يشكل سمة مميزة لإنشاء مدينة من المدن». هذا و لا يمكن القول، و نحن نتكلم على الكوفة تحديدا، إن حدود المساحة تكتسى طابعا مقدسا، لأن الأمر يتعلق بمجرد منع سلطانى للبناء الخاص.

عموما كان هذا المكان يتّخذ شكل القلعة المحصّنة أو المدينة- الحصن فى التقليد المدينى ماضيا- و تبرز هذه الظاهرة عند العراقيين القدامى بتواتر أكبر ممّا عند المصريين

و عند الرومان ممّا عند اليونان. هنا، لا هذه المساحة و لا الكوفة بمجملها حتى عهد المنصور (۱۵۵ ه/ ۷۷۲) لم تحاطا بأسوار، على أن الجامع و القصر حصّنا فى الفترة الأموية. لكن المرء يميل إلى أن يجد فى الطقوسية التى و اكبت نشأة الكوفة و فى الوظيفة الثلاثية للمركز و أخيرا فى رمزية التفرقة بينه و بين المدينة الأهلية، أقدم التصورات للنواة السياسية- الدينية التى عرفتها الإنسانية و لبقايا شكلية ملفتة للنظر.

لقد كان لمكّة مركزها و هو الحرم المحتوى على الكعبة. و كانت له حدود (الانصاب) لا يمكن خرقها بل أضيفت عليها صفة القداسة و التحريم و قد جدّدها عمر و ثبتها فى مكانها. و من جهة أخرى الطقوسية التى حفّت بامتلاك موقع الكوفة (التنزيل) و التى تجسدت فى تلاوة كلمات قدسية ذات طابع جاهلى، نجدها منسوبة إلى النبى عندما حلّ بقباء و أصلها العربى واضح. لذا يمكن أن نعتبر أن العرب قبل الإسلام كانوا متملكين للأساليب الأساسية المعهودة بزمانهم التى بفضلها تؤسس المدن، و هى مفهوم المجال المقدس و مفهوم المعبد (- المسجد) و عملية التخطيط و الطقوسية الملائمة. إن هذه الأساليب العتيقة شاعت فى كل العالم القديم. و لنضرب أمثلة عن مقدرة النماذج المدنية فى التنقل و الانبثاث من مناخ حضارى إلى آخر. لقد قيل إن العمارات ذات الطوابق من خاصيات النموذج الهلنستى بينما نجدها فى بابل كما وصفها هيرودوتس و لربما استلف منها هذا الشكل المعمارى ثم وقع استرجاعه من طرف الشرق. إن روما القديمة عرفت البوميريوم-pomerium و هو المجال المقدس الذى حجّر عليه البناء، أما الفوروم forum - المركزى فهو إلى حد بعيد مماثل للآغورا agora - التى تعتبر عنصرا معماريا منبثقا عن الحضارة اليونانية الآسيوية و عن مدرسة ميلى Milet بالتحديد. و لا بدّ أن يكون النموذج الهلنستى قد أشاع البعض من مكوناته فى الشرق القديم الخاضع للفرس آنذاك، و كذلك فإن النموذج الرومانى، و هو الآخذ عن تقليده الذاتى العتيق و عن الاشكال الهلنستية فى آن، قد انبثّ فى العالم الرومانى و بث بطبيعة الحال هذه الأشكال.

سيكون لنا رجوع إلى مشكلة التأثيرات على التصور الأولى للكوفة بمجملها، لكن فى خصوص المساحة المركزية الكوفية يبدو لنا أن صيغة معممة و معمول بها قد وجدت فى كل مكان للتأسيس الإرادى للمدينة، و أنها تبتدىء بتحديد المجال المركزى العمومى، سواء

كـان قلعـة أم لاـ و هـذا التقليـد لاـ يمكن أن يقـال عنه إنه بـابلى أو هلنستى أو رومـانى أو ساسانى، إلا أن العرب اسـتبطنوه قبل الإسلام و زاد استيعابهم له بعد أربع سنوات قضوها بالعراق، منها سنة بالمدائن نفسها.

لكن المـدائن كـانت حاضـرة مشيّدة، فلاـ تقـدر على أن تكون أنموذجا فى هـذه المرحلـة الأصـلية، على أرض خلاء. فإذا كان المشـيدون الفرس الساسانيون كروزبه حاضـرين، فلا يوجد سبب لاستبعاد حضور خبراء فى التمصير معهم. و الأهم من ذلك هو الدور الذى قام به بعض أشـراف الحيرة فى هذه المرحلة الأولى من ظهور الكوفة. فقد روى أن ما قدموه من نصائح كان حاسـما لاختيار الموقع. و كما تأكـد فى علم الآثار، و خلافا لما ورد فى المصادر الكتابيـة، فإذا صـح أن المواد و التأثير المعمارى الـذى جاء من الحيرة، كان قليل الأهميـة، فإن البـذل الحيرى كان مهما على صـعيد التصور المعمارى. و هو ما يمكن أن نسـميه اللحظة الحيريـة فى تاريـخ الكوفـة. كـان التصور الأـولى عربيا إذا و تغـذى بالزاد العربى الأولى كما تغـذى بالتقاليـد التمدينيـة القـديمة الغامضة التى تسربت من قبل إلى شبه الجزيرة.

و وجـد أيضـا و على الأرجـح تأثير فارسـى، و هو يتلون بلون غرب بلاد الرافـدين، بمعنى أن بابل أثرت فيه. و كان للحيرة أخيرا دور الوسيط فنقلت نظرة معمارية مزدوجة تركبت من عناصر هلنستية و فارسية و من بلاد الرافدين و عناصر عربية. مما لا مراء فيه أن كل هـذه العوامل مع إضافـة التأثير اليمنى، تضافرت لتنير سبيل المنشـئين و تزودهم قبل كل شـىء بصورة المساحة المركزية. هـذا و إن الظروف الموضوعيـة التى كان يعيشـها المهاجرون العرب يسـرت الأمور. كانوا يمتلكون دولة عسـكرية مركزية كانت تسـتلزم وجود مجال للقيادة، و مكان لممارسـة السـلطة، و هو أمر لم يكن معمولا به فى مكة خلال العصـر الجاهلى. و هم أيضـا مكتسـبون لـدين، كـان جوهريا لوجودهم كأمـة، و هو يـدخل فى علاقـة شـبه عضويـة بالقيادة السياسـية العسـكرية. لكن، بما ان الإسلام حظر الخلط بين التجارة و الصلاة، فلن يكون المسجد معبدا متاجرا، حسب التقليد العتيق، و ستتميز عنه السوق على الرغم من وقوعها فى المركز. و هكذا ندرك المستقبل الذى كان يترقب هذه البنية الثلاثية للنواة المدنية، التى

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۹۸

ستحدد مورفولوجيا المدينة الاسلامية العتيدة بأكملها.

المسجد الأصلى:

لاـ فائـدة من التـذكير بالمناقشـات الـتى دارت بين المستشـرقين و المـؤرخين المسـلمين بخصوص فكرة المسـجد، طالمـا كـانت المواقف مطبوعـة هنا و هناك بالعجز عن اسـتقراء النصوص و إمعان النظر فيها. أما فى العصـر الحـديث، فقد اهتم غرابار بقضـية مولـد المسـجد الاسـلامى و تطوره. و قـد يعـاب على غرابـار أيضـا، أن بحثه عن «نمط مثالى»، جعله يتنقل دون حرج و بنوع من الخفـة، من القرآن إلى ابن خلدون. إن أقواله يمكن أن تعتبر فى آن صـحيحة و خاطئة، من وجهة دراسـتنا المونوغرافية، كما من وجهـة المنطق التاريخى المجرد، من جهـة أخرى. فمن البـديهى أن القرآن يماثل بين فكرة المسـجد و فكرة المعبـد، لأن المعبد كان المرجع العالمى فى ذلك العصـر. لكن ما لا يقل بداهة أن الإسـلام الذى عرّف بنفسه كدين جديد، لم يكن له منذ البداية، إلاـ أن يضـفى على «المعبـد» الاسـلامى خصوصـيته الاـكثر صـرامة. و يتحـدث غرابار من جهـة أخرى عن ظهور «مركز» مـدنى/ موطنى-

civic center

بالكوفة و البصـرة و الفسـطاط، و هو أمر صحيح. لكنه لا يكاد يدرك فيه الجانب التقليدى و العادى، لأن مركز النشاط الموطنى لا يتعارض مع الخطط القبليـة، كما لا يتعارض المسـجد المركزى مع مساجـد العشائر إلا بقـدر ما يتعلق الأمر بدين جديد وجب

غرسه، و لربما وجد معبد و مركز للسلطة أيضا، لو تعلق الأمر بدين قديم. و النقطة الثالثة و الواجب دحضها إطلاقا هى أن المركز و هو الشبيه بالفوروم forum كما يقول غرابار عن حكمة، لا يماثل المسجد لا من حيث المجال و لا من حيث الوظيفة (و هذه فكرة أخذها عن لامنس.(Lammens بل هو يتطابق مع الصحن كافة، كما ذكرنا آنفا. و أخيرا فرأيه القائل إن المسجد ذاته بقى مدة طويلة خلاء، أو إنه لم يصبح بناية قائمة إلا فى العصر الأموى، هو رأى صحيح، إذا اعتمدنا بعض الاشارات الواردة فى النصوص التى بين أيدينا، و هو ليس كذلك حسب بعض الروايات الأخرى. فما تقوله هذه النصوص فيما

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٩٩

يتعلق بالكوفة؟

تقول إن المسجد كان بدون أروقة على كل جوانبه، قبل إمارة زياد، باستثناء جانب القبلة. فكان ممكنا مشاهدة دير هند من الصحن، و باب الجسر فى اتجاه الفرات، و هذا يعنى أنه لم تكن هناك جدران مرتفعة كفاية، لكن لعله وجد سياج من قصب أو جدار صغير من لبن على أكثر تقدير. إن الطابع البدائى للمسجد أى انعدام البناء أو قلته، نستدل عليه أيضا من أن سعدا هدمه بسرعة كبيرة و نقله إلى الجنوب قرب القصر، بسبب سرقة بيت المال الذى كان ملحقا بالقصر. أما عن تعليل عملية تقريب المسجد من القصر، فهو أنه تقوم على المسجد حراسة تكون بالليل و النهار، و أن حضور الحراس من شأنه أن يمنع تكرار مثل هذه الحادثة العارضة، مما يفسر أن المسجد يلاصق القصر، فشكّلا بنايتين متلاصقتين.

و سيحتل الموضع الأولى للمسجد بعد ذلك جانبا من السوق، و يكون من نصيب باعة الصابون و التمر. و هذا ما يفسر عبارة سيف فى هذا المضمار الذى أرانى أعود إليها:

«فأول شىء خطّ بالكوفة و بنى حين عزموا على البناء المسجد، فوضع فى موضع أصحاب الصابون و التّمارين من السوق».

إن هذه المقولة عن تفتح المسجد، و سرعة انتقاله بالفعل، توجهنا إلى فكرة الخلاء غير المشيد، و من المعلوم أن المصادر تحدثت بخصوص البصرة عن مسجد مشيد بالقصب. لكن ذلك لا يمنع، لا محالة، وجود قاعة مسقفة للصلاة (و هذا هو المعنى الذى تؤديه كلمة ظلة) تتجه إلى القبلة - مع العلم أنها حادت عنها قليلا -. إن المصادر التى بين أيدينا لا تتكلم إلا عن الصحن و تصفه بأنه صحن غير مسيج أو قليل التسييج، مما يتيح الإشراف على الجسر و دير هند. لكن الارجح أن هذه الظلة كانت موجودة منذ البداية، و قد شيدت تشييدا خفيفا بالقصب و حتى باللبن. و بعد أن وقع نقل المسجد، و هدمه سعد،

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ١٠٠

التخطيط الأول للصحن حسب رواية سيف

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ١٠١

بمعنى أنه قوض الظلة («أراغ بنيانه»)، أى بعد تحديد موقعه نهائيا، قرر سعد بناء المسجد بناء صلبا مصمما، و المقصود حجرة الصلاة فقط. و هكذا و إلى حد الآن فإن نص سيف لا يتناقض مع نفسه إطلاقا. لا بد أن تكون الظلة وجدت منذ البداية، ثم تحسن بناؤها بعد ذلك، و يحتمل أنها بنيت بالآجر، و ألحق بها صحن سىء الغلق كان يفتح على الخلاء الخارجى، لكنه كان لا محالة محدد الأبعاد. و لذا فإن مجال المسجد الأصلى لم يكن مجالا خاليا بل كان مفتوحا من ثلاثة جوانب و غير مستكمل. و المرجح أنه بنى من جانب واحد بناء سيئا. و إنى أقول «المرجح» لأنه افتراض لا تسمح به رواية سيف بصفة صريحة. بل بالعكس، يحثنا على ذلك غموضه فى هذه النقطة بالتحديد، إلى جانب المقارنة بين مختلف المصادر المتاحة لدينا، و المصداقية التاريخية. و من هذه الوجهة، يكون نص سيف متضاربا، غير دقيق بصفة تامة. فقد أشار إلى الظلة الأولى قائلا:

«و كانت ظلته مائتى ذراع (نحو ١٠٨ أمتار) على أساطين رخام كانت للأكاسرة، سماؤها كسماء الكنائس الرومية».

و أضاف بعد قليل أن زيادا جلب أعمدة من الأهواز ثقبت وحشيت بالرصاص. ثم تمّ تمتينها بسفافيد من حديد ارتبطت بها مع السقف، هذا السقف المرتفع الذى حملته.

و هو يتكلم تارة عن دهقان من همذان و تارة عن روزبه ذاك البنّاء المعمارى الذى كثيرا ما يرد اسمه، و يؤكد أن هذا الأخير استخدم عملة من عرب الحيرة النساطرة و هم العباد. إن الشبه بين هاتين الروايتين لمراحل متغايرة ليس بتمام الاكتمال، لكنه ملفت للنظر. و هو يسمح لنا بتأويل المرحلتين الأوليين على أنهما إسقاط للمرحلة الأخيرة (فترة زياد). ذلك أن المصادر الأخرى، و هى قليلة التعرض لهذا الموضوع، تنسب حادثة استيراد أعمدة الأهواز إلى زياد، لكنها لا تتكلم البتة عن أعمدة من رخام فى خصوص عصر سعد. يؤيد النص الموجود فى الفتوح للبلاذرى، ما قاله غرابار، و هو يتلخص فى أنه يمكن للقبائل البناء من

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ١٠٢

وراء العلامات، أما داخلها فإن سعدا ترك فناء (و المقصود خلاء عاريا) للمسجد و القصر. هناك إشارة وحيدة إلى الأعمدة و هى قول البلاذرى فى الكتاب نفسه: «و كان زياد يقول: أنفقت على كل أسطوانة من أساطين مسجد الكوفة ثمانى عشرة و مائة». لكن لا بد من الانتباه إلى أنه يذكر فى رواية أخرى أن اقتطاع أساطين الحجر من جبل الأهواز جد من أجل مسجد البصرة و فى فترة متأخرة نسبيا. أما ياقوت، فكان واضحا فى هذا الموضوع، فقال إنه وقع جلب الأعمدة من الأهواز و صنعها، فى ولاية زياد. إن كلّ ما أوردناه لا يناقض سيفا بصفة واضحة لا مراء فيها، و يبقى نصّ سيف من أكمل مصادرنا، إنّما يدب فينا الشعور بأن زيادا هو الذى منح المسجد جهازه المعلمى من كل الوجوه. أما العنصر الوحيد المؤيد لرواية سيف فهو أن المرحلة الأولى بالنسبة للمسجد كما بالنسبة للقصر كانت تحت تأثير الحيرة، فى حين أن مرحلة زياد كانت فارسية بدون ريب. لو أضفنا إلى كل هذا ما هو معروف عن البصرة، و أن هناك شعورا ضعيفا بالهندسة المعمارية العظيمة عند العرب، و هو افتراض صحيح، لرجحنا ليس فكرة انعدام أى بناء للمسجد زمن سعد، إنّما فقدان بناء شامل للمسجد يطمح إلى العظمة و الاكتمال و الانسجام المعمارى.

القصر:

لنبدأ باستفهام علم الآثار. فهو يشهد بوضوح، كما مر بنا، على وجود مستوى سبق العصر الأموى، دون أن نعلم هل أن العصر الأموى يبدأ مع زياد أو مع عبد الملك، لأن المصادر المكتوبة تؤكد أن الخليفة عبد الملك هدم كل شىء و أعاد بناءه بعد ثورة مصعب. فيمكن لذلك أن توافق الفترة الأولية ما قام به زياد كما قد توافق ما قام به السابقون له. لكن من هم؟ سعد أم المغيرة؟ لم يتحدث سيف عن المغيرة إطلاقا.

تؤكد الحفريات الأثرية أن المستوى الأول يشهد بآثار خاصة بأسس وحدة أصلية واحدة، كانت مربعة الشكل بقياس ٩٥، ١١٣ مترا على ٨٦، ١١٣ مترا. إنها أسس لاسوار مهدومة، لكن يظهر أن البنائين اللاحقين عادوا إليها ليشيدوا فوقها أسوارا جديدة،

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ١٠٣

لها الأبعاد نفسها تقريبا، و هى توافق أبعاد الجدران الداخلية. و توجد الأبراج و عددها عشرون بالمكان نفسه دائما، و تنغمس فى آثار الأبراج القديمة و قد تساوى عددها بالضبط. نتعرف بمساعدة على الآثار على هذه القلعة العظيمة بالنظر لهذا المستوى الأول، إذ كان سمك جدرانها يتراوح بين متر و ثمانين سم، و مترين! أما المادة المستخدمة فهى الآجر بقياس ٣٦ سم* ٣٦ سم* ٩ سم، لكن شكل اللبنات غير منتظم، و استخدمت كذلك نصف الآجرة أو القطعة منها فى بعض الأحيان، و الجبس كموثق

للآجر، أو أنه كان يمزج بقطع من الآجر لتبليط البنايۀ. و لم تظهر فی هذه الفترۀ أشیاء أو مواضیع زخرفیۀ. و ما نجده فی الجملۀ هو هیکل و خطوط موجهۀ أساسیۀ.

لکن ماذا تقول المصادر الکتابیۀ فی هذا الموضوع؟

یتحدث سیف و البلاذری فقط عن القصر. و لا نجد عند البلاذری خبرا عمّا قام به سعد من بناء لا فی الموضع المحدد للمسجد، و لا فی الموضع المحدد للقصر داخل المساحۀ العمومیۀ. و تنسب الروایۀ صراحۀ إلی زیاد بناء القصر. و قد ورد بخبر فرعی قصیر و جدّی أن سعدا أحاط قصره بالقصب و جهزه بباب خشبی، یحتمل أنه جلب مع أبواب أخری من المدائن. فمن الممکن إذن أن یکون القصر بقی خلاء عراء، و معسکر خیام الأمیر، و أنه کان شبه مرکز للقیادۀ علی الطریقۀ البدویۀ. و الأقرب إلی المعقول أنه ربما بنی بالقصب بناء بدائیا، فکان خصّا ضخما حتی زمن زیاد، بین خصاص الناس المقیمین الکثیرۀ. و فی هذه الصورۀ یبدو واضحا لا محالۀ أن الأسس التی سبقت العصر الأموی، من المستوی الأول للحفریات یرجع تاریخها إلی زیاد و تنتسب إذن إلی الفترۀ الأولی من الدولۀ الأمویۀ. أما المستوی الأموی ذاته، فیؤرخ فیما بعد سنۀ ۷۵ ه/ ۶۹۵ م.

کان سیف أکثر تفصیلا. و هو یمیل بصورۀ واضحۀ إلی إعادۀ بناء الماضی بواسطۀ الحاضر. فقد أدخل فکرۀ قصر أول ارتبط بالمسجد بواسطۀ نفق طوله ۲۰۰ ذراع (ما یقرب من ۱۰۸ أمتار) بنی بالآجر أصلا، و هو الآجر المنتزع من قصر ساسانی کان یوجد

نشأۀ المدینۀ العربیۀ الإسلامیۀ: الکوفۀ، ص: ۱۰۴

التخطیط الثانی للصحن حسب روایۀ سیف

نشأۀ المدینۀ العربیۀ الإسلامیۀ: الکوفۀ، ص: ۱۰۵

بالحیرۀ، و لقد ذکرنا أن بیت المال کان ضمن هذا القصر. ثم طرأت سرقۀ هذا البیت، فتقرر هدم المسجد و جعله قریبا من القصر و محاذیا له، فأعید بناء المسجد و القصر مرّۀ أخری انطلاقا من بقایا قصر ساسانی بالحیرۀ. یورد سیف ذلک و کأنه یذکره للمرۀ الأولی.

الواقع أن المسجد الحالی ملاصق لمیمنۀ القصر فی اتجاه القبلۀ، بالصورۀ التی بیّنها سیف، کما بقیت آثار نفق من العصر الأموی، إلا أن الوصل قد تم فی المستوی الأموی المتأخر، بالسور الخارجی للقصر، و یمتد ضلعه علی أکثر من ۱۶۸ مترا. و من المفارقۀ أن الآثار الوحیدۀ التی تبقت من المستوی الأول للحفریات توجد من جهۀ المسجد، لکن فی الحوزۀ الداخلیۀ التی کانت تحدد محیطا ضلعه ۱۱۴ مترا، أی بتراجع یقدر ب ۳۰ مترا، بالنسبۀ إلی حائط المسجد. لیس من شک فی أن القصر الأصلی المشید لم یکن یتجاوز الحزام الداخلی. و بما أن الزوایا الأمویۀ الملاصقۀ للمسجد ما زالت قائمۀ، فمن المرجح أن حدود المسجد الحالی، الذی تأخر بناء جدرانه، تعود إلی العصر الأموی، مع أنها تتراجع قلیلا إلی الداخل بما قدره ۳ أمتار و ۶۰ سم. و لا تتوفر لدینا أیۀ معلومات عن اتساع القصر علی حساب المسجد، بل بالعکس! لقد بنی المسجد لاستقبال ۰۰۰، ۴۰ شخص فی ولایۀ سعد، و جری توسیعه فی إمارۀ زیاد، بحیث صار یحوی ۰۰۰، ۶۰ شخص. و لإنقاذ روایۀ سیف، یکمن الحل الوحید فی التفکیر فی اتساع القصر بین السورین و علی حساب المسجد الذی امتد فی اتجاه الشمال، فعاد بذلک إلی موقعه السابق. و فی هذا المعنی، هناک مؤشرات قلیلۀ و کثیرۀ الغموض. لکن ألا یقرب من المعقول أن نفکر بخصوص ما یقوله سیف، فی عملیۀ إعادۀ بناء ذهنیۀ تمت فی وقت لا حق؟ کانت مواد الحیرۀ موجودۀ فعلا، لکن النمط المعروف بالنمط الحیری ینتمی إلی الطبقۀ الأثریۀ الشائعۀ فی العصر العباسی

نشأۀ المدینۀ العربیۀ الإسلامیۀ: الکوفۀ، ص: ۱۰۶

الأول، الذى هو عصر سيف بالذات، كما أن وجود الدهليز فى واقع الأمر أمكن إسقاطه فى الفترة الأولية. و يرجح كثيرا أن نقل المسجد لم يكن بعيدا من القصر، عندما أعيد بناؤه، و لكنه لم يتلاصق الجهازان المتقاربان إلا فى العصر الأموى المتأخر، و ذلك بزيادة السور الخارجى للقصر، و هذا ما يفسر وجود الدهليز الذى كان يمر منه الوالى، و هذا أيضا إسقاط يرد إلى الماضى.

و تتفق النصوص الكتابية و علم الآثار على تحديد موقع البنايتين و على أبعادهما الإجمالية و محيطهما القريب (السوق و الرحبة). و يتفق سيف و البلاذرى على القول إنه ترتب عن المحاولات المترددة فى العصر الأولى، عمل منقوص تمثل فى مسجد بدون أروقة، وقاعة صلاة بسيطة للغاية (كانت مبنية إما بالقصب و إما باللبن). و لا يقل القصر بساطة عنها، إذ بنى بهذه المواد ذاتها. و لعل الاقتباسات المستمدة من قصور الحيرة القديمة قد أضيفت مع باب خشبى كبير. و ما تبقى من الأسس السابقة للعصر الأموى يطرح مشكلة حقيقية: هل كان ذلك فى عصر زياد أم فى عصر سعد؟ لكنّ الإطار كان مسطّرا، و كانت الفكرة واضحة، فهى تتمثل فى توأمة ممتازة بين المعبد و القصر، وسط مساحة عمومية كبرى ما زالت منيعة عن البناءات الخاصة.

الرحبة و السوق و الآرى:

هناك ثلاثة عناصر أخرى تشكل المساحة المركزية. أولا الرحبة، و هى كلمة بقيت شائعة فى لغة المدينة العربية المعاصرة، توحى بالاتساع، و المكان الخالى ما عدا بعض المناسبات، فى المجال المدنى. و هى ملاصقة هنا للقصر و المسجد من جهة اليمين، فى اتجاه القبلة (تقع فى رسمنا يسارا). و قد بين سيف ذلك قائلا:

«و وضع المسجد بحيال بيوت الأموال منه إلى منتهى القصر يمنة على القبلة ثم مدّ به

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ١٠٧

عن يمين ذلك إلى منقطع رحبة على بن أبى طالب عليه السلام و الرّحبة قبلته ثم مد به فكانت قبلة المسجد إلى الرّحبة و ميمنة القصر».

و هذا يعنى أنها تمتد إلى الجنوب الغربى من المسجد و إلى غرب القصر.

ماذا كانت تمثل الرّحبة؟ إذا ما صدقنا سيفا، فلا بد أنها كانت تحتل الزاوية التى يحددها الحائط الجنوبى للمسجد و الحائط الموجود غرب القصر. و الرّحبة ظاهرة مدنية عادية تتمثل فى ترك فضاء ما أمام البنايات العمومية. أمّا أن يقع الاختيار على مكان يتواجد فيه أو يتواصل المسجد و القصر، بمعنى المكان الذى يشتركان فيه، إن صح القول، فهو أمر طبيعى جدّا.

إنه الخلاء المفتوح انفتاحا كاملا و هو يذكّر بالساحة العامة agora عند اليونان، و بالميدان عند الفرس، و بالساحة العامة Forum عند الرّومان. و يمكن أن يذكّرنا كذلك بالساحة الحمراء أو بساحة تيان آن من: هذه ظاهرة عالمية مستمرة بصورة ملحوظة عبر الزمان. و قد ارتبطت الرّحبة فى المصادر باسم علىّ، لأن عليّا كان يسكن فيها (فى بيت من قصب، كما ذكرت إحدى الروايات)، و لأنّه ترك القصر مدّة، ليس لأنه أسس الرحبة التى كانت سابقة له. و قد جعل منها ماسينيون فرعا أو إفرازا للقصر، و ماثلها بالميدان، «الميدان الذى كان يفتح عليه القصر غربا (بمصطبة مركزية كانت تعد خلال الاحتفالات الكبرى)، و قد تسمى أيضا رحبة علىّ». و الواقع إذا كان للرّحبة أن تلعب دور المكان المخصص للاحتفالات العسكرية، و استعراض الجيوش، فإنها تظهر بالأخص امتدادا للمسجد.

و لعلها صارت كذلك، لأن الشهادات التى وصلت إلى علمنا متأخرة. و بالفعل، ظهرت رحاب المسجد فى الحواضر الإسلامية الكبرى خلال القرنين الأول و الثانى للهجرة. فكانت توجد بالمدينة رحبة القضاء للتحكيم الذى تم على يدىّ عبد الرحمن بن

عوف، بين عثمان و علىّ سنة ۲۳ ه/ ۶۴۴، و قد كانت ملاصقة للمسجد. و فى سنة ۱۴۵ ه/ ۷۶۲، وقعت فتنة بالمدينة أيضا، فأمر الوالى الرجال المسلحين الذين قدموا لنجدته بأن يترقبوا طلوع النهار ليشرعوا فى قمع العصاة، و أن يحطوا الرحال بالرّحبة. و فى بغداد اجتمع بعض الأشخاص و قرروا الانتفاض فى رحبة الجامع، داخل المدينة التى تميزت عن الأرباض فى

ذلك العصر (۲۵۲/ ۸۶۶). و قد أشير إلى وجود رحبة بنى تميم فى البصرة أيضا، و رحبة القصابين كذلك. و ما يهمّنا أكثر هو ما ورد عند الطبرى من إشارات متفرقة عن رحبة الكوفة. إنّ الإشارتين الواردتين عنده إلى المصطبة تدلّان على أن هذه المنصة بناية ثابتة و أنّها قريبة من القصر، لا- على أنها تقع فى الرّحبة و هو افتراض لا- غير. أمّا الرّحبة فقد وقع التلميح إليها بكامل الوضوح عند دخول شبيب إلى الكوفة (۷۷/ ۶۹۶)، لكن دون أى تحديد لموقعها. و خلافا لذلك، يتوفر لدينا نص ينير لنا السبيل جيدا بالنسبة لعصر لاحق (۱۵۹/ ۷۷۶). فماذا يقول؟ يفيدنا أنّ الرّحبة التى تسمّى رحبة المسجد، كانت موجودة خارج المسجد، لكن بعد الأبواب مباشرة (و لعلها امتدت آنذاك إلى الجانب الغربى، لأننا لا- نتصور أبوابا تفتح على حائط القبلة). كانت تستخدم كمصلى، بمعنى أنها كانت موضعا للصلاة فى الهواء الطلق. فظهرت بمظهر المكان الملحق، و كامتداد للمسجد. و مع ذلك، فقد بقيت مستقلة خارجية عن المسجد حقا. لم يكن لأحد حق إدخال رحائله إليها يوم الجمعة، ما عدا عيسى بن موسى الذى أقلق من أجل هذا الأمر، لكن لأسباب سياسية.

و لا شك أن هذا النص يصوّر لنا فترة متأخرة، و زمانا ضاق المسجد فيه كثيرا على السكان، كما تغيرت فيه أمور عدّة فى حياة الكوفة. و الأرجح أن الرّحبة كانت ساحة واسعة فى الأصل، محيطة بالقصر و المسجد و كانت تقوم بدور غير واضح فى بداية الأمر، لكنها كانت لا محالة فضاء ضروريا للمرور بين المسجد و خطط القبائل البعيدة عنه. فالنص الذى بين أيدينا واضح و هو يذكر أن «أفواه السكك» كانت تبدأ حيث تنتهى الرّحبة. هنا كانت تتقاطر أفواج الفرسان القادمين للصلاة، من جهة المسجد. و لا شك أنهم كانوا يربطون بها أفراسهم قبل الدخول إلى المسجد، و لعل سلوك عيسى بن موسى الذى ينمّ عن روح امتياز و تكبر، أراد إحياء عمل قديم صار باليا بتطور الزمن. أما من جهة القصر، علما بأنّ الرّحبة كانت تمتد إلى الجنوب الغربى، فقد رجح المظهر العسكرى السياسى، و نشر جهاز الحكم مباهجه فيها. و على هذا، يتمثل دور الرّحبة إجمالا فى قطبين نفعيين جدا. ثم إن كفة المسجد رجحت بمرور الزمن، فلم تبق سوى رحبة المسجد، التى تحولت هى ذاتها إلى مسجد.

إن المقارنة بمدينة بغداد فى عصر المنصور، سوف تخولنا مزيدا من التدقيق فى وظيفة الرّحبة، بحيث نتجاوز نص سيف. نجد فى هذا المجال معلومات دقيقة عند اليعقوبى،

و الطبرى، و الخطيب البغدادى، إضافة إلى بحثين كتبهما لاسنر Lassner يظهر بوضوح أن «المدينة المدورة» جسدت تمييزا لمساحة مركزية كثيرة الاتساع- تشتمل على القصر و المسجد و عمارة للشرطة و حزامين للحماية و السكن، مع سوق داخل الأروقة فى البداية. إنّ الرّحبة تبرز كأحد العناصر الأساسية للمساحة المركزية لأنّها تتطابق مع كل الخلاء العارى الذى يحيط بالمسجد و القصر و تفصلهما عن الحزام السكنى. و هكذا يصبح الشبه بالكوفة عجيبا- و سنعود إلى هذا الأمر- و هو يسمح بتسليط الضوء على وضع الكوفة، انطلاقا من بغداد و العكس، بفضل جملة من المقارنات. و بما أن تصميم الرّحبة كان أحسن ببغداد، و بما أنّه وقع إقصاء الأسواق من المساحة المركزية، فقد صارت أكثر اتساعا، و أحاطت بفراغها و من كلّ جانب بالمركّب المركزى. و قد مر بنا أنه كان ينبغى التفكير فى مدها فى الكوفة أيضا، إلى كل الواجهة الغربية من المسجد، حتى نهاية المساحة المركزية و تمتد بعدها الخطط أى قطائع السكن. على أن الأسواق فى الكوفة تحتل جهة الشمال داخل المساحة

المركزية، فضلا عن أن القطائع السكنية ستقرض منها نوعا ما، و هى قطائع استثنائية و شخصية اقطعت لأشراف الناس، (اشترى عيسى بن موسى دار المختار، التى كانت ملاصقة للمسجد، و ذلك لكى يتمادى فى الذهاب إليه حسب مشيئته). و هناك نقطة أخرى تشكل وجه شبه: لم يمش الناس فى رحبة المنصور إلا سيرا

على الأقدام. و قد روى الطبرى و الخطيب أيضا حادثة وقعت لعيسى بن علىّ، و مفادها أن هذا الشخص و هو أحد أقرباء الخليفة كان مريضا، فلم يقدر على قطع الرّحبة على طولها مشيا على الأقدام، لكى يصل إلى القصر. و تدل هذه الحادثة بوضوح على أن حظر الركوب بالرّحبة صادر عن المنصور، و هو انطبق على الكوفة تبعا لبغداد، و أن الركائب كانت تحطّ بالرّحبة فى السابق فيما يخص الكوفة، على الأقل يوم الجمعة. و أخيرا، فقد تحولت بعد ذلك الرّحبة فى بغداد إلى مصلى، و قد تم ذلك منذ خلافة المهدى و ربما قبل ذلك فى الكوفة.

و هكذا نلحظ تفاوتا فى التطور، لكنّنا نلحظ أيضا تماثلا عجيبا فى هذا التطور، و بذلك نكتشف كثيرا من الخاصيات للكوفة فى بدايتها تظهر فى بغداد فى خلافة المنصور، شكليا و على مستوى التصور.

من الضرورى أن نتساءل الآن عن مصدر الرّحبة. هل كانت من أصل بابلى أم هلينستى، أم ساسانى، أم رومانى بيزنطى، أم من جنوب بلاد العرب؟

لقد رأينا أنّه تشكل قبل ظهور الإسلام، نوع من الصورة المعممة للبنية المدنية حيث تجمعت كل التقاليد الخاصة. و هو أمر صالح أساسا للمساحة المركزية، كما بالنسبة للعناصر المكونة لها (القصر و المعبد)، و لا بد أنّ الأمر يكون كذلك بالنسبة لساحة المعبد و القصر.

و من المعلوم أنّ مثل هذه الساحة كانت، بصورة أدق، موجودة فى المدن اليمنية، و فى المدن الساسانية أيضا، و قد تحدثنا سابقا عن البوميريوم pomerium و عن الساحة المركزية فى المدن الرّومانية forum، مع أن المكان الأول يطابق بالأحرى فكرة الصحن. و من المفيد التمعن فى فكرة الأغورا agora التى انتشرت كثيرا فى الشرق فى ذلك العصر. فماذا نجد فى دمشق، المدينة التى تفيد المؤرخ، لأنّها تحملت الاستمرار فى التقطع؟ نجد هنا أيضا، فى

قلب المدينة، هذين العنصرين الحاسمين، نعنى المعبد و القصر. لكننا نجد أيضا الساحة العامة (الأغورا) التى غطتها البناءات الكثيرة، فكادت تمحوها، بسبب التغييرات الواسعة التى طرأت عليها. و ما ذكره إليسييف Elisseef يدل دلالة عميقة على ذلك، و قد اعتمد سوقاجى Sauvaget فيما قال: «يذكّر درب الرّحبة و هو السكة المنحرفة المجانبة لأسفل التل (الذى يغطى الأغورا) بوجود سابق قديم لساحة مستطيلة أو مربعة الشكل، كانت تسمى رحبة خالد فى العهد الوسيط. و قد احتفظ بذكراها إلى اليوم فى ساحة الديوانة ...».

و لنلاحظ هذه الترجمة الممتازة التى ظهرت فى اللغة و الحجر فى آن، و التى حولت الأغورا إلى رحبة. و نسوق هذا على سبيل الإشارة و التلميح لا- غير، لأنّه لا- يمكن القول إن دمشق أثرت فى الكوفة فى بداية نشوئها. لقد أتيح لها ذلك كعاصمة للامبراطورية، لكن فى عصر لاحق، خلال إمارة زياد، و خلافة عبد الملك و ولاية خالد القسرى. لكن لو أردنا المضى بعيدا فى عملية المطابقات، فمن يقدر أن يدلل على أن رحبة الكوفة قد دعيت رحبة قبل العصر الأموى؟ أمّا فى بلاد الرّافدين فالأحرى أن ينسب إلى التأثير الهلينستى على السلوقيين و البارتيين، أمر تهيئة ساحة كبيرة حول القصر و المعبد على شاكلة الأغوار.

و هكذا تتتابع و تتشابه صور للعنصر الحضرى ذاته، و لا تتشابه فى الوقت نفسه، و لا سيما فى غائيتها. لقد سبق لرحبة المنصور

أن استهدفت الاتجاه المعلمی، و کانت ترمز إلی المسافة التی لا تدانی و التی کانت تفصل السلطة عن الناس و تمثل الفراغ العمیق الناتج عن خشیة هذه السلطة ذاتها. فی حین تقمّصت الرّحبه فی الکوفة الأولی وظیفة الرّافد و المصب من الحزام السکنی إلی المرکز، و شیئا فشیئا، و بمقدار تعاظم السلطة المفارقة للوالی صارت لها وظیفة الحاجز فی وجه الجماهیر الغفیرة المقیمة بالمدینة. فما القول إذن فی وظائف الأغورا

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۱۱۲

الکلاسیکیة، و وظائف الرّحبة الإسلامیة، إذا سلمنا بوجود اقتباس ما؟ کان للأغورا الیونانیة فی الفترة العتیقة وظیفة تجاریة، و أضافت الأغورا فی الفترة الکلاسیکیة إلی ذلک، وظیفة سیاسیة. فأصبحت المجال الحیوی للعلاقة الاجتماعیة، و مکانا للمداولات و المناقشات. لکن رحبة الکوفة، و رحبة بغداد بدرجة أقل، لم تکن امتدادا للسوق، و لا ساحة سیاسیة، و لا حتی مکانا للمداولات: إنّ صمت المصادر العربیة عن هذا الموضوع ناطق مبین. لقد کان القصر یجمع فی قبضته قوة القمع و القرار، فکان فی بدایة الأمر یوظف الرّحبة إما لجمع رجاله، و إما لإظهار قوته عبر الاستعراضات العسکریة. أما المسجد، فکان یجمع طیلة القرن الأول الهجری، النقاش السیاسی الدینی، لا کاختیار أصلی متجذر، إذ کان موکولا للتعبد قبل کل شیء، بل کعادة مکتسبة. کان النقاش یدور فی المسجد و القوم جلوس، لا وقوفا أو متجولین فی الرّحبة. ثم بعد ذلک وجد التحریض الکلامی و المسلّح نقطا للارتکاز فی الجبانات، تلک الأشکال الأخری المنبثة للرّحبة، کما فی الکناسة، ذلک المکان الرفیع الآخر لحرارة العلاقة الاجتماعیة المستمرة.

السوق:

کانت السوق عنصرا أساسیا ثانیا فی المساحة المرکزیة، إلی جانب الرّحبة و کانت مثلها محیطة بالمرکّب الأثری «المعلمی» المتکون من القصر و المسجد. و قد أسقطت منذ البدایة علی مخطط المدینة، بعد أن استنبطتها مخیلة المخططین. إن السوق عنصر من الحیاة الجماعیة و جزء من المساحة العامة. کانت مستقلة و جهازا قائما بذاته متمیزا عن المسجد- خلافا لتقالید الشرق القدیم. لکنها کانت قریبة منه و حدّد موقعها فی الجوار المباشر للمسجد، هذا الجوار الذی استمر فی کل بنیة مدنیة إسلامیة، فی حین أن القصر هاجر إلی القصبات الخارجیة أو إلی محلات للإقامة فی الضواحی. إن المهم فی هذا المجال أن نؤکد تعمد تهیئة الموقع الخاص بالسوق. فلم تنشأ السوق کإفراز لحاجات التبادل و الاستهلاک فی المدینة، أی نشوء عفویا، بل کان وجودها إرادیا محدد الموقع. و أن تکون بسیطة جدا أو حتی غیر متمیزة داخلیا فی الأول، فلا یزید هذا علی أن یکون أمرا طبیعیا. الحقیقة أن عالم التجار

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۱۱۳

کان موجودا منذ ابتداء الفتح، متقفیا الجیش، متصیدا الغنیمة. لکن هل نحن علی یقین من إنشاء السوق لمثل هذا الصنف من المبادلات و حتی لهذا الصنف البشری، أی لتاجر الجیش، المضارب المغامر المتجول؟ إن السوق المرکزیة، کما سیظهر ذلک من خلال تطورها اللاحق، مکان للمبادلات و مکان للانتاج. و قد أنیطت بها خدمة جماعة فی سبیل التمرکز و الاستجابة لحاجاتها الحیویة. و هنا أیضا، کان عالم سوق الجیش مدعوا للاستقرار، و تکییف نشاطاته مع نظام المدینة الجدیدة، تماما کما کان المقاتلون یتمصرون. اللهم إلا إذا کان تقاطر علی السوق صنف آخر من التجار و الصناع، صنف من غیر المضاربین فی الجیش، من المستقرّین الأصلیین، قدموا من المدائن أو من غیرها من البلاد، مختصّین، قنوعین بالربح القلیل من نمط تجّار الدّکاکین. و نحن نعلم أنّ السوق ستمتلیء فیما بعد بالعبید و الموالی.

أما على صعيد التمصير، فإن التحديد المجالى هو الذى يشد انتباهنا فى الواقع. لم يهتم بالأمر سوى مصدرين فحسب: هما سيف و اليعقوبى فى كتاب المدائن. فلم يذكر البلاذرى شيئا بخصوص هذه الفترة التأسيسية، لكن بالطبع وردت إشارات متفرقة عن العصر الأموى، تأتى فى سياق الخبر السياسى (الطبرى)، أو فى طيّات التراجم لرجال الدين (ابن سعد).

و ما يترتب عن كل هذه الأمور و يلفت نظرنا فورا، أن السوق أو الأسواق لا بد أن موقعها كان إلى شمال المسجد و إلى شرقيه، و أنها كانت محيطة بواجهته الشمالية، و قاضمة من واجهته الشرقية، غير بعيدة عن زاوية القصر الشمالية الشرقية. و يمكن أيضا التفكير مع الجنابى أنها كانت تقع شرقى المسجد و تبلغ الواجهة الشمالية للقصر. روى سيف خبرا جاء فيه أن صبر سعد قد نفد لتصاعد ضجيج السوق إليه و هو جالس فى القصر يتحدث. كما توفر خبران متكاملان، أحدهما لسيف و الثانى لليعقوبى، القصد منهما تبرير امتداد السوق بجوار الجهة الشمالية للمسجد مباشرة، حتى الحدود الشرقية الشمالية للصحن. و قد ذكرنا أن سيفا تحدث عن نقل المسجد فى اتجاه الجنوب، و بذلك توفر فراغ

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ١١٤

احتله باعة الصابون و التمر آنذاك، كما قال. و لا يعنى ذلك حتما أن هذا المجال قد احتله الباعة فى بداية الأمر. لكن هناك احتمالات و تخمينات فى هذا المعنى. أما اليعقوبى فقد ذكر عبارة رئيسة أوردها حرفيا حفاظا على ما اكتنفها من لبس: «و جعلت السوق من القصر و المسجد إلى دار الوليد إلى القلّائين إلى دور ثقيف و أشجع».

و ما نجهله فى هذه المعادلة هو دار الوليد. و باستقراء النصوص، تكون هذه الدار فى قلب سوق القصارين، كعلامة معروفة تكاد تكون استثنائية من حيث موقعها و ضمن المساحة المركزية قطعا، و قد أحاطت بها هذه السوق، لكنها غير بعيدة عن سوق السراجين. و باستثناء هذه الاعتبارات، فأين يكون موقعها؟ هل يكون بين المسجد و الحدود الشمالية للمساحة، أم إلى الشرق، أم إلى الزاوية الشمالية الشرقية، أم إلى الشمال الغربى؟ لا يمكننا الاختيار بين هذه المواقع. على أن معرفتنا بأن «دور ثقيف و أشجع» تقع إلى شمال الصحن، بالاعتماد على قائمة توزيع القبائل المنسوبة إلى سيف، مع اتجاه إلى الشرق (ارجع إلى الخارطة)، تجعل المشكلة تتمثل فى معرفة ما إذا صممت السوق على شكل سوق- شارع حيث تتوالى الاختصاصات، الواحد تلو الآخر، أو على شكل مركّب متشعب ينتشر على مجال واسع. و بذلك تشكل العلامات التى وضعها اليعقوبى- و هى المسجد و دار الوليد و القلاؤون و خطط ثقيف- فى الصورة الأولى مراحل تقع على الخط نفسه. و نحن نعلم أن السوق الكبيرة، أو ما سيصبح كذلك تمتد على سكة مركزية طويلة، و هذه خاصية أساسية تميزت بها حواضر إسلامية عديدة. أما الصورة الثانية التى تكتسى فى نظرنا صبغة منطقية أكثر، فتحدد بعلامات رسمها اليعقوبى و تتمخض عن مجال ممتد مثلث الشكل أو مستطيله. و قد اعتمد ماسينيون هذا الحل بالذات بصورة ضمنية، و ترجم قول اليعقوبى كما يلى:

a? partir du Qasr et du Ja? mi، d'un co? te? jusqu'au Da? r Wali? d- b- Uqba، de l'autre jusqu'aux Qalla'? yin، et de l'autre jusqu'aux habitations des Tha- qif et Ashja».

و بما أن الخط الرابط بين المسجد و القصر وثقيف معروف (اتجاه شمال/ شمال شرقى)، فإن هناك نقطتين تتعارضان حتما، الواحدة فى الشمال الغربى و الثانية فى الجنوب الشرقى،

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ١١٥

لكن فى مستوى مركز المساحة. فضلا عن أن كلمة أسواق فى الجمع تدل على بنية متفرعة ممتدة واسعة متنوعة، و هى لا تعبّر إلا بصعوبة عن بنية مطولة بسيطة. و من المعلوم أن مثل هذه السكك المتجهة إلى شمال/ شمال شرقى كانت موجودة فى الكوفة، و كانت تصل بين القصر و الجسر، ثم فى اتجاه السواد، مخترقة المساحة المركزية و الخطط القبلية. و لعل السكة الرئيسية

كانت «سكة البريد»، و هى الطريق البريدية الأساسية للاتصال، قبل أن تكون سكة لحام جرير كذلك، كما قال ماسينيون. و أخيرا يؤكد سيف أنه لم يكن يوجد فى بداية الأمر، فى الصحن، سوى المسجد و القصر و الأسواق بحيث تتساوى السوق و الكتل المجالية الأخرى، و يكون قوله مؤيدا للتصور الخاص بالأسواق المفتوحة الواسعة الممتدة، أى الميدان المحيط بالمسجد، الذى يتقدم حتى القصر، و يتوغل حتى الشمال و الغرب و الشرق.

و كانت هذه الأسواق مغطاة بالحصر، فى بداية الأمر. و لم يتمّ الشروع فى بنائها إلا بعد مدة تناهز القرن (فترة خالد القسرى)، و كان ذلك على قواعد متينة جمالية. فهل بقيت على وضعها القديم قبل ذلك؟ يمكن ترجيح ذلك إلى حد بعيد لأن أبا مخنف يفوه بخصوص فترة المختار (۶۶ ه/ ۶۸۵ م) بما يفيد أن الأسواق لم يكن فيها بناء فى ذلك الزمان.

و على صعيد التنظيم و حسب، من المعلوم أن أماكن الباعة لم يقر لها قرار. لكن إذا احتل البائع مكانا لأول مرة، فإنه يستمر يشغله كامل يومه، كما هو معمول به فى المساجد. و هذا أمر يحملنا على القول أن التنظيم و التخصص فى الأسواق كانا معدومين.

و سوف يتحقق هذا الأمر فى العصر الأموى.

الآرى:

أما الآرى، فقد ذكره الطبرى مرتين، كما ذكره اليعقوبى، بحيث أن اتحادهما فى

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۱۶

القول يوحى بوقوعه فى المساحة المركزية. الآرى عبارة عن مرعى عمومى، بمعنى أن الدولة تملكه و تشرف عليه، و هو مخصص لخيل الجيش التى هى ملك للدولة لا محالة. و قد روى أنه توفرت ۴۰۰۰ فرس فى خلافة عمر (هل كان بيت المال هو الذى و فرها؟) تأهبا لقتال محتمل. «كان يشتّيها فى قبلة قصر الكوفة و ميسرته، و من أجل ذلك يسمّى ذلك المكان الآرى إلى اليوم، و يربّعها فيما بين الفرات و الأبيات من الكوفة ممّا يلى العاقول فسمّته الأعاجم آخر الشاهجان يعنون معلف الأمراء».

كان منتجع الكلأ هذا يمتد على بضعة كيلومترات كانت تفصل بين عالمين، و كانت الكوفة تقع على الوصلة الرابطة بينهما، هما عالم البر، المتجه إلى الجنوب و الغرب و كان عالما شبه صحراوى، و عالم الرّيف القريب من الفرات و المتجه شرقا و شمالا. و لا بد أن العاقول كان يقع شمالى الكوفة، من جهة الفرات، و خارج محيط المدينة. لكن أين الآرى أو مرعى الشتاء؟ يصعب علينا تصور حشر ۴۰۰۰ فرس فى الزاوية الجنوبية الشرقية للمساحة العمومية، داخل حيّز محدود جدا ترتفع مساحته إلى بضع مئات من الأمتار المربعة.

و بمقارنته بالعاقول، نميل فى أوّل وهلة إلى نقله إلى الجنوب الغربى مما يلى دور السكن، حيث أن المساحة المركزية أحيطت بخطط القبائل من كل جانب، فى اتجاه البادية المترامية حيث ترعى النوق التى شغلت اهتمام عمر كثيرا، و نحن ما زلنا نشاهدها إلى اليوم. لكن أسبابا متعددة تدفعنا إلى اعتقاد خلاف ذلك: علما أن موضعا محدودا كان سببا فى ظهور اسم مكان، و كان ملاصقا للقصر، و لم يجاور دور الكوفة مثل العاقول- الذى كان هو أيضا يمتد على مجال ضيق يحده الفرات- و يرجح اليعقوبى بالخصوص رأينا الأخير حول هذه النقطة بجملة أوضح ما تكون حيث يقول:

«و كان فضاء عند المسجد».

ثم يضيف:

«و هو فضاء كانت فيه خيل المسلمين».

و إذا ما صدقنا اليعقوبى، فيبدو أن عمر أقطع نصفه إلى أبى موسى الأشعرى و النصف الثانى إلى جماعة من عبس. و هذا يعنى أن الآرى لم يستخدم لفائدة الخيل إلا خلال

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة؛ ص۱۱۶

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۱۷

التخطيط الثانى للصحن حسب رواية سيف و الشواهد الأثرية

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۱۸

السنوات الأولى من تأسيس الكوفة حيث شاع عدم الاستقرار، و حيث صمم كل شىء بالنظر للعمليات العسكرية فى العراق و الشام، فلم يذكر الطبرى الآرى إلّا عندما تعرض للنجدات التى وجهها أهل الكوفة إلى حمص. و ما هو ذو دلالة أيضا أن اليعقوبى رتب إقطاع الآرى هذا بين جملة من الإقطاعات الأخرى التى وهبها عمر لكبار الصحابة، و هى إقطاعات صالحة لبناء دور تقع داخل المساحة المركزية. فى الإمكان أن يدور النقاش حول واقعها التاريخى، و فيما يخصنى لا أعتقد أنه كان صحيحا، نظرا لأن فكرة القطيعة تبدو استثنائية فى خلافة عمر، فى حين أن اليعقوبى يتحدث عنها و كأنها ظاهرة عادية متصلة بالخطط القبلية ذاتها. و من الواضح أيضا أن كل ما ينسبه اليعقوبى أو يكاد فى هذا الميدان، إلى المبادرة الشخصية و ما يشبه الملكية عند عمر، كان نتيجة لتطور طويل ظهر بعد ذلك.

لكن الأهمية المتعلّقة بتحديد مكان الآرى ضمن المساحة العمومية تكمن فى كونه يرتبه عن خطأ أم لا ضمن مجموعة الإقطاعات التى تمت بدون استثناء فى المساحة المركزية أو فى المدينة. و بذلك يكون الآرى فى الصحن تماما، بمكان ما جنوب القصر و المسجد، يقع حسب المرجح فى زاويتين بالجنوب الغربى و الجنوب الشرقى، و هو مقسوم إلى نصفين. على أنّه من الصعب أن نعرّف وظيفة الآرى بأنّه مرعى مفتوح، بل الأولى أن يكون مكانا لتجميع الخيل. الواقع أن سيفا لم يستخدم كلمة رعى بل استعمل (يشتّيها) لكى يكون دقيقا، و قابلها بخصوص العاقول بكلمة «يربّعها». إنّ المعجم العربى مرتبط بنمط الحياة الرعوية، فتمادى فى واقع مغاير، هو واقع الفضاء الضيق الثابت الموظف إلى أقصى حد.

و بذلك يشكل الآرى حظيرة للخيل تقع فى المساحة المركزية كعنصر للتنظيم العسكرى المدرج فى المجال إدراجا تاما دقيقا.

دلالة المركز:

قلنا إن الحركة الرمزية التى سطرت حدود المساحة المركزية لم تكن تتصف بشىء من القداسة، بل بشىء عريق فى القدم. و هى التى دحرت إلى ما وراء الصحن الحياة الدّنيوية

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۱۹

المأنوسة لأبناء القبائل. لكن هذه القبائل سرعان ما أعادت تشكيل المجالات الجماعية لها (الجبانات)، داخل الخطط الترابية، كما ابتنت مساجدها الخاصّة حيث كان يلتقى الأشخاص المنتمون إلى العشيرة نفسها. ذلك أن المركز يوحّد، فى حين أن الخطط تحافظ على التنوع العشائرى و القبلى للنسيج العربى. و من الصعب فى الحقيقة إحداث معارضة تامة بين المركز الإسلامى و الحزام العربى القبلى، لأن مساجد العشائر تكاثرت، بفضل ما بلغه التدين الفردى من تطور سريع. على أن الفكرة تفرض وجودها فى البداية. ذلك أنه لم يكن فى الأوّل لهذه الجموع العربية من الإسلام إلا الاسم: فهى لا تشبه فى شىء أمة المدينة التى

استوعبت الروح و التعاليم الإسلامية. لقد تشكل ضميرها الإسلامى فى الحرب و ارتبط ارتباطا وثيقا بهويتها العرقية العامة، كما ارتبط أيضا بمركز القرار فى المدينة. فتمخض عن ذلك تأكيد الصلاة كمجموعة من الحركات التوحيدية التى تتجمع بفضلها أمة المقاتلين.

و ترتب عن ذلك أيضا طابعها كفريضة مطلقة، لا لسبب دينى و حسب، بل كفعالية سياسية و اجتماعية للإبقاء على لحمة شعب مشتّت فى الأصل، و لا سيما أنه استسلم للدعة نسبيا بعد وقعة القادسية. كان المركز موطنيا بفضل المسجد، لأن الدين كان معاشا كظاهرة جماعية أكثر منه كجملة من المضمّنات الماورائية، و كان الحكم يدفع به دفعا لكن الحكم كان سلطة تنظيم لا غير. إن انفصال المركز عن عالم السكن القبلى لا ينبغى فهمه بمعنى الحفاظ على سر من أسرار المعبد، ذلك أنه لم يكن فى خدمة المعبد طبقة من الكهان تسيطر على شعب خانع. بل كلّ ما حصل أن هيىء للمقاتلة مكان للاتصال إما فى الصلاة و إما بالتجارة و المكان الذى نظم لهم فيه إطار وجودهم برضاهم. و بما أن المسجد هو ملك للجميع، فقد كان مركزا أسمى، و مكانا للالتقاء، فتحتم أن يبتعد عن المجالات ذات الخصوصية المتمثلة فى خطط القبائل.

لا شك أن تجاوزات لحرمة المركز قد وقعت. من ذلك إقطاعات منحت للأفراد، و لم تمنح للقبائل أبدا. و لم يحدث ذلك فى البداية قطعا، كما كان يريد اليعقوبى أن يحملنا على الاعتقاد به، و لم يفعل ذلك عمر يقينا، لكن لعل بعض ولاته فى نهاية خلافته قاموا بذلك بصورة استثنائية. لقد بنيت دور فى المساحة المركزية و هو أمر ثابت أو يكاد، و مما يزيد يقيننا بخصوص بعضها، أنها وجدت فيما بعد داخل الأسواق. و قد أشير إلى دار الوليد بن عقبة و لعلها بنيت خلال ولايته [۲۵- ۳۰ ه/ ۶۴۵- ۶۵۰] فى خلافة عثمان. كما نجد

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۲۰

أيضا دار عمرو بن حريث، و عبد اللّه بن مسعود، و أبى موسى الأشعرى و غيرهم. و كانوا جميعا من القرشيين أو من الصحابة، بمعنى أنهم كانوا يدعون الناس إلى اعتناق الإسلام، و كانوا رسلا لحكام المدينة يميلون للاتجاه المركزى و يعيشون خارج الخطط الجماعية، بفضل نسق القطائع الفردية، أكثر من نسق الخطط.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۲۱

۸- بنية المجال الداخلى: الحزام السكنى أو الخطط

اشارة

إن نص سيف هو المصدر الوحيد الذى بين أيدينا، و هو نص يصعب تأويله لكنه ثرى. و الغريب فى الأمر أن ماسينيون أشار إليه، واصفا إياه بأنه «القائمة الوحيدة المتوفرة لدينا عن صفوف المساكن»، و مع ذلك فلم يعتمده فى مخططه القائم أصلا على ما رواه أبو مخنف بخصوص ثورة المختار (۶۶- ۶۷ ه/ ۶۸۵- ۶۸۶) و ثورة زيد بن على، فيبدو مخططه و كأنه مخطط سبرى للعصر الأموى. هناك مشكل محير يفرض وجوده على النظر: بما ان المصادر لا تتحدث إلا قليلا عن تحوّل الخطط فى العصر الأموى (أشهر التحوّلات جدت عند عبس و تميم)، فمن المعقول أن نجد هيكل الكوفة فى أول نشأتها من خلال صورة مقتطعة من العصر الأموى. لكن روايات أبى مخنف تتركنا فى حيرة من أمر هذا التناقض الأساسى الموجود بين وفرة الجزئيات الطوبوغرافية و غموض الاتجاه، و حتى غيابه. و ما يخشى أن مواقع القبائل التى ذكرها تتعارض أحيانا بصفة تامة و التصور الذى طرحه سيف. فإما أن يكون هذا التصور خاطئا، و إما أن تكون رواية أبى مخنف خاطئة. و نلاحظ الشيء نفسه عند مقارنة هذا

النص أو ذاك بكتاب البلدان. إن التطابق إن وجد نادر قليل، و تتراكم الصعوبات فى أكثر الأحوال.
و لا تنشأ هذه المصاعب عند المقارنة بين المصادر و العصور فقط. بل إن نص سيف

ذاته يتضمن شيئا منها، فيما يرويه و ما لم يروه، فى صميم الخطاب و فى خلفيته. لنبدأ بالتمعن فيه. و جدير بنا أن نورد الجمل الأساسية فى حرفيتها:
«لما أجمعوا على أن يضعوا بنيان الكوفة أرسل سعد إلى أبى الهياج فأخبره بكتاب عمر فى الطرق أنه أمر بالمناهج أربعين ذراعا مما يليها ثلاثين ذراعا و ما بين ذلك عشرين و بالأزقة سبع أذرع ليس دون ذلك شيء و فى القطائع ستين ذراعا إلا الذى لبنى ضبة».
«و نهج فى الودعة من الصحن خمسة مناهج و فى قبلته أربعة مناهج و فى شرقيه ثلاثة مناهج و علّمها. فأنزل فى ودعة الصحن سليما وثقيفا مما يلى الصحن على طريقين و همدان على طريق و بجيلة على طريق آخر و تيم اللات على آخرهم و تغلب، و أنزل فى قبلة الصحن بنى أسد على طريق و بين بنى أسد و النخع طريق و بين النخع و كندة طريق و بين كندة و الازد طريق، و أنزل فى شرقى الصحن الأنصار و مزينة على طريق و تميم و محارب على طريق و أسد و عامر على طريق، و أنزل فى غربى الصحن بجالة و بجلة على طريق و جديلة و أخلاط على طريق وجهينة و أخلاط على طريق.
«فكان هؤلاء الذين يلون الصحن و سائر الناس بين ذلك و من وراء ذلك و اقتسمت على السهمان فهذه مناهجها العظمى. و بنوا مناهج دونها تحاذى هذه ثم تلاقيها و أخر تتبعها و هى دونها فى الذرع و المحال فيما بينها و من ورائها و جعل هذه الطرقات من وراء الصحن».
إنها لصفحة كثيفة مهمة، و هى تتطلب شرحا ضافيا. و سنعمل على توضيح عدة نقاط، لكن هناك نقاطا أخرى ستبقى غامضة إلى الأبد. لقد استخدمت كلمة طريق فى معناها العام بداية، أى منهج، و فتحة، و سكة بما فى ذلك المناهج الواسعة، و المناهج الأخرى الأقل اتساعا، إلى أن نصل إلى السكك الصغرى. ثم إن الأمر تعلق بمقام القبائل، فدلت الكلمة ذاتها على المناهج العريضة. و قد تحدث أبو مخنف فى رواية ثورة المختار، عن «الطرق العظمى بالكوفة، و يبدو أنها كانت المنافذ الكبرى التى أقامت بها القبائل على امتدادها. فأصبحت الكلمتان (مناهج و طرق) مترادفتين. و هذا لا يعنى ما

قصده ماسينيون من أنها صفوف المساكن، و هو معنى غير شائع. المقصود بالذات هى شوارع معلمة تفصل بين خطط القبائل بأنواعها، و تسمح لكل قبيلة بالتحول إلى المركز، عبر طريق خاصة بها حددت لها مسبقا. و ما جعل ماسينيون يخطىء فى هذا الأمر اعتقاده أن الاستقرار الأول تمّ طبق النموذج البدوى المتمثل فى اصطفاف الخيام، و هو نموذج بقى معمولا به فى موسم الحج. لكن لا نجد شيئا من ذلك فى الصورة التى نحن بصددها، و لو كان ذلك لفقد نص سيف كل تماسك. و نجد هذه الطرق، سواء طابقت السكك أم لا، مذكورة بالنسبة لفترات لاحقة و بوصفها شرايين للاتصال البشرى و لتنقل الجنود الثائرين أو المؤيدين للحكومة داخل المدينة. بل نجدها أيضا مذكورة فى بغداد الجديدة، مع اتساع يمتد من ۴۰ إلى ۵۰ ذراعا، محفوفة بالدكاكين و الدور. و قد روى أن المنصور أمر بهدم بعض منها، محافظة على عرض الطريق المحدد مسبقا. كان لتخطيط الطرق الكبرى أهميته إضافة إلى ترتيبه التنازلى من ۴۰ ذراعا (قرابة ۱۶، ۲۱ مترا) إلى ۳۰ ثم ۲۰ ثم ۶، ما جعل سيفا يعرض الأمور و كأن هذا التخطيط كان أول أمر صادرا عن عمر فى شكل توصية شديدة الخطورة. أن يكون لعمر فى هذا الموضوع آراء بمثل هذا الوضوح فهو أمر يصعب تصديقه، و لعل سيفا أسقط على عمر العمل الذى أنجزه المنصور بشأن بناء بغداد. لكن علينا أن

نتذكر أن مخططى الكوفة- نعنى سعدا و أبا الهياج، و مستشاريهم من الحيرة أو من فارس أو من النبط- صمموا المدينة فى شكل مجموعة هندسية عقلانية منفتحة. لكن هل خططوا لذلك مسبقا؟ ألا يليق أن نعتبر ذلك إسقاطا حيث تحدث المؤلف عن شوارع متوازية، تخترق الطرق الرئيسية و عن شوارع أخرى «تتبعها»، و حتى عن أزقة و مناهج صغرى لا يمكن أن يخطط لها بالطبع مسبقا. و هى تبرز بالذات فى التراص المشط، و فى فوضى التطور المقبل. و لا ننسى أن سيفا مات فيما بين سنة ۱۷۰/ ۷۸۶ و ۱۹۳/ ۸۰۹، بحيث يكون ألّف كتابه بعد سنة ۱۵۰/ ۷۶۷. هذا و يجب أن لا يبقى أى شك عن فتح شوارع عريضة فى حزام السكن منذ البداية، سواء صاحبتها طرق ثانوية أم لا، بصفتها

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۲۴

العنصر الأساسى، و العمود الفقرى لنسق الخطط، يمكن بفضله تحديدها و تعريفها، و أيضا بصفتها الصلة المثلى للاتصال بين الصحن و الخطط، و المركز المشترك حيث تهيؤ الحياة الاجتماعية العربية الاسلامية الجديدة و خطط الوجود القبلى القديم، و حتى الوجود العشائرى.

كانت الشوارع الواسعة المستقيمة تنطلق من المركز المربع نفسه، و هو الذى يحوى ذاته مربعين هما المسجد و القصر. و نحن نميل إلى الاعتقاد أن شكل المدينة كلها كان مربعا، على شاكلة بابل، مع الفارق أننا إزاء مدينة مفتوحة و بدون سور عن قصد، و لا نعرف شيئا عن نهاية المناهج مع أننا نعرف بدايتها. و قد أسقط ماسينيون على مخططه شكلا دائريا أحيط بخندق دفاعى. و إذا ما كان هذا الشكل موجودا أبدا، فلا يمكن أن يكون قد أقيم إلا فى وقت متأخر، لما تدخل المنصور و أمر بتشييد السور و حفر الخندق، فضلا عن أنه بعث النموذج الساسانى الدائرى.

الواقع أننا نتقدم فى البحث بواسطة اللمسات و الانطباعات و إقامة ما نزعم على الاحتمالات، و لن يكون ذلك على أساس اليقين أبدا. هكذا ندرك أن التماثل ليس كاملا فى تصور سيف. لماذا توجد خمس فتحات فى الشمال، و أربع فى الجنوب، و ثلاث فى الشرق، و كذلك فى الغرب؟ و هل أن المسافة نفسها تفصل نقاط انطلاق المناهج؟ و إذا حددنا خطة إحدى القبائل بكونها تقع بين طريقين، فستظهر إلى الشمال مجالات ضيقة مستطيلة، و خطط واسعة عريضة شرقا و غربا. لكن بجيلة و همدان موجودتان فى «الشمال» بالودعة، كما أن دور و طلبات بجيلة معروفة، و قد ذكر اليعقوبى أن بجيلة كانت تستغل اقتطاعا مهمّا، جعلت منه كل روايات أبى مخنف النقطة المرجع بالنسبة للمنطقة الشمالية. قلنا المنطقة الشمالية؟ هل نحن على يقين من ذلك؟ إن مشكل الوجهة مطروح حيث ينبغى أن تكون القبلة هى المرجع، علما أنها تتجه إلى الجنوب الغربى، لكن هذا الاتجاه لم يحسب حسابا صحيحا (يقدر انحرافها ب ۱۷ درجة). إن المسافر الذى يعبر اليوم الفرع الغربى للفرات،

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۲۵

يسلك طريقا تتجه إلى الجنوب الغربى، فيصطدم فى الصميم بالجدار الشمال الشرقى للمسجد، و وراءه القبلة، أى بشمال شرقى يكاد يكون شرقا. و يمكن التساؤل عما إذا كان مربع المركز لا يقع موقع القطر بالنسبة للفرات و كذلك بالنسبة للخطط القبلية؟ و فى هذه الصورة، الاتجاه الذى يكون واقعا إلى الشمال على سبيل الافتراض، يصبح اتجاهه إلى الشرق، و تكون القبلة غربا، و الشرق شمالا، و الغرب جنوبا. فهل هذا الذى حمل البلاذرى على القول إن اليمن (يعنى بجيلة و الازد) استقرت فى اتجاه الشرق، و قد جاء ذلك الخبر فى فتوح البلدان، و رواه كل المؤلفين تقريبا؟ هذا افتراض يصعب اعتماده حقا، لأن مؤشرات كثيرة جدا وردت فى رواية الأحداث التالية تبدو مناقضة له. و حسبنا أن نعتمد الفكرة التى تقول إن المحور المركزى الذى تشكلت حوله المدينة فى جملتها، كان يتجه بصفة بارزة من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى، حيث كان الفرات إلى الشرق بصفة واضحة، و قام مقام الحد الوحيد المعرّف للكوفة.

و انطلاقا من ذلك، يمكن أن نتصور مخططا نجوميا و مخططا مربعا تماما على السواء.

فمن جهة، تنتهى الطرق و تنفصل، تاركة المجال للمساكن، ثم تتوقف فى مكان ما، و من مزايا هذا المخطط سد الزوايا الفارغة التى اكتست أهمية نسبية. أما فى الافتراض الثانى فإننا سنجد شوارع متوازية فيما بينها، شاقولية بالنسبة لجوانب الصحن، أى شكلا يكتسى كمالا هندسيا كبيرا. و اعتقادى أن روح النص الذى نعتمده، تؤيد الصورة الثانية، بمعنى البنية البسيطة. و نصل إلى حل مشكل الزوايا نصف الحل بفضل العبارة التالية: «فكان هؤلاء (أى القبائل التى تم تعدادها) الذين يلون الصحن و سائر الناس بين ذلك و من وراء ذلك».

فماذا يعنى هذا سوى أن الفراغات التى خلفتها الزوايا قد جرى سدها؟ متى؟ هل تم الأمر فورا و بصورة عشوائية، أم بعد مدة من ذلك، لما تبين أن المخطط الأول غير ملائم، فوجب تكييفه؟ ليس الأمر مهمّا الآن، بل المهم أن المناهج لم تسطر لكل الناس، و أن المناهج

و الخطط المرتبطة بها كانت تشكل حزاما أول، سيتم من ورائه استقرار موجات الروادف، فى حين استقرت قبائل أخرى فى الفجوات.

و الغريب أن سيفا لم يذكر هذه القبائل فى نصه فى بداية الأمر: كانت تلك حال بكر و حال طى بالخصوص. كأن الأمر متعلق بامتياز يرتبط بالمنتفعين الأولين بالخطط بصورة نظامية، ثم ألم تشر مصادرنا إليهم فسمتهم أهل الخطط، بمعنى الناس الذين حصلوا على الأراضى بصورة قانونية و معهم أولئك الذين أقاموا قريبا من المساحة المركزية؟

إن هذه الخطط مهيّأة لأن تتحول إلى أشكال طوبوغرافية على أقل تقدير، و ربما إلى أحياء حضرية بالمعنى الدقيق، و إلى أن تسمى مختلف الأماكن فى المدينة بأسماء القبائل (فيقال: ذهبت إلى كندة وجهينة). فصار مهما جدا ذكر مواقعها على خريطة. لكن هنا تعترض سبيلنا صعوبات هائلة. فما هو الترتيب الذى رتب عليه سيف القبائل التى روى أسماءها؟ و هل ينبغى البدء يمينا أم يسارا، أم من الوسط؟ و على فرض أن نبدأ من اليمين، و هو العنصر الخيّر بصورة تقليدية، عنصر اليمن الذى يصطبغ بصبغة دينية، فعلينا أن نتصور عند ذلك أن المخطط الذى حدد للقبائل أماكنها، كان يدور سريعا و على التوالى إلى القبلة، و إلى الشمال الشرقى، و الشمال الغربى، و الجنوب الغربى، و هو يواجه الوجهة المقصودة فى كل مرة، و هذا هو الأمر الأكثر ترجيحا لأنه يجسم الطريقة التى بها يفكر سيف.

لنعد إلى طريقته فى الحديث عن الرامى الذى يبدأ يمينا، و وصف وجهة المسجد: ...

«و وضع المسجد يمنة على القبلة ثم مدّ به إلى منقطع رحبة على و الرحبة قبلته». ثم:

«فكانت قبلة المسجد إلى الرحبة و ميمنة القصر». نجد ميمنة القصر من جديد، لأن العلامة المرجع ترتبط باتجاه الصلاة. و هكذا يقع الاستناد إلى عنصر الميمنة بصفة واضحة.

هل كانت الميمنة متنقلة، تواجه الشخص الذى يطلق النبل، و يأمر، و يوزع كما ينبغى، أم كانت ثابتة بالنسبة للقبلة ثباتا ضمنيا؟ هذان الافتراضان كلاهما راجح، و يترتب عنهما

مخططان مختلفان يمسّان بالخصوص مواقع سليم وثقيف. و هناك فرضيات أخرى منها أن القبائل التى ترد أسماؤها بالأول تحتل الموقع المركزى، و أن الآخرين يقيمون على التوالى إلى اليمين و اليسار، و هذا مخطط ثالث ممكن. و أخيرا، ماذا تعنى العبارة التى هى أساسية و التى تؤيدها رواية من البلاذرى: «و اقتسمت على السهمان؟».

هل تعنى إسناد خطتها لكل قبيلة، بعد أن تحدد موضعها الأساسى فى الشمال أو الغرب أو الجنوب؟ و فى هذه الصورة، لن نقدر أبدا على رسمها بدقة على خارطة. و كل ما نعلمه أن هناك طريقا كانت تفصل بين أسد و النخع، و أن كندة مجاورة للنخع و الازد أيضا.

هذا كل ما لدينا من معلومات واضحة إلى حد ما بخصوص الرقعة الجنوبية حيث نحس بنوع من التنظيم و التصفيف، أما دون ذلك، إذا اعتمدنا فرضية تمليك الخطط عن طريق القرعة، فإن الترتيب الذى ذكره سيف يفقد كل دلالة، فنكون مجبرين على التمادى فى ملاحقة الصدفة.

الواقع أن من الراجح كثيرا- و هذا من حسن حظنا- أن القرعة لم تفد القبائل ذاتها بقدر ما أفادت فى توزيع العشائر و الحسم بينها داخل الخطة القبلية ذاتها، و ربما توزيع الأفراد أيضا. إن بنية الجملة و السياق العام تحثنا على إعتقاد هذا الأمر: «و اقتسمت (الخطط) على السهمان».

و بذلك يتشكل لدينا على أية حال تنظيم قبلى. و قد ذكرنا أن أفضل طريقة لتحديد مواقع القبائل، هى أن توضع جنبا إلى جنب، انطلاقا من المركز، و فى مواجهة كل جانب من اليمين إلى اليسار إلا فى خصوص جانبى الشرق و الغرب، ففى اتجاه القبلة:

- جهة الشمال، من الشرق إلى الغرب: سليم، ثقيف، همدان، بجيلة، تيم اللات، تغلب.
- جهة الجنوب، و الشرق إلى الغرب: الأزد، كندة، النخع، أسد.
- جهة الشرق، من الشمال إلى الجنوب: الأنصار و مزينة، تميم و محارب، أسد و عامر.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۲۸

الخطط القبلية حسب رواية سيف

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۲۹

- جهة الغرب، من الشمال إلى الجنوب: بجالة و بجلة، جديلة و جهينة.

الحقيقة أن هذه الصورة للجغرافيا القبلية تفيد من بعض المعلومات التى ذكرتها المصادر الأخرى، على الرغم من أنها تطرح مشاكل تخص رصف الواجهة الغربية. فسليم مثلا غير بعيدة عن السبخة، كما جاء فى رواية أبى مخنف بخصوص المختار، و السبخة غير بعيدة عن الفرات. و تتجاور ثقيف و همدان و بجيلة بصورة واضحة جدا، اعتمادا لرواية ثورة المختار كذلك.

و كانت تميم تقيم شرقا قبل أن تتحول إلى الغرب. لكن إمعان النظر فى أخبار أبى مخنف الخاصة بثورة حجر بن عدى يحمل على الاعتقاد أن هذه القبيلة لم تبتعد كثيرا عن كندة: هناك انحراف طفيف ... أما بخصوص الجنوب فتتوفر معلومات رواها اليعقوبى و هى تؤكد و تنكر فى آن الترتيب القبلى كما رواه سيف. لكن كتاب اليعقوبى يخلط التغييرات التى طرأت منذ قرنين و نصف القرن، بروايات قديمة، متعلقة بالطوبوغرافيا الأولية للكوفة، و لذا، يجب الاحتياط عند استعماله. فقد حدد موقع كندة بين جهينة و بنى أود (من مذحج، أى أقرباء النخع)، و هو ما يطابق مخططنا، مع العلم أن أسدا تقع بينهم. ليس هذا الأمر محيرا، كما أنه غير محير أن يخص بجيلة باقتطاع كبير، حيث يماثل غلطا بين بجيلة و بجلة و اسم بجالة. و على النقيض من ذلك، يحدد اليعقوبى مكان الازد بين بجيلة و كندة، و كأن الأمر ظاهرة أصلية، أى فى اتجاه الغرب أو بالركن الجنوبى الغربى، أى فى موضع أسد. و هو الأمر الذى قد لا يتفق و تصور سيف، و لا و روايته السابقة، و لا تؤيده روايات أبى مخنف الذى أفاض فى الحديث عن الأزد، لكن بدون أى تدقيق بخصوص مواضع دورهم. و لم ينج ماسينيون من اللبس و الغموض، على الرغم مما

بذله من جهد عظيم لتخيل الأمور و تجميعها و ذلك لأنه حاول التوفيق بين هذه المصادر المتنوعة و توحيد العصور ملحا مع هذا على العصر الأموى. و لنقتصر فيما يخصنا على القاعدة الصلبة الواضحة لرواية سيف، تضاف إليها الاستفهامات و الشكوك التى أحاطت بها و التى تبرر وضع أكثر من مخطط لمواقع القبائل، على أن تتمّ مواجهتها بعد ذلك بالتغييرات الحاصلة.

قطائع العشائر و التقلبات الأولى

إن ما رواه سيف هو مخطط أساسى دام قرنين. لكن ما هى تفاصيله؟

لقد مر بنا أن هناك خططا كانت على شكل قطائع تفصل بينها سكك واسعة و تجمع بكل خطة قبيلة واحدة أو مجموعة متكونة من فرعين تابعين للقبيلة. و حدد تنظيم التخطيط الخطط و سلمها إلى أصحابها. هذا التنظيم من عمل السلطة و مستشاريها، إذ لا يمكن مجاراة اليعقوبى حين يقول: «فاختطت كل قبيلة مع رئيسها» عادة حول جبانة ما، بصفتها نقطة مركزية للوجود القبلى، و هى نقطة ماء أيضا كما يظهر. و على النقيض من ذلك، لا بد أن تدخل رؤساء القبائل كان نشيطا، لتهيئة الخطط من الداخل، و تحديد مكان كل عشيرة ضمن المجموعة. و قد لعبت القرعة دورا فى هذا الموضوع و كذلك تحكيم الرؤساء. لا شك أن الخطط الفرعية العشائرية هى التى أشار إليها النص باسم القطائع، و فرضت السلطة أبعادها على شكلية واحدة فيما يبدو (باستثناء بنى ضبّة و نجهل سبب ذلك). و من الواضح أن الستين ذراعا المذكورة تخص العرض و الأمر نفسه بالنسبة للسكك و المناهج و الأزقة، و قد صنف المؤلف القطائع فى المرتبة نفسها.

تتسع إذن قطيعة كل عشيرة إلى عرض ۴۶، ۳۲ مترا، فى حين أن طولها غير محدد، و هى محاطة بنسق كامل من السكك و الأزقة التى يتضاءل عرضها تدريجيا و التى تقسم كل طريدة قبيلة. و لنتابع مرة أخرى سيفا حيث يقول:

«فهذه مناهجها العظمى و بنوا مناهج دونها تحاذى هذه ثم تلاقيها، و أخر تتبعها

و هى دونها فى الذرع و المحال من ورائها و فيما بينها».

كيف يتجسم كل ذلك فى الواقع الملموس؟

لنفرض بداية أن كل طريق قبلية كبرى منطلقة من طرف المساحة المركزية، كان طولها ۴/ ۳ كم تقريبا، فالمسافة من الفرات إلى المسجد الحالى تعادل كيلومترا و ربع الكيلومتر. و بما أن منطقة الفيضانات القريبة من الفرات لم تكن مأهولة- و على هذا يكون موقع السبخة بهذا المكان- فينبغى حذف قطيعتين إحداهما تقدر ب ۲۵۰ مترا و تكون للصحن، و الثانية للسبخة، و بذلك يكون العمق مساويا ل ۷۵۰ مترا- إذ إن الكوفة فى بدايتها لا يمكن إلا أن تكون مربعة الشكل و تماثلية، كما كانت البصرة مدة طويلة، و كما ستكون المدينة المستديرة التى بناها المنصور للمرة الأولى. و على هذا، كان يحيط بكل قبيلة طريقان طويلتان عرضهما ۴۰، ۲۱ مترا، و طولهما ۴/ ۳ كم و كانت القبيلة تقيم على قطيعة يختلف عرضها بحسب عدد المناهج (۵ شمالا و ۳ شرقا). فعلى وجه التدقيق، لم يكن لخطة همدان مثلا أن تتجاوز عرض ۹۳ مترا فى حين أن خطة تميم كان يمكنها أن تبلغ ۲۰۸ من الأمتار. و بالنظر فى هذا المثال الأخير فإننا نتصور سكة من الفئة الثانية (۱۶ مترا) تقسم القطيعة قسمين فى وسطها، و توازى تقريبا المناهج على طول الخطة، أى

۷۵۰ مترا، ثم تنعرج حسب زاوية قائمة لتلتقى بمنهج تميم. فيتشكل أمامنا مستطيل طوله فقط يكون اعتباطا، لكن عرضه يساوى

۸۵ مترا. و لنستمر فی تصورنا معتمدین سیفا إلی أبعد حد. نکون بذلک فی حاجهٔ إلی سکهٔ یکون عرضها عشرین ذراعا- أی ۱۱ مترا- بمعنی سکهٔ من الصنف الثالث تقع بعد المنهج و السکهٔ المرکزیهٔ. هذه السکهٔ تقسم المستطیل قسمین فی اتجاه الطول، و تفتح علی حزام الوصل بین السکهٔ الرئیسیهٔ و المنهج. إن القطیعهٔ تتحدّد بهذه السکّهٔ الثالثهٔ و علی هذا النحو تمتد قطیعتان ضمن المستطیل علی عرض یقارب ۳۷ مترا، و هو یتجاوز قلیلا ما وقع تقریره. و تتجدد البنیهٔ ذاتها من الجانب الثانی من السکهٔ المرکزیهٔ. هنا أیضا نجد قطیعتین، دون أن نعلم ما إذا کان الاتصال یتم فی اتجاه المنهج المسند فقط أو أنه یرتبط بمنهج القبیلهٔ المجاورهٔ التی هی أقرب. و بذلک یصبح نص سیف واضحا حیث تقع الدور «من وراء» شبکهٔ السکهٔ و فیما بینها، أی علی جانبی السککک الثانویهٔ. یبقی مطروحا علی النظر مشکل أخیر هو مشکل الأزقهٔ و عرضها ۷ أذرعهٔ أی ۸۰، ۳ أمتار. لم یتحدث سیف عنها إلا فی البدایهٔ ضمن قائمهٔ المصطلحات التی قررتها السلطهٔ مسبقا، لا فی بقیهٔ النص، لکنّا نعلم من الروایات اللاحقهٔ عن الثورات أن الأزقهٔ کانت کثیرهٔ. لکن هل کانت موجودهٔ فعلا من البدایهٔ؟ أم هی انبعثت من کثافهٔ المساکن و تراکمها، و تضییق السککک، کی یوسع المجال الضروری للاتصال بالنسبهٔ لکل مجموعهٔ من الدور؟ الاتجاه النقدی الصارم یوجب علینا قبول فکرهٔ تهیئهٔ الأزقهٔ من الأوّل، حیث أننا رضینا بکل أقوال سیف. لکن علی أیهٔ صورهٔ تکون هذه الأزقهٔ؟ هل کانت عمودیهٔ بالنظر لسلسلهٔ المناهج الرئیسیهٔ، أو منحرفهٔ، مشکّلهٔ بذلک مخططا فی هیئهٔ رقعهٔ، أم کانت موازیهٔ لها تنظم و تشق صفوف الدور المتواجههٔ أو کلیهما فی آن؟ لن نعرف ذلک أبدا، لکننا نتکهن أن هذه المدینهٔ الکاملهٔ الهندسهٔ، الواسعهٔ التهویهٔ، سوف تتحول انطلاقا من نقطهٔ الضعف هذه، إلی مدینهٔ ملتویهٔ غصّت بأهلها، و قد حصل ذلک جزئیا حین کان أبو مخنف یؤلف کتبه (فیما بین سنهٔ ۱۳۰ و ۱۵۰/ ۷۴۸- ۷۶۷). علی أننا نعلم أن دور الفترهٔ المبکرهٔ

نشأهٔ المدینهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ: الکوفهٔ، ص: ۱۳۳

کانت صغیرهٔ (لم تتجاوز ثلاث حجرات) فلیس من المعقول أن تتکدس الدور فی قطیعهٔ لا یزید عرضها عن ۳۲ مترا. کان للعرب تقلید المعسکر، و قد لاحظ فوق ذلک مخططوهم و عایشوا فی عین المکان بنیهٔ المدائن المجالیهٔ. فبعد قبول فکرهٔ هندسیهٔ المظهر الأولی، یبقی من المرجح أن الزقاق کان یقسم القطائع قسمین فی اتجاه الطول، مثله فی ذلک مثل سلسلهٔ السککک السابق وصفها. لکن لیس من شک فی وجود أزقهٔ عمودیهٔ لضمان الاتصال.

و بذلک نصل أخیرا إلی نسق حقیقی مرتب من المناهج الطولیهٔ التی علیها رصفت الدّور، کما کانت الخیام تصف فی مخیمات البدو، الواحدهٔ تلو الأخری. و فی أدق قطیعهٔ من قطائع السکنی، بمعنی نصف القطیعهٔ عرضا بعد طرح الزقاق، لا شک أن الدور أقیمت أزواجا، مع خلاء طفیف فاصل، أو أنها کانت متلاصقهٔ لا غیر. نجد الشیء نفسه من وراء الزقاق، و علی النصف الثانی من القطیعهٔ، و قد ذکر الشیخ علی الشرقی فی دراسته المنشورهٔ بمجلهٔ الاعتدال لعام ۱۹۳۲ ما یلی:

«و کان العرب أول هبوطهم إلی العراق ینزلون الشواطیء من الریف و السواد و یبنون بشکل هندسی مکون من خیمتین خیمتین و إذا طغی النهر ارتفعوا عن الشواطیء ملتجئین إلی المخیمین الکبیرین البصرهٔ و الکوفهٔ».

إنه خبر ثمین مستمد علی الأرجح من مدونهٔ شیعیهٔ مجهولهٔ لدینا. و قد نقله هذا الرجل النجفی الأصیل و المطلع علی العوائد البدویهٔ. و نحن نقتبس منه البنیهٔ التماثلیهٔ المتزاوجهٔ للدور. و لنضف أنه کان لماسینیون تخمین باصطفاف الخیام، لکنه افترض أنها کانت تراکب المناهج أو حتی تکونها، و هو أمر لا یمکن قبوله. و بخصوص عشائر همدان

نشأهٔ المدینهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ: الکوفهٔ، ص: ۱۳۴

فقد تصورها الواحدهٔ تلو الأخری فی المنهج نفسه. أما تصورنا، کما تملیه علینا صرامهٔ نص سیف ذاتها فهو أن العشائر کانت تتوالی، لکنها کانت تتواجه أیضا. کانت الدور تتوالی ضمن القطیعهٔ الواحدهٔ، لکنها کانت تراکب ممرا، هذا الممر هو الزقاق، و

هو أصغر الطرق، و كانت الدور تقع على جانبى كل نسق الطريق قطعا، كما هو الحال فى كل مكان.
لكنها لا تقيم عليها، و لا سيما الطريق الكبرى أو المنهج، و هو عبارة عن أرض خلاء صالحة للفصل و المرور.
ما هو عدد قطائع العشائر فى الخطة القبلية نفسها؟ يرتبط هذا الأمر بعدد العشائر التى جاءت مع القبيلة، فى بداية الفتح، و بعدد الأفراد داخل كل عشيرة. و قد طرأت تحويرات بالهيكل الشامل فور تنصيبه. و من المعلوم- دائما بصورة تقريبية- أن ۴۰۰۰ رجل من قيس حضروا وقعة القادسية (ضبة، هلال، سليم، غطفان، ثقيف): فتوزعوا على عدة خطط قبلية. و جاء ۳۰۰۰ من أسد و العدد نفسه من تميم، و ۲۳۰۰ من مذحج و حضرموت، و ۲۰۰۰ من بجيلة. لكن يتشعب المشكل برحيل عناصر من بكر و ضبة إلى البصرة.
و الذى حصل بالكوفة هو هجرة أجزاء من قبائل متفاوتة الأهمية فلم تقع هجرة وحدات قبلية كاملة. لكن هل حصل ذلك بأقسام آتية من كل العشائر أم من بعض العشائر المتجانسة؟ لكى تكون لنا فكرة عن هذه المسألة، أحصينا وجود ۱۰ عشائر من همدان فى بداية نشوء الكوفة. و للاطلاع، راجعنا كتب الأنساب فوجدنا أن بمذحج ۱۷ عشيرة معروفة (لا بالكوفة، بل بصورة عامة)، و بكندة ۹ عشائر حسب المصادر المعهودة و ما يفوق ال ۲۰ عشيرة مستقرّة بالكوفة حسب ابن الكلبى. و تحصى بجيلة ۴ أو ۵ عشائر، خلافا لتميم التى تألفت من أربعين عشيرة. و هكذا نرى أن النسب مختلفة جدا. فهل

سنجد قطائع كبرى و قليلة العدد عند بجيلة و كثيرا من القطائع الصغرى عند تميم، و قطائع متوسطة عند مذحج و همدان؟ إذا خضع جميعهم لمبدأ الهيكلة الطولية، فى شكل شرائط، مع تحديد مسبق لعرض القطيعة، فمن المعقول أن تحتل القبائل الكثيرة العشائر، أوسع الخطط (خطط الشرق و الغرب) و لعل المواقع المفتوحة من جهة أيضا، حيث كان يتيسر التوسع الجانبى. و لا بد أن طول خطط العشائر بالخصوص كان متنوعا، و قد بقى غير محدد ربما بسبب تنوع العشائر. و بما أن بجيلة تفرعت إلى عشائر قليلة، فقد يكون من نصيبها ست أو سبع قطائع ضخمة، و ستحافظ هذه القبيلة أكثر من غيرها على نسق طرقها (و كثيرا ما ورد ذكره فى الروايات السياسية اللاحقة). و خلافا لذلك، لقد استقرت تميم فى خطة عريضة لكى تكون اقتطعت قطائع قليلة الطول و فى إمكانها تصفيف أربع قطائع جنبا لجنب، فى حين أنها لو استقرت شمالا، فلن تتمكن إلا من تصفيف قطيعتين قطيعتين. هذا و لم تكن كل عشائر تميم حاضرة بالكوفة، و لا كل الذين شاركوا فى وقعة القادسية، و لا سيما بنو حنظلة الذين كانت عشائرهم كثيرة. فمنذ أن جرى التحول إلى المدائن، اختاروا الإقامة بالبصرة. بقيت زيد مناة و منها سعد، و تفريعاتها الكبيرة بصفة مذهلة إذ تحوى فى الجملة خمس عشرة عشيرة على أقل تقدير. ثمّ إن خطة تميم تشتمل على محارب. كلّ هذا يحفزنا على قبول تقسيم قصير للقطائع (۲۰۰ متر طولا فقط)، أى قبول تراكم معين، و ذلك يفسر أنه لم يكن لتميم جبانة معروفة، مما يبرر تنقلهم إلى غرب الكوفة فى بداية العصر الأموى. إن هذه الجولة فى قضايا التعمير ترمى إلى تسليط الضوء على البنية الطوبوغرافية لمحيط الإقامة. يزيد ذلك من تشبثنا بفكرة أن توزيع خطط القبائل لم يتم صدفة و لا بواسطة قانون القرعة القديم، بل هو تعبير و كشف لمنطق كان سيئا أحيانا. أما تخطيط القطائع فكان يخضع لقاعدة صلبة، بخصوص تحديد العرض و حسب، مثله فى ذلك مثل نسق المناهج، فارضا تشكيلا و بنية و مظهرا عاما. إنه التشكيل الطولى، تشكيل البدو لصفوف الخيام، الذى انتقل إلى الكوفة و تكيف مع الكثافة البشرية، و انضغط على نفسه فى المجال الضيق، فكان فى آخر الأمر تنظيما بديعا.
على أن هناك نقاطا هى محل شك بخصوص هذه النتائج. فمثلا- ليس ثابتا لدينا أن الزّقاق كان دائما الخط القاسم داخل القطيعة، أو أنه كان كذلك أبدا. ففى وضعية مثل

وضعية بجيلة القليلة العشائر ذات القطائع الكبرى المترامية فى الطول و المكتسبة لخطة قبلية قليلة العرض (واقعة فى الشمال)، يكفى المنهج الطولى من الصنف الثالث (٢٠ ذراعا- ٨، ١٠ أمتار) لرسم الخط القاسم بين قطيعتين متواجهتين. و لن يكون الزقاق الإضافى فى الاتجاه نفسه زائدا عن الحاجة فقط، بل يكون غير قابل للبقاء. لكن أزقة بجيلة، كما أزقة ثقيف، و أزقة منطقة الشمال عامة، نجدها حاضرة كل الحضور فى الروايات اللاحقة عن الثورات حيث توحى لنا بشعور بالضيق و الغموض. إضافة إلى أن هذه الروايات توحى ببنية عارضة للأزقة فى اتجاه شرق- غرب تصل المناهج فيما بينها: فلا يمكن لهذا، التخلى عن فرضية الأزقة العمودية فى صنفى الخطط، الخطط ذات القطائع المتعددة حيث تدخل الأزقة ضمن النسق الطولى للمناهج كما الخطط قليلة القطائع حيث تكون الأزقة عارضة فحسب. فهل نتوصل من جديد إلى مخطط مشبّك؟ لا، قطعا، لأن المخطط المشبّك يفرض مسبقا وجود وحدات ذات بعد متساو. لكن تشكيلة الكوفة فى بدايتها تعارضه كل المعارضة. لا نجد فى هذا المقام جزرا سكنية على الطريقة الرومانية، و لا كتلا من العمارات على الطريقة الهلنستية. بل هناك تصفيف من صنف عربى. و لنبين أنه لم يكن يعوزه الفكر الهندسى، و لا عقلانية التصور المتأثرة بالتقليد البدوى بلا ريب. يظهر الفكر الهندسى فى الخطط و متفرعاتها، و فى القطائع، و يبرز فى أهمية نسق الطرق التى اتسعت بصورة ممتازة، و انتظمت، و اتجهت كلها إلى المركز، و التى يصب بعضها فى البعض الآخر، و المنظمة لسيل البشر. و تلتزم العقلانية بإرادة التنظيم، و تبرز فى توزيع الفضاء الصالح للسكن على الأضلع الأربعة لمربع المركز، و إسناد الخطط للقبائل، و حتى توأمة القبائل ضمن خطة واحدة، و تفصيل القطائع. هنا نجد كل شىء يخالف المدينة العفوية: إنها مدينة منظمة تنظيما مفرطا، كأنها رسمت على الورق، لكن هذه العقلانية تتحقق فى آن و تتقهقر فى تشكيلة الخطط السّكنية الممفصلة تمفصلا شديدا، هذه التشكيلة تخضع لروح شعب، و تقليد حضارى أصيل. و هى تكشف لنا عن عقلانية سياسية- و معمارية- قصوى، لأنها تعتبر العنصر البشرى على علاته. إذ كيف تمكن العرب البدو من التكيف مع التعايش الدائم فى حين أنهم تعودوا الرحاب الفسيحة، لو لم يعيدوا تشكيل بنية مأنوسة لديهم عربية صرف؟

لكن هذه البنية التى كانت نواة للتطور القادم، كانت تقع تحت عبء ضيق المجال الصالح

للسكن، و ما طرأ من تصلب على ترتيب القطائع، و هو ما يتضارب مع نسق الطرق المهوى جيدا ما عدا الأزقة مما أدى إلى ظهور مصاعب فورية.

روى سيف أن الأعشار استقروا فى هذا الحزام السكنى، أى الوحدات الكبرى فى معركة القادسية، فى حين أن «مواضع» خصصت للمقاتلين الذين كانوا يحرسون الثغور، و قد غابوا عن الكوفة (و لا سيما عبس). لكنها أن الروادف بدأوا يتوافدون، و قد كانوا من المهاجرين الذين جاؤوا حديثا، على دفعتين متواليتين، منذ خلافة عمر. و ضاق المكان على المقيمين الأوائل فى الحال، و ذلك دليل على أن الخطط حددت بصفة كبيسة، و أن مجال السكن كان كثيفا عموما إلى حد الشطط. و قد تبين فورا أنه كان لا يكفى، و ما عقّد الوضع كثيرا أن العرب لم يكونوا يتصورون أى تجمع للسكن خارج إطار العشيرة و القبيلة عموما. و أدى هذا إلى إدخال التحويرات و التنقلات و المبادلات، فى مستوى العشيرة و القبيلة. فإذا ما تكاثر المهاجرون الجدد المنتمون إلى عشيرة أو مجموعة من العشائر المستقرة سابقا، فإنهم يجذبون إليهم أبناء عمومتهم الذين يتخلون عن دورهم و يلحقون بهم حيث يقيمون، أى خارج مجال الخطط، و ربما بالأطراف أو فى الفجوات الكبيرة. من البديهى أن هذا قد حصل لاستحالة توسيع مجال السكن و قد حصره نسق الطرق و لأنّ عرضه محدود، و لأنّه يتفرع إلى قطائع أو خطط غير قابلة للاتساع- نظرا لوجود عشائر أو قبائل أخرى مجاورة و هى بصورة قسرية محددة- فتظهر بمظهر الوحدات الثابتة الصلبة أو الأراضى القبلية التى لا

يمكن عبورها. و خلافا لذلك، حيث يكون الروادف قليلى العدد، فإن رجال عشيرتهم يجلبونهم إليهم، و يفسحون لهم المجال و لو أدى ذلك إلى الضيق، بعد مراجعة تهيئة مجالهم، و إما بإقرارهم فى مكان المغادرين إذا أسعفهم الحظ و كانوا من أجوارهم.

فهل كانت تنقلات من الصنف الأول تبين سبب إقامة أحمس، إحدى عشائر بجيلة الكبرى، قريبا من الجبانة، بحيث أقاموا بعيدا عن مجموع القبيلة، و أنّ تميما و أسدا و عبسا تجمعوا فى الطرف الغربى، أى من جهة الكناسة، حيث يوجد مجال أوسع

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۳۸

للانتشار؟ نحن نجهل قطعا تفاصيل هذه التحركات التى يمكن أن تفسر الخلاف المحير جدا، بين بنية الاستقرار الأولى كما رواها سيف، و الطوبوغرافيا غير المباشرة التى جاء ذكرها فى تواريخ الثورات اللاحقة. لكن على الرغم من التغييرات الطارئة، فإن المخطط الأول فى روحه كما فى إسقاطه المجالى، بقى الإطار الأساسى لوجود الكوفة و تطورها، و الرّسم الذى انطلق منه بناء المدينة و نشوؤها.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۳۹

۹- التخطيط و التطور اللاحق

ستنمو الكوفة فعلا- و سيكون نموها موفقا. كان التخطيط الأول بمثابة النواة التى عملت على إملاء الاتجاه الذى سيكون عليه التطور المقبل. إلا- أنها كانت نواة شديدة الهيكلة. أن تكون الكوفة نموذجا للأمصار فهذا مما لا يدخله الشك: الأمصار أى ذاك الجيل الأوّل من التجمعات العربية التى قامت خارج بلاد العرب، فقامت بدور المراكز العسكرية و السكنية الكثيفة، و كانت قطبا للتعريب فى البلاد التى أقيمت بها كما للأسلحة، و لأسلمة العرب قبل غيرهم. و لكن و فوق هذا، هل كانت الكوفة نموذجا للمدينة الإسلامية المقبلة كما شكلت مظهرها فى العصور التالية، و كما حافظت عليه إلى حدود زمن قريب منا؟

أى ذلك النمط الأصلى المتعلق بخصوصية المدينة الإسلامية من وراء تنوعها فى المكان و الزمان؟ هذا سؤال ينبغى طرحه لا محالة بمتضمناته المتعددة. و هذا واحد منها يخص إلى حد بعيد بنية المجال الذى نجتهد محاولين الإحاطة به. لقد أتيح لشكل المدينة العربية المعهود فى العصر الذهبى و ما تلاه، أن يظهر بصفة مكثفة و غير منتظمة و ملتوية و فوضوية. كان مكتظا بالأزقة و السكك الصغرى الضيقة. فمن كان يتحمل أعظم مسؤولية فى هذا التغيير، أهو التطور التاريخى اللاحق، أم البنية الأصلية المجالية فى المدينة العربية؟ إن ما يهمنا فى هذا المقام هو التخطيط الأولى، فما عسى أن تكون اختلالاته الممكنة؟

الأمر الثابت أن هذا التخطيط كان منتظما أكثر ما يكون الانتظام و كان بمقدوره أن يخلّف حاضرة منشرحة، هندسية الشكل، لو وقع الاستمرار فى مراقبتها خلال نموها، كما كان الأمر عند نشأتها، و لو استمرت تنمو بموجب اتجاهها الأول، و هو اتجاه الطول، بمعنى أن يكون هناك امتداد لا نهاية له، لا أن يكون هناك تكديس. و لا نستبعد أن يكون حدث التطور بالطريقتين معا. فقد تطورت الكوفة فى اتجاه الغرب على امتداد كيلومترات كثيرة، مع العلم أن الناس انهمكوا فى ملء النواة الأصلية (المركز و الخطط) إلى حد الضغط. و مع

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۴۰

هذا لا يمكن أن تتسبب ظروف النمو المقبل و أسلوبه وحدها فى التطور الفوضوى، إذا ما حصل مثل هذا فى الكوفة. رأيى أنه ينبغى العودة بصفة مطلقة إلى هذين العنصرين الأوليين، نعنى وجود الأزقة و ما كان من نقص هيكلى فى المساحة الصالحة للسكن. يشكل الزقاق، قطعا، جزءا من جهاز المناهج، إلا أنه كان أكثر اندماجا بالمجال الصالح للسكن، لأنه ينفتح على الدور و

يقسم القطيعة قسمين. فكان دوره مهمّا فيما سيكون للكوفة من مظهر بحيث صار بمثابة السكة المعهودة التى اندمجت حقا بالنسيج السكنى، و لعله بقى العنصر الوحيد من جهاز المناهج، باستثناء المنهج الكبير. لكن الزقاق لما كان عليه من ضيق، كان مع هذا منتظما و غير قابل للضغط. و على ذلك، فقد استمر قائما، فى حين أن المناهج الأخرى الطولية قضمت و ألحقت إلى أقصى حد بالمجال السكنى. و من المعلوم أن المنصور قمع هذه النزعة فى بغداد، أى نزوع الأهالى إلى تجاوز المناهج الكبرى، فهدم الدور التى خرجت عن الطرق. و لذا، هناك اندفاع طبيعى أو ما يشبه ذلك يتجه من مناطق السكن إلى مجالات الاتصال. و سبب ذلك رقة القطيعة و الخطة بصورة عامة، و كذلك ما فرض من تحديد على عرض القطيعة، مقتبس من عرض المناهج. و هذا جعل منها نوعا من الطريق التى لم تتسع إلا قليلا، و جعل من الخطة القبلية بتمامها بنية تتناوب فيها السيور الخالية و السيور العامرة. و بقدر ما كانت النظرة كبيرة فى نسق الطرق، فإنها كانت قد صغرت فى نسق القطائع، كأن الطرق تفوقت على القطائع، كما تفوق المجال العمومى على المجال الخاص: هذا تعبير عن استخدام جماعى للمجال من مجموعة تنشر حياتها خارج البيوت. و لا أعتقد أنه يجب اعتبار تصور الحزام السكنى بمثابة ثنائية معينة، بين نسق الطرق المستمد من أشكال هلينستية من جهة، و نسق المساكن الذى يكون بذلك عربيا صرفا، حيث أن أسلوب الحياة بالذات يوجب وجود التنقل و تحقيقه بصفة ميسرة.

لقد اتضح لنا أن القطيعة لا تكفى لقبول مزيد من السكان. فهى مصممة لإيواء وحدة بشرية هى العشيرة، و لذا كانت إقطاعا جماعيا يستبعد الملكية الفردية، فانتصبت إطارا ملزما لاستقرار كل فرد من أفراد العشيرة. كان إذن المجال الاجتماعى، كما المجال المادى للقطيعة، يضغط عليها فى سبيل الضيق. و من هنا نجد فى الأساس البذرة لكى يتجه التطور المقبل إلى صنف مدنى ضاق ضيقا مشطا، بسبب تطور انعكاسى تماما ابتلع فيه المجال السكنى نسق الطرق فارضا وجهه المعتم فى كل مكان. و يمثل هذا الأمر انتقاما موجها إلى المنهج، مصدره القطيعة. لم يتحول الزقاق إلى طريق مسدودة أو إلى سكة ملتوية، بل إن نقص الفتحات العرضية و أحيانا مجرد فقدانها فى التصميم الأصلى، هو الذى

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۴۱

نشأ عنه كثير من الطرق الجانبية بكيفية غير منظمة حتما. و قد تحدث سيف بالفعل عن مناهج كانت تتوازى ثم «تتلاقى»، و تحدث عن أخرى «تتبعها»، و عن الدور «فيما بينها و من ورائها». يجب الاعتراف أن هذه الفقرة بإمكانها أن تحملنا على تأويل مخطط الكوفة تأويلا مخالفا لما ذكرت، أى كمخطط متقاطع حيث تتلاقى السكك، مفصلة بذلك قطائع مربعة الزوايا. و حتى فى هذه الصورة حيث يقع تصحيح الاتجاه الطولى الذى اعتقدنا اكتشافه، فإن عناصر المشكلة تبقى قائمة، يعنى وجود خطط فرعية للعشيرة محصورة فى شبكة من المناهج، و غير قادرة على التمدد إلا إذا قضمت هذه الشبكة، و بذلك يكون الساكن حبيس مجالها العيانى.

إنّما سقنا الكلام عن مشكل النمو و التطور، ضمن سياق تكوّن الكوفة لكى نحيط فعلا بالتصدع الذى بموجبه تنفصم بنية منتظمة متسعة منشرحة، إن لم تنقلب فى القرون المقبلة. و هى من أمّات مشاكل المدينة الإسلامية و كثيرا ما تعرض لها المستشرقون لكن بصفة غير مرضية.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۴۳

الباب الثالث الاستشراق و المدينة الاسلامية

اشارة

– ۱۰– من النظام إلى الخلل

على الرغم من وجود أدب استشراقی وفير عن المدن الاسلامية، لم يتساءل إلا علماء قليلون عن المشكل المتعلق بمعنى هذا التطور و مسبباته، ربما لأنهم لم يتمعنوا فی أوضاع الامصار. ذلک أنهم كانوا يفضلون دراسة العصور اللاحقة. و إذا ما شعروا بوجود تناقض بين المدينة الأولی فی العصر المبكر، المدينة المفتوحة المنظمة، و المدينة الثانية المتكدسة الملتوية و غير «المنظمة»، فإنهم يعللون ذلک بمفعول التطور وحده، لا ببنية المخطط الأصلی أبدا.

فكيف تم الانتقال من النظام إلى الخلل؟ هذا سؤال تطارحه باحثون منهم: بلانهول X.de Planhol، و برونشفيک R.Brunschvig، و قيرث Wirth. لم يفسر ذلک بلانهول، بل اقتصر علی تأكيد الأمر. و باستثناء بعض التخمينات المهمة، فقد عكس مسعاه تماما أصناف التطورات الاستشراقية كافة عن المدينة الاسلامية، و هذه التصورات ينبغی إمعان النظر فيها جيدا. قال إن الاسلام المبكر عرف الشوارع المتسعة: «نسب حديث إلى الرسول يقول: يجب أن يكون لعرض السكک ۷ أذرع علی الأقل (ما يقرب من ۴، ۳ أمتار)، و هو

حيّز يتنافر و تلاقی دابتين مثقلتين بالأحمال. و قد اعتمد عمر هذا العرض بالنسبة للسكک الاعتيادية فی البصرة و الكوفة، ثم فی بغداد بعد ذلک، بينما كان عرض الشوارع يبلغ ۲۰ ذراعا (ما يقرب من ۱۰ أمتار) فكانت تفصل كتل الدور و عمقها ۳۰ مترا ... و قد ظهر اهتمام تنظيمی مرموق، و نظام صارم، و تصميم موضوع بحزم، حتی فی عدة منشآت مدنية إسلامية فی بدايتها». ثم أضاف أن «اختلاف المخطط فی المدن الإسلامية هو فی أكثر الحالات، واقع مكتسب و ليس واقعا تكوينيا»، و أن الامر لا يتعلق «بنقص جذری»، بل بالاحری بتطور لاحق يمكن أن يعزی إلى فقدان التنظيم البلدی فقط. هذه حجة منقوصة لأنه لم يمتنع علی الدولة تحمل المهام البلدية المهمة، كما فعل عمر بالنسبة للكوفة، و المنصور بالنسبة لبغداد، كما أنها حجة خادعة دافع عنها الاستشراق القديم مدة طويلة، و قد صارت محل اتهام فی العصر الحديث، لأنها تستند إلى مثالية المدينة اليونانية و مدينة العهد الوسيط و تعرّف المدينة الاسلامية لا بما هی، بل بما ليس فيها.

و مع أن روبير برونشفيک درس تطور التمصير الاسلامی من خلال مصادر الفقه، فقد كان شعوره حادا بالعناصر الحضارية التی ينبغی اعتبارها لشرح هذا المظهر اللافت للنظر فی المدينة الاسلامية: تصور الأسرة المنطوية علی نفسها، و نوع من التسامح القريب من الاهمال تجاه المبادرات الفردية. الشیء الذی جعل الأولوية للبيت علی قارعة الطريق العامة التی تواصل قضمها بسبب إمتداد البناءات، فی حين أن الخرابات و الأماكن المفتوحة كل الفتح كانت متراكمة فضلا عن ذلک. يقول: «إن الطريق العمومية سيئة الحماية، و التسامح يتجه إلى من ينمی الملكية المبنية، و لو كان ذلک علی حساب الساحات و السكک». هذه ملاحظ صحيحة قطعا، لكن ما هو سبب عجز السلطة عن العناية بالطرق و المحافظة عليها، بينما كان هذا الشاغل قائما فی القرنين الأول و الثانی من الهجرة؟ لعل الاندفاعات العميقة هی التی طغت علی كل إرادة تنظيمية لدی السلطة التی تنشیء و تؤسس، ثم تفشل فی الصيانة. كانت اندفاعات سكانية، و تصاعدات لنزعات ثقافية ما زالت حية (النزعة البدوية و الشرقية و غيرهما)، و تنظيم الحضارة الاسلامية ذاتها فی إطار المدينة أو نشوؤها البطیء داخل بعض المدن الرئيسة بالذات. لا يوجد أی شک فی وجوب طرح قضية الترابطات العميقة الخفية و التطورية أيضا، بين نمط الحياة كما تكون بفضل سلسلة من الخيارات و الالغاءات، و بين الشكل المدنی، كما يتقولب حول أقوی متضمناته.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۴۶

و بقدر ما تكونت الحضارة الاسلامية فى المدينة، انتهى بها الأمر إلى إضفاء وجه معين يشكل هذه المدينة بالذات، و يتمثل فى البنية الالتوائية، و تفوّق المخفى و بالتالى إنغلاق الدار، و تخصص الأماكن العمومية و تحديد مواقعها بالمركز، و انقسام المدينة إلى أحياء فى فترة لاحقة.

زد على ذلك أن المشكل المطروح يتعلق بمعرفة ما إذا كان المعروض كتطور نحو الفوضى كما قيل، لا يعبر بخلاف ذلك، عن نظام ما، مغاير لنظام الهندسة الواضحة، كما يعبر عن نظرة جمالية بدأنا نشعر بها اليوم، و علينا أن نسرع بحمايتها من غائلة الدهر.

و لا فائدة من الإفاضة فى القول فى هذا الباب، لكن كان مهما تصحيح عدة فرضيات مسبقة نشرها الأدب التاريخى الخاص بالمدينة الاسلامية.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۴۷

- ۱۱- مدينة بلا وجه

هل هى مدينة إسلامية؟ هل من يقين فى هذا المضمار؟ هذا تساؤل مطروح من طرف الاستشراق و يعلل بالتصور الآتى: بما أنه اتضح وجود فترتين فى تاريخ هذه المدينة، فترة أولى (أمددها بعضهم إلى القرن الحادى عشر) ربما تميزت بشبهها بالعصور القديمة اليونانية و الفارسية و البابلية و البيزنطية، فيستنتج أن المدينة الاسلامية طالما اتسمت ببعض الاستقلالية فى مؤسساتها، و بكونها منفتحة واسعة فى مخططها، و بما أن هذه التشابهات و الاقتباسات و التأثيرات واردة، فالرأى أن هذه المدينة لم تكن إسلامية. و جملة القول إن الاسلام لا يصبح إسلاميا كما قيل، إلا فى عصر متأخر. إن الإسلام الأولى المقاتل و العربى، و كذلك الاسلام المعتد فى العصر العباسى، ذاك الاسلام المتردد بين قطب استبطان المحيط الثقافى و قطب المقاومة، فى حركة جدلية قوية، يفقد صفته الاسلامية و المدينة من وراء ذلك. و هكذا، لا يمكن لأية حضارة أن تنسب إلى اسمها إلا حين تنهى بناء ذاتها، لا فى مرحلة التكون، حتى لو تبين أن هذا التكون تم عن وعى و عمدا. و أحسن من ذلك، يحدد كيانها الأول بالمؤثرات الحاصلة، لا بنصيبها من الخلق و الابداع.

نزع قيرث أيضا، و بكيفية أخرى، الصبغة الاسلامية عن المدينة الاسلامية، فجعل منها مدينة شرقية. كان واعيا بانتظام الشكل فى البداية، و هو أمر صحيح مهم، و باختلاله فى النهاية، تبعا لأسلوب النمو على رأيه، لكنه يتقدم شوطا أبعد من ذلك و يقوم بالتنظير؛

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۴۸

إن رغبته فى إبراز خصوصية المدينة الاسلامية تنتهى به إلى حرمانها من أى طابع إسلامى. يمكن تلخيص مظاهرها المميزة فيما طرأ على المخطط من قلب عجيب، و فى ظاهرة الزقاق غير النافذ- و هى خاصية لتنظيم المجال تعكس سلوكا معينا للجماعات البشرية- «لا نجدها فى مدن العصور القديمة الكلاسيكية و لا فى مدن العهد الأوروبى الوسيط»، و تكون مشتقة من الشرق القديم، و من هذه المظاهر أيضا الدار ذات الصحن الداخلى، و هى إرث شرقى، و التنوع الإثنى للاحياء و بالخصوص وجود السوق. و يرى قيرث أن الخاصيات الأربع الأولى ليست ابتكارات إسلامية، بل هى عناصر شرقية لا تتميز إلا بالنسبة للتقليد الكلاسيكى أو الأوروبى، و السوق فقط إبداع ثقافى إسلامى. على أن «السوق (البازار) بصفتها مركزا تجاريا يعمل بمقتضى مبادىء اقتصادية عقلانية، هى مؤسسة لها أضعف الصلات بالاسلام كدين»، يقول قيرث مسترسلا فى تفكيره دون حرج، جامعا بين الأفكار الاستشراقية المسبقة و الفرضيات المسبقة كما يجدها عند قيبر. ليست هذه المدينة إسلامية لأن أغلب خاصياتها

مستمدة من المدينة الشرقية. فهل نسميها لذلك شرقية؟ لا، حيث «إذا اعتمدنا الآثار المادية و التوثيق المختص بهندسة العمارة، فإنه يبدو معقولا العدول عن عبارة (مدينة شرقية)» و أخيرا فإنها ليست مدينة عربية. إنها مدينة بدون اسم، لا ترتبط بأية حضارة معينة. و يختم قيرث تدليله دون أن يستنتج فكرة ما، لأنه بقي حبيس تصوراته الذهنية، فهو يرى جيدا أنه حتى بإسناده عناصر شكلية إلى التسلسل الشرقي فإنه يستحيل، من الوجهة الأثرية، مماثلة هذه المدينة الفاقدة لكل اسم بالحاضرة الشرقية. الحقيقة أن نقطة الضعف تكمن بالنسبة لكل هذه المساعي و منها مسعى قيرث كما مسعى من سبقه و بسبب مفارقة هائلة، في التصور المسبق العنيد للاسلام كدين صرف و جديد إطلاقا، و يكاد أن يكون مثاليا، و في أنه قام بداهة على أرضية تاريخية ملموسة مزجها، و شكلته هي بدورها. و جملة القول، يكمن هذا الضعف في العمى تجاه الامتدادات و الانقطاعات التي تؤسس مجرى التاريخ بالذات.

انطلق المحللون من هذا الوضع، فجمعوا الفرضيات و المتناقضات، إضافة إلى إصدار أحكام قيمية ضمنية و صريحة. و من الغريب أن قيرث أعلن أن العصور الكلاسيكية

القديمة و العهد الوسيط لم تعرف السكك الصغرى و الازقة، مع علمنا أن روما عرفتها. كما أنه من الغريب أن تكون السوق مقتبسة حسب بلا نهول من «الأروقة» اليونانية الرومانية. إن هذا المؤلف يجد نفسه في تناقض بين ميلين، يدفعه أولهما إلى إضفاء عنصر سلبي معين على الحضارة الإسلامية، فيما يدفعه ثانيهما إلى إنكاره ما إذا كان هذا العنصر يعبر عن ابتكار أصيل. فهو مثلا يلح على فكرة انقسام المدينة إلى أرباض، و هذا غرض معروف ينطلق منه للتدليل على ما هناك من نقص في اندماج المدينة الإسلامية. ثم لا يلبث أن يؤكد مباشرة بعد ذلك أن هذا الانفصام لم يبتكره الاسلام لأنه كان حيا جدا في المدن خلال العهد الوسيط (يقصد المدن الاوروبية). هذا و بما أن كل استمرار تاريخي جغرافي، و كل خاصية موروثة أو مقتبسة تعادل النقل، فمن المهم أن يوحّد هؤلاء المحللون مواقفهم، و يتأكدوا من كون العنصر «المنقول» هو من الشرق القديم، من فارس أو من التقليد اليوناني و إلا فلن تتبقى سوى إرادة عنيدة للاستنقاص، إذ لم يعد المقصود إبراز التسلسل. فمثلا هل أن الدار ذات الصحن الداخلي المفتوح، يجب ربطها بالشرق القديم (قيرث)، أم بفارس أم بالتقليد اليوناني (بلانهول)؟ المسعى المعرّض به في هذا المقام، ينقلب على نفسه: فيصير أعمى أمام تيارات انتقال صور الحضارة بين الشرق و اليونان، و يتجه إلى ثنائية حيرى (الشرق؟ أم اليونان؟) و بذلك يتيه في التناقض لأنه يريد الافراط في تفريد التقليد الكلاسيكي دون سواه. الحقيقة أن هذا النقد المنهجي يتجاوز قضية نشوء الامصار التي تشغلنا في هذا المقام.

– ۱۲– المدينة العفوية و المدينة المنشأة

و ينكشف غرض آخر يتجه إليه الاستشراق، علاقته أكثر مباشرة بدلالة التخطيط:

نعني محور المدن «المنشأة» و المدن «العفوية» التي قال عنها فون غرونيباوم: إن «المستشرقين الفرنسيين المتخصصين في تاريخ المدن، و لعون به»، لكن هذا لم يمنع أن يفرض المحور المذكور وجوده على المدارس الاستشراقية الأخرى. و قد سبق لجورج مارسي Georges Marc ?ais أن حدد القضية، و كذلك ادمون بوتي Edmond Pauty. يعرض جورج مارسي تعريفا ضيقا إلى أقصى حد للمدينة المنشأة، حيث تكون الكلمة- المفتاح هي عمل من محض إرادة شخص أو عمل اعتباطي. و تتضمن كلمة «اعتباطي» معنى تحقيريا، على أن هذا الأمر لم يمنع التقليد الاستشراقي كافة تقريبا من اقتباسها، و الغريب أن

مؤرخا أكثر كلاسيكية إن صحّ القول، نعنى لاقيدانP.Lavedan لا يقبل مثل هذا التقسيم المتسم بالتصلّب، مؤكدا أنه «ينبغى إعمال الفكر الدقيق أكثر من التعويل على التفكير الهندسى، للتعرف على هيمنة أحد الشكلين على الآخر». إن الفكرة الاساسية التى تستند إليها النظرية الاستشراقية هى أن المدينة «المنشأة» تشكل استثناء فى تاريخ الاسلام، لأنه من النادر أن يكون قد سبق تصورها أو تصميمها. و هى إن وجدت فليس لصالح مجموعة معينة، بل لصالح الأمير. و بذلك تكون مدينة أميرية أو مقرا للقصر، و ترتبط بوجود أسرة

حاكمة، أى أنها تكون مؤقتة و مفتعلة بالضرورة. فماذا يكون مصير المصر مثل الكوفة و البصرة و الفسطاط و القيروان، من رؤية الأمور هذه؟ أمدينة عفوية أم مدينة منشأة «لغرض استراتيجى» فقط، لا لسعادة المجموعة؟ هكذا، و بقدر ما كانت هذه الامصار مجرد معسكرات فى بداية الأمر، و «مخيما»، تطورت فى مرحلة ثانية إلى مدن تملك الصفات الاساسية للحاضرة، فلا يمكن لهذا التطور أن يكون ثمرة لإرادة أصلية بل نتيجة للمحيط و الظروف أى للعفوية.

لم يقصد إنشاء مدينة معينة لذاتها، بل المعسكر هو المقصود بالذات. و قد صلّب جورج مارسى وجهة النظر التى كان أبداها فى مقاله، ضمن رسالة وجهها إلى پوتى

Pauty

حيث يتساءل «هل من الممكن الكلام على إنشاء عندما تنشأ المدينة عن معسكر ... ؟ هناك مستوطن عسكرى سابق: لكن ليس المعسكر مدينة و ليست الخيام دورا. و أضاف قائلا: «إن هذه المقرات العسكرية التى تجمع حول قائد العمليات الاقليمية مصالح الحامية و المنشآت شبه الدائمة لا يمكنها، بأية حال، تمثيل إرادة أصلية لارساء قواعد مدينة». و زاد قوله: «هناك آخر الأمر ... رباطات و معسكرات و حاميات «أنشئت» قرب المدن القديمة. كما نجد أحياء «منشأة» يقيم فيها الأمراء. و قد انبثقت عنها تجمعات سكنية تكونت من الاستمرار فى تعمير الاحياء التى تولدت حولها. و تميزت دون منازع بطابعها العفوى».

و مهما كان الأمر، و سواء أكانت المدن منشأة أم عفوية، فإن العمل التمدينى الاسلامى محكوم عليه مسبقا، مع بعض التخفيفات عند الاخوين مارسى، و بصورة فظة

وردت عند پوتى و بلانهول، حيث لا تتطور المدينة العفوية من العشوائية إلى النظام فى هذا المقام، خلافا للنموذج الاغريقى- الرومانى- الاوروبى. و إذا ما وجدت مدينة منشأة «فإنه يحصل محو لهيئتها الأولية».

من المؤكد أن هذه الرؤية كانت محل مراجعة و تدقيق أحيانا، مثلا من قبل هنرى تيراس Henri Terrasse، لكنها ما لبثت أن فرضت شبكتها على بعض التحاليل اللاحقة، و لا سيما التحاليل الأنجلوسكسونية. لم يقم فون غرونيباوم إلا بإجمال وجهة نظر المدرسة الفرنسية، مضيفا عليها موافقته المترددة. و قد تجاهلها غويتينGoitein مقرا بأن الفسطاط الذى عمّر فورا زمن الفتوح، صار مركز إشعاع للتعريب اللغوى كما للمبادلات التجارية. أما البرت حورانى فهو يحاول التخلص من الرؤية القديمة التى تنفى عن الإسلام وجود حياة حضرية حقيقية، و هو لا يقوم سوى بالتذكير بإشكالية المدن المنشأة و المدن العفوية، ملطفا من حدتها كثيرا. لكن ما راعنا إلا لاسنر الذى يعتمد فكرة عفوية الأمصار، و يعرضها عرضا يبدو غريبا من طرف مؤلف أمعن النظر فى نشوء بغداد، لكنّه لم يدرك حقّا كل الإدراك قرابتها من الكوفة الأولى. بل نجده خلافا لذلك يعارض بين نمو الكوفة و البصرة من جهة و نمو بغداد من جهة أخرى. ففى هذه الحالة نكون إزاء مدن

عفویة، و فی الحالة الثانیة نکون إزاء مدینة منشأة. ذلک أن الأمصار بصفتها مدنا للحامیات فی بدایة الأمر، لم تکن «مبنیة حسب تصمیم مسبق». کانت «مستعمرات عسکریة» تتمیز بسرعة نموها الأول، و لعل ذلک النمو تم «دون شعور واقعی بالعناصر الشکلیة للتخطیط» (إن العبارة الإنجلیزیة المطابقة

City- planning

تکتسی فیما یتعلق بالکوفة، وضوحا کبیرا لتضمنها فکرة التخطیط). و یضیف أن الاستقرار الدائم ما لبث أن تحقق، و استبدلت الأسواق بطرق التموین، کما نشأ تنظیم صناعی، لکن کل ذلک تم علی صورة المدینة الخارجیة التی تحیط شیئا فشیئا بالمعسکر الأصلی و تغمره. یبدأ الزخم من المرکز و تقع دفعة من الداخل نحو الخارج. إن نمو المصر یظهر هکذا بمثابة السلسلة من «المراحل المتعددة للتولد العفوی»، و لیس نتیجة «تنفیذ لمخطط منتظم». و هکذا فإن هذا التصور قد اقتبس الکثیر من أفکار پوتی، إذ یتضمن الانقسام بین المعسکر و المدینة اللاحقة، و فقدان کل تصمیم سابق، و نعت هذه المدینة اللاحقة بأنها «عفویة»، حیث تکون برزت وراء النواة الأولی بحرکتها الذاتیة، و بکیفیة فوضویة، کما أنها لا تخضع للمراقبة. لکن الجدید عند لاسنر أنه یلح علی اتجاه الحرکة التی تکون هنا داخلیة- خارجیة، فیجعل منها تحولا للمرکز. لماذا؟ لأنه یرید قلب الحرکة ذاتها فیما یخص المدینة المستدیرة، فتصبح خارجیة- داخلیة، تنطلق من الأرباض المؤقتة التی أقامها جیش البنائین فی اتجاه المدینة المستدیرة ذاتها. و یری لاسنر أن جمهور العمال المشتغلین فی بناء المدینة الجدیدة قد أفرزوا مدینتهم الخارجیة قبل الانتهاء فعلا من المدینة المستدیرة، و تحت أسوارها بالذات. کیف ذلک؟ فی شکل مرکب مدنی قید التوسع، بمقابره و مساجده و مؤسساته المستقلة. و بذلک یکون قد سبق الکرخ، و علینا أن نقول انه الکرخ الأول، مدینة السلام. و تصطدم هذه النظرة بشهادات المصادر کما سنری ذلک، و سلسلة التواریخ التی تقترحها المصادر نفسها. لکن المهم الآن أن نؤکد هذا التعارض، الذی أبرزه المؤلف، بین تکوّن الکوفة و تکوّن بغداد، حین قلب اتجاه النمو الأول. و هنا یکمن التضارب، إضافة إلی أن التصور الذی اقترحه لنشأة الکوفة کان خاطئا. ذلک أن هذا المؤلف جعل من المدینة المستدیرة مدینة منشأة بصفة ممتازة من جهة، قد تمّ تصمیمها بصرامة مسبقا، و کأنها قدت فی قالب أسقط علی الأرض کما قال الجاحظ، و هو یجعل منها من جهة أخری امتدادا لمدینة عفویة سابقة للمدینة الأولی.

و إذا ما صدقنا لاسنر فإن مدینة المنصور تفقد کثیرا من مظهرها الإرادی و لا سیما أنه وصفها

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۱۵۴

کمنتوج «لتطور بدأ من الخارج إلی الداخل(in- oustide). و إذا استقرت المدینة الحقیقیة- مدینة السکان و الأسواق و العسکریین و الصناع و التجار- خارج الأسوار من أول وهلة، فماذا یبقی فی الداخل سوی مرکز إداری، أی «ملک خاص للخلیفة» شبیه نوعا ما و فی خاتمة المطاف بحامیة الکوفة؟ و أین یکمن أیضا تطور الداخل بواسطة الخارج، إذا ما خطّت المدینة المستدیرة مسبقا، و حصر مجالها، فکانت فعلا لا تقدر علی النمو إلا قلیلا؟

و عندئذ، هل یتعلق الأمر بمصر معکوس؟ یکفی القول ان المرکز کان موجودا تماما فی المصر و أن کل دفع ممکن صدر منه- و هو أمر یبدو لنا بدیهیا- و أن نعید إلی الجادة معنی تطوره لکی تصیر بغداد صنوا للکوفة، طبق مقدمات لاسنر نفسه. لقد أنشیء مرکز هنا و هناک، و تحول إلی مدینة حقا- مدینة عفویة- بفضل امتداداته المتنامیة. لکنّ هذه المقدمات خاطئة، و لا سیما بخصوص الکوفة.

و الحق أن کل المواقف المشار إلیها سابقا و القابلة للمحاججة بالنظر للأمصار الأخری، یتبین خطؤها قطعا بالنسبة للکوفة. فیمکن عند الضرورة الصاق مفهوم «المدینة العفویة» بالبصرة فعلا، لا بسبب الثنائیة المتصورة بین المعسکر و المدینة المقبلة، و لا

كذلك بسبب تطور ما خارجى مستقل عن المصر البدائى و منعكس عليه، بل بالأحرى لأن البصرة خلافا للكوفة، ظهرت بصفة عفوية نسبيا، متواضعة فى الأصل، و انبعثت انطلاقا من حافز على الهجرة جدّ لدى قبائل البحرين. لم تؤسس البصرة بفعل عمل مصمّم و مسترسل من طرف السلطة بل هى ظاهرة متفرّعة شبه هامشية، ظاهرة ما زالت غامضة. فضلا عن أن فى البصرة يدرك هذا التطور البطىء الذى تم على مراحل، من الخيام الوطيئة إلى خصاص القصب التى ترفع أثناء الحملة. و قد وصفت المصادر بوضوح أول مسجد فى البصرة على أنه مخطط بكل بساطة لا- غير، إنما لم يتمّ بناؤه و لعله أحيط بسياج من القصب. و إذن فليست ظروف البصرة هى ظروف الكوفة حيث استقر أكثر الجيش الفاتح الذى انتصر فى معارك القادسية و المدائن و جلولاء: و هى مجموعة ملحاحة متماسكة تطالب و تحصل على رعاية السلطة. فيمكن فعلا الإشارة إلى عفوية نسبية فى البداية بخصوص البصرة. و لم يتردد كايتانى فى الإشارة إلى هذا الأمر، مقارنا بين البصرة التى «تولدت من ذاتها، و لضرورة فى نفسها»، و بين الكوفة التى ظهرت «اعتباطا» و بإرادة شخص. و قد أدرك ريتمير Reitemeyer ذلك الأمر جيدا، و جاراه كرسويل Creswell. لكن بالنسبة للكوفة لا

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۵۵

مجال لطرح قضية العفوية لا حسب تصوّر پوتى، و لا كذلك لا سنر، و هما المشتركان فى خلفية فكرية تقرّ بالفصل الجذرى بين مجرد معسكر مصطنع «إرادى» بدوى النمط و غير منظم لكونه لم يصمم مسبقا، و بين مدينة تطورت من ذاتها بعد ذلك بمفعول المحيط، فكانت واقعا آخر. ذلك أن ما عايناه انطلاقا من تحليل دقيق للمصادر شىء آخر تماما. ظهرت عملية لتخطيط المجال، و توزيع الكتل المجالية بين مركز سياسى دينى و بين حزام للسكن، و تهيئة مرتبة لمناهج الاتصال. ذلك كان التخطيط الذى جاء بعد عملية التمصير مباشرة، و التمصير مفهوم يستند إلى مشروع إقرار مجموعة بشرية فى تجمع سكنى مهما كان شكله. و لا- نرى هنا ما يشبه المعسكر على طريقة البارث أو الرومان أو الساسانيين أو حتى العرب لمجرّد أن تعمير الكوفة تم بواسطة الجيش. إذ لا يمكن وصف هذا الجيش بمفاهيم معهودة كأن نقول بأنه جيش نظامى دائم، و جهاز لدولة وجدت قبله، ينفذ سياستها التوسعية. لقد تعلق الأمر بعناصر قبلية كاملة، هاجرت بأسلحتها، و أمتعتها و نسائها و أطفالها و كان لها حرية الاختيار و معنى التملك و شخصية خاصة. و لم تقم الدولة إلا بتنظيم هؤلاء، فعرضت عليهم بناء المستقبل. و لماذا تعتبر الكوفة معسكرا، حتى فى فجر إنشائها بالذات، و حتى قبل الشروع فى التخطيط، فى حين يقصد بالمعسكر الهيكل العسكرى المتحصن المتأهب للدفاع، و فى حين يخضع العراق كل الخضوع منذ ما يزيد عن سنة، و يقيم العرب فى الأثناء بالمدائن التى لم تكن معسكرا فى شىء، مع أنها كانت أقرب كثيرا من قواعد العدو، أى التراب الإيرانى ذاته؟ حقّا لم ينو عمر تسريح المقاتلين العرب، بل بالعكس كان يريد المحافظة على هذه القوة الضاربة لاستبقاء العراق و إنهاء فتح الشام فى آن واحد. لكن سنة ۱۷ ه كانت بالأحرى سنة الانفراج، و تنظيم المكاسب، و إقامة هياكل المستقبل، و لم تكن سنة تجميع القوات العسكرية استعدادا لعملية معينة. لم يكن الوضع ينبىء بالخطر. و كان المقاتلة العرب ينتشون بنصرهم دون أن يسرحوا، و هم فى راحة أو يكادون. إنّما همّهم الوحيد أن يجدوا موطنا للاستقرار و «دارا للهجرة» و وطنا، و يحققوا حلمهم فى الاستقرار، بمعنى أن يعودوا إلى الحياة المدنية. إلا أن الخيار العسكرى بقى قائما، كما تمّت المحافظة، دون شك، على العادات المكتسبة منذ وقت قريب فى التنظيم العسكرى الذى يشكل إطارا تنضبط داخله جموع المقاتلين، و لذا فمن المعقول تصور وجود كوفة أولية- الكوفة خلال الشهور التى سبقت التخطيط- تنشأ طبق مقاييس تتقاسمها

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۵۶

الصبغة العسكرية و الصبغة البدوية، و لا نعلم عنها إلا القليل. و تكون الكوفة إذّاك فى هذه المرحلة الانتقالية السريعة جدا،

منظمة حسب تنظيم مرن للمعسكر و لكن دون صرامة الجيوش خلال الحرب- و كيف يكون الأمر مخالفا لذلك على أرض عراء؟- و أيد عمر المشروع، ثم تمّ تجاوز هذه الصيغة عاجلا إذ ظهرت رغبة ملحة فى الاستقرار، أبداها المقاتلة، فحل دور التخطيط سريعا.

على أنه لا يمكن التحدث بالنسبة لهذه المرحلة الأولى المحددة زمنيا، عن إرادة تعمدت «إنشاء» معسكر، بل كانت إرادة فى إقرار جموع المهاجرين على المكان، أى على الأراضى التى استولوا عليها، بمقتضى عدة خيارات أساسية هى: التجمع و القرب من بلاد العرب. أما الأمور الأخرى، أى صيغة المجموعة السكنية، فقد ترك الأمر لرغبات القاعدة. و صادف أن اختارت صيغة التجمع المدنى، أى تجمع المجال المبنى المهيىء الوظيفى المتلاصق الذى يكون ملكا لهم و لا يصطبغ بصبغة حضارة أخرى. يجب التشديد على تسجيل هذه الرغبة فى التخلى عن نمط حياة الترحال، و هذه الجاذبية القوية نحو الاستقرار، و هما خاصيتان تظهران عند المهاجرين فى كل العصور. إنها الحاجة الكبيرة إلى الهدوء و المشاركة الاجتماعية. و بهذا فإن عمر لم يرد «إنشاء» معسكر أو مدينة، بل كان «يشير» فقط (كلمة شعبان جاءت فى محلها هذه المرة)، بنقطة للاستقرار و التجمع، على أناس حرضهم على الرحيل خارج بلاد العرب، فما لبثوا أن اختاروا الإطار المدينى. و سواء أكانت مادة البناء المستعملة آجرا- و هذا كان تقليديا فى بلاد الرافدين- أم قصبا، فذلك أمر لا يهم كثيرا. المهم أن تعوض هذه المادة الخيمة، فتشكل رمزية الاستقرار. لكن الأهم من ذلك هو أن يأتى التخطيط بعد تقرير البناء، و يتضمن التخطيط جيدا فكرة ال» Planning «أى صورة المدينة المرسومة على الأرض، حتى لو رفضنا أن العرب بكّروا بالبناء الصلب، و أنه وجب ترقب ولاية المغيرة بضع سنوات أخرى. و قد اتفقت المصادر إما على طرح تزامن التمصير و التخطيط و إما على أسبقية التمصير على التخطيط بصورة طفيفة، و هو رأى سيف الذى أضاف فكرة البناء بصفة قطعية. و توحى لنا المصادر أيضا بتصور إرادة واضحة صادرة عن سعد و مستشاريه: منهم أبو الهيّاج الأسدى، و نصارى الحيرة، و بعض الفرس. فتم على الأقل تحديد المركز السياسى الدينى طبق تقنية معينة، و أحيط بخندق، و أقرّت حول ذلك العشائر و القبائل. و وضع داخل المركز مركّب المسجد و القصر، مع أنه كان بدائيا، و إن لم يشيد أو أن بناءه كان متواضعا. و هكذا وضعت الأجهزة الأساسية للمصر و تحددت نهائيا طبق توجيهات دقيقة: إنه خلق لا مراء فيه تم عمليا من أول وهلة. و سوف تمتلىء الكوفة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۵۷

بداية من هذا التصميم الحاسم و حتى الثابت القّار لحياتها المقبلة. فليست الكوفة معسكرا تحول ببطء إلى مدينة (و بصورة أخرى لم يأت هذا التحول من الخارج، و هذه فكرة مجانبة لا تقبل بتاتا)، بل مدينة مخططة ممفصلة أحسن بناؤها بمقتضى تصورها الأول. هذا أقل ما يمكن لأوجز الأخبار أن تفرضه على اهتمامنا.

بل يرى سيف كما ذكرنا سابقا، أن المدينة بمعناها الكامل قد أقيمت فى زمن سعد، بمناهجها و خططها السكنية و أسواقها و قصرها المشيد وقاعة الصلاة بالمسجد، الخ ... إن التقليد الاستشراقى يخطّىء عادة سيفا، لكن دون أن يخلو الأمر من تناقض، لأنه يستمد منه كثيرا من الأخبار و الحجج. و قد سبق أن دحض كرسويل و فلهاوزن و كايتانى، الذين اعتبروا الغلوة (رمية السهم) قياسا لضلع المسجد، و اعتمد جميعهم رواية سيف و البلاذرى أيضا. و بصورة أدق، إن سيفا هو الذى أتاح لكرسويل تصور تصميم المسجد، حتى أنه يتقدم بنقاش حول سقف الظلة و النمط الهندسى الذى يستند إليه. و يرى ريتمبير أن رواية سيف تسقط واقعا لاحقا، لم يوجد إلا فى إمارة زياد، و أن المسجد الأول كان بناية بدائية، بناها العرب بمفردهم، و هو أمر غير مستبعد. و يوحى ما ورد عند سيف من تناقضات و تضعيفات، كما قلنا، إسقاطات ترد الحاضر إلى الماضى، لكن فيما يتعلق بالبناء أو إنهاء البنايات أكثر مما يتعلق بالتخطيط ذاته. ما هى القاعدة التوثيقية التى يستند إليها كرسويل، و أية حجة منطقية

يعتمد ليصرّح بأن عرض السكك يجب تأريخه فى إمارة زياد؟ يعترف من جهة أنه كان يوجد بداية خمس عشرة سكة- منفذ لم يذكرها إلا سيف.

و ينسب من جهة ثانية تقرير عرضها إلى زياد فى حين أن المساس بنسق الطرق يبدو صعبا بعد ثلاثين سنة من إنشائها، دون خلخلة تنظيم السكن بصورة خطيرة. و ما نريد تقريره هو أنه لا يخول للمؤرخ رفض رواية سيف الثمينة ما لم يكتشف اسقاطا واضحا جدا أو تضاربا فادحا ضمن الرواية، أو مع أغلب المصادر الأخرى. التخطيط إذن كما تحدثنا عنه طويلا، حصل فعلا إثر الإنشاء و بميزات لا تنفك تثير إعجابنا إذا ما فكرنا فى سرعة الحركة، و وضوح التصور، و روح التنظيم. لكن السرعة ليست لتفاجئنا، و قد جدت فى مرحلة تاريخية مشبعة بالمبادرات، مفعمة بالقرارات، تبعث على الخلق بصورة عالية، مغطية مسارها على وتيرة لاهثة. يوجد فى البنية الداخلية للكوفة الأولية كما ثبتها التخطيط، جانب

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۵۸

واسع من الابتكار السريع، و جانب من الإرث المتلقى جاهزا من عمل الرسول (كان الرسول يخطط و يقطع القطائع فى المدينة و فى غيرها، كما جاء فى السنّة). و يوجد جانب استيعابى فى مجال التمدين فى بلاد العرب و على حواشيها، و كذلك جانب من استبطان التصورات الثقافية الخارجية- لكن ما هى هذه التصورات؟- و لنلاحظ تفوق التخطيط فى هذه الفترة التكوينية على الهندسة المعمارية ذاتها التى سيأتى دورها فيما بعد. و تبدو الكوفة فى الحركة العامة لتاريخ التمدين بمثابة الحلقة الأولى من سلسلة هائلة من الإنشاءات شهدها القرنان الأول و الثانى من الهجرة، و بلاد الرافدين أكثر من غيرها. و من المؤرّخين من فكّر فى مقارنة هذه الظاهرة بإنشاءات الإسكندر و خلفائه التى هى علامات على المسيرة الساحقة للفاتح العظيم. و هى مقارنة أكثر سدادا مما يعتقد، لو أدركنا، بعيدا عن فكرة «العمل التحضيرى» أو «إرادة التمدين»، السبب الأساسى الذى من أجله قام هذا العمل غداة فتح كبير هنا و هناك أى عند اليونان و عند العرب. لقد تعلق الغرض بإقرار شعب طارىء،Alloge ?ne، و بتأسيس نقط استيطان هى بمثابة العلامات للهلينية و العروبة.

و هكذا، فإن الرجوع إلى الماضى يفرض نفسه لنحاول تحسين إدراكنا للصورة الأولى التى كانت عليها الكوفة- ذلك النموذج الأصلى- و أيضا للبيئة التاريخية التى انصهرت فيها. و هنا يحق القول إننا بإزاء قضية تاريخ شمولى أكثر مما نحن أمام قضية تمصيرية أو معمارية.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۵۹

الباب الرابع التأثيرات و الجذور. من بابل إلى مكة

اشارة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۶۰

- ۱۳- قوّة الماضى: الشرق و الهلينية و امتداداتهما

اشارة

ارتبط تكون الكوفة فعلا، مكانا و زمنا، بتقاطع المؤثرات و التقاليد المتراكمة. الحقيقة أن ما هناك من مقارنات دالة بين المدينة

الاسلامية و المدينة الشرقية تصلح خاصة للفترة اللاحقة، حين تكون المدينة الاسلامية قد أنهت بناء ذاتها على كل الاصعدة. و الحقيقة أيضا أنه لا يمكن إلا مقارنة مرحلة ما من تطور المدينة الاسلامية بمرحلة أخرى من تطور المدينة الشرقية، مثلا بغداد فى القرن الرابع ه/ العاشر م. و بابل زمن هرودوتس. على أن الفترة الحاسمة بعد تجاوز الطبوغرافيا فى مسيرة حياة مدينة ما، هى فترة إنشائها، و لا سيما إذا تعلق الأمر بحاضرة أم مثل الكوفة، و أن يصاحب هذا الإنشاء تحول حاسم فى التاريخ.

لا يفوتنا أن نلاحظ أن فجوة ألف سنة تفصل الكوفة عن بابل الامبراطورية الجديدة- و هذا قصير فى حياة الشرق- و كذلك مسافة مكانية تعادل ٩٠ كيلومترا. إنه لجوار ممتاز فى رمزيته، و ما يلاحظ بصفة رئيسة و بالكيفية نفسها، التأثير المهيمن فى ذلك العصر لمركّب سلوقية- المدائن، و هو خلق يونانى ثم بارثى، فيه تبلورت كل الخطوط البارزة للشرق، أو ما تبقى منها. كان التأثير الهلنستى الذى جسمه بقوة السلوقيون، و كانت روما و بيزنطة، و كان الساسانيون الذين أعادوا تنظيم بلاد الرافدين. هذه طبقات متعددة إذن، لكنها تحركات أيضا، و استمرارات واضحة و انفصامات. كان ضروريا تذكير القارىء

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ١٦١

بهذه الخلفية، لفهم ما كان عليه الوضع فى ذلك العصر، و ما حدث بعد ذلك.

تعددية الشرق و وحدته. إرث العصر الاول

يشتمل هذا الشرق المعتمد فى وصف الحاضرة الاسلامية، و عكسه، على العصر المتقدم جدا، مقر الديمومة الطويلة، مؤسس النماذج و منها أكملها تعبيرا، أى بابل الآخرة، و يشتمل أيضا على الفترة الأخيرة التى دشنها الغزو الفارسى. على أن ما يلاحظ على الصعيد الجغرافى هو ما اتصفت به مصر من خصوصية و نوع من انقسام داخل الشرق المركزى، بين عالم الشام الأكثر جدة و الذى يتقبل كل ما يرد عليه، و عالم بلاد الرافدين العريق فى القدم، و هو مهد تهيأ فيه النموذج الشرقى.

لنتمعن فى الشرق المركزى القديم و نقارنه بمصر. قيل إن مصر كانت تنعم بالراحلة و توحى بالأنس، و تحب الحياة إلى حد أنها تمد يدها فى الموت. كان محيطها أقل شدة من محيط بلاد الرافدين، فشيدت حواضر مفتوحة فاقدة للأحزمة المحصنة و فى عصر متأخر.

و قبل أن تشرع مصر فى بناء المدن، كانت لا تتوقف عن تشييد المقابر التى كانت أعمق رمز للطموح المصرى.

أما فى بلاد الرافدين، و هى عالم الآلهة المرعبة الكونية، و أرض أنشأت المدن كمراكز للعظمة و الحرب، فقد كان أسلوب الحضارة المدنية متميّزا بالترتيب و القمع الشديد و النظام و التخطيط و المركزية. فما كان قانون حمورابى سوى تنظيم دقيق للعلاقة البشرية بكيفية تكاد تكون بوليسية؟ «كانت المدينة سجنا يضيّق الحراسة على سكانه»: هذا رأى لويس ممفورد Lewis Mumford

.فمن المعقول بعد هذا، أن نقبل بثنائية النماذج الأصلية. لقد أمكن للنموذج الفرعونى أن يؤثر فى الحضارة المينوية minoenne ثم على أسلوب المدينة الاغريقية و تمادى

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ١٦٢

النموذج الخاص ببلاد الرافدين فى بغداد فضلا عن ذلك، فى عين المكان، بغداد المزدحمة بالبشر و المحاطة بسورين مضاعفين، و الخاضعة لحراسة مشددة فرضها قهر الخليفة ثم السلطان. لكن ما يهمنا حقا هو إبراز نمطين مثاليين للمدينة، انطلاقا من التجربة المصرية و تجربة بلاد الرافدين. الأولى كنمط المدينة المنفتحة الهندسية المتحررة فى مظهرها، البسيطة فى تخطيطها، و الأخرى كنمط المدينة المغلقة المتشعبة الملتوية. لكن ألا تخفى هذه الرؤية التى تجسمت على هذا النحو فى موقف مؤلفين

من الغرب، جانبا من «الثنائيـة»، و تمجيدا للهلينية يعتمد المركزية العرقية بصورة مقنعة و بواسطة تمجيد الحضارة المصـرية؟ على أن هذا لا يمنعنا من المقارنة الموحية بين الكوفة الهندسية الأولى الحرة المتفتحة، و بين بغداد ربيبة الكوفة إلى حد بعيد، و حتى الكوفة العباسـية الحبيسة فى أسوارها و التى تسلط عليها القمع و الارهاب. و بذلك ينبغى الرجوع كثيرا إلى الوراء، أى إلى أقدم طبقات التقليـد المدنى، لا أن نقابل فقط بين الهلينية و الاستشـراق (المقصود هنا المبدأ الشـرقى لا علم الاستشـراق)، كما يقع فى أغلب الأحوال.

بابل

كانت بابل التجسـيم الأعلى لنموذج بلاد الرافدين، فقد أجملت مجمل المكاسب الحضارية للشرق المركزى فى صفائه، إن صح القول، فبدت حلقة حاسمة للبحث عن التسلسلات. ينبغى استنطاق بابل فى ذاتها و فى ما يدور فى فلكها أيضا، أى سبار و نبور و أرك، و بعيـدا كركوك، و حتى المـدن الأشوريـة مثل أشور و خرسـباد. على أن بابل الطبيعيـة ذاتها تبقى المحور المشع ضـمن هذه الكوكبة. و فى العصـر التاريخى الذى ظهر خلاله نبوخذ نصّـر، يتجه التفكير إليها عندما يدور الحديث عن الحاضرة الشرقية الأصـلية. كانت مربعة الشكل- مثل الكوفة و البصرة على الأقرب- واسعة الشوارع المرتبة. و كانت تستخدم اللبن و الآجر، كانت أيضا المدينـة- المعبـد، حيث يقوم سـجيل بـدور أساسـى، لها أراضـيها الخاصـة و مخازن حبوبها (لنـذكر دار الرزق بالكوفة)، و قاعدتها العقارية التى لم تكن بابل

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۶۳

لتعيش بدونها. و فى بابل ذاتها و فى المدينة من النمط البابلى عموما، عناصـر تشـبه أحيانا ما نجده بالكوفة، و تشـبه أحيانا أخرى ما يوجد بالبصـرة و ببغداد، و ذلك على مسـتويين، المسـتوى الطبوغرافى و مستوى الوظيفة المدنية، حسب مراحل زمنية متوالية. لقـد ثبت مثلا وجود البنيـة المثلثـة- أى المدينة و الربض و الرصـيف بالنسـبة للبصـرة خاصة، حتى القرن الثالث/ التاسع تقريبا. و خلافا لذلك، فإن عرض الشوارع، و التخطيط حسب الاتجاهات الأربعة، و اسـتقامته، تظهر بوضوح أكبر ضـمن المقارنة بالكوفة الأولية التى يمكن مقابلتها عند ذلك بالمرحلة الأولى من تطور الحاضرة البابلية.

إن بابل التى وصـفها هيرودوتس مندمجـة فعلا بالامبراطوريـة الاخمينيـة، لكن هـذا لم يمنعها من الظهور بمظهر الوريثة للحضارة الشرقية القديمة، قبل أن يقضى عليها أرتحششتا

Ataxerxe? s .

و لا بد أنها حافظت على أهم الخاصيات التى كانت لها فى عصر نبوخذ نصّر.

و يتجه التفكير إليها حين نشـير إلى نمط المدينة الشـرقية بغية مقابلتها بنمط المدينة اليونانية الذى روجه الغزو المقدونى. و يرجع إلى بابل أو المـدن التابعـة لها- سـبار و ارك لكى تتاح المقارنات الانطباعية بالمدينة الاسـلامية المقبلة كالتواء السـكك المعزو إلى عنف الشـمس و مشكلة الأسواق، لكن دون أن نعرف هل كان هذا تشابها أساسيا أم هو استعادة للعناصر الوظيفية نفسها. إن بابل مثلث فى آخر أيام مجـدها النقطـة الأكثر هيكلـة فى الامبراطوريـة الاخمينية، فضـلا عن أنها تقمصت مع مصـر أرقى شـكل حضارى. و على الرغم من التغييرات الكثيرة التى جـدت فى عصـر الفرس- مثلا فى القانون الجنائى و المـدنى- فقد بقى الهيكل الاقتصادى الاجتماعى جيـد التأطير، و قام عليه الكهنـة و رجال الـدواوين و التجار و الصـيارفة. و قـد أشـرفوا على كتلة الفلاحين المستغلين الرازحين على أرض بابل بالذات.

و اسـتمرت التجارة الكبرى على ما هى عليه. لقـد كان النموذج البابلى مشـعا إلى حد بعيد على مدن بلاد الرافدين فى الشـمال و

على الشام، بفضل جاذبيته الحضارية، و أساليبه المصرفية و حركيته التجارية، فكان يضع سمته على بنية المنظر المدنى، كما حصل فى كركوك مثلا.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۶۴

إن هذا الانتشار الذى طرأ على كل مكان من الشرق المركزى لعناصر مقتبسة من بابل، هو ظاهرة رئيسة تسمح بالبحث عن بقائها فى المدينة الاسلامية كما فى الحضارة التى أفرزتها.

و من المعلوم أن العصر الهلنستى تسبب فى تدهور بابل. فقد فقدت بابل دورها كعاصمة و حاضرة مركزية عند نشوء سلوقية. و نهبها أنتيغون فى ۳۱۵- ۳۱۴ ق. م، و كان النهب الثانى بعد قليل فى حكم سلوقوس الأول.

فأصبحت بابل مدينة مستضعفة مفككة، و فقدت قوتها المالية و العقارية لكنها كانت من أندر الحواضر المهمة التى نجت من نظام المدينة اليونانية(Polis)، فبقيت مدينة شرقية صرف. كانت سنة ۲۷۵ ق. م. هى السنة التى نقل خلالها سكان بابل بكليتهم إلى سلوقية، فكان عاما حاسما فى تاريخ مدن بلاد الرافدين. فقدت بابل سكانها، كما أنها فقدت قاعدتها الزراعية لأن ما أقطع لها من أراض و كذلك لبورسبا و كوثى إنتزع منها بأمر ملكى. عندئذ تصاعد النواح الأكبر لبابل. ذلك أن موتها الفيزيقى الذى ترتب عن هذا الأمر لم يكن موتا طبيعيا، و لا تحطيما ذاتيا، بل اغتيالا نفذه السلوقيون. هذا الاغتيال وقع فى سبيل الحفاظ على الهيمنة الامبراطورية المستندة إلى الهلينية أكثر مما كان عملا تحقق باسم الهلينية ذاتها. و عادت إليها الحياة قليلا بعد ذلك، فى عصر أنطيوكوس ابيفانوس، لكن بالخضوع المؤسساتى للنموذج اليونانى، و استقرار جالية إغريقية مقدونية، و تشييد مسرح و مقر لتعاطى الرياضة، و تعيين وال(Strategos) على رأسها. الواقع أن أبيفانوس كان يريد إدماج بابل فى الهلينية، درءا لتصاعد الروح الشرقية أو الإشراق على صعيد الامبراطورية كافة، و قد بدأ يغمر العنصر الهلينى. و كان لبابل من الحركية ما جعل الهيلينية تصبح مستوعبة سريعا جدا من طرفها بعد أن كانت مستوعبة فى هذا المجال. فتلقب الإغريق بأسماء شرقية و تعودوا بعوائد بابلية و استعملوا أشكال العقود و المعاملات المصرفية البابلية، بينما كانوا هم العنصر الديناميكى المتبوع فى المواطن الأخرى، أى فى شبكة المدن الهلينية التى أقامها السلوقيون. و هكذا، فإن بابل التى كانت فى النزع الأخير، و كادت أن

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۶۵

تلفظ أنفاسها، و التى غرّبها عن ذاتها نظامها الجديد، حققت نصرا ثقافيا على الهلينية، فى انتظار أن تظهر من جديد القوى الإشراقية المدحورة فى كل مكان، من الشام إلى خوزستان، حين صارت الامبراطورية فى حالة تفكك.

هناك إذن فى روح بابل شىء يشبه الاستماتة الفائقة، و قدرة ممتازة على المقاومة. فماذا صارت هذه الروح حين مرت بها التغييرات التى خضع لها الشرق المركزى؟ أودع ميراث بابل الثقافى فى بلاد بابل ذاتها، و انتشر و استبطن فى بلاد الرافدين كافة، و تقدم حتى شمال الشام، و لا بد أنه بقى بصفة خاصة فى المركّب المدنى الشامل لسلوقية و المدائن، حيث أن سكانها نقلوا نقلا واسعا، و حملوا معهم حضارتهم كلها. كانت سلوقية المؤسسة الهلينية الكبرى فى بلاد الرافدين. و صارت حقا حاضرة للجزء الشرقى من الامبراطورية، مفسحة صدرها لكل تيارات الشرق الكبرى. أما طيسفون (المدائن)، فقد كانت إنشاء بارثيا، و رمزا لنهضة العالم الإيرانى، لكنها ارتبطت لا محالة بسلوقية التى نقلت إليها بقوة الاتصال أوسع جزء من ارثها خصوصا حين مالت الكفة فى العصر الساسانى لصالح طيسفون التى أصبحت القطب التمدينى و مركز القرار. فمن البديهى أن قابلية بابل للخلق استبقيت بالمدائن و فى المقام الأول، تقاليدها فى الهندسة المعمارية و التمصير، لكن كل هذا بصفة متسترة عنيدة، و لعل تشريق الفرس تشريقا عميقا- أو إعادة تشريقهم؟- ينبغى البحث عنه عبر هذه الظاهرة، و كذلك انتقال هذا الطابع إلى الفاتح العربى. كانت إقامة الجيش مدة عام بالمدائن بمثابة تجربة للحياة المدنية قطعا، و اتصال أول مديد بنمط المدينة- الحاضرة حيث كانت

تتجاوز عناصر بابلية و هلينية و فارسية. لكنها كانت فترة قصيرة جدا، و كانت المدينة مستوفاة إلى درجة قصوى لا تسهل استنباط التصور اللازم لإنشاء حاضرة جديدة: فتسربت المؤثرات البابلية بكيفية أكثر بطئا و غموضا فى بناء الحضارة الاسلامية بالكوفة و البصرة و بغداد فى وقت لاحق. ذلك أن المصادر تتحدث بوضوح عن ممصرين من الحيرة أو من الفرس فى هذه المرحلة الأولى. لكن إذا قبلنا أن إرث بابل إندمج بالتقاليد الساسانية، فى طيسفون ذاتها، فذلك علامة على اتجاه يمكن أن يظهر بوضوح أكبر فى الرقعة الجغرافية التابعة لبابل القديمة، بالكوفة و الحيرة. فترتب عن هذا الأمر أصلا تلك البنية المربعة الشكل فى مخطط الكوفة التى ليست بالمستطيلة كما فى سلوقية بهرسير، و لا بالمستديرة كما فى طيسفون.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۶۶

الحقيقة أن بابل ليست سوى الوجه الرمزى للشرق. و إن أتينا على ذكرها، فإنما ذكرا للمدينة الشرقية بصفتها تصورا متماسكا للمجال، و تقليدا ما زال حيا. و هناك نقطتان تسمحان بتثبيت آرائنا فى هذا الموضوع، هما قضية المركز و قضية السكك.

تحدث و ولى Wooley عن مساحة مقدسة Temenos مخصصة للمعبد منذ أن ظهرت المدينة السومرية. لكن أوپنهايم Oppenheim زاد الأمر توضيحا فى مثل هذا الميدان الذى بقى من أكثر الميادين غموضا و تضاربا، فهو يرى أنه لم يوجد «مركز للمدينة بالمعنى المضبوط يتشكل من القصر و المعبد و ساحة السوق» فى السهل الغرينى لبلاد الرافدين أى بلاد بابل بل إنه يوجد خلافا لذلك فاصل دال بين المعبد و القصر فتتركز حياة القصر بالأبواب (قارن بباب المدينة المستديرة حيث مقام الخليفة). لكن ينبغى استثناء بابل العصر الكلدانى حيث تمت الصلة بين القصر و المعبد بتأثير آشورى. فاتضح أن هذه الصلة التى جعلت من ذينك العنصرين وحدة مدنية مركزية هى ظاهرة مصدرها أعلى بلاد الرافدين، و أن مفهوم القلعة آشورى النشأة. هناك المعبد و القصر ملتحمان ماديا و يقعان فى سياج محاط بسور وحيد، طاردا الدور إلى الخارج، ما عدا بعض المساكن التى كانت تسد الفجوات بالداخل، و التى أتاحت لهذا المركز أن يعرف باسم المدينة- القلعة. و ما يلفت النظر أن نبوخذنصر حاكى النموذج الآشورى المختلف كثيرا عن النموذج البابلى القديم، لكنه فعل ذلك و صححه تصحيحا كبيرا تمثل فى عدم ارتباط القصر بالمعبد ارتباطا مباشرا.

توجد وجوه شبه تفرض نفسها على الذهن، عند المقارنة بالكوفة، لكن ينبغى الإحتياط فى ذلك. نلحظ بالكوفة تمييزا بين المركز السياسى الدينى و المحيط الصالح للسكن، و وجود مركّب يشمل المسجد و القصر مشكّل لوحدة فريدة مترابطة ماديا و تكون إذن بحسب النمط الآشورى. لكنّ هذا المركز لم يشكل قلعة فى العصر الأول حيث لم يشيد أى سور، و لا حتى فى العصر الأموى حيث حصل فعلا تحصين للمسجد و القصر، إلا أنه كان لكل منهما سور خاص به. إن المساحة العمومية كما أوضحناها كانت تشمل الأسواق و الرحبة و الآرى. و كان يحدها فى بداية الأمر خندق، لكنها لم تحظ بسور أبدا، إذ لو كان لها هذا الحزام لاكتست طابع المدينة- القلعة، مثلما كانت بغداد فى عصر المنصور. و حين عزم

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۶۷

خريطة العراق العربى فى العصر الكلاسيكى (القرن ۱ و ۲ ه/ ۸ و ۹ م)

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۶۸

هذا الخليفة على بناء سور بالكوفة فى سنة ۱۵۵ ه/ ۷۶۲، أحاط هذا الحزام بالمركز و بجانب كبير من مساحة السكن، فشكل بذلك «مدينة» من النمط الإسلامى، بمعنى مدينة تامة لا تتميز إلا عن أرباضها. إن ما تبقّى بالكوفة من تقاليد آشورية، نقلتها بابل الجديدة، يتمثل بالخصوص فى تجاوز المعبد و القصر الملتحمين هنا فى وحدة أو تكاد، أكثر مما كان فى بابل، لكن

المحتفظين معا بفرديۀ خاصۀ بكل منهما. و من جهۀ أخرى، تحدد موقع هذه المساحۀ العموميۀ فى المركز الهندسى دائما، بالكوفۀ أولا ثم فى كل مدينۀ إسلاميۀ بعد ذلك. قد يقع أن القصر ينفصل عنها، و يقام بالحوائط و يسمى بالقصبۀ أو القلعۀ، لكن لم ينفصل أبدا لا الجامع و لا الأسواق. و أحسن من ذلك: إن الجوار العضوى للمسجد و الأسواق المسقفۀ المتخصصۀ، و موقعهما المركزى هو ما سيتبقى من مفهوم المساحۀ العموميۀ كالسمۀ الأكثر خصوصيۀ للمدينۀ الاسلاميۀ، حين سيشتد عودها فى العصر الكلاسيكى.

بل إن هذه السوق المركزيۀ المتضخمۀ ابتكار إسلامى، إذ ثبت أن السوق فى بلاد الرافدين كانت أهميتها محدودۀ باستمرار، فضلا عن أنها كثيرا ما كانت مندمجۀ بالمعبد.

النقطۀ الثانيۀ الواجب توضيحها تتعلق بالسكك: يضع المؤلفون فى أكثر الأحوال مقارنات بين المظهر الملتوى للمدينۀ الإسلاميۀ المتأخرۀ، و بين الأزقۀ، و السكك المسدودۀ فى مدن بلاد الرافدين. لكن يبدو جليا و بعد إمعان النظر فى واقع الأمور، أن السكك الكبرى فى المدينۀ الشرقيۀ القديمۀ «كانت تنزع إلى اكتساب عرض منتظم و التلاقى على زاويۀ قائمۀ تقريبا»، كما يقرّره أوپنهايم، و ذلك بالرغم من وجود الأزقۀ المسدودۀ. و خلافا للرأى الشائع، يبدو أن انتظام شبكۀ الطرقات فى أور كما فى بابل يفوق إلى حد بعيد المنعرجات الموجودۀ فيهما لكن هذين الصنفين من السكك متواجدان. و هذه مشابهۀ أخرى مع الكوفۀ فى أول عصرها كما هى مع بغداد الأولى. و لعله ينبغى البحث عن تسلسل ما، على مستوى بنيۀ الدار بالذات، هذه الدار المطبوعۀ هنا و هناك بتفتحها على الوسط، رغم أننا نجهل كل شىء عن الدور الأولى بالكوفۀ.

نشأۀ المدينۀ العربيۀ الإسلاميۀ: الكوفۀ، ص: ۱۶۹

و بذلك نرى وجوب الحذر فى معالجۀ مسألۀ الجذور الشرقيۀ للكوفۀ بالخصوص، و المدينۀ الإسلاميۀ عموما. ليس أمرا واضحا كل الوضوح أن أحسن كيفيۀ لمقاربۀ المدينۀ الشرقيۀ تخيلا، أن تعرض على النظر المدينۀ الإسلاميۀ المتأخرۀ، سوى بنوع ما من الحدس يكون له مثل التلاشى و العناد الموجودين فى شذى البخور السومرى، بل أحرى بنا أن نستعرض مدينۀ القرن الأول أو الثانى الهجرى- كالكوفۀ و البصرۀ و بغداد و سامراء- التى زالت زوال سابقتها الشرقيۀ و اقتربت منها بما يستبعد أكثر و ينتظر أقل. اقتربت منها باعتماد جديد لتقاليد الهوامش الحضاريۀ المتأخرۀ زمنيا- تقاليد آشوريۀ و بارثيۀ- و بفكرۀ تخطيط المدينۀ ذاتها، و بمواد البناء، و الطابع الهندسى للطرق، و مفهوم المركز السياسى الدينى، أكثر مما يكون باعتماد الأزقۀ و السكك الملتويۀ أو سياج الدار. و على كل فلن يكون ذلك عن طريق جماهير الأسواق الملونۀ. إن الاستمراريۀ التى تربط الشرق بالإسلام، لم تكن مقصودۀ لذاتها أو واعيۀ. كانت استمراريۀ فى الأشكال و التقنيات و التصورات. و من المفارقۀ أنها فرضت نفسها على مشروع قطيعۀ تامۀ مع الماضى: استمراريۀ مستميتۀ تنبض بإصرار على امتداد آلاف السنين من الحضارۀ. حضارۀ جرت آثارها من الجنوب إلى المركز، ثم نحو الشمال. و عادت إلى المركز، ثم تحولت إلى الشرق. و لم تقدر على محوها ألف سنۀ من الذل.

لقد عرف العرب الفرس، و احترموهم، و حاكوهم، لكنهم تجاهلوا الشرق القديم حقا، و محوا منه كلّ أثر للضمير التاريخى. على أن الشرق فى شكل متنكر و متغير، مكتسبا لمضامين جديدۀ، حاضر فى العمل الحضارى الخفى الذى قام عليه الإسلام، هو حاضر فى مخطط الكوفۀ، و فى الاعتقاد فى قوۀ النص المدون، و فى تقاليد الكتّاب و العلماء، و فى تشعبات الفقه، و فى المدونات الكبرى للحديث، فى مذهب التصوف كما فى التشيع. إنه مثال عجيب على امتصاص بعيد عن كل تطابق لن نقف أبدا على سر مساره. ما أبعدنا ههنا عن مجرد تنزيل الإسلام منزلۀ الشرق.

تأثير الهلّينية

لقد أحكمت الممالك الهلينستية سيطرتها على ميدان سوف يكون بعد ذلك مرتعا للفتح العربى- باستثناء الأناضول. احتل السلوقيون بالخصوص موقعا مركزيا فى الشرق، فكانت امبراطوريتهم تشمل، فى بداية الأمر، الشام و بلاد الرافدين و إيران كلها، ثمّ تراجعوا أمام النهضة الإيرانية التى جسدها البارثيون، لكنهم تمكنوا من الاحتفاظ بميديا و خوزستان و بلاد فارس ذاتها، فضلا عن بلاد الرافدين. و لا منازع أن قلب

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ١٧٠

امبراطوريتهم بقى و سيبقى الشام، إلى أن يحين وقت سقوطهم. أما بخصوص بلاد الرافدين ذاتها، فالسؤال المطروح و الواجب طرحه و صوغه كما يلى هو: إلى أى حد تسرب التأثير الهلينستى بدءا بدائرة الحياة المدنية؟ هل خلف آثارا باقية؟ من اليسير الإحاطة بهذا المشكل، لكن الإجابة المرضية غير ممكنة إلا إذا استعرضنا الخلفية التاريخية لما كان عليه الاستيطان الهلينستى فى الشرق.

خلافا للعرب و الفرس، المجاورين مباشرة للشرق الواقع بين الشام و بلاد الرافدين، فإن السلوقيين و هم المتعلقون عاطفيا بالهلينية، لم يعتمدوا على الشعب اليونانى ككل للامساك بزمام امبراطوريتهم الشاسعة. و ربما لأنهم لم يجدوا يونانا بجوارهم، أو مقدونية، و لم يعتمدوا إلا على مجموعات مهاجرة صغرى، فقد لجأوا إلى إنشاء المدن

(Poleis)

حيث أقروا عناصر يونانية مقدونية. كانت نقطا يستندون إليها، و جزرا للهلّينية تدعم هيمنتهم.

و هكذا فإن ما بذلوه من جهود جبارة فى إنشاء المدن يدخل ضمن خطة سياسية مهيأة، أكثر مما يتعلق الأمر بميل إلى التمصير يجب ترضيته، أو حتى مشروع حضارى، كما ارتآه مدّاحو الهلينية من النمط القديم و منهم جونز Jones. و هذا لا محالة هو وضع كل مشروع امبراطورى، بما فى ذلك الاتساعية الامبراطورية العربية، لكنّا نجد هنا امبراطورية بعيدة عن قواعدها البشرية. إن ما يلفت النظر عند الرجوع إلى خارطة المنشآت الهلينية، هو كثرتها فى آسيا الصغرى و الشام حيث يمكن ذكر انطاكية العاصمة السياسية، و آفامية المركز العسكرى، و سلوقية فى بياريا، و اللاذقية مقر التجارة، لكى ندرك ما كان من قوة للاستقرار المدنى. و قد توسعت الشبكة فى بلاد الرافدين و امتداداتها إلى الجنوب، و قلّت كثافة الحضور الهلّينى، و تناقص عمقه أيضا. و قد ذكرنا أن بابل اصطبغت بالصبغة الهلينية السطحية فى عصر متأخر، و خلافا لذلك فإن سلوقية تحولت إلى مركز نشيط للهلينية الشرقية. فكانت مقرا للحاكم العام بمنطقة الشرق، و أشرفت هكذا على الميدان الإيرانى كله. كانت حاضرة مركزية حقيقية عامرة بعدد مهم من السكان الذين كانوا خليطا من

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ١٧١

الأغريق و المقدونيين و الشاميين و اليهود و البابليين المنقولين. و قد توفرت لها الأجهزة الأساسية الخاصة بالمدينة الأغريقية Polis فى إطار المملكة الهلينية، و هى فوق ذلك تجسد و ترمز أكثر من أية مدينة أخرى، إلى مفهوم المدينة كنقطة لارتكاز أية هيمنة أجنبية. و ذلك لأنها منشأة شبه معزولة فى محيط شرقى صميم، باستثناء السوس التى كانت بعيدة عن المركز، و بابل فى عصر أنطيوكوس ابيفانوس. و مع أن بلاد الرافدين كانت إحدى الولايات المركزية فى امبراطورية السلوقيين، و مع أنها كانت مقرا لسلوقية ذاتها، فإنها لم تقبل التأثير الهلينى بالقوة نفسها التى كانت له فى الشام. لكن لا مجال لنكران بقائه مدة طويلة، أو نكران آثاره فى عصر البارثيين.

و قد اعتبر البحث التاريخى الغربى مدة طويلة أن الهلينية المنتقلة إلى الشرق حتى خراسان كانت حركة «تحضيرية» قوية أخرجت آسيا الصغرى من همجيتها كما أخرجت الشرق من وضعه البالى. إن الأغراض العزيزة على الامبريالية الأوروبية فى القرن التاسع عشر تكاد توجد كلها عند مؤرخين من صنف سانفورد Sanford و جونز بالخصوص، و قد أسقطت على ماض يبعد عشرين قرنا. و هى الهلينية كمبدأ ثقافى فتى حديث متفوق، و فكرة مثاقفة الأهالى، و استكمال مؤسسة البوليس (المدينة)، الخ ... و بذلك تكون هذه الهلينية معادلة للحضارة الأوروبية المنتصرة.

و قد اتسم قول روستوقتسيف Rostovtzeff بهدوء أكبر، مع أنه لم يستخدم مثل سابقيه إلا المصادر اليونانية و الرومانية و هو ما ندّدت به بيغولفسكايا N.Pigulevskaja.

و مع أن روستوقتسيف اطلع على نتائج حفريات Doura - Europos، فهو يعترف بالجهل الذى نتخبط فيه إزاء حركتى انتشار الهلينية و التمدين، و قد أقحم بشدة التمييز بين المدينة الشرقية و المدينة اليونانية، معترفا بعد هذا بوجود تشابهات بينهما لا يمكن تفسيرها. إن هذا التحفظ الأخير أساسى و هو يخفّف من حدة المعارضة بين الشرق و الهلينية. ففى مستوى الطبوغرافيا بداية حيث توجد هنا و هناك الغاية التنظيمية نفسها، ثم فى مستوى المؤسسات حيث يسلّم بدرجة معينة من الاستقلال للمدينة الشرقية، و قد بات الأمر مقبولا عادة

بالنسبة للمدينة الهلينستية. لكن هل كانت هذه المدينة حقيقة من نمط ال Polis؟ من الواضح أنه تمّ إحياء الأجهزة اليونانية القديمة و منها ال Ecclesia (جمعية الشعب). لكن هذا الإحياء الذى استفاد منه العنصر اليونانى المقدونى خاصة، هل كان سياسيا أم ثقافيا؟

هل كان يعمل بكيفية ديمقراطية، أم كان مجرد تقمص لرمز ثقافى؟ لا يخلو الأمر من تناقض حيث أن المتمسكين بالهلينية يعتبرون هذه المؤسسات أمرا مصطنعا فى حين أن بيغولفسكايا التى تنازع مبدأ تفوّق الهلينية معتمدة المصادر السريانية معيدة الاعتبار بعد اشبنغلر إلى الروح الشرقية التى لا تقهر، تظهر و كأنها تعتقد فى جديتها واصفة إياها بمزيد من التفاصيل. و كأن الندم قد انتابها، فخلصت إلى القول إنه لا يمكن استنقاص التأثير الهلينى. و لا شك أن لديها ما تبرر به قولها. ذلك أنه من وراء الصراع المبسط الذى افتعل بين الشرق و الغرب و الذى طالما طمس قضية الهلينية، و تجاوزا للمفاهيم الضمنية للمثاقفة و اللقاح و الرفض و تفوق مبدأ على آخر، يتحتم الإلحاح على الواقع الجوهرى للعبة السياسية العسكرية. لقد تشكلت امبراطورية ثم تفككت. لم تكن لها ايديولوجيا راسخة قوية، و امتدت على أرض متسعة جدا فى فترة زمنية قصيرة جدا. و بعد هذا، فمع أن الشرق يستند إلى بنى متينة من الحضارة، فقد انفتح لكى تتسرب إليه المؤثرات اليونانية و احتفظ بشكل خفى بآثارها. و كان هو بذاته يعيش فى الداخل تغيرا عميقا، رافضا الأشكال الأكثر ظهورا للماضى الأكادى، لكنه سيستمر فى الخضوع للسيطرة الخارجية. ليس مقصودنا من طرح قضية تقلبات الهلينية فى الشرق إشعال خصومة جديدة فى تاريخ الحضارات على الرغم من أهميتها بالنسبة لمستقبل الإسلام و على الرغم من المقارنات الموحية كثيرا بين العروبة و الهلينية. إنما نسعى إلى تفجير سلسلة من المقابلات الواهية بين الشرق و الهلينية، بين المدينة الشرقية و المدينة اليونانية، بين مبدأ الخضوع هنا و مبدأ الاستقلال هناك، و تلك المقابلات بين العفوية و الخلق، و بكلمة، تفجير غشاء كامل من الفرضيات المسبقة.

كيف نترجم ذلك على صعيد المحسوس؟ منذ البداية، تفرض المقارنة نفسها بين شكلين للتمدن و الهجرة. الهجرة العربية هى التى أوجدت الفتح، و لم تكن مجرد نتيجة له.

و بسبب قرب العرب الفاتحين من مخزونهم البشرى، فإن استيطانهم كان يتصف بكثرة العدد و قوة التجمع، و لم يكن مشتتا

مبعثرا. انفصلت الأمة الفاتحة فى العراق، انفصالا صريحا عن الأهالى المحيطين بها. و أقام العرب تجمعاتهم الكبرى فى بلاد الرافدين لا فى

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۷۳

الشام، خلافا لليونان، فضلا عن أنه لم يكن لهم نموذج طبوغرافى أو مؤسساتى مسبق للحياة الحضرية.

فآل الأمر إلى تعايش غريب جدا بين المدينة و القبيلة التى كانت نابضة بالحياة عند العرب بينما لم تكن سوى أمر مفتعل و ربما أثر عند اليونان. لماذا وفق الإسلام حيث فشلت الهلينية؟ لأنه جمع بين المبدأ الدينى الذى لا يمّحى و بين الهوية الثقافية المتينة، و التنظيم العسكرى الجيد، و لأنه حافظ على هذه العناصر الثلاثة فى أمصاره القليلة. و خلافا لذلك، فقد كان مستعدا لتقبل سلسلة النماذج الحضارية المودعة فى الشرق بشكل انتقائى، بما فيها الهلينية. و تم العمل بهذه الانتقائية فى تخطيط الكوفة. لكن الإسلام وجد أخيرا الأسلوب اللائق به بعد قرن من ذلك. إن العرب الذين أتوا مع سعد لم يكونوا يمتلكون المخطط الجاهز لهيبوداموس الذى أبدع فى ميلىMilet، مع أنه فى الحقيقة يعود إلى زمن غابر، إذ كان ابتكارا للهلّينية الأيونية و ليست الأتّيكية، و قد نشره خلفاء الإسكندر. و لعلهم اطلعوا على ما تبقى من المخطط المشبّك بسلوقية- بهرسير و حتى فى بابل، أو فى السوس بالنسبة لأهل البصرة. و لنا أن نوضح القول أكثر من ذلك و نتساءل إلى أى حد يندمج مخطط هيبوداموس فى الثقافات- بالمعنى الأنثروبولوجى- الشرقية، بما فيها ثقافات مشارف بلاد العرب؟ و لذا يجدر بنا التساؤل عن إمكانية غامضة تتمثل فى الأصل الهلينى للشوارع الكبرى بالكوفة. حيث إذا رضينا بالتأويل الثانى لرواية سيف- أى أن الشوارع الرئيسة كانت تقطعها شوارع ثانوية قطعا عموديا- نكون قد وقعنا قطعا على تخطيط هيأته رقعة أو شبكة. و مهما كان الأمر، و فيما يخص مساحة السكن فلا يتعارض النموذج الشرقى و النموذج الهلينى، بل إنهما يتشابهان كما رأينا ذلك، و لعلهما يمتزجان فى رؤية واحدة للمجال هيأها المخططون طبق حاجات التنظيم العشائرى العربى أو تنظيم المعسكر. فأدى ذلك إلى تصفيفات و شرائط متمددة. أما عن المركز المقتبس من الأسلوب البابلى الجديد و الآشورى،

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۷۴

فنجد الرحبة تقابل الأغورا الهلينية التى حافظ عليها الحضور البيزنطى.

و هكذا نصل إلى فكرة الالتحام المعمارى، إلى لغة مشتركة نجدها فى الحجر أو الآجر نشأت فى العالم القديم كله. و عندئذ، إذا كان نموذج الدار العربية اللاحقة بابلى الأصل، فيمكن القول أنه هلينى لأنه غطى إلى حد بعيد المساحة الهلينستية. مثله مثل القوس الذى انتقل بعد الإسكندر، من بلاد الرافدين إلى قلب العالم اليونانى. و كالآجر ذاته الذى عرف طريقه إلى الشام، فيما الشام بلد الحجر أصلا و أساسا.

فارس و روما و بيزنطة

الحقيقة الواضحة التى ينبغى التذكير بها دائما، أن الانساق الحضرية تتبادل التأثير و أن ليس هناك نسق مدنى بحت. فهل انتظام المخطط ظاهرة شرقية أم ظاهرة هلينية، أو على الأقرب مجرد خاصية لكل مدينة تنشأ دفعة واحدة؟ سؤالان ينبغى طرحهما قبل أن تصبح الكوفة إمّا حاضرة شرقية و إما حاضرة هلينية. نجد بمصر القديمة مخططات مشبكة فيها شوارع رئيسة تقطعها شوارع ثانوية. و من الممكن أن هذا الرسم هاجر إلى الشام، و تواجد مع رسوم أخرى، و استمر فى النشاط بمكان آخر، ثم رجع إلى مصادره بعد أن دخله التغيير. و من الوجهة المعمارية، «إذا كانت فكرة ال

Polis

استمدت شيئا من تجمع الدور حول القصور المسّينية»، فلعل انتظامها اللاحق صدر عن اتصالات بعالم الأناضول أجرتها اليونان. لكنّ أثينا مثل روما، احتفظت بتشكل متراكم فوضوى استمدته من أصولها. و هو يتميز من مظهر الحواضر الهلينية التى تغذت من مهد المؤثرات الأناضولية.

فمن المناسب ألا نبالغ فى عمل هيبوداموس الرائد الذى لم يعمل إلا على استكمال تقليد معمارى وجده فى المكان نفسه، حتى فى عمله الممتاز الذى هوPrie ?ne. و ما يلفت النظر أن الأغريق و الرومان لم يبنوا مدنهم النموذجية إلا فى المستعمرات، تلك الحواضر المنتظمة المنسقة. ذلك إما لأنهم تمكنوا فى الخارج من استيعاب أسهل للتقاليد الأجنبية، و إما لأن صورة المعسكر كانت عالقة بهم فيما يخص الرومان، و إما لأن كل خلق جديد

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۷۵

يخضع لعقلانية هندسية. و تنطبق هذه الدوافع الثلاثة بصورة فريدة على العرب الذين خرجوا من بلادهم و بنوا الكوفة الأولى: التهيؤ للتقبل، و صورة المعسكر (لا بالمعنى الذى جعل المعسكر يتحول من ذاته إلى مدينة، كما رأينا ذلك)، وجدة الإنشاء. لم يكن مخططوهم يشعرون أنهم كانوا يصنعون البابلى الجديد و الهلينى و الفارسى و الرومانى، لكنهم غرفوا، غير واعين، من تراث أفكار دون أن يكون لهم تصور مرئى واضح. و لربما يتم استيقاظ الجانب الأكثر مسخا من الماضى و يتم رجوع العتيق إلى الوجود، حين يخلق الجديد إذ هى فرصة لا تعوض بالنسبة إليه، ليرجع بقوة. و هكذا حدث وثوب فوق العصور الساسانية فى اتجاه بابل و ربما فى اتجاه الهلينية، و قد امتزجتا امتزاجا مبهما ضمن تراث مشترك. هكذا فعل الرومان الذين خطوا مدنهم بالمحراث تخطيطا شعائريا، إذ كانوا يرددون دون علم به، تقليدا أتروسكيا نابعا من أعماق الجذور الشرقية لهذا الشعب. فمن الممكن أن احتفظت الجزيرة العربية بفضل اتصالها بالشرق بمحاولات عتيقة تخلى الشرق نفسه عنها، و ذلك بالضبط لوضعيتها الهامشية عنه.

إن الفرس و الرومان شعبان وريثان. لقد اعتمدا أصلا نماذج مهيئة فى بوتقة الحضارات التى خضعت لهما، لكن دون أن يخلو ذلك من زاد أصيل. من هنا انتشار هذه النماذج انتشارا ممتازا، و من هنا حدثت تركيبات و انحرافات. لكن لم يجر اللحاق بالركب أبدا. حين صمم الفرس القاهندز- يعنى القلعة المركزية المحصنة- و أبدعوا فيها، فقد توسعوا بذلك فى النموذج العتيق الآشورى- البابلى- الجديد فى السوس كما فى همذان، و فى اصطخر كما فى بابل التى جددوا بناءها، لكنهم عدلوا فى طيسفون و فى درابجرد عن الشكل المربع لصالح الشكل المستدير المستمد من إرثهم بالذات، أو من ارث «الأورارتو»، أو لعل الأمر تعلق برجوع النمط المصرى أو الشامى الأناضولى. و كذلك الرومان فإنهم روجوا فى الشرق نموذج المدينة الهلينية التى صارت مثالهم الأعلى. لكنهم لم يوفقوا أبدا بأن يجعلوا من روما حاضرة مكتملة نظيفة مضاءة متسقة، كما كانت أنطاكية. إن انتظام المدن الرومانية خارج إيطاليا مقتبس من التقليد الهلينستى فى الشرق، و من التقليد الأتروسكى فى العالم الغربى. و على هذا النحو لم يقم الفرس و الرومان كل فى ميدانه بعمل ابتكارى

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۷۶

أساسى، بل كان عملهم تركيبيا و بصورة ما عملا تشويهيا للنموذجين الأصليين الشرقى و الهلينستى.

لكن ينبغى الاعتراف أنه لم يقع فى الوضع الرومانى، إلا نادرا، فرض مخطط السكك من كاردو(Cardo) و ديكومانوس(Decumanus) فوق المدينة الهلينية مع المسخ الذى يشوّه وجهها. كانت المدينة الرومانية فى أنطاكية كما فى الإسكندرية، بخاصياتها و تسمياتها المحددة، تقع إلى جانب المدينة الهلينستية دون المساس بها. أما بأعلى بلاد الرافدين و هى منطقة حدود وساحة للقتال فإنا نلحظ وقوع تخريبات تتلوها إنشاءات على الأسلوب الرومانى. فهل أن التصور الرومانى للمدينة

بصفتها شكلا جسديا سما هنا و هناك إلى مرتبة النموذج القادر على أن يعتمد على نفسه و ينتشر خارج الامبراطورية؟ مثلا فى بلاد بابل، و بصورة أوسع فى الامبراطورية البارثية؟ ليس فى هذا السؤال تمويه كما يظهر لأول وهلة، نظرا للقرب الزمنى، و لأن الشحناء بين امبراطوريتين لا تستثنى المبادلات الحضارية (مثلا:

الحمامات التى اقتبسها العرب عن الساسانيين الذين اقتبسوها بدورهم عن العالم الرومانى البيزنطى فى رأى وليام مارسى). و لا ننس أن الحيرة التى يسرّ طابعها العربى انتقال المؤثرات الخارجية إلى الكوفة، لم تكن مرآة للحضارة الفارسية فحسب، بل انخرطت ضمن خط عربى اتصالى امتد حتى الشام عند الغساسنة، و هذا الخط كانت التسربات الرومانية البيزنطية فيه أكثر أهمية من المفعول الساسانى ذاته، مما أدى إلى عملية تنصيرية قوية فى الحيرة ذاتها.

لا يمكن رد التأثير الرومانى فى الكوفة إلى المظهر الشعائرى للتخطيط، رغم ما هنالك من تشابه فى الشكل، لأن مصدر هذه التشابهات مورده عندئذ الارث المشترك الغابر، ارث الشرق القديم الذى نقلته التقاليد الأتروسكية إلى الرومان، بل بالأحرى يمكن ردّه إلى المعمار. فإذا وافقنا سيفا على أن الصورة الهندسية المعمارية الأولى للمسجد كانت قائمة منذ البداية، فمن المهم أن ننتبه إلى ما قاله فى هذا الموضوع. لقد تحدث عن أعمدة جلبت إمّا من الأهواز و إمّا من الحيرة، واصفا بالخصوص سقف قاعة الصلاة الذى شبهه بسقف «الكنائس الرومية». لا شك إنه يمكن تسفيه هذه التوضيحات وردّها إلى عصر لاحق شهد استيعابا أفضل لكلية الارث الشرقى من جانب العرب، و بذلك تتأخر القضية نصف

قرن. لكن تثير هذه الروايات و توحى بإمكانية جديرة بالنظر لم يتردد كرسويل فى درسها، و قد سبقه إلى ذلك لامنس الذى يرى أن المقصود به عند سيف تصاوير جدارية و فسيفساء ذهبية على الطريقة البيزنطية. و يوافق كرسويل على وجود التأثير البيزنطى لكن بشكل آخر غير شكل الفسيفساء على الحجر. ينبغى البحث عن النموذج حسب رأيه، فى الصنف الكنسى من كنائس شمال الشام تلك التى استعمل فيها الخشب كمادة لبناء السقوف المستقيمة المستطيلة لا السقوف المقببة أو التى كانت على شكل القبة. و لعل هذا النمط المعمارى يكون انتشر فى شمال بلاد الرافدين عند قدوم الجيوش البيزنطية. ثم أورد كرسويل كمثال، الرصافة التى يعود تاريخ الكنيسة الجامعة فيها إلى القرن السادس م، و سرجيوبوليس، و حلبية. لكن لا يكشف لنا كيف انتصر هذا النموذج فى بلاد بابل، و لا كيف أصبحت هذه البلاد تابعة، من بعض الوجوه على الأقل للعمارة الشامية، كما جرى فى الجزيرة. و يكون سقف الظلّة حسب رأيه من خشب، أقيم مباشرة على الأعمدة و بدون أقواس، و لم يكن شكله مقببا. و هذا يستثنى التفكير فى النموذج الخاص ببلاد الرافدين المتضمن لسقف من لبن مخلوط بالقصب، كما فى نينوى و خورسباد، و كما أيدته المصادر بالنسبة للبصرة الأولية. فهل أن المؤثرات الرومانية أو بالأحرى البيزنطية توقفت فى مستوى الحيرة و الكوفة، و لم تتقدم أبعد من ذلك؟ فى الحقيقة، حتى لو شككنا فى واقع هندسة معمارية جديرة بهذا الإسم فى الكوفة المبكرة، فإن مصادرنا تؤكد على وجود تأثير بيزنطى معين يخص الكوفة، و هى صامتة عن البصرة. و بخلاف ذلك، كانت صريحة إذ نسبت للبصرة مسجدا، إمّا من النمط الذى قد ينتسب إلى بلاد الرافدين، و إمّا من النمط العربى البدائى، و هى تسكت عن هذا فى خصوص الكوفة. و مهما كان الأمر، و إذا صح أن وجود تيار من المبادلات بين بلاد بابل و الشام يفرض نفسه على انتباهنا، فإن المؤثرات الرومانية- البيزنطية التى لا شك فى حضورها، بقيت ضعيفة فى تعابيرها المباشرة. و أكثر أهمية من هذا دون شك الدور الذى قامت به هذه المؤثرات فى نشر المثال الهلينستى أو فى المحافظة على مثاليته كمرجع معمارى، لكن أيضا و بالخصوص فى نشر مفهوم المدينة المنشأة

باعتبارها المكان الأقدر على دعم أية هيمنة امبراطورية جديدة.

لا ريب أنه يوجد من الجانب الفارسى تلك الإرادية التمصيرية، التى ورثها العرب و التى كانت من الأسباب الجذرية لإنشاء الكوفة. لكن الكوفة- و هذا الفارق مع بغداد- لم ترد أن تكون حاضرة امبراطورية متجهة بكل قواها إلى التعبير عن العظمة الملكية لنفسها، كما جرى الأمر بالنسبة للسوس و اصطخر و المدائن. و إنما خضعت مثل المدينة الفارسية إلى سلطة مركزية ممتدة على تراب شاسع، و أقحمت فى شبكة إدارية لم تتغير، هى شبكة الكور الساسانية. إن هذا المظهر الذى اتخذته الكوفة كمتصرفة فى تراب محدود، يمدد الواقع الفارسى و يناقض واقع الاستقلال النسبى الذى كانت عليه الحاضرة الهلينستية.

و بعد، فلا أسلوب التخطيط، و لا بنية الفضاء الكوفى الأول يبدوان مقتبسين شيئا من الأرث الفارسى. مع أن ما كان أكثر وضوحا من غيره هو الحضور الساسانى. كان أشد تأكيدا فى النصف الشرقى من العراق- سواد دجلة أو إقليم ديالا، لكنه بارز أيضا فى منطقة الفرات، عبر أسماء المكان و مسح الأراضى و شبكة القنوات، و من خلال وجود إنشاء فارسى مثل الأنبار. من الممكن و من الواجب قطعا أن نقبل بوجود جانب كبير من الوساطة الفارسية فى نقل التصورات البابلية و المقاربات الهلينستية للظاهرة المدنية، لا أن نقبل المسعى الفارسى الصرف لهندسة المجالات. لقد كانت الكوفة مربعة الشكل فعلا، غير مستديرة مثل درابجرد و أصفهان، و حتى المدائن التى عرفها العرب وحدها فى ذلك العصر. لكن بخصوص ما اقتبس من الفرس فى المعمار فإن ذلك يظهر فورا للعيان. فقد ذكر أن الأحجار جلبت من الأهواز (خوزستان) لنحتها أعمدة عالية (إن هذه الظاهرة فارسية صرف تعود إلى عصر الاخمينيين)، و أنها حملت سقفا مسطحا، دون تقويس، و هذا يسترعى الانتباه، ففرض على كرسويل صورة آپادانا.Apadana و كان المهندسون من الفرس و قد ورد إسم رئيسهم، و هو من همدان اسمه روزبه بن بزرجمهر، و قيل أيضا انه صمم المركّب الموحد للمسجد و القصر. صحيح أن سيفا نفسه لم يقبل خبر نقل الأعمدة من

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۷۹

الأهواز، إلا بخصوص إمارة زياد. لكن مشاركة «بنائين من بنائى فارس»، كما يقول حرفيا، أمر مؤكد بالنسبة للعصر الأوّلى. أما لاحقا و فى العصر الأموى، فسيظهر الإيوان البارثى- الساسانى كواحد من العناصر الأساسية لبنية القصر، و هو ما أيدته الحفريات بكل وضوح.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۸۰

- ۱۴- قوّة الماضى: الارث العربى القديم

اشارة

يبدو لنا أمرا بديهيا أن كل ما من شأنه أن يشكل تكوّن الحضارة العربية الإسلامية و هياكلها، ينبغى أن يعتمد قطبين، على الأقل خلال الأربعة أو الخمسة قرون الأولى من فترة الانطلاق. أما القطب الأول فهو العالم الشرقى الخارجى حيث تطورت هذه الحضارة، و أما القطب الثانى فهو عالم العروبة الداخلى الذى منه تحدرت. لقد سبق أن ألمحنا إلى النقطة الأولى، وها نحن نشرع الآن فى فحص الموضوع الثانى.

لقد نزعت لفترة طويلة الرؤية التقليدية الأوروبية و الإسلامية معا إلى تصور الحضارة العربية- و المدنية أيضا- و كأنها منبثقة مباشرة و مكتملة من بلاد العرب لكى تفرض وجودها على العالم الشرقى، فى حين أن المعرفة الأوروبية، و بدرجة أقل الصورة الذاتية التى كوّنها العرب المحدثون، قد تطوّرت منذ حوالى قرن فى اتجاه يبرز المؤثرات الخارجية غير العربية، سواء كانت

نصرانیهٔ فی المجال الدینی، أم فارسیهٔ فی المجال الحضاری، أم هلینیهٔ و هندیهٔ فی المجال الثقافی. و علی هذا النحو تمّ تفضیل عمل المحیط علی عمل المعطی الوراثی. و لعلّه ینبغی اعتبار هذا الأمر عزما علی التقلیل من الحصیلهٔ العربیهٔ الأهلیهٔ أو علی حل الغیریهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ، من وجههٔ النظر الأوروبیهٔ. أما من الوجههٔ العربیهٔ الحدیثهٔ، حیث یبقی التصوّر القدیم مهیمنا لا محالهٔ، عند ظهور اغراء الاتجاه الإیرانی و البابلی و الهلینی، فذلک دون شک استجابهٔ لرغبهٔ ترمی إلی إخراج الکیان العربی الإسلامی من عزلته التاریخیهٔ و إنقاذه من «الهمجیهٔ» لیصار إلی ربطه بتقالید ثقافیهٔ کبری، و تبریر وجوده، و منحه عزهٔ. إنما لم یمر وقت طویل علی اتجاه البحث التاریخی من جدید و بمنظورات مغایرهٔ تماما، فی طریق تعمل علی تحلیل الواقع العربی الجاهلی بغیهٔ مزید من الإحاطهٔ بتولد الإسلام علی الصعید الدینی کما علی صعید مؤسسات الاجتماع و الدولهٔ. ألم یکن الرسول قرشیا نشأ و ترعرع فی بیئهٔ مکهٔ قبل کل شیء؟ ألم تکن الدولهٔ بالمدینهٔ دولهٔ عربیهٔ قبل کل شیء؟ و هل

کانت بلاد العرب تتّصف بالفوضی کما قیل؟ ألم یکن فیها مدن، و تیارات للمبادلات، و مؤسسات و سلوک أخلاقی(Ethos)، و دیانهٔ موحدهٔ أو تکاد؟ و حین تشکلت بعد ذلک الحضارهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ الکلاسیکیهٔ، فهل کان کبار المؤسسین الثقافیین حقا من الموالی و العجم قبل غیرهم، و أن الثورهٔ العباسیهٔ کانت من فعل فرس خراسان؟ لقد تأثر البحث من الجانب العربی قطعا بتیار القومیهٔ. و لما تقنع بقناع الایدیولوجیا، فقد نزع إلی تیار عروبی تاریخی شمولی، حین أراد مثلا تعریب تاریخ الشرق کافهٔ منذ البدایهٔ. أما من الجانب الغربی فکان الأمر یعنی فتح اتجاهات جدیدهٔ للبحث، جری إهمالها لحدثذ، أو صرفها حکم مسبق معاد للعرب. و لذا فهی اتجاهات تمر عن طریق رد الاعتبار للعالم العربی القدیم، لکن ذلک یدل بالخصوص علی شاغل العلمیهٔ أکثر ما یکون حدهٔ و وضوحا. و کأن هذا الأمر بمثابهٔ العودهٔ إلی بدیهیهٔ الأشیاء و بساطتها. و تبرز هذه البدیهیهٔ بقوهٔ کبیرهٔ فی کل ما یمس الإسلام الأول: أی تولد الرسالهٔ، و بناء الدولهٔ فی المدینهٔ، و الهیاکل القبلیهٔ، و النزاعات السیاسیهٔ التی وجدت فی القرن الأول الهجری. أما بخصوص بنیهٔ المدن العربیهٔ خارج بلاد العرب و یعنی ذلک عنصرا من عناصر الحضارهٔ المادیهٔ و الإنسانیهٔ أیضا، فإن النّسب یردّ إلی المهد الأصلی، و یمکن أن یظهر أکثر إبهاما و أکثر عرضهٔ للتقییم، لکنه لا محالهٔ نسب ثابت مبدئیا. کان للعرب مدن فی شبه الجزیرهٔ منذ القدیم، و بالأخص قبیل ظهور الإسلام:

کانت بعض هذه المدن قد اندثرت مع العرب الأوائل، و کانت هناک مدن بالیمن و الحجاز و المدن الثغور فی الشمال و الشرق. هذا من جههٔ، و من جههٔ أخری کانت هذه المدن تظهر بمظهر ثانوی فی الوجود العربی- و هو مشکل مطروح فعلا- إلی جانب الظاهرهٔ الرعویهٔ مثلا. فی حین أن الدولهٔ و الحضارهٔ و القوهٔ کانت متمرکزهٔ فی بلاد الرافدین بالمدینهٔ. أما من حیث حجم النمو و الإشعاع فبالإمکان مقارنهٔ الکوفهٔ و البصرهٔ و بغداد ببابل و نینوی و المدائن، أکثر من أن تقارن بصنعاء و مکهٔ و المدینهٔ. لکن هل یقضی الحجم علی الشکل و أکثر من ذلک علی الجوهر الثقافی، و لا سیما فی المرحلهٔ الأولی حیث لم تنفصم الوشیجهٔ بالوطن الأم و لم یتسن امتصاص النماذج الأجنبیهٔ سریعا. لقد أشرنا إلی فرضیهٔ بقاء المعسکر البدوی ضمن بنیهٔ قطائع العشائر السکنیهٔ، بمعنی تأثیر خاصیهٔ للتجمع غیر المدنی علی بنیهٔ مدنیهٔ. و هو دلیل علی أهمیهٔ الخلفیهٔ العربیهٔ کافهٔ، لا المدنیهٔ فحسب، لمزید من ادراک تولد الکوفهٔ. فإذا کان هنا مبرر و فائدهٔ فی إبراز العناصر الأساسیهٔ لمیراث الشرق بصفته بیئهٔ استقبلت الکوفهٔ، فلا أقل من البحث عما یمکن أن تکون العوالم العربیهٔ المختلفهٔ المتوالیهٔ أو المتجانبهٔ، قدمته فی مجال التقالید المدنیهٔ أو طرائق التجمعات البشریهٔ، کمعنی نوعی للمجال، و کتجربهٔ أو مؤسسات، حتی من وجههٔ المنطق الثقافی الأکثر انغماسا، فی الأولی زمنیا من الحواضر العربیهٔ الکبری.

الزّمان الكونى، الزّمان الخرافى و الزّمان التاريخى

مع الإسلام، كان ظهور التاريخية لدى العرب، لا بمعنى أنهم راحوا يصنعون واقعا تاريخيا جديدا تكرّسه تورخة جديدة مطلقة- تورخة الهجرة- و حسب، بل أيضا بمعنى إقدامهم على زلزلة خيال الماضى التاريخى، خيال ما يمكن استذكاره و ما لا يمكن استذكاره على حد سواء. ففى المقام الأول، أدخل القرآن الخطاب التاريخى، لأنّه شاء أن يكون نذيرا و بشيرا. كما أتى، و على مستوى أرفع، بنظرة زمانية كونيّة، لأنّه شاء أن يكون تفسيرا لصيرورة الخلق تحت عين اللّه و رعايته. و بعد خمسين عاما، سار التراث الإخبارىّ العربىّ على الطريق التى رسمها القرآن، التى كانت بلا ريب، طريق الذّاكرة القبليّة و ما كان بين القبائل، فأنتج تاريخا أسطوريا كلّما تعلّق الأمر بالأزمنة الخالية، بالزمان الأصلىّ.

إن التراث التاريخى الحديث، مع ثغراته الكبيرة، يمكنه وحده الادّعاء بامتلاك زمن تاريخى واقعى، خاص بالعرب القدامى. زد على ذلك أنّ الزمان الكونى و الزمانى الخرافى هما اللذان يسودان على الخطاب القرآنى و على خطاب التراث و السنّة معا. الأمر الذى لا يستبعد التموضع فى الأفق التاريخى، و هو شىء آخر. فقد حاول التراث العربى، من باب النسابة، أن يهيمن على الزّمن الغابر و أن يكتشف مبدأ منظّما للواقع المنصرم. بينما حاول الخطاب القرآنى، من طريق الوحى و التنزيل، الإلمام بالتاريخ العربى، تاريخ المدن المدمّرة و الممالك الزائلة، ما خلا مكّة، و هى مدينة أخرى، تتّصل بالمستوى العالمى و الكونى. إلّا أن التراث العربى أضفى بناه الجينيالوجية و الخرافيّة على المعطى القرآنى الذى طوّر لاحقا كوسمولوجيّته الخاصة بمكّة تطويرا كبيرا. فهنا و هناك، تدهشنا رؤية الماضى و تفاجئنا بتماسكها و ربما لهذا السبب غذّت و أرضت أجيالا بكاملها. و ربما أيضا، بلا ريب، لأنّ الخرافة قرّبت كثيرا من التاريخى و العقلانى، فكان ترميزها ضعيفا، بحيث ظهرت بصعوبة فى مظهر الخرافة بالمعنى الدقيق، الخرافة المتمفصلة بنيويا، و بدلا من ذلك ظهرت كأنها لغة تاريخية ذات تلوين خرافى.

هذه الملاحظات صحيحة بنحو خاص بالنسبة إلى الماضى العربى السحيق، ذلك الذى يرقى إلى قرنين أو ثلاثة قرون قبل الإسلام، و لنقل على سبيل الاستدلال المعيارى الخارجى، إلى ما قبل عهد سابور الأول (٣٢٥) الذى أنشأ الأنبار و قمع الحركات العربية الحدوديّة. و أبعد من ذلك، نشعر حقا، فى الواقع، أنّ الزّمان يفقد عمقه الواقعى بالنسبة إلى تراث الإخباريين. و أنّه ينحلّ فى الخرافى و يتمسّك بالمقومات القرآنيّة، محاولا بناء ذاته من خلال النسابة (الجينيالوجيا) و بها. إن التراث العربى غارق فى ظلام دامس على صعيد مداره الثقافى الخاص، لحقبات تبدو لنا مغرقة فى القدم، و نعرفها تماما فى حقول تاريخية

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ١٨٣

أخرى، مثل التاريخ الرومانى أو الهلنيستى. و مع ذلك، كان العرب يعلمون، من خارج التأريخ، أنّ هناك ماضيا سحيقا لا تظهر آثاره فقط فى النص و هو ذاته وثيقة من القرن السابع، بل تظهر أيضا فى الذاكرة الجماعيّة لأن الابتكار لا يمكنه أن يكون مرتجلا. زد على ذلك أنّ تلك الآثار كانت منظورة فى آثار البتراء و تدمر و مدن اليمن.

من المؤكد أن العرب، فى فترة التنزيل، كانوا مهيّأين للدخول فى التاريخ الكبير، و أن الذاكرة الجماعية فى لحظة ما كانت تعلم أو تعتقد أنه كان هناك ماض قديم لكنّه مختلف، و كانت تتعلّق بأسماء شعوب أو مدن- عاد، ثمود، إرم، عمالقة، جرهم، طسم، جديس- ربما كانت مجرّد أسطورة، و لكنها لم تكن بلا أساس تاريخى، فجاء القرآن و تورخها فى كل حال. هذه الأسماء نجدها فى الشعر العربى قبل الإسلام، لدى الشعراء المتأخرين كالأعشى أو أمية بن أبى السّلط. و بوجه خاص، كان مناهضو القرآن، بشهادة القرآن ذاته، يميلون إلى الاعتراف بهم، بمعزل عن تصنيفهم فى خانة «أساطير الأوّلين». و إن ما كان العرب يجهلونه هو تاريخ بنى إسرائيل، الأجنبى، الغريب عنهم. فى المقابل، كان التاريخ الآخر مألوفا لديهم، و كان ينهل من

المنهل الخرافی- التاریخی العربی الصمیم. عملیا، کان ازدواج الوعی العربی القدیم یترجم فی آن الطابع التاریخی و اللاتاریخی للواقع العربی.

و کان هذا البحث عن الماضی المحلی المحض، فی القرآن و الشعر و التراث الشفهی، یشهد علی البحث عن التواصل، و لکن مما یلاحظ بشکل مرموق هو أن التراث الإخباری کان یطرح تفاصلا غریبا فی مجری التاریخی العربی.

لئن کان القرآن یخضع الرؤیا القیامیّة للتاریخ العربی- رؤیة المدن البائدة و الشعوب المنقرضة من غضب اللّه- للعبرة، و لئن کان یحصر هذا التاریخ فی سلسلة الأنبیاء المنکرین، فإنه یربطه أیضا بالجذع المشترک، جذع ابراهیم و نوح و آدم، و تالیا یعاود وضعه فی الصیرورة البشریة و الکونیة، لأن التورخة تستهدف الأصول. و الحال، فإنها تخبرنا أن العرب الأولین، البائدة، هم الوحیدون الذین کانوا من العاربة، من العرب الحقیقیین، و أن الآخرین، المنحدرین من صلب عدنان بوجه خاص، و کذلک من قحطان، حسب البعض، ربما کانوا من العرب المستعربة، أی من العرب غیر الأصلاء جذریا و الذین لم

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۱۸۴

یصبحوا عربا إلّا بالتمثّل اللغوی. یعلّق متخصّص لیس «لهذا معنی یذکر»، لیضیف علی الفور: ربما کان الأوّلون هم المستوطنین، و کان الآخرون مهاجرین. و کان متخصّصان آخران، أ. غروهمان و و. کاسکل، قد أکبّا علی أصول العرب ما بین الشام و بلاد الرافدین، فی بلاد» Aribi «، فتحدّثا هما أیضا عن هجرة إلی داخل الجزیرة العربیة اعتبارا من القرن الرابع ق. م. هنا نری الزّمن التاریخی یتّصل بالزمن الخرافی و نری التاریخ الواقعی أو العقلانی منسوخا عن التاریخ الأسطوری، الخرافی أو التراثی باختصار.

السابقون للعرب و العرب الأوائل و العرب

الواقع أن ما اکتشفته الروایة التاریخیة العربیة المدونة، هی فکرة «العرب الأوائل»، لکنها شوهتها و عکست معناها، لأنها اقتصرت علی المیدان اللغوی. لا شک أن ما رواه القرآن من أن إسماعیل کان جد العرب مع أنه لم یکن هو نفسه عربیا، و کان یتکلم السریانیة فی البدایة، و أنه قد تعرب لغویا و تزوج فی الوقت نفسه امرأة من جرهم کانوا من العرب الحقیقیین البائدة، أو من العرب العاربة حسب الروایة. لا شک أن ذلک ساعد الروایة التاریخیة، و بذلک فهی قد شرعت فی موضعة الماضی المتمثلة فی الختن المؤسس للجدید و الناقل للقدیم بمعنی الوسیط. لکن قصة اسماعیل تبلور الذکری أو الشعور بعروبتین جری فک رموزهما عکسیا. و یمکننا الافتراض أن العرب العاربة کانوا فعلا السکان الأصلیین الذین سبقوا العرب، و قد عرّفهم معیار ترابی هو معیار السکان الأوائل لشبه الجزیرة. کان العرب المستعربة یمثلون القادمین الجدد أی المهاجرین، الغرباء عن أرض شبه الجزیرة لکنهم کانوا یتحکمون فعلا فی العناصر الثلاثة التی حددت العروبة علی

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة؛ ص۱۸۴

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۱۸۵

الدوام، الا و هی العرق و اللغة و حیاة الترحال، هم بالتأکید الذین عربوا شبه الجزیرة. لقد ترجمت الروایة العربیة عن الغربة الترابیة بمفهوم لغوی، و بعکس المعطیات جعلت من السابقین للعرب عربا أوائل، و أحسن من ذلک لقد جعلت منهم العرب الحقیقیین الماسکین باللغة فی حین أصبح العرب أنفسهم برابرة تلقوا هذه اللغة من الأوائل بوحی إلهی (عن طریق اسماعیل) أو بالتلقین مع وجود فکرة خفیة توحی بالانفصام العرقی. و لذا فبما أن السکان الأصلیین کانوا السکان الأولین لما سوف یصبح «أرض العرب» بصورة ممتازة بمعنی إفرازها الأصیل، فإن القادمین الجدد من العرب منحوهم العروبة الحقة، عروبة العرق و اللغة، و بذلک فقد قاموا بنقل الأصالة الترابیة إلی الأصالة اللغویة مزیفین هویتهم العربیة ذاتها التی کانت حقیقیة وحدها. و لا یمکن

فی التحلیل الأخیر اعتبار العرب العاربة من العرب الأوائل، إلا إذا قبلنا بوجود هجرة أولی، ذلک أن هذه التسمیة ینبغی أن تنطبق علی العرب الأولین أو علی المهاجرین و أجدادهم و أقاربهم القادمین من الخارج أی من الشمال حیث وجدت آثار لذلک بالنقوش المسماریة.

لقد ذکر علماء الأنساب أن مخلفات السابقین للعرب أی العاربة انصهرت فی العرب الأوائل المستعربة. فقد تعرّبوا و فقدوا فی الوقت نفسه هویتهم الجماعیة و بالصورة نفسها استثنی أولئک النسابون قحطان أقدم جد لیمنیین، و احتفظوا بکهلان جد البدو أی عرب الیمن کعنصر من ذریة اسماعیل و من العرب المستعربة، لکن یعتبرونه أحیانا من العرب العاربة. و علی هذا، ففی الإمکان المخاطرة بفرضیة مفادها أن الیمنیة الأصلیین لم یکونوا عربا عریقین لغویا و أنه ینبغی اعتبارهم بقایا للسکان الأصلیین فی شبه الجزیرة، أی من

السابقین للعرب، الذین بقوا فی عین المکان فی حمی تضاریس الجبال، أو أنهم دحروا إلی الزاویة الجنوبیة الغربیة من بلاد العرب. أن لغتهم «الحمیریة» أو الیمنیة القدیمة، مع أنها قریبة من العربیة، فهی تختلف عنها کما تختلف تماما کتابتهم عن الکتابة العربیة المشتقة من النبطیة أی فعلا من عالم الشمال، مهد العرب الأوائل. و هناک تفرع ثنائی فی النقوش الیمنیة، ضمن القبیلة نفسها کقبیلة همدان، یفصل بین الأحمور و العرب، أو بین الهجر و العرب. و إذا کان التمییز الثانی یحیل إلی صنف العیش، فإن التمییز الأول لعله قادر علی إدخال معنی عرقی. من المؤکد جدا أن القبائل العربیة سلطت ضغطا منذ وقت طویل و بصورة متزایدة خلال القرنین السابقین للإسلام، و ذلک لتعریب الیمن ثقافیا و لغویا.

کما أنه تم بصورة عکسیة و علی صعید الشعور الانتمائی، طبع هذه القبائل نفسها بالطابع الیمنی. إن التاریخ النوعی للیمن، و خصوصیته الحیة، و قوة النزاعات التی نشبت مع قیس فی العصر الأموی، کل ذلک یعود إلی الماضی البعید جدا و یمکن تعلیله بالفارق العرقی الأصیل. لکن من الصعب الإحتفاظ بهذه الفرضیة، نظرا للقرابة اللغویة الدالة علی أصل مشترک لکنه بعید، بمعنی أنه تفریع انطلق من الرحم الشامی المسمی ساما أو أمرهیا و الذی سوف نسمیه ع ر ب کما سیأتی بیانه. إن الفارق بین الیمن و العرب ناتج علی الأرجح عن تطور طویل منفصل. علی أنه من المحتمل أن هناک زادا أصلیا متبقیا فی الجانب الغربی من الیمن، بتلک الأرض المجهولة التی لم تخلف لنا أیة نقوش. یعنی ذلک أن ما تبقی وجد عند الأمم التی لم تساهم فی التاریخ الیمنی لکونها مادة بشریة متبقیة مسترقّة، خاضعة، متوحشة. لا شک أن کل ما سبق ذکره هو من قبیل النقاش النظری حیث أنه لا یستند

إلی أیة حجة موثوقة متعلقة بهجرة أجناس ناطقة بالعربیة إلی بلاد العرب، فضلا عن حصول شرح ما قدمته الروایة العربیة من معطیات. لکن هذا الأمر یدل علی أن المؤرخ الحدیث إذا ما افتقد المصادر الأثریة الجادة، فهو یبقی مرتبطا و حتی تابعا للجهاز التقلیدی، سواء توخی موقف القبول السلبی، أو الشک أو التخیل التأویلی. علی أننا نؤسس مقولتنا علی ثنائیة من المفاهیم کثیرة الفعالیة، نعنی السکان الأصلیین و المهاجرین، و هی ثنائیة مستنبطة بدایة من جملة من الحالات التی استجدت فی سیاق التاریخ الإنسانی.

إذا ما وقعت هجرة للعرب الأوائل إلی شبه الجزیرة، للاستیلاء علیها، إن صح القول، فلا بد أن دخول الإبل إلی المنطقة خلال الألفیة الثانیة، قد یسر الأمر، و نتج عن ذلک تعمیر جدید مکثف، و حتی «ترحیل» إذا ما قبلنا بوجود هجرة فی الاتجاه المقابل خلال العصر الحجری الجدید، انطلاقا من «بلاد العرب» من سلالة الأمم المعروفة بأنها سامیة.

لقد ظهر العرب الأوائل فی التاریخ خارج شبه الجزیرة سنة ۸۵۳ ق. م من خلال النقوش المسماریة التی ورد فیها أن ال ع- ر-

ب- ا- ا جنـديبو جلب ۱۰۰۰ من الإبل من بلاد أرب لمقاتلـة الأشوريين بمعركـة قرقر. و انطلاقا من هـذا التاريـخ و على امتـداد الألفيـة الأولى، فقـد دون علم الأسـماء ۱۴۶ إسـما مصـدرها العرب الأوائل، الأمر الـذى يـدل على تسـرب مهم مسـتمر إلى بلاد الرافـدين. لكن يبدو أن تسـعة أسـماء فحسب يمكن تصـنيفها بلغة العرب الأوائل، بمقتضـى أضـمن معيار، نعنى المعيار الصوتى. انفردت المصادر العربية للرواية التاريخية بنقل أسـماء للآلهة، منها أوال و ازر، و قد وجدت تلك الأسماء ب ن الأسماء الأمورية فى بابل بالنسبة لعصر النصف الأول من الألفية الثانية. و يوجد أيضا إسم مناة الذى يرجع إلى منطقة حرّان. و قد وصف أشخاص عديدون بأنهم: «ع- ر- ب- ا- ا» أو «ع- ر- ب- ى- و»، دون أن يتسموا بأسماء عربية، و ذلك يعنى من بين ما يعنى أنه جرى

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۸۸

استيعـابهم و ليس ضـرورة أنهم كـانوا غير عرب من حيث الجنس، لكنهم ينتمون إلى الرحـل. على أن العبـارة فى اللغـة الأكادية تحيل إلى مفهوم يخصّ نمط العيش أكثر ممّا تحيل إلى مفهوم عرقى. فيمكن وصف الأراميين أو أى شعب يقيم بالشمال الغربى الـذى سوف يعرف ببلاـد الشـام، بـأنهم «ع- ر- ب- أ- أ» إذا ما وقع تصورهم بمثابـة الرحل و هـذا يعنى أن العرب وحـدهم قد اسـتمروا فى حياة الترحل، و أن أولئك الـذين اسـتمروا من بعـد على هذا النمط من الحياة قد تعربوا. هذا و حتى فى الزمن الغابر وجـدت عرقيـة عربية حددتها الأداة اللغوية، و جرى على سبيل التيسير أو تجاوزا توطينها بمنطقة الجنوب الغربى السامى و ذلك نظرا لهيمنة الآرامية على الشمال الغربى».

إن المطابقـة بين مفهوم «عربى» و مفهوم الترحـل بقيت حيـة حتى اليوم. هنـاك نقوش سبئيـة تعود إلى القرن الرابع بعـد الميلاد، تحدثت عن وجود «عرب» بصفتهم رحلا.

و هناك كتابات متأخرة أقوى دلالة، و هى تقسم القبائل اليمنية إلى «أحمور» و «عرب» اسـتنادا إلى نمط العيش قطعا. و يجب أن يلاحظ بخصوص القرآن أنه لا يستعمل أبدا الإسم الموصوف عرب، و بذا فهو لا يسمى العرب فى مجموعهم أبدا مستعملا اسما مشتقا هو أعراب للدلالة على البدو، و مستخدما صفة عربى نعتا لغويا فحسب. إن استخدام كلمة عرب من قبل المصادر التى تلت ظهور القرآن و اعتمـدت أحاديث الرسول و أقوال الخلفاء الراشـدين و لا سـيما عمر، تنطبق دون ريب على قبائل الرحل، لا على كل العرب بصـفتهم مجموعـة عرقيـة، مع أن الشـعور بالانتماء العرقى أو بالهويـة الثقافيـة كان شديدا قبيل ظهور الإسـلام، و لعل ذلك كان أشد عند الرحل منه عند سكان المدن، كما بيّن ذلك فون

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۸۹

غرونباوم. و بعـد مرور وقت طويل، و تجاوزا للقرون الثلاثـة الأولى حيث تطابقت العروبـة مع المـدن و الدولـة و الأمبراطوريـة و الـدين، نـدرك أن هنـاك عودا واضـحا إلى التطـابق بين عرب- و لا حتى أعراب- و بين الترحل، كما هو الشأن فى مقدمـة ابن خلدون. كانت اللغة الاصـطلاحية المغربية التى سـبقت فترة الاستعمار تقابل بين عربى و بلدى، علما أن عربى يدل على المترحل أى ذاك الذى يتمثله الذهن رجلا من الريف أى غير المدينة فيقابل به رجل المدن. فباسـتثناء عصـر الفتح و الأمصار، هل كانت المدينـة طيلـة ما يزيـد على ألفى سـنة، على طرفى نقيض مع العروبـة؟ ثم لم هـذه المداومة بالخصوص على المطابقة بين مفهوم يبدو عرقيا لغويا نعنى مفهوم عرب، و بين نمط عيش الترحل؟

الهوية العربية و الترحل و المدينة

لقد عاش العالم الشرقى أكثر من أى مدار آخر، جدلية قوية بين التحضر و الترحل.

كان التحضـر ذاته منسوبا إلى المدينـة الواحـة و نموذجها الموجود فى بلاد الرافـدين. و المحتمل أن المدينة، فى التمثل كما فى

اللغة، كانت تحتل الصدارة بالنظر للقرية، و هو ما يفسر غموض لفظة قرية، و سنعود إلى توضيح ذلك. إن بلاد الرافدين المركز الممتاز، و مقر التحضر للمدن و الممالك، كانت تعارض بشدة عالم الحواشي الصحراوية، عالم الرحل المختلطين بصورة مبهمة، و كانت تخضع باستمرار لضغط ذلك العالم الذى كانت تدركه من حيث اشتداد تميزه عنها، نعنى الترحل، دون تمييز عرقى أو لغوى. كان الأشوريون و البابليون يطلقون تسمية «ع- ر- ب- ى- و» على كل العناصر المحيطين بهم و الذين يتكلمون لغة سامية غربية، مع العلم أن المحدثين يرون أن «العربية الخالصة» أو عربية الأوائل كانت تتميز من لغات الشمال الغربى الأخرى، كالأرامية. لكن لماذا هذه التسمية بالذات دون غيرها؟ من المحتمل أن كل الساميين غربا مثلوا فى وقت ما، أى فى الألفية الثالثة، مجموعة واحدة من الشعوب و ربما شعبا واحدا، وحّدته اللغة و نمط العيش فى آن، و قد أدرك فى نزاعه مع عالم بلاد الرافدين أن الترحل يحدد هويته أساسا. و بالفعل، كانت هذه المجموعة البشرية تسمى «ع- ر- ب- أ- أ» أو «ع- ر- ب- ى- و» كما جاء فى الرواية الأكادية.

و كانت تسمى هى نفسها باسم مقارب انطلاقا من ذات الجذر (ع ر ب). و لعل الاسم المولد (ع ر ب)Eber، وIbrim (عبريم) يعنى انقلابا حرفيا، من ع ر ب إلى ع ب ر، و هو

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ١٩٠

تعليل أكثر دقة من ذلك الذى يلجأ إلى عبور ميثولوجى لنهر الفرات، و منه اشتق جذر (ع ب ر) الذى يعنى شق و قطع. أما تسميتهم ب «ساميى الغرب»، فلم يعد أبدا سوى اتفاق وضعه العلم الأوروبى فى القرن التاسع عشر، انطلاقا من المصطلحات الواردة بالتوراة، و استشهادا بالزاد اللغوى المشترك. إن مفهوم (ع ر ب) الأكثر قبولا هو الذى يشعر بواقع لغوى و واقع يرتبط بنمط عيش الترحل. على أن هذا المفهوم يستبعد «ساميى الشرق» الذين يحيلون إلى مرحلة سابقة مشتركة- على فرض إنها وجدت يوما، و الذين ينفصلون انفصالا عميقا عن الآخرين بسبب التحضر فى شكله القروى و المدنى. لقد شكلت صيغة، (ع ر ب) و (ع- ر- ب- أ- أ) و (عرب) الشكل الأول الذى اتخذه العرب الأوائل، و جذع الشعوب المعروفة بأنها سامية غربية، و هى تشترك فى نمط العيش و اللغة و ربما الدين. و بعد ذلك انحدر منهم العبرانيون و الفينيقيون و الأراميون و العرب ذاتهم الخ ... بواسطة التمييز التدريجى و عن طريق الهجرات. إن الموطن الأصلى نفسه الذى يقع فى الجنوب الشرقى من الشام أو بين الشام و بلاد الرافدين، لا بد أنه عاش تطورا لغويا، و تفريعا بين عربية الأوائل و بين الأرامية، و هذا مثال متأخر. لكن هذا التطور لم يكن من الوضوح بحيث يدركه الأشوريون و البابليون الذين استمروا فى التعرف عليهم بواسطة نمط عيشهم. حتى إنهم فسحوا هذا المفهوم لكل بدوى حتى لو كان نسبه الجغرافى بعيدا.

لكننا رأينا أنه كان يوجد فى البداية مجموعة لغوية أيضا. لقد وضع المحدثون مميز «العربى الخالص» لأسماء الأعلام، و ذلك بمعنى من الجنوب الغربى، أى يمنى. و من المحتمل جدا أن عربية الأوائل الحديثة التى انحدرت منها لغتنا العربية، قد تميزت فى وقت متأخر عن الجذع المشترك، كما يحتمل أن يكون العرب الأوائل من آخر مرحلة للتطور أو من جاء بعدهم، قد حافظوا على تسمية المجموعة كافة لأنهم تمادوا فى الترحل.

أما فى الموطن الأصلى، فقد بقى مفهوم عرب هو أيضا ينطبق على البدو، من الجماعات اللغوية كافة بدون تمييز. و على هذا تسمى العرب الأوائل لغويا، و قد فقدوا صفتهم البدوية ظاهرا، مثل الثموديين و النبطيين، لا عربا بل بأسماء محددة نوعية. لقد برزت الهوية العربية القائمة على اللغة ضمن المجال الشامى، قبيل ظهور التاريخ الميلادى و تأكدت خلال القرون الثلاثة التالية. و الظاهرة المفارقة أنّ هذا البروز ارتبط بالمدن،

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ١٩١

و الإمارات، و الدول التابعة للثموديين و اللحيانيين قرب العلاء و الحجر، و دول النبطيين قرب الحجر و بصرى و صلخد و البتراء بالخصوص. و النبطيون هم الذين ضبطوا اللغة بواسطة الكتابة.

إن المطابقة بين مفهوم عرب و ترحل لا- يفسر فقط بوجود صلة فى الواقع، بل بواقع و تمثل تاريخيين يضربان بعيدا جدا فى الماضى. و قد تأيدت هذه المخلفات بكون أكثرية العرب المتميزين لغويا سواء أكان ذلك فى شبه الجزيرة أم فى جنوب الشام، تمادوا فى توخى نمط عيش الترحل. و لا- شك أنهم استوعبوا كل أولئك الذين كانوا رحلا مثلهم من بين الأعراق الأخرى، فكان كل مترحل يتعرب لغويا و ينضم إلى الإطار القبلى. و بقيت القبيلة و نمط العيش الرعوى يحتلان الأولوية بالنسبة للمدينة. و كانا يصوغان بشدة الذهنيات و القيم، و كانت المدينة تظهر فى نظر العرب بمثابة الظاهرة المكتسبة الاستثنائية. و هى تفقد الشخص عروبته إذ تخلصه من بداوته. و هى تصنف المجموعة المدنية فى إطار النماذج الخارجية، و تغير من الذهنيات، لكن القيم قليلا ما تتغير عموما إلا ببطء، و تبقى اللغة طول الوقت، ينتابها بعض التغيير. و هذا من شأنه أن يفسر الثنائية البارزة باليمن بين «احمور» و «عرب»، و تواجدهما لا محالة ضمن وحدة قبلية فريدة، هذا فى حال ما إذا لم نقبل بالفارق العرقى الأصلى. و هو أيضا ما يوضح التعارض بين قريش من جهة و مجموع القبائل أو العرب أو بين المهاجرين و الأنصار و الأعراب. تجرى الأمور و كأن المدينة تفرز هوية جديدة، هوية ثمودية و هوية الانباط، و هوية اليمن بأنواعه، و هوية قريش كما هوية «أهل القرى»، و بعد ذلك هوية أهل الكوفة و أهل البصرة. لكن هذه الهوية الجديدة تندمج فى هوية أوسع هى هوية اللغة و الدين و القيم. و هى تزيد اتضاحا كلما اقتربنا من ظهور الإسلام. و من المتناقضات أنها هوية شديدة القوة، فهى من أقوى الهويات التى ظهرت فى التاريخ، و كثيرة الضعف، سريعة التفتت فى آن. و هو أمر يعود إلى أن الواقع الموضوعى لهذه الهوية العربية الواضحة المتأكدة العنيدة، لا- يجد صدى فى شعور مؤكّد بالذات. إن الترحل نمط عيش خصوصيته مفرطة بالنظر للنموذج القروى المدنى للحضارات المستقرة المهيمنة على صعيد التاريخ. و هو ذاته مبدأ ثقافى بالمعنى الأنثروبولوجى خاضع، مكيف بالطبيعة، و غير خاضع للعالم التاريخى، و هو ما يفسر مقاومته و هامشيته الأساسيتين.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۹۲

لقد صنعت المدن الظاهرية التاريخية عند العرب مهما كانت هذه المدن منتساة، قليلة العدد فى خضم عالم البدو. أما الزاد الثقافى، فمصدره المادة البدوية، و هو فى آن مقبول و مرفوض، محمود و ممقوت.

التلاحم بين المدن و القبائل:

يتعارض هذا التصور بشدة مع تصور الحضارات المستقرة، حيث يتبين أيضا فى هذا المقام أن المدن تستمد مادتها البشرية من معشر الفلاحين و لا تقتبس منهم قيمها الثقافية الواعية. تحتفظ المدن باحتكار المجال الثقافى فى حين أن بقاء القبيلة أساسى فى عالم البدو.

و لكن القبيلة تتميز كوحدة ممتلكة لكيان ذاتى، الأمر الذى يفسر عدوانيتها الثقافية. فهى تعمل و كأنها كائن سياسى قائم لا محالة على مبدأ آخر غير مبدأ الدولة. و تفرز فى ذاتها قاعدة للسلطة، و فكرة السلالة فى البيت، و تمييزا اجتماعيا بين الأشراف و الضعفاء. فى القبيلة هناك كهان، و أسياد، و حكام النزاعات، و خطباء و شعراء، و نواة للفروسية، و أخيرا حماية كل أفراد القبيلة من الاغتيال بواسطة مؤسسة الأخذ بالثأر. أما بنية القبيلة من الداخل فهى عبارة عن مجتمع سياسى أى منظم. و هى مهيكلة أيضا تجاه الخارج بقدر ما تسير كوحدة متجانسة، و لا سيما فى الحرب. لعلّ هذا ما يفسر أن بلاد العرب - باستثناء حالة اليمن القديم خاصة- لم تقدر أو لم ترد أن تتحد بصورة عفوية تحت راية مبدأ الدولة، حيث كانت تتركب من أجهزة سياسية تكيفت مع

واقع البيئة. و عبثا جرت محاولات بواسطة بلاد العرب لبسط النظام الملكى. و قد وجب أن يظهر الحدث الإسلامى كظاهرة استثنائية لترتفع بلاد العرب إلى الحياة التاريخية لكن بصورة جعلت المغامرة تتجاوز سريعا جدا إطارها و مصيرها. مع العلم أن الإسلام نتاج الحياة المدنية. و هذا دليل على أن المدينة وحدها و ربما نوعا واحدا من المدينة، كفيل بتصور المصير السياسى الذى يتجاوز آفاق القبيلة. لكن بمساعدة الحدث الدينى و بفضل التلاحم الذى كان قائما عند ظهور الإسلام بين المدينة و القبيلة، أى عالم الحضر و عالم الترحل أو ما شابهه.

لقد كان هذا التلاحم موجودا منذ البداية، لكنه تأكد بواسطة التجارة والدين. لا

يحدونا الشعور إطلاقا أن قبيلة الرحل كانت العدو اللدود للمدينة، عند متابعة سير كل تاريخ العرب فى بلاد العرب و خارجها. فى البتراء و الرها و حمص، حيث تولى العرب أمر مدينة ما، لم يسلكوا سلوك المدمرين بل كانوا منظمين و حاكمين مشيدين، دون قطع الصلة فيما يبدو، بالعالم الخلفى لصحراء الرعاة و المقاتلين. كانت البتراء و تدمر و مدن العرب الأوائل فى الشمال تظهر بمظهر معلمى لمدن حقيقية. و كانت فيما يبدو تعيش عيشة الموانىء المخصصة للقوافل، دون أن تعدل عن الخيار الرعوى. و لم يقض على هذه المدن هجوم ماحق قدم من عالم الرحل، بل قضت عليها نوائب البيئة. و كذلك الأمر عند طبع اليمن بالطابع البدوى. فلم يكن ذلك سببا فى انهيار اليمن بصورة واضحة على الأقل، بل كان السبب فى اضطراب السلطة فعلا، و التحولات الطارئة على المسالك التجارية و انهيار نسق السدود، و الغزوات الأجنبية، غزو الحبشة ثم الفرس. بل خلافا لذلك يسود انطباع عن وجود تعايش انتهى إلى ما يكاد يكون صهرا بين الأحمور و العرب لكن مع الحفاظ على الثنائية القديمة؛ و لنذكر فى هذا الصدد وضع همدان فهو بليغ.

لقد سبق أن نظرنا فى وضع الحيرة و فى النسق المتوازن الذى نجحت فى إقامته، و فى هذا المقام أيضا لم تفقد الحيرة دورها بسبب البدو، بل بسبب قرار اتخذه الملك الساسانى.

وها نحن وصلنا الآن إلى البحث فى وضع مدن الحجاز، مكة و الطائف و يثرب. هنا و فى مكة بالخصوص، بلغ التلاحم مستوى ممتازا. لقد تميز القرشيون من جهة عن البدو المجاورين لهم من حيث الذهنية و نجحوا فى كسب هوية خاصة وضعتهم إلى جانب الآخرين أو فوقهم. لكنهم أنشأوا من جهة أخرى شبكة من الأحلاف مع القبائل، و هى عبارة عن جملة من المصالح التجارية المتبادلة، تأسست بموجب الايلاف، كما أنشأوا روابط دينية بفضل منطقة مؤسسة الحرم، بحيث أنهم كانوا يظهرون بمظهر الممسكين

بزعامة حقة على الأقل فى مستوى غربى بلاد العرب. و من الجائز فتح النقاش فى طبيعة هذه الزعامة و امتدادها فى المجال. تبرر التجارة والدين هذه الزعامة لكن كل شىء مرتبط هنا بتقويمنا لما بلغته التجارة و الديانة من قوة. لم توفق قريش فى أن تحشد ضد الرسول سوى القبائل المتحالفة و المنتسبة إلى منطقتها- كنانة و أهل تهامة و غطفان أيضا لكن الحقيقة أن اشعاعها امتد على بلاد العرب كافة، و كان كافيا بالقدر الذى جعل إسلامها و اعتناقها الإسلام يجرّان جانبا كبيرا من شبه الجزيرة إلى الدخول فى الدين الإسلامى. كل هذه الأمور تعنى أن مكة و محيطها من الرحل، سواء أكان كبيرا أم صغيرا، كانا يعيشان ضمن بنية من المبادلات و التشارك و تقديس هذا المحيط لذاك الدين.

كانت مكة قطعا فى حمى من كل عدوان عربى بفضل وجود الحرم. و لم يكن الأمر كذلك بالنسبة للطائف و يثرب. إن هاتين المدينتين أى الطائف جنوبا و وجهتها اليمن و يثرب شمالا و وجهتها مدن العرب الأوائل الغابرة، تيماء، و دومة و الحجر بعد

ذلك و التى كانت تجاوز سلسلة تجمعات وادى القرى، لم يكن لهما من الحصانة ما كان لمكة. لكن المصادر لا تشير إلا نادرا بخصوصهما، إلى غزو البدو لهما بإصرار منظم. على أن إغراء الغزو كان موجودا و نوعا من الضغط يمارسه عالم الرحل على هاتين المدينتين، فكان على الطائف أن تبنى سورا احتماء من هجمات الرحل المجاورين. و تدرعت يثرب و الواحات المجاورة بالأطم. و قد كانت رغبة غطفان فى الإغارة على المدينة هى التى دفعتها إلى الانضمام إلى قريش ضد الرسول خلال غزوة الخندق. إلا أن عدوانيتها كانت رخوة بالفعل. الواقع أن التلاحمات من كل القبائل التى جرت فى الطائف كما فى يثرب، كانت أقوى من النزاعات. فكما كان الأمر بين قريش و كنانة، بدت ثقيف منتمية إلى تجمع الرحل الكبير الذى قادته هوازن و الذى أمدها بحماية حربية، مع الرضاء بهيبتها الحضارية. لم يكن فى هذا المجال أو فى غيره خضوع رضخت بموجبه للقوة المقاتلة ضمن علاقة خنوع و حماية، كما

سيحدث ذلك فى المستقبل بأماكن أخرى، ضمن العلاقات القائمة بين الرحل و الحضر.

و هكذا كانت المدينة قادرة على الدفاع عن نفسها فعلا. إذ كانت تختزن العدوانية القبلية، و كانت تحتفظ لحدثذ بالخصال القتالية، متفوقة على الآخرين بفضل دبلوماسيتها و اشعاعها الاقتصادى، فكانت تسحر الألباب بقدرتها على التنظيم. أما القبيلة، فلم توفق أبدا فى مواصلة الجهد الحربى الطويل النفس. فكانت عدوانيتها تتجه بالأحرى إلى قبائل أخرى، الأمر الذى نتج عنه التلاحم بالمدينة التى تفصلها عنها مسافة الاحترام. إنه احترام يعود دون شك إلى زمن بعيد، إلى التقليد الموروث عن تاريخ الشرق كافة، الذى فرض المدينة كمركز للسلطة و القدسية و الحضارة من بابل إلى اليمن. و هو الذى كان يغذى عند القبائل شعورا بالنقص و مطلب التلاحم على الرغم من قوتها الحربية. حتى و لو أن يثرب لم يمكنها الادعاء بأية هيبة ناتجة عن التجارة والدين، فقد كانت تساندها قدرتها على المبادلات المغتذية من زراعتها، و على هذا فقد كانت تؤكد هى أيضا ضرورة وجودها تجاه عالم الرحل المحيط بها. فنجم عن ذلك ارتباط عدة جموع بها، كجهينة و مزينة بصلات الحلف الشاملة أو الشخصية. و لذا سوف ينتقل التلاحم فى بداية ظهور الإسلام كما انتقلت الصلة الممتازة بين قريش و كنانة. و سوف تبرز عند قيام الخطط الأولى بالكوفة و البصرة (أهل العالية). كان للروح التعاقدية من عميق الرسوخ فى حياة الحجاز فى العصر الجاهلى و ربما فى بلاد العرب كلها، ما جعلها تفرض وجودها حتى على الفارق الدينى و العرقى، كما تشهد بذلك عرى الولاء الشديدة المفعول، التى كانت تربط اليهود بالأنصار.

الحقيقة أن الحجاز كان بعيدا من مناطق القبائل الكبرى الراعية للإبل فى وسط بلاد العرب و شرقها، مثل تميم و أسد و طى و بكر. أمّا القبائل الشديدة المراس بالحرب المقيمة فى الشام- جذام و بلى و كلب- فكانت تعيش تابعة للغساسنة أو للدولة البيزنطية، و كانت متجذرة فى عالم آخر. على أن تميما كانت تشرف على شعائر الحج فكانت مسؤولة عن

حماية الأسواق حول مكة و فى الحرم نفسه، و لعلها انتسبت إلى الحمس عن طريق بعض عشائرها. و بما أن كلبا كانت متحالفة مع تميم، فقد انضمت إلى سلسلة التحالفات القرشية الخاصة بالتجارة الكبرى و يبدو جيدا أن خثعما وطيا وحدهما لم تعترفا بقدسية الحرم فى شبه الجزيرة، باستثناء اليمن الذى بقى عالما منفردا. و هكذا كانت علائق التبادل و التحالف و الحماية بين قريش و عالم الرحل، تمتد إلى ما وراء الحجاز ذاته. لم تكن العلائق القائمة بين المدن و القبائل علائق قوة و لا حتى هيمنة، بالمعنى الواسع. لكن فيما يخص الحيرة ربما كان لقبائل الرحل شعور بالسيطرة كما يرى كيستر. لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لمكة حيث يمكن فى رأيى الحديث عن نفوذ أدبى على أقصى تقدير. لكن هذا النفوذ الأدبى عرف كيف يستند إلى

قدرة عسكرية قابلة للحشد. و عند قدوم وقت القتال- و هو أمر استجد بالنسبة لشبه الجزيرة تأييدا للرسول أو ضده فى البداية، ثم لفرض نظام الدولة على بلاد العرب كلها- فإن العنف المنظم كان مصدره المدن، لا كإفراز عفوى، بل بمفعول إرادة عليّة. لقد استندت القوة الضاربة للرسول نفسه إلى التلاحم القائم بين العالم القبلى و النواة الحضرية، و كما وقع فى الماضى القريب زمن التلاحم بخصوص الحيرة و الغساسنة.

و هكذا تحافظ المدينة على قدرتها التنظيمية المحركة لمادة الرحل و تؤسس هذه القدرة على الوحدة الواقعية و الكامنة لعالم بلاد العرب؛ إنها وحدة موضوعية قامت على اللغة و القيم والدين- دين العرب. و هى الوحدة التى وقع الإصرار على التكتل بها و لو بصورة غير كاملة، غير التلاحم القائم بين المدن و القبائل.

إنّما لا يجب أن ينسينا هذا التلاحم الانفصام الأساسى لنمط العيش، حيث أن المدينة تظهرل فى آن كمكسب للإنسان، و كناقل للعالم الخارجى التاريخى. و الأمر الجديد أن هذا الانفصال كان الشعور به فى الماضى البعيد بمثابة التعارض الذى لا يمكن التغلب عليه، و أنه جرى التخفيف منه خلال فترة ما قبل ظهور الإسلام مباشرة، بفضل المدن الجديدة بالحجاز.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۹۷

و هذه ظاهرة مهمة جديرة بالعناية. لقد برزت هذه المدن من الداخل. و هى ترجمة عن عالم بلاد العرب الداخلى. و ذلك خلافا لمدن العرب الأوائل فى الخارج، و للمدينة الحدودية الخاضعة للأجنبى مثل الحيرة، و خلافا أيضا لمدن اليمن القديمة- شبوة و تمنع و مأرب و ظفار و حتى نجران - التى تلقحت بلقاح حضارة أخرى مغايرة تماما، و التى عرفت كيف تسمو بتميزها تجاه العرب البدو. لكن يحتمل أن وضع صنعاء لم يكن على ذلك النحو، و هى مدينة أخرى جديدة فى اليمن الذى تم تعريبه منذئذ أو كان بصدد التعريب العميق، مدينة تأكد دورها بقدوم الأحباش و الفرس خاصة، و قد كانت موطنا لهمدان.

مفهوم المدينة و واقعها فى بلاد العرب

حتى و لو قبلنا بتعايش المدينة مع شكل معين من الترحل، فى المدن النبطية و الثموديه، فإن مفهوم المدينة يفترض مسبقا التحضر. لكن التحضر فى حد ذاته لا يفرز تلقائيا المدينة، مع أن الإقامة و الاستقرار ضمن سياق بلاد العرب المترحلة، خارج اليمن، ينزع إلى التحول إلى تجمع مدنى أو شبه مدنى. و لذا، فالقول بأن التحضر فى بلاد العرب خلال العصر الجاهلى كان متفوقا على الترحل كما فعل دونّر

Donner

و أن الواقع المدنى بقى هزيلا يعادل التصريح بما هو تناقض كبير. الواقع أنه لا شك قط أن عدد الرحل كان يتجاوز الحضريين، حتى لو أخذنا اليمن فى الحساب، كما يتبين ذلك من بنية الجيوش العربية الغازية. و الواقع من الوهم التفكير، انطلاقا من تجربة لشام مع العرب الأوائل، بأن بلاد العرب كانت متمدّنة أولا ثم غمرتها بعد قليل موجة «البدونة». الواقع إذا

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۹۸

تمتعت الظاهرة المدنية بأقدمية محترمة فى بلاد العرب بأنواعها، و لا سيما فى القطبين القصيين نعنى الشام و اليمن، فإنها تعود فى جملتها إلى القرن الخامس قبل الميلاد، إلا أنها ظاهرة ثانوية بالنظر للترحل. و هو يظهر على كل بمثابة بروز متأخر بالنظر لكبريات حضارات الشرق و البحر المتوسط التى كانت تحد عالمه. هذا و أن الترحل نفسه لا يمكن وصفه بالمقابل المطلق لحياة الاستقرار و المدينة، لأنه استكمل نظامه بمرور الزمان و لأن القبائل كانت متموضعة موطّنة.

بعد رفع هذا اللبس يعود بنا السؤال إلى الإشكال نفسه دائما: إلى أى حد كانت مدن بلاد العرب مدنا حقيقية؟ ما هى مقومات

تحديد التمدن عند العرب؟ ما هو حضور المدينة و وزنها فى الوجود التاريخى العربى؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة يتضمن وجوبا بعدى المكان و الزمان، أى أن يؤخذ بعين الاعتبار تحديد المواضع كما فى مختلف العصور التاريخية. لقد عرف عالم بلاد العرب من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرنين الثالث و الرابع بعده، عرف تمدنا ممتازا بقطبيه الشمالى و الجنوبى، أى الشام و اليمن، تتخللهما بالوسط بلاد العرب الصحراوية. لقد عاش وسط بلاد العرب من القرن الرابع إلى القرن السادس، نموا شاملا بالمعنى الواسع، و تهيكل و نظّم قدراته البشرية، و حدد لنفسه لغة وثقافة و هوية و أفرز مدنا خاصة به فيما كانت مدن الشمال و الجنوب تندثر أو تترك مكانها لنوع آخر من المدن حيث حدثت انهيارات و كذلك تحولات و تنقلات و إنشاءات. كانت هناك فى المرحلة الأولى مأرب و صرواح و قرنو (تعرف اليوم بمعين) و نشان (تعرف اليوم بالسوداء) و تمنع و ظفار و شبوه جنوبا، و تيماء و ديدان و بصرى و البتراء و تدمر و الحجر شمالا. أما فى المرحلة الثانية فهناك مكة و الطائف و يثرب و الفاو و القطيف، لكن أيضا صنعاء و نجران و عدن،

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۱۹۹

و كذلك الجابية و الحيرة. لقد وافق التطور التاريخى، إلى حد بعيد، انتقال مراكز الثقل إلى مجال مغاير ثقافيا، لكن المناطق الحضارية العربية القديمة كانت تحافظ على حضور ما و هيبة ما. و لا يسع أى إنسان أن يقول إن مكة كانت تتفوق على الحيرة أو صنعاء، حين شرع النبى فى نشر رسالته، فمن وجهة نظر صرف للحضارة المدنية، كان هناك تفوق واضح للحيرة. على أن مكة تقمصت مبادىء الجدة و القوة التاريخية و الروحية، و كانت تساهم فى حركية دفينة و تختزن سرا عظمة مصيرها.

إن هذه المجالات المختلفة، و هذه الزمنية المتنوعة لا تطمس إطلاقا الوحدة و لا الاستمرارية. لقد تأثر اليمن بالشام، إذ كانت علائقه التجارية بالشام عميقة مستمرة و قد استمد من العالم الشامى و بلاد ما بين النهرين تصوراته المدنية و الحضارية، و لوّنها بعبقريته الخاصة. و كانت القوافل تعبر بلاد العرب على كامل امتدادها، لربط الصلة بأقصى قطبين لها، متجاوزة منطقتها الصحراوية، و محافظة على معنى تضامنها أو على واقعه بالأحرى. لقد ربّى اليمن نفسه و أدمج فى حضارته المدنية كثيرا من العرب الرحل و أعادهم إلى الشام حين بدأت تظهر بوادر التقهقر. و قد اعتمد الغساسنة و مناذرة الحيرة النموذج اليمنى الأصلى لتشييد شكل عربى من المدينة- الدولة. و يظهر خيط الاستمرار بصورة أكثر دقة فى كل ما بثه اليمنيون جنوبا و الثموديون و النبطيون و اللحيانيون شمالا، فى وسط بلاد العرب، من تصورات ثقافية و على رأسها شكل التمدن و فكرته، و الحس التجارى و حتى الآلهة، و فى بعض الأحيان بمسافة زمنية تقدر بالألف سنة. إن وحدة عالم بلاد العرب من حيث المكان و الزمان، تظهر فى ذلك النزوع إلى عدم قبول التيارات الحضارية إلا عبر رشح ذوى القربى مهما كانوا بعيدين مكانيا. أما فى التقليد التاريخى فإن المرجع ينصب على مجال الدول و المدن و الحضارة فى قطبى الشام العربى و اليمن. و جاء فى الحديث أن بعضا من أبناء سبأ، معتبرا كجدّ، قد «تشاءموا» و غيرهم قد «تيامنوا»،

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۰۰

و بظهور الإسلام، دخل اليمن فى الدين بصورة طبيعية. و هكذا يظهر البعد القومى- الثقافى للإسلام ظهورا قويا. و كذلك الأمر بالنسبة لاستعداد اليمنيين و العرب الدائرين فى فلك الشام، أى ورثة الحضارة المدنية، للدخول فى المشروع الدينى و التاريخى للأقرباء الذين كانوا سابقا رحّلا وسط بلاد العرب، و للتعايش مع أبناء القبائل الكبرى الضاعنة سالفا و التى أصبحت ممدنة، و ذلك فى الكوفة و البصرة و الشام. و هذا دليل على الاستعداد الاستثنائى للوحدة فى عالم بلاد العرب قاطبة عند ظهور الإسلام، حيث نضج هذا التأهل خلال ألف سنة من التاريخ. لكن ذلك يعنى على صعيد التجربة المدنية، أن العرب أصبحوا يتبادلون التدرّب بحيث يمكن الحديث بالنسبة لهذه الألفية، عن تجربة عربية للمدينة، على الرغم من التجزيئات المكانية و الزمنية. إن

التدفقات الحضارية الخارجية جرى استيعابها فى الشام، ثم انتقلت إلى اليمن، و من اليمن إلى الشام رجوعا، و منهما معا إلى الحجاز. لكن و فضلا عن ذلك، و على الرغم من هذا التضامن الذى التحمت به المناطق المختلفة لبلاد العرب، فإنه يمكن و يجب الحديث عن تجارب نوعية، لأن المدينة تعبير عن التربة، و عن تقليد خفى، و عن إرث ثقافى إقليمى محلى و هى الصورة المحلّية للرؤية الكونية و التجربة التاريخية و السياسية و الاجتماعية. إن العلاقة بالخارج لا تمر عبر رشح الثقافة الشقيقة فحسب، لكن أيضا بواسطة الاقتباس المباشر، كما هى حال اليمن فى علاقته بالهلينية. و ما يكون فى المقام الأخير ليس دائما تراكما لماض طويل، لوجود جانب كبير من الحذف و الخلق و التكيف مع الواقع المكانى و الزمنى. و فى الجملة، فإذا كان لا يمكن تصور مكة بدون هذا الماضى فهى ليست تتويجا أو تراكما. لقد تطورت مدن الحجاز ارتباطا بالانهيار اليمنى، و ارتباطا بالموت البطىء أو العنيف الذى نزل على المدن العربية القوافلية بحواشى الشام، و كان لها أن تقتبس الكثير من هنا و هناك. لكنها بقيت أساسا نتيجة للعالم الخاص بها، عالم وسط بلاد العرب، و الحجاز بصورة أدق.

إن أقدم المصطلحات العربية تعبّر عن مفهوم المدينة بكلمة قرية، لا بكلمة مدينة أو مصر. و كلمة قرية يعبر عنها فى الفينيقية بقرت، و فى العبرية بقيرات، و بالسريانية بQere ?، و يقابلها باليمنية كلمة قريبة جدا من العربية و هى قرية و قد استعملها القرآن مرارا فى المفرد و المثنى و الجمع دلالة إما على المدينة عامة، و إمّا على مدينة معينة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٠١

مثل مكة و الطائف و سدوم و نينوى أىّ مدينة أخرى كبيرة أو صغيرة. أما فى أقدم الروايات التاريخية العربية فقد حافظت هذه الكلمة على هذا المعنى: فالقرية هى المدينة، و أهل القرى هم سكان المدن و لا سيما مكة و يثرب و الطائف و يقابل القارى بالبادى.

و حتى نعت قروى كان يعنى مدنيا فى الأصل.

أما كلمة مدينة، فقد وردت فى القرآن بصيغة مدائن فى الجمع و استعملت مفردا دلالة على يثرب، و قد وردت أيضا اسما للجنس. و ينبغى ترقب القرن الثانى لكى تعود إلى السطح التسمية فى عبارة مدينة السلام، و نهاية القرن الثانى و بداية القرن الثالث، لكى يبرز بوضوح مفهوم المدينة، فى بغداد كما فى الكوفة، بصفتها تمييزا للمركز المدنى الأصلى المحاط بسور عن الأرباض، و عن الامتدادات خارج السور. و باستقراء معاجم الفصحى التى دوّنت الأصول القديمة، نجد أن كلمة مدينة لا تطابق قطعا تصور المدينة الحديث، بل لها مفهوم «الحصن الذى يبنى فى أصطمة الأرض». و هى كلمة تشمل أيضا الأرض نفسها. و رأيى أن كلمة مدينة ربّما تعنى حصنا أو بصورة أدق المدينة- الحصن، و كذلك فهى مدينة بها حصن أو بناءات محصنة. كانت تلك صفة المدينة المستديرة، و كذلك وضع يثرب المدرعة فى داخلها بالأطم. و لم يكن الوضع كذلك بالطائف و هى «قرية» و عرفت بهذا النعت، لكنها أحيطت بسور. و لذا فإن قرية و مدينة لم تتميزا من حيث الحجم، بل بالوظيفة و نمط التمدن؛ فللمدينة اتجاه دفاعى، و هذه هى نوعيتها و دورها، خلافا للقرية التى تجسم الخيار المدنى المعتاد، و لا سيما الخيار المدنى و التجارى و الدينى و خيار التجمع البشرى الكثيف. و هنا تكمن مفارقة نظرا لقلب الدلالة فى الكلمتين، مع أن كلمة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٠٢

«مدينة» ارتبطت دائما بفكرة المركزية و الدفاع. لقد سمحت تجربة العرب الفاتحين فى العراق بأن يكتشفوا مفهوم القرية كتجمّع ريفى حيث تطور معنى كلمة قرية من مفهوم المدينة إلى مفهوم القرية، و يحتمل أن يكون ذلك قد وقع منذ القرن الأول. هذا و أن الحجاج نفسه الذى وصف باللغة البدوية العتيقة الصميمة بأنه كان أفصح «قروى» بمعنى مدنى، لأنه كان ينتسب إلى الطائف أو لأنه أقام فى مصرى الكوفة و البصرة، روى عنه أنه خاطب الأعلاج المهاجرين إلى الأمصار عندما طردهم منها قائلا: «من كان

له أصل فی قریة فلیخرج إلیها». المقصود فی هذا المقام بالذات قری السواد، و قد عرّفت بهذا المعنی فی مصنّفات الفقه و الروایات التاریخیة التی ظهرت فی القرن الأول. و قد اکتست هذه الکلمة صبغة تعمیمیة بدایة من القرن الثالث. و علی هذا فإنّ مصطلح مصر المستمد بالذات من التجربة التی مرت بها أمصار العراق، أصبح یدل علی المدینة و لا سیما المدینة الکبیرة التی کانت تدرک کوحدة شاملة، فی حین أن کلمة «مدینة» حافظت علی معنی تحدیدی. فما هو السر فی هذا الانزلاق فی الدلالة من معنی قریة- مدینة إلی معنی قریة- بلدة؟ هل ینبغی اعتبار ذلک بمثابة تأثیر للغة الأرامیة التی کانت شائعة بالعراق فی ذلک العصر و الشرق کافة، أم أن الأمر یتعلق بما هو أشد عمقا؟ هل فکر العرب أن أبعاد مدنهم الموجودة فی العصر الجاهلی کانت تعادل أبعاد قری البلدان المفتوحة، و أن تصورهم للمجال المدنی قد تضخم. و أخیرا أن تجربتهم المدنیة فی شبه الجزیرة أصبحت لاغیة؟ لیس ذلک بأمر مستحیل إذا ما فکرنا فی ما کان علیه التمصیر فی المدینة العربیة الجاهلیة من ضعف.

کانت یثرب رکاما من القری- الواحات، و کانت الطائف متشبعة بالزراعة الجبلیة، و حتی مکة نفسها کانت تمارس الرعی. لکنه مع هذا کان لهذه المنشآت خاصیات مدنیة واضحة من جهة أخری. فضلا عن أن الیمن عاش التمییز بین المدینة و القریة التی کانت تسمی بیتا. و لکن کان لتسمیة بیت دلالة مخالفة تماما فی شمال بلاد العرب، إذ کانت ترمز إلی

الخیمة المقدسة سواء أکانت متنقلة أم ثابتة، أو کانت تعنی المعبد المقدس کما فی الکعبة أو الأسرة خاصة الحاکمة بمعناها الواسع. لکن هذه الدلالة لا یمکن اعتبارها دلّا علی واقع القریة الجدید، نظرا للتفوق الساحق الذی کان لتصورات شمال بلاد العرب. الواقع أن العرب فی القرن الأول قد أسقطوا مفهوم القریة علی عالم العجم. مع استنقاصهم له، و استعانوا بمصطلحات مغایرة تماما هی المصر فی العراق، و الفسطاط فی مصر، و القیروان فی أفریقیة، للدلالة علی التجمعات العربیة المحضة خارج بلاد العرب، التی کانت تعبر عن واقع جدید بالنسبة لما کان عندهم، و لما وجدوه، و بالنظر لبنی تصوراتهم. و کانوا یتمسکون فی کل مرة بلبس بین الاسم النکرة و الاسم العلم، کما هو الأمر بالنسبة للمدینة. الحقیقة أن القرآن بقی الوثیقة العربیة الأولیة الوحیدة التی تمکنت من الارتفاع إلی مستوی المفهوم و التعمیم فی جمیع الأمور، لیس بالنظر للواقع المدنی فحسب. کان القرآن یعمم دائما الخصوصی، و هذا ما یکسبه قیمة و تأثیرا دائما کنص مقدس کونی الاتجاه: فهو یسمو عن الملموس بکل علیائه. و لم یکن الأمر کذلک بالنسبة للفکر العربی العادی فی العصر الجاهلی الذی کان خاضعا للخصوصی.

ینبغی أن یضاف إلی ذلک دون شک بروز أمرین مستجدّین بخصوص ظاهرة المدینة فی فترة الفتوحات، یتمثلان فی الاتجاه العسکری الواسع المدی و ادماج الرحّل. لقد کانت المدینة لحد ذلک العصر فی نظر العرب، زراعیة و تجاریة و دینیة و مدنیة بالتالی، حتی و لو کانت قاعدة للدولة فی الیمن. و المحتمل أنّ یثرب لما کسبت هذا النهج الهجومی کان ذلک مدعاة لأن تسمی ب «المدینة». و کانت من جهة أخری المدینة بالمفهوم الحدیث فی الجاهلیة تواجه بقوة عالم الرحل، رغم التلاحمات، أی عالم العرب أو الأعراب کما جاء فی القرآن نفسه الذی میز فی آیة واحدة أهل المدینة و الأعراب. و قد انفتحت المدینة «للعرب» بعملیة الفتح، إلی درجة أن الأمصار صممت لصالحهم أساسا، و هذا ما یفسر ازدواجیة المعنی و صعوبة الاحتفاظ بکلمة «قریة» التی امتزجت مدة طویلة فی الماضی بانفصام وجب التغلب علیه.

المیراث المدنی

تری، ما الذی انتقل إلی الکوفة من التجارب المدنیة المتعددة التی جرت فی بلاد العرب؟ یجب التذکیر هنا بأن الصفوة الحاکمة کانت من الحجاز الذی توفر لدیه التقلید

الأحدث و الأشد حيوية أيضا، و المنفتح فوق ذلك انفتاحا واسعا على مؤثرات الشام. و كان اليمنيون كثيرين بالكوفة. حقا لقد انقرضت حضارتهم، لكنها خلّفت آثارا واضحة، فضلا عن المدن الحديثة التطور كصنعاء و نجران. و أخيرا، عرف البدو أنفسهم أشكالا من التجمع مثل المحلّة التى لا يستبعد أن تكون قد انتقلت إلى المحيط المدنى. و قد تبيّن أن المصادر كانت تفضل مؤثرات الحيرة و فارس عندما تتصدى لشرح التمصير المدنى النابع بصفة إرادية من النخبة الحاكمة. و سوف ننظر فى ما اقتبسه اليمنيون بوضوح من تراثهم مثلا- فيما يتعلق بالجبّانات. لكن عندما نعتبر الطابع الشديد الذى طبع به العرب كل المجالات الحضارة العربية الإسلامية، لا يسعنا إلا البحث عنه فى الكوفة الناشئة، دون أن نقدر على قياس مداه مسبقا.

اليمن

كان اليمن القديم قد عرف هندسة معمارية متطورة بصورة ممتازة و قد قيل إنها برزت تامة الصفات، مكتملة منذ البداية. فكانت السدود و الأسوار و المعابد بحجرها الجميل المربع منتشرة على الجانب الشرقى المتجه إلى الصحراء، فى آن فى مأرب و معين و صرواح و شبوة. كان بالمعبد الكبير (معبد اشتر) فى معين مدخل فخم بأعمدة رفيعة زواياها مربعة (القرن الثالث قبل الميلاد). و كان بمعبد صرواح شكل مستطيل للسور و أبراج كبيرة فى الزوايا. و قد وصفت الدار اليمنية بأنها كانت تتركب من دكة قوية بنيت بالحجر، قد أقيم عليها بناية من عدة طوابق، متركبة من هيكل له روافد من خشب قد عبىء باللّبن.

و هى تتميز من الدار التى ظهرت شمال بلاد العرب و التى كانت واطئة و ممتدة و منفتحة على الداخل. و قد وردت إشارات فى خصوص الكوفة إلى مساكن بنيت مرتفعة، و إلى أن المسجد و القصر كانا يستندان إلى أبراج كبيرة عند الزوايا. لا نزاع فى أن الشغف بالبناء كان موجودا فى اليمن القديم، شغف الخلق و التشييد الذى لم يكن ليفقد تماما، حتى لو ارتبط برمزية السلطة القائمة على التملك، و لم يفقد هذا الشغف باليمن ذاته فى الفترة الحديثة من تاريخه حيث يشهد مساكن جميلة مرتفعة من اللبن. و من باب أولى فقد استمر ذلك

فى صنعاء خلال الفترة التى سبقت الإسلام مباشرة.

كانت صنعاء مدينة قائمة بذاتها آنذاك و كانت عاصمة «للأبناء» و لهمدان و أنصارهم أو حلفائهم. كانت صنعاء مبنية بالحجر أصلا. و لها حصن عظيم هو غمدان الذى هدمه الفاتحون المسلمون. و قد ورد ذكر جبّانتها و بيعتها و أسواقها و قصورها (هل كانت قصورا بالمعنى المعهود الآن أم حصونا؟) و كذا رحبتها. لقد أنشأها السبئيون فى البداية عندما كانوا على قاب قوسين من الأفول. لكن لا شك أنها احتفظت بما يمكن الاحتفاظ به من الطموح التمدنى و المعمارى لليمن القديم، و أن هذا الإرث انتقل إلى الكوفة، الإرث الذى اقتبس الحجاز قسطا منه فيما بعد. و زيادة على اقتباس الجبّانات لا شك فى أن دور طبقة الأشراف قد استوعبت النموذج اليمنى مع أن اليمن قلّد فى العصر الإسلامى الكلاسيكى النموذج العراقى المتكامل بعملية مد حضارى يستند إلى فكرة الوحدة الثقافية المنبثقة عن المركز أى دار الخلافة، كما حصل فى صنعاء باستبدال الحجر بالآجر المطبوخ و الجبس. بداية من أى تاريخ قامت دور الأشراف بهذا الاسترجاع الحضارى؟ منذ عصر زياد و ما تلاه و على الأرجح فى زمن الجيل الثانى من المهاجرين، حين بدأت ترتسم استعادة الهوية اليمنية، تلك الهوية التى اصطبغت بالطابع الخرافى و التى ضوعفت بميل جديد إلى الطلاوة. و بينما رمت العاطفة اليمنية المشوبة بالشعور النّضاح بالعز بقواها، خلال النصف الثانى من القرن الأول فى النزاعات السياسية التى نشبت فى الشام بالقيام ضد قيس و التى كانت السلطة الأموية تحركها، فقد اندفعت هذه العاطفة بالكوفة

فی المشروع الشیعی الناشیء، کما أنها عبّرت عن ذاتها فی الأعماق و بصفة خجولة من خلال وعی حضاری مواجه للجفاء البدوی، جفاء تمیم و أسد. و هکذا عاد الإنشقاق القدیم إلی السطح بقوة.

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۲۰۶

مکة

کانت مکة «أم القری» و یعنی ذلک حرفیا أم المدن. و قد سمیت یثرب کذلک «أم القری» الملتصقة بها. و یدل هذا المفهوم علی المرکزیة و التفوق. من الممکن أن تکون مکة قد مثلت نواة لتجمع تجاورت فیه البلدات و الأرباض و المنشآت المستقرة المحیطة المرتبطة بالمعابد. و من الممکن أیضا أن عبارة «أم القری» ترمز إلی التفوق علی مدن غربی بلاد العرب و تدل علی فکرة المرکز الذی یتجه إلیه الجمیع.

هناک عدة خاصیات ترسم فورا شخصیة مکة. فهی حرم أو بالأحری تقع فی حرم.

و هی مقر للکعبة. و تتم شعائر الحج المقدس حولها لا بداخلها و هی الشعائر التی یجب تفریقها عن العبادة المخصصة للبیت المکّی الصرف و المرکّز علی الکعبة. هذا اتجاه دینی ممیز مهم و مؤثر، و لا شک أنه یسبق البقیة و یسیطر علیها، أی الإقامة المدنیة و النشاط التجاری. و الملاحظ أن مکة بصفتها مدینة، أنشئت حقا أو تشکلت مع بروز دور القرشیین و بفضل ما قام به قصیّ من عمل، و هو شخصیة تقع بین الأسطورة و الواقع التاریخی. إن قریشا بصفتها مجموعة بشریة شدیدة التماسک، و کشخص جماعی- لا یقال بنو قریش أبدا- تمثل روح هذه المدینة. فإذا کان الحرم المکان المقدس الواسع- ۶۰ کیلومترا فی ۲۰ کیلومترا فی أقصی امتداد له- هو الذی یسیطر علی المجموع و یحیط به، فإن مکة بالذات تمثل مجالا مدنیا ماديا متمیزا، مع بیتها الخاص بها أی الکعبة. و قد منحت قریش لمکة الشخصیة المعنویة، فجعلت منها مدینة بالمعنی المؤسسی، ذات هویة متمیزة بقوة فائقة.

لقد کتبت أبحاث مفیدة جدا منذ عشرین سنة عن مفهوم الحرم و المقصود به أرض

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۲۰۷

مقدسة محرمة ینتفی عنها العنف إزاء کل ما هو حی فهو أرض سلام مهیأة لاستقبال القبائل للحج و الأسواق، سلام ینقذ مکة من کل عداء حربی. إن الحرم مؤسسة لبلاد العرب بقیت حیة حتی عصر الرسول، و هو لیس مکیا فحسب: فقد جعل الرسول نفسه من یثرب حرما کما أن مسیلمة متنبیء بنی حنیفة «ضرب حرما بالیمامة». إنها مؤسسة مرتبطة بدین الوثنیة فی أعمق مظاهرها، و فعالیتها واضحة فی بروز المدن و حمایتها و نموها طالما هی تبعدها بالذات عن العنف. إنما للحرم المکی وضع ممتاز لأنه متجذر فی الزمن الغابر، وزاده قداسة إجماع کاد یشمل الناس کافة فی بلاد العرب، و قد فخّم قدسیته عنصران متمیّزان تمثلا فی الحج و البیت.

کانت مکة حقا المدینة العربیة بالمعنی الممتاز، و هی مهد الوثنیة و الإسلام علی السواء و نواة النخبة المقبلة. لکنها کانت أیضا المدینة الاستثنائیة التی لا تدانی، و قد جعل منها التاریخ المدون اللاحق المتأخر، نموذجا إلهیا یعود إلی الزمن الکونی. حتی أننا نجد شخصا مثل سیف، و هو الإخباری المتقدم الذی یصف الکوفة فی نشأتها فیقول فی هذا الصّدد: «و کذلک کانت المساجد ما خلا المسجد الحرام، فکانوا لا یشبّهون به المساجد تعظیما لحرمته».

هذا و ما من شک فی أن اللاشعور الجماعی للنخبة الحاکمة الإسلامیة الأولی قد استبطن البنی و الأشکال و کل ما حدث قدیما سواء فی ذلک من تجربتها المکیة أو من مقامها فیما بعد بالمدینة. صحیح أن القرشیین کانوا قلة بالکوفة ذاتها لکن المؤسس

سعد بن أبی وقاص کان نفسه قرشیا مکی الأصل مهاجرا إلی المدینة کما کان عمر، المدبر الرئیس لتخطیط الکوفة حسب ما ورد فی الروایات. فماذا عسی أن ینعکس من ذلک علی الکوفة؟ لقد ورد مثلا أن صحن الکوفة حدّد برمی السهام و نحن هنا نلحظ أن فی حیاة قریش الجماعیة المشحونة بالمقدسات کثیرا ما کان یعتمد علی القداح، و هو رمی شعائری للسهام و إذا کان القرآن نهی عن ذلک من وجهة المقصد الدینی، فقد استمرّ الفعل کحرکة مجرّدة بصفته تقنیة لتحدید المجال و قیاسه. و لا بد أیضا من التفکیر فی أن المجال المرکزی ذاته، قد حدّد بهذه

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۲۰۸

الصیغة و منع تسلل القبائل. و هو الآخر مجال عمومی دینی قد یکون اقتبس هذه الصفة من الحرم و المسجد الحرام فی آن.

لقد طرح عمل التحریم الجاهلی قبل کل شیء کعمل لتحدید الأرض و النهی عن العنف. صحیح أنه نزع المظهر القدسی عن الکوفة و کان الصحن مجالا متقلّصا، و لم یکن واسعا محیطا کما کان الحرم فی العصر الجاهلی، لکن الحرکة الأولیة بقیت محافظة علی صفائها و المسجد الأصلی بصفته مجالا مرکزیا غیر محاط یسترجع معا الانفتاح و مرکزیة المسجد الحرام المکی.

أما بخصوص مجال السکن، فلا بد من التذکیر بما لفکرة الاختطاط ذاتها من أهمیة. و یبدو أنها مسعی شرع فیه قصیّ بمکة و هو الجد الممدّن، و قد استکمل ذلک أبناؤه. إنه مسعی إرادی للتصمیم و الإنشاء و توزیع و تنظیم للمجال الذی قسم إلی أرباع هی أرباع مکة، و هو المسعی الذی نجده بالکوفة کعمل یبدو و کأنه شیء معهود مأنوس. و لا بد أن الدار أی المسکن الخاص قد اقتبست فی وقت ما، کما قلنا، شیئا من النموذج الیمنی المطبوع بالترف و المبنی فی اتجاه الارتفاع. لکن من الأرجح أن الدار الأکثر شیوعا و انتشارا فی الکوفة، کانت فی البدایة و فی أکثر الأحوال، نسخة عن المثال الموجود فی شمال بلاد العرب بمکة، و هو مجال مربع مفتوح فی وسطه، ینفتح علی حجرات و هو المثال الموجود بالطائف، و الذی نجده علی شکل أوسع و کحصن فی أطم یثرب، و هو یتّصل فوق هذا بأقدم نموذج للدار ببلاد الرافدین.

الطائف

کانت الدور بالطائف أیضا مسطحة حسب یاقوت، بینما یصفها لا مانس بأنها بیوت مرتفعة دون تقدیم الدلیل، و هو یقابل بین «ضعف المعمار فی مکة» و الحصون السمیکة المتنوعة بالطائف. الواقع أن یمیّز هذه المدینة هو سورها. لکن لعل الطابع المدنی

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۲۰۹

کان أکثر استکمالا و أکثر تطورا بالطائف مما کان علیه بمکة. فضلا عن أن الطائف تمیزت من مکة بزراعتها الجبلیة الغنیة، الأمر الذی حمل قریشا علی جعلها تدور فی فلکها إلی حدّ ما.

و من المعلوم أن زیادا کان من ثقیف. و أنه من أکبر المشیدین فی البصرة و الکوفة.

و هذا لا یعنی إطلاقا أنه استوحی ذلک من مدینته الأصلیة، لکن لعله احتفظ منها بهذا المیل إلی التمدن یضاف إلیه تجربته فی فارس. و لنضف: إذا اعتمدت الطائف، خلافا لمکة، علی الزراعة، فقد کانت تمارس أیضا التجارة و الربا، و علاقتها فی ذلک وثیقة بقریش، و کانت تساهم فی الأسواق مساهمة نشیطة. و الطائف مدینة دینیة أیضا و مقر لعبادة اللات، قد کانت أدمجت فی نسق الحمس المکی لکن لا یبدو أنها کانت حرما لأن الرسول هو الذی منحها هذه الدرجة فی العهد الذی أعطاه لأهل الطائف، و لأنها إذا اتخذت سورا فلکی تعد أسباب الدفاع المادیة عن کیانها لانعدام الحرمة عنها بالذات.

المدینة:

كانت «المدينة» واحة متنوعة المساكن منتشرتها. و مصدر اسم يثرب يرجع إلى النواة المدمجة التى امتدت إلى المجموع كافة و ارتدت بعد ذلك إلى مجرد مكان معروف. و لم يكن المظهر المدنى بارزا قبل مجيء الرسول، و يبدو جيدا أن دوره

التمدينى كان حاسما. فحيثما استقرّ فى أرض خلاء خواء برز المركز و صار فيما بعد «المدينة» ذاتها خصوصا بالمعنى الحديث. و كان اليعقوبى صريحا فى هذه النقطة حيث بيّن أن الرسول جمع حوله «الناس» الذين كانوا قبل ذلك «متفرّقين». فأصبحت المساكن متلاصقة بحيث أصبح ذلك مدينة أى مكانا يتّسم بتلاصق الأبنية و بكثافة السكن، و مفهوم «الناس» هنا يعنى المهاجرين أولا و بالذات. إلا أنا نجد أيضا عناصر من الأنصار تطوعوا للانتقال تقربا من الرسول و كانت النقطة المحورية لهذا المركز الجديد، المسجد و داره الخاصة و قد تشكل منهما مركّب متلاصق هو مكان التجمع الدائم و المقر الدينى و قلب السلطة كلما زادت بروزا و نموا، حتى أصبح المركز روح هذا التجمع البشرى الذى كان مائعا فى السابق. لقد حدد هذا المركّب بالخصوص نموذجا لكل الحضارة الإسلامية.

إنه نموذج المسجد أولا، الذى سيخطط طبق المثال النبوى مع بعض التغييرات، لكن المهم أيضا بالنسبة للكوفة أنه سيلعب دورا نموذجيا للتجاور بين مقر الحكم (الذى عرف بدار الإمارة بعد ذلك) و المسجد، أى مكان العبادة و تجمع المؤمنين. و الملاحظ أن الأمر يتعلق بوحدتين مكانيتين متميزتين لكنهما متلاصقتان، و بوظيفتين مختلفتين لكنهما متصلتان اتصالا عميقا، إنما الصّلة فى عصر الرسول كانت أشد قوة. و أما فى الكوفة و البصرة و دمشق، فقد صار التمييز بين القصر و المسجد أكثر وضوحا. لقد استقر مركز الحكم فى عهد الرسول بالمسجد ذاته و كانت الدار متوجهة إلى الحياة الخاصة للنبى بينما كان الحكم بالكوفة يمارس أيضا فى المسجد، لكن بصفة أهم فى القصر حيث تتجمع الأموال و القوى. و هكذا تواجد بالكوفة العامل السياسى و الدينى فى نوع من جدلية التواصل و الانفصال فى حين أن الوحدة كانت تامة زمن الرسول، مع تفوق المسجد على الدار. و على كل فإن التسلسل من «المدينة» إلى الكوفة يظهر بوضوح كبير، و يبدو هكذا أن الاستناد إلى عصر الإنشاء «بالمدينة» أكثر بلاغة و قطعا أكثر وضوحا، من الاستشهاد بالمثال البابلى- الجديد الذى يبرز بصفة خاصة فى التحصينات و فى الشعور بالقوة و الرفعة، و ليس أبدا فى عنصر التصور الأساسى.

و على هذا، لا يندرج تأثير «المدينة» فى المدينة الإسلامية خارج بلاد العرب و بالتالى فى

الكوفة، إلا اندراجا قليلا فى خط يثرب الجاهلية، التى كانت عبارة عن سلسلة من الواحات المبعثرة. بل يندرج أساسا فى عمل الرسول ذاته، المؤسس لدلالات حاسمة و لأعمق رمزية للمدينة المسلمة التى جعل منها هيكلا إسلاميا مؤسّساتيا لا مدينة فحسب، بل مدينة بالمعنى السياسى.(Politeia)

و إتماما لهذا التصور، يحسن بنا الإشارة إلى أن أسواق «المدينة» التى نقلها الرسول و نظمها، كانت هى النموذج لأسواق الكوفة، و ليس الأسواق المحيطة بمكة التى كانت بمثابة معارض. و يصعب فى هذا المقام تقييم العمل التجديدى الذى قام به الرسول: فلعل نقل سوق بنى قينقاع قد جرى فى اتجاه المركزية، لكن الأرجح هو وجود عزيمة تنظيمية ستبقى فيما بعد، و قد ظهرت فى مأسسة سوق يثرب القديم. و الملاحظ أيضا وجود تعددية الأسواق بيثرب و هى ظاهرة ستبقى فى أية مدينة إسلامية، و وجود تقليد واضح لعله تأتىّ من الحضور اليهودى بخصوص ظاهرة السوق المدنية كمؤسسة دائمة تغذى الحياة الإنسانية اليومية. صحيح أنه وجدت سوق داخل مكة، لكن الأمر الأهم هو قيام السوق- المعرض خارج مكة و التى لها دور كبير فى اقتصاد القوافل العابرة لبلاد العرب. و الذى لا يقبل الشك أن الرسول فرّق بوضوح بين التجارة و الصلاة أى بين السوق و المعبد قاطعا

بذلك مع تقليد الشرق كله. فضلا عن أن الإسلام مدّن السوق العربية بأن أقامها فى قلب المدينة ذاتها، مع العلم أن السوق المحيطة بالمدينة الجاهلية قد بقيت، كما سنرى، بالكناسة فى الكوفة و بالمربد فى البصرة.

و هكذا نرى كيف أن الحضارة العربية التى شكلت المدينة فيها المحور المشع، تدين للإرث العربى الخاص الذى توفرت فيه التقاليد المدنية و التراكيب المتينة المقاومة، مثلما تدين للعمل الخلاق الذى قام به الرسول. هذا العمل النبوى الذى استمد بدوره كثيرا من ثقافته الحيوية، ثقافة قريش أولا، و كذلك ثقافة كل الجهات فى بلاد العرب. إن القرآن نفسه يشكل الذاكرة الرائعة للأمة العربية. إذ استرد الماضى كله، ماضى سبأ و ماضى الحجر لكنه تجاوزه برؤية كونية و إلهية لتاريخ البشرية.

و هكذا ندرك ظهور إرادة عنيدة فى الوجود و جهدا يتجه إلى الحضارة و تيارا توحيديا،

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۱۲

من العرب الأوائل إلى اليمنيين، و من اليمنيين إلى عرب الجاهلية. صحيح أن هذا العالم مثله مثل العالم اليهودى من قبل، كان هامشيا بالنظر لمراكز القوة فى الشرق، و ربما أضفى لذلك حرمانه على السماء، فصعّد هذه القوة الشرقية ليضعها بعد ذلك بين يدى اللّه. ثم أعادها إلى الأرض لكى يعيد صوغ مدينته الأرضية انطلاقا من تلك السماء و ذلك فى الأماكن نفسها، غير البعيدة من بابل و آشور و المدائن، حيث امتدّ طويلا و دام كبرياء الامبراطورية.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۱۳

الباب الخامس التمدن و الاستقرار. الذروة التاريخية ۵۰- ۸۰ ه/ ۶۷۰- ۷۰۰

اشارة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۱۴

اكتسبت الكوفة وجهها الحقيقى فى العصر الأموى، وجه المدينة التى تشكلت بشكل ورثته عن أول بادرة للتخطيط. هذا و لم تتسرب إلا أشياء قليلة جدا من العصر السابق الذى دام عشرين سنة بعد موت عمر. المعلوم أن الضغط الديمغرافى قد استفحل أمره و أن المدينة- المعسكر عاشت فترة من الغليان و الاضطراب، فشاركت مشاركة نشيطة فى مقتل عثمان و فى معركتين عظيمتين هما وقعة الجمل و وقعة صفين. لكن لا شىء أو تقريبا لا شىء يمكن استشفافه فى المستوى المدنى.

و خلافا لذلك، فقد تشكل القصر و الجامع بشكلهما النهائى، خلال ولاية المغيرة و إمارة زياد. هذا أمر ثابت بالنسبة للقصر بحيث إن إعادة بنائه خلال العصر العباسى لم تكن فى واقع الأمر سوى عملية تجميلية أو ترميمية. و قد أكد علم الآثار الأمر، مميزا بالخصوص فترتين فى خلال العصر الأموى، بحيث يبدو أن الكوفة قد تطورت على مرحلتين متواليتين قبل سنة ۱۰۰ و بعدها. كما يمكن أن نتساءل عما إذا كان القرن الطويل الممتد من سنة ۴۰ ه. إلى ۱۵۵ من الهجرة- و هو تاريخ إقامة الخندق و الحزام -

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۱۵

لم يشكل وحدة زمنية كبيرة لأن الأجهزة الأساسية لم تتغير و لأن المناخ الحضارى نفسه كان يحيط بالمدينة. لكن أدخل العباسيون الأوائل تغييرات جزئية كثيرة تبرر لا محالة الانفصام الذى أكده علم الآثار بالنسبة للقصر، على الرغم من استحالة تقديم تاريخ دقيق يحدد بداية الطور العباسى.

أصبحت الكوفة بعد هذه التغييرات، مجموعة مدن أميرية تحيط بحاضرة مدنية مركزية كبرى: مدينة ابن هبيرة، و الهاشمية شرقا،

و الرصافة إلى الجنوب الغربى، و الكوفة الحقيقية بالمركز، فى حين أن الكوفة بقيت وحدة مدنية إلى نهاية العصر الأموى.

و من المعلوم أن أوائل المؤرخين الذين تحدثوا عن الكوفة، ألفوا كتبهم فى العصر العباسى، سواء كان سيف أو أبو مخنف، أو اليعقوبى و البلاذرى بعد ذلك. و قد داخلتنا الحيرة مما كتبه المؤلفان الأولان إذ كانا مخضرمين عاشا العصرين، و اعتمدا أحيانا التغييرات الطارئة على الطوبوغرافيا و ذكرا ذلك، و شعورنا مع ذلك أنهما يصفان الكوفة العباسية بعد أن اقتصرا على زيادة بعض الاحتياطات حتى يكون الأمر مقبولا.

يبقى الموضوع صعبا إلى أقصى حد لو رمنا التوفيق بين ما ذكرته هذه المصادر الأربعة الرئيسة، نعنى سيفا و التخطيط الأولى الذى عرضه علينا، و أبا مخنف الذى يرسم إطارا

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۱۶

طوبوغرافيا ثريا و غامضا فى آن، يصف من خلاله ثورة المختار (۶۶- ۶۷/ ۶۸۵- ۶۸۶)، و ثورة زيد بن على، إضافة إلى البلاذرى فى فتوح البلدان، و اليعقوبى فى كتاب البلدان الذى مزج بين القديم و الحديث، و خلط بين الأخبار التاريخية و الملاحظات المقتضبة. أما مخطط ماسينيون، فإنه يورد أصلا رواية أبى مخنف بخصوص المختار، متيحا بذلك اقتفاء أثره عبر الثنايا التى مر بها، و دامجا أيضا عناصر اقتبسها من اليعقوبى، و هو يخلط بين العصر الأموى و العصر العباسى. فضلا عن أنه لم يأخذ بعين الاعتبار التصور الأولى الذى وضعه سيف، فالتبس عليه موضوع التعريف بالقبائل، كما غابت فى مخططه أسماء السكك و الشوارع، و تحددت مواقع الجبّانات تحديدا تقريبيا، لم يبعد كثيرا عن المعقول. الحقيقة أن ضبط تخطيط دقيق للكوفة على خارطة نعتبره من الوجهة العملية أمرا مستحيلا، أى الكوفة فى العصر الأموى، لغموض المعلومات الواردة فى المصادر. على أن محاولة ماسينيون تبقى صالحة نسبيا و مفيدة. يمكن أن نحاول استكمالها و تصحيحها أيضا دون أى أمل فى الوصول إلى وضع رسم ناجز نهائى يقترب و لو قليلا من المخطط النهائى الواضح.

لقد تم كل شىء و كأن الروايات استخدمت مجموعة من العلامات المكانيّة التى هى القصر و الجامع و السبخة و الفرات و الكناسة و الجبّانات الرئيسة، لاستعراض الجو الحضرى و بث الحياة فى المدينة و إعادة إحيائها، أكثر مما كانت لتوجيهنا أو إرشادنا. فإما أن يكون أبو مخنف قد ألف لأناس كانوا على معرفة جيدة بالكوفة، فأغفل لذلك عدة أمور، و إما أنه كان يضلّل القارىء. فوزع فى نصوصه علامات طوبوغرافية على طريقة القصّاص- حتى يضفى مصداقية أكبر على ما يكتب. و شعورنا أن هذه العلامات نفسها كانت تتكرر دون تغيير، فى كنف الغموض دائما، و استمر الأمر قرنا و نصف القرن- منذ ثورة المختار إلى ثورة ابن طباطبا (۱۹۹- ۲۰۰/ ۸۱۵- ۸۱۶). فترتب عن ذلك توفّر قائمة لا يستهان بها من أسماء المكان- ذكر ماسينيون ۱۲۵ إسما - و تمكيننا من استكشاف و وصف الوظائف

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۱۷

الخاصة بالأجهزة الرئيسة فى المدينة، و تخيّل الجو الذى كان سائدا فيها، لكن ليس تحديد مخطط محكم مفيد. و مع هذا فقد كانت هذه المدينة تطفح بالحياة فى الماضى، و هو ما يحثنا على إعادة بنائها دارا دارا و سكة سكة، على مستوى الفكر متحدّين الزمان و مستبدلين بعلم الآثار الميدانى علم الآثار المستمد من التآليف المروية. هذا و يتكون ميداننا مثل ميدان الواقع من شظايا ممزّقة و علينا الاقتناع بالقليل.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۱۸

- ۱۵- المجهود المعمارى فى عهد زياد ۵۰- ۵۳ ه/ ۶۷۰- ۶۷۳

بناء القصر و المسجد

كشف علم الآثار عن العصر الأموى الأول الذى بدأ فى أمارة زياد، و قد تضافرت المصادر الأدبية للتأكيد على الجهود التى بذلها فى مجال التمصير و التنظيم. إنما حين نتمعن فى تاريخ الطبرى بين سنة ۴۵ و ۵۳/ ۶۶۵- ۶۷۳، لا نجد أبدا أثرا لتشييد مسجد البصرة و الكوفة، و لا- حتى أثرا لبناء القصر. لكن نجد فيه كل ما يساعد على إدراك ذلك، بمعنى أن هناك مسعى لتأكيد السلطة و هيبة الدولة. و هنا ينبغى اعتماد كتاب فتوح البلدان للبلاذرى، و الروايات القديمة التى ذكرها سيف و المتعلقة بالكوفة فى بداية أمرها، و ياقوت، حيث أشارت هذه المصادر جميعا إلى ما يتعلق بالمسجد، مهملة القصر بصفة واضحة. حتى بخصوص الجامع، فقد دار الحديث عن إدخال تحسينات بزيادة الأعمدة و نشر الحصى فى الصحن، و التوسيع فيه، أكثر ممّا دار الحديث عن البناء الصلب، و نستثنى من ذلك إشارة قيمة وردت عند البلاذرى: «ثم إن المغيرة بن شعبة وسّعه و بناه زياد فأحكمه و بنى دار الامارة». و لم يذكر الطبرى شيئا بخصوص القصر، و لم يقل ياقوت شيئا أيضا. و باستثناء الخبر العابر الذى جاء ذكره عند البلاذرى، فقد أيّد السياق التاريخى كله خبر إعادة بناء زياد مركّب القصر و المسجد بصفة شاملة. لقد وسع زياد بالفعل مسجد

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۱۹

البصرة توسيعا عظيما فبناه بالآجر و الجبس، و غطى السقف بالخشب الثمين. و بعد أن نقل موضع القصر من الدهناء إلى أن جعله ملاصقا للمسجد، بناه كذلك بناء صلبا لكن باللبن فقط. و لا يتحدث أى خبر موثوق به عن إعادة بناء قصر أو مسجد الكوفة بعد زياد، و استمر الوضع كذلك حتى نهاية العصر الأموى. روى البراقى دون غيره أخبارا متأخرة و أكّد أن عبد الملك هدم القصر فى سنة ۷۱ ه. (مما يثبت أنّ القصر كان موجودا)، و بنى قصرا آخر مكانه و اعتمد فى قوله على الدياربكرى، و على سبط ابن الجوزى.

تعرض الطبرى و البلاذرى مطولا لمقام عبد الملك فى الكوفة، و لم يذكرا و لو كلمة عن هذا الهدم الذى لا يصدق. و تؤيد الأمور الرأى القائل إن مسجد الكوفة و قصرها سواء بسواء كانا من عمل زياد، و قد اتصفا بمظهر معمارى متكامل حين شاهدهما الناس فى القرن الثانى الهجرى (سيف مثلا)، إلى أن بقيا فى عصر متأخر على تلك الحال، باستثناء القصر الذى تم ترميمه فى العصر العباسى. و الغريب أن ابن بطوطة قدم وصفا لقاعة الصلاة بمسجد الكوفة قريبة بصفة ملفتة للنظر مما قاله سيف بن عمر فتحدث عن سقف مرتفع يقوم مباشرة على الأعمدة. و على هذا الأساس يجب التنويه بعمل زياد، الذى اكتسى مظهرا مكتملا و عظيما، و هذه ظاهرة ممتازة و لا سيما أنها وجدت فى عصر الإسلام المبكّر.

مسجد زياد

على الرغم من اقتضاب قول البلاذرى، فقد تضمن عناصر أساسية تخص عمل زياد هى التوسيع و بناء حجرة الصلاة، و رفع السقف على أعمدة عالية، و أرض مغطاة بالحصى المعير، و تشييد المقصورة. و هكذا، فقد تميّز مسجد الكوفة بالخاصيات الرئيسة المعروفة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۲۰

فى المسجد الإسلامى و اعتبر مع مسجد البصرة نموذجا له.

ذكرنا أن سيفا كان يقول بوجود مسجد مبنى فى ولاية سعد و منذ البداية، كانت سقوفه ذات فسيفساء بيزنطية، و محمولة على

أعمدة من رخام انتزعت من أحد القصور الساسانية. فماذا فعل زياد؟ قيل إنه أعاد بناء المسجد بأعمدة وردت من الأهواز- «تنقر ثم تثقب ثم تحشى بالرصاص و سفافيد الحديد» - و قيل إنه أضاف له الأروقة. و جملة القول إن الأمر تعلق هنا بتحسينات أدخلت فى مخطط سعد، بأن تمّ رفع السقف، و استبدل بالخليط المقتبس شكلا هندسيا مبتكرا متصورا. فلم توجد فى كل حال أقواس بل سقف مرتفع جدا تحمله أعمدة من حجر مغطاة بتيجان على شكل ورق الأقنثة لكنها فارسية الطابع، و بفضلها تم رفع السقف. و بعد مدة، تعجب ابن جبير من ذلك، متحدثا عن خمسة أبلطة موازية للقبلة و بلاطين فى كل جناح من الأجنحة الجانبية. لا- فائدة من الدخول فى نقاش أثاره كرسويل بشأن منطلق مثل هذا التصور للمكان. لا شك قطعا أن التأثير الفارسى موجود و هو يتمثل فى نحت الأعمدة العالية و هى خاصية فارسية أصيلة و أيضا الزيادة فى ارتفاع السقوف (مثلا- الإيوان بالمدائن). لكن ينبغى التأكد من الصلة بين العنصرين فى المعمار الساسانى قبل الاعلان عن وجود تسلسل ما، يعود إلى «الابدانا».

و إلّا وقعنا مجدّدا فى حضريّة سطحية و تحكميّة فى آن.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۲۱

كان المسجد مربع الشكل تقريبا، لأن الحفريات الأثرية المتعلقة بأسسه حددت ۱۱۰ من الأمتار لحائط القبلة، و ۱۰۹ من الأمتار للشمال، و ۱۱۶ مترا للضلع الغربى و الشرقى.

كان المسجد محصنا مسورا، و كانت أبراج نصف دائرية تتخلل الحزام، و قد تمكن فى بعض الأوقات من استقبال كل المقاتلة أى حوالى ۶۰،۰۰۰ شخص. و من المفروغ منه أن الفتحات التى تصورها كرسويل، و ناقش فى عددها الجنابى معتبرا مع ذلك أنها موجودة فعلا، و هى ۵ شمالا و ۴ جنوبا و ۳ شرقا و غربا، كانت تقوم على فرضية خاطئة تماثل بين الصحن المرسوم برمية السهم منذ التخطيط الأول، و بين مساحة المسجد، و هى لا تطابق الواقع فى شىء. و يمكن إحصاء ثلاثة أبواب فى المسجد على أقل تقدير، هى باب الفيل شمالا، و باب كندة جنوبا أو غربا، و باب آخر يربط بين القصر و حجرة الصلاة، و هو ما أثبته التنقيب، و لعله باب السدّة الذى تحدث عنه البراقى بالاعتماد على مصادر الشيعة.

و قد ذكر أيضا باب الأنماط الذى يفتح على السوق أى من جهة الشرق. و بذلك تكون أربعة أبواب على الأقل منها ثلاثة للعموم. و يحيط الشك بخصوص باب كندة الذى يكتب أحيانا بصيغة الجمع (أبواب كندة) و بذلك نستبعد ما ذكره كرسويل من فتحات كما نستبعد الفتحات الثمانى التى ذكرها أحمد فكرى و اقتبسها عنه الجنابى.

و من المحتمل أن يكون المسجد الحالى موجودا على أرض المسجد القديم. إن مظهره المحصن المهيب يوحى بصورة المسجد الذى كان قائما فى القرن الأول، إذا ما نظرنا إليه من الخارج فقط. الواقع أنه مسجد متأخر أعيد بناؤه بواسطة مواد مأخوذة من القصر. و الرأى السائد أن مستوى المسجد القديم ربما كان يطابق آثار «السفينة» الموجودة تحت الأرض، على عمق عدة أمتار من المستوى الحالى. و بذلك لعل المسجد القديم، على الأقل مسجد العصر العباسى، مدفون تحت المربع الحالى الذى يشغله المسجد إلا أن مكانته الدينية ربما تحول دون التنقيب الأثرى المنسق كما حصل فى القصر.

قصر زياد

كشفت التنقيبات عن ثلاثة مستويات: مستوى أول مطابق للعصر الأول (دار سعد؟) عمق أسسه ۹۰ سنتمترا على أرض عراء، و مستوى ثان من العصر الأموى و هو الأهم، و أخيرا المستوى العباسى الذى لم يكن سوى ترميم للقصر الأموى. و بذلك فما

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۲۲

تبقى من القصر يطابق القصر الأموى أصلا، أى ما أنجزه زياد. قام زياد بعمل جليل عظيم شمل عناصر ثلاثة هى الحزام الخارجى و الجدار الداخلى و عدة بنايات. لا يقل قياس الحزام الخارجى عن ۲۰، ۱۶۸ مترا، للضلع الشمالى الجنوبى، و ۶۸، ۱۶۹ مترا للضلع الشرقى الغربى. كان بناء من آجر، و لم يتجاوز سمكه ۴ أمتار، و قد أحيط ب ۲۳ برجا، علما أن عبيد اللّه بن زياد تحصن فيه مع الأشراف، و أن المختار واجه فيه الحصار. كان حزاما تحصنت وراءه السلطة. فقام بدور رئيسى لصد الانتفاضات. و هناك خصائص مماثلة فى الحزام الداخلى منها شكله المربع و متانة بنائه و قدرته على الصمود. لقد أثبت قصر الكوفة ذاته كحصن منيع، فى حين أن قصر البصرة و تمّ تخريبه و هدمه بسرعة ثم أهمله الولاة، مع أنه لم يكن موجودا فى بداية الأمر أو يكاد، و زياد نفسه هو الذى بناه من لبن، فما سبب ذلك؟ لقد تطابقت هذه الأسوار المتجبرة و مصير الكوفة، مجهضة بدون تردد كل الثورات، و أصبحت بمثابة الشخص المركزى فى تاريخ مدينة الكوفة.

و فى حين أن القصر الأول- قصر سعد- تشكل من وحدة واحدة، انتشر القصر الأموى كمجموعة مركّبة و هو يشتمل على عدة وحدات و بكلام أدق ثلاث مجموعات طولية يشكل مستطيلها المركزى نواة معلمية، و لم نقدر إلا على الجزم بأن المادة التى أعيد استخدامها تنتمى إلى العصر الأموى الأول. و حتى فى هذا المستوى، لا يمكننا حسم الشىء الذى يعود إلى العصر الأول و الشىء الذى يستند إلى العصر الثانى. لكن فى مقدورنا تكوين فكرة دقيقة نسبيا عما كان عليه القصر الأموى. يتميّز هذا القصر فى الوقت نفسه بانسجام هيئته- و لا سيما فى المركز- و بما كان له من مظهر هو عبارة عن متاهة ملتوية. نجد حجرات كبرى للاستقبال (أبهاء) و إيوانات ألحقت بها أجنحة، و دورا، و غرفا مربعة للسكن، و غرفا طولية و معابر، و مداخل، تشكل معظم هيكليته المعمارية. و تستقطب الانتباه القاعة الكبرى بالمركز، و كذلك صفوف الأعمدة التى تتصل بها و تنفتح على حجرة مقببة. إنها لتشابهات عجيبة تلك التى تظهر بين إيوان القصر، ما هو موجود بالاخيضر، بين الفرع الجنوبى و قصر المشتى. و يسود الرأى أن أسلوب الحيرة هو الذى احتل المرتبة الأولى، فى حين أن بعض العناصر من العصر العباسى الأول مثل الترصيف العمودى

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۲۳

للآجر، لعله يعود إلى الزمان الغابر (العصر الأكادى و القسى). و من جهة أخرى نجد الزخرف العباسى شبيها بما وجد فى قصر الحير الغربى، و المشتى و المفجر - و هو زخرف الدهن بالألوان المائية و النحوت، ذو الإتجاه الطبيعى و الحيوانى- فى حين أن ما تبقى من الزخرف الأموى يتجه إلى مزيد من التجريد و الهندسة، فاحتفظ بالخطوط الأساسية لتطور الزخرف الإسلامى الذى جد فيما بعد. و لا يكتسب ذلك أى تناقض فى واقع الحال، فقد جرت الأمور و كأن العصر العباسى الأول أشع بكل ما ورد عليه من مؤثرات عديدة. فاتجه الزخرف إلى التمثيل الطبيعى و أتى دور الحذف و الندم و العودة فيما بعد إلى البساطة الأولى.

غير أننا لم نطلع كثيرا على الزخرف الأموى الذى امحى. و مع ذلك علينا أن نفترض وجود أعمال مرسومة، و مواضيع حيوانية و بشرية.

على الرغم من جهلنا مختلف التحويرات التى قام بها الولاة الأمويون فى القصر، و التى وجدنا منها بعض أصداء باهتة فى المصادر المكتوبة، فالمؤكد أن ما عمله زياد بالكوفة يمثل تحولا كبيرا فى تشكيل المدينة و فى المعمار الإسلامى معا. لم يكن القصر حصنا و حسب، بل كان قصرا كبيرا واسعا حيث تظهر أبهة السلطة. و فى هذا المجال يدعم علم الآثار ما تصدره المصادر من أحكام تقريظية. فمن اللازم أن نتصور صحونه المربعة الكبيرة و أبهاءه و ايواناته و كواته المعمدة التى تنفتح على منظر صفّى الرواق المركزى. و علينا تخيل زخرف جدرانه و ملاطاته و أنواع زينته. كما لنا أن نتخيل الخلية البشرية الكبرى التى كانت تعمر البنايات الملحقة به. إن المظهر الجمالى موجود و نحن نشعر به ونتوقعه و هو الذى أوحى به علم الآثار.

– ۱۶– التمدّن و التنظيم

اشارة

الأمر المؤكد أن زيادا أعطى الكوفة نواة معمارية لكننا لا نكاد نعلم شيئا عن عمله فيما يتعلق بالطوبوغرافيا المدنية خاصة، و المرجح أن الكوفة بدأت تشكل مركزا مدنيا حقيقيا ابتداء من المغيرة و زياد. و كانت النواة المعمارية عنصرا يدفع بالكيان المدنى إلى الأمام، و يطبعه بنموذجه المعمارى و الزخرفى. و قد أشار البلاذرى من جهة أخرى إلى أن العمال غمروا المركز العمومى ببناءاتهم الخاصة مضيقين بذلك من رقعة الأماكن الشاغرة، و قد جرى ذلك فى بداية العصر المذكور و بمبادرة من عمرو بن حريث- الذى تولى الكوفة نيابة عن زياد. و اتخذ زياد آخر الأمر مقررات مهمة فيما يتعلق بمراجعة التنظيم العسكرى و الإدارى للمصر. و اعتنى ذلك التنظيم بإعادة تجميع الوحدات القبلية. و ليس مستبعدا أنه كان لتلك المقررات تأثير على طوبوغرافية الخطط. تمثل عمل زياد، و بصفة عامة ما جدّ خلال العشرين سنة التى قضاها معاوية فى الخلافة (۴۱- ۶۰)، فى تحديد أسس الترتيب العام، و إشاعة الاستقرار و إدخال التحويرات الضرورية أكثر مما تمثل فى اتخاذ قرارات واضحة و أعمال معينة كتلك التى اهتمت بإعادة بناء القصر و المسجد و تلك التى نسبت بعد ذلك إلى خالد القسرى (۱۰۵- ۱۲۰ ه) بخصوص بناء الأسواق بناء منظما. و قد تحقق التحول الطارىء على الكوفة بين سنة ۵۰ و ۱۰۰ أو ۱۲۰ ه، فكان تحولا صامتا بصفة عامة، و قد تميز بمراحل بارزة منها ولاية زياد تحديدا، و لا ريب أن الأمر كان كذلك فى ولاية الحجاج و القسرى. و من المعلوم أن الأمر مؤكد لا مراء فيه بالنسبة للنواة، لكن المرجّح أن الأمر كان كذلك بالنسبة لبقية المدينة.

الطموح المعمارى و الجمالى

كان هذا الطموح موجودا منذ البداية حين افتتن العرب بفخامة المدائن. لكن الحسرة انتابتهم لما غادروها، لأنها كانت غريبة عن عالمهم، و قد نقلوا معهم «مصاريع الأبواب» زيادة عن جملة من التصورات، و تكرر ذكر «الأبواب» كثيرا. و لما شيد سعد قصره المتواضع من قصب أو لبن و هو أمر كثير الترجيح ركب له بابا ضخما من خشب- لعله هو أيضا منقول. فبدا الباب رمزا من رموز عظمة الحكم الجديد، و انفعل لذلك عمر و وجه رسولا لحرق هذا الباب. و قد روى أنه عبّر عن امتعاضه قائلا: «ليس بقصرك و لكنه قصر الخبال». كان عمر يبذل قصارى جهده للحفاظ على البساطة الأولى، و روح الأصالة الكامنة فى الأمة و هويتها الثقافية. هذا و لا يمكن القول إن العرب لم يستجيبوا لهذا الطلب أو أنهم افتتنوا بسهولة بهذه الحضارة المادية الرفيعة. كان نقل الأبواب و احتمال حرق باب القصر بالكوفة، عبارة عن مواقف مؤثرة لو كانت حقيقية. الذى يهمنا هنا أنها تستند إلى الرمزية الشرقية الصرف الموجودة فى الباب. و هناك شواهد على نقل الأبواب و أسكفاتها من مدينة إلى أخرى فى العصر الساسانى، كما توجد شواهد أخرى على أن هناك أسكافات أبواب من آجر كانت تشكل واجهات لمعالم مبنية من لبن، و هو أمر خاص بالحضارة الشرقية الفارسية.

فماذا كان موقف سكان الكوفة بعد أن أدخل زياد الآجر فى بناء المسجد و القصر؟

«بنوا أبواب الآجر فلم يكن بالكوفة أكثر أبواب الآجر من مراد و الخزرج». لا يمكن فهم هذه الإشارة دون اعتماد كامل خلفية

الحضارة الفارسية البابلية التى ذكرنا. و هى تعنى أيضا دخول الآجر إلى البناءات الخاصة منذ ولاية زياد- و لا شك أن الآجر بدأ يظهر فى دور الطبقة الأرستقراطية أول الأمر- لكن بخصوص أسكفات الأبواب و حسب. أما خلف ذلك، فقد استمر القوم فى بناء منازلهم باللبن. و هكذا وقع تخطى المرحلة الأولى، و المفروض أن الأغنياء ما لبثوا أن أعادوا بناء دورهم بالآجر، و زخرفوها بالملاط، و أضافوا

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٢٦

الطوابق و ركبوا النوافذ على هيئة شبابيك. و لا تتوافر لدينا معلومات صريحة بهذا الخصوص إلا ما روى عن عمر، بطريق غير مباشر ... و قد كانت رغبته ألا يقوم سكان الكوفة بالمبالغة فى رفع دورهم و ألا يتجاوزوا ثلاث حجرات فى كل دار. و يعنى ذلك أن الأمر كان معمولا به فعلا لكن فى وقت لاحق كما هو واضح. و نجد فى أقوال ياقوت ما ينير لنا السبيل حيث قال: «فلما كان فى أيام المغيرة بن شعبة بنت القبائل باللبن من غير ارتفاع و لم يكن لهم غرف». ثم تحدث بعد ذلك مباشرة عن بناء الأبواب من آجر فى ولاية زيادة.

و يفيد ذلك أن الدور كانت من لبن فى عصر زياد باستثناء أسكفات الأبواب.

و يعنى ذلك أيضا أنه تمّ الشروع فى رفع البناءات فى وقت ما، و تقسيم الدور إلى حجرات (تجاوز عددها ثلاث غرف فى دور الأغنياء). أما بخصوص الآجر، فلا مجال للقول إن دور الأشراف أدخلت استخدام الآجر على كامل البناية حيث كان الآجر يستخدم حتى ذلك الحين كعنصر لزخرفة الواجهة. و لا يمكن الجزم فى هذا الشأن و فى هذه النقطة بالذات، بل خلافا لذلك، تضافرت كل القرائن على جعل التفكير يتجه إلى القول إن اللبن كان مستخدما فى أكثر الدور خلال العصر الأموى، لأنه كان أمتن مما يظن و قادرا تماما على تحمل الدور الجميلة المرتفعة، كما تشهد بذلك دور اليمن فى الزمن المعاصر.

و قد اتجهت كل هذه التغييرات فى اتجاه تمدّن أكثر أصالة، كان يتمثل فى البحث عن المتانة و الجمالية و الطموح إلى الطابع المعمارى بحيث يرتفع المسكن عن الأرض، و إلى بناء المجال الداخلى، علما أن هذه التحويرات لم تبدأ بالحراك إلا عند شروع زياد فى تنفيذ مرحلة جديدة. و قد أصر زياد على طموحه المعمارى الذى لم يخضع للشاغل السياسى و حسب، بل لإرادة العظمة و البحث عن مظهر جمالى ينمّ عن اتجاه اختيار شخصى جدا، و عن مصير حضارى. و لا شك أن ما سنه قد سرى داخل الكوفة، و لعله أوحى شخصيا بمبادرات من هذا القبيل. كانت السلطة فى عصر عمر و سعد قد خططت تصميم المدينة و أمسكت بزمامه، لكنها بقيت قريبة من أمة الفاتحين. و خلافا لذلك، فقد أكدت تعاليها فى ولاية

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٢٧

زياد و بذلك فمن المفروض أنها استبعدت المحاكاة و أرادت القطيعة و الانفصال، مما أدى إلى إقامة قلعة عظيمة تمثلت فى القصر و ضخامته. و تبدو المفارقة فى كون هذه السلطة المترفعة المتكبرة قد تسببت بمحاكاة معينة و شجعتها بشرط احترام ناموسها. فتكاثرت بذلك القصور فى محيط الكوفة (قصر مقاتل مثلا)، كما تكاثرت دور الأشراف فى قلب الكوفة.

و المعتقد أن فن العمارة الذى ظهر داخل قصر زياد أثر على تصميم الدور، لأن القصر باستثناء قاعات الاستقبال التى كانت تتوسطه و الإيوانات و القباب و الأبهاء، التى تؤكد قوة الحكم بالذات و وظيفته، كان يتركب مما أقيم بأجنحته من دور قسمت إلى حجرات.

و رأيى أن دور الكوفة اقتبست بناءها من دور القصر.

البنايات الخاصة تضيّق على المركز

ورد خبر جلی عند سیف بن عمر ضمن تاریخ الطبری، مفاده کما نعلم أن المساحة المرکزیة التی حددها الخندق کان البناء فیها ممنوعا أثناء خلافة عمر. فلم تتضمن إلا المسجد و القصر المحاطین بساحة واسعة- هی الرحبة- و موضع الأسواق و ما یشبه الاصطبلات فی الهواء الطلق- الآری- و کان هذا المجال شاسعا یغطی ما یناهز ۲۳ هکتارا لکن لم یلبث أن اکتسحته القطائع الخاصة و الخطط الفردیة. فمنذ متی حصل ذلک؟ من عهد الخلیفة عثمان الذی أفاض فی إقطاع بعض الصحابة القطائع العقاریة و أیضا بعض رؤساء القبائل التقلیدیین (طلحة و الأشعث بن قیس و جریر بن عبد اللّه البجلی، الخ ...)، فی قلب السواد أم منذ بدایة ولایة زیاد؟ من المعروف أن الولید بن عقبة والی الکوفة فی خلافة عثمان، کان یملک دارا تقع فی وسط السوق، کانت بمثابة العلامة الأساسیة فی طوبوغرافیا الکوفة. و قد ذهب الأمر بالیعقوبی إلی أن عزا لعمر توزیع الدور علی أهم الصحابة، و لا یمکن قبول هذا القول علی أنه ظاهرة عامة شاملة. علی أنه

یحتمل أن ذلک کان علی سبیل الهبة الاستثنائیة لبعض الصحابة. و قد تضارب فی القول بهذا الخصوص البلاذری و الیعقوبی عندما ذکرا قائمة الدور.

یقول البلاذری: «و بنی فیها عمرو بن حریث المخزومی بناء، و کان زیاد یستخلفه علی الکوفة إذا شخص إلی البصرة ثم بنی العمال فیها فضیقوا رحابها و أفنیتها». کان المقصود بالذات الکوفة عامة لا المرکز بصورة خاصة، و یظهر أن الأمر لم یکن یعدو تملیک الأراضی العراء بصفة متفرقة، و فارق الطرق و الرحاب- الکثیرة کما هو معلوم- التی کانت توسع المجموعة السکنیة. الواقع أن قول البلاذری یکتسی مدلولا آخر بمقارنته و تعلیقه بما ورد فی کتب أخری، سواء کانت روایات أبی مخنف أم قائمة الیعقوبی، و هو یفید فی فهم البقیة.

توجد دار عمرو بن حریث فعلا فی الوسط تماما، غیر بعیدة عن القصر، و من المرجح أنها کانت تقع فی الرحبة. کان ابن حریث من أکبر أغنیاء الکوفة، و کان قرشیا مقربا من السلطة، و کان بالفعل یساعد زیادا ثم ابنه عبید اللّه فلیس مستبعدا أن یصیر قدوة بخصوص البناء فی المرکز. لکن ما ینبغی التدلیل علیه أنه کان أول من فعل ذلک، و أن الولید بن عقبة الذی کان والیا فی خلافة عثمان، لم ینتزع هذا الامتیاز قبله، فضلا عن أن الدور التی روی أنها کانت تقع فی المرکز العمومی، قرب المسجد و القصر، أو فی الرحبة و الأسواق، کانت مملوکة لصفوة المسلمین بالمعنی الواسع أکثر مما کانت للعمال أنفسهم.

و بذلک نجد الیعقوبی یتحدث عن دار عبد اللّه بن مسعود و طلحة بن عبید اللّه و عمرو بن حریث «حول المسجد»، و غیر بعید عنه توجد دار سلمان بن ربیعة الباهلی و المسیب بن نجبة و هو أحد قادة حرکة التوابین. و یبدو أن خالد بن عرفطة أحد حلفاء سعد بن أبی وقاص و قد کان من کبار القادة فی فتح العراق کان یملک مع سعد نفسه دارا فی هذا المرکز. هذه عودة إلی الماضی. لکن روی أن دار المختار بن أبی عبید کانت أیضا ملاصقة لحائط المسجد. و یمکن التساؤل بخصوص دار الأشعث بن قیس، لکن الثابت

أن دار حکیم کانت داخل السوق. کما نتساءل عما إذا لم تکن توجد بالساحة العمومیة کل أو أکثر ما ورد بقائمة الثلاثین مسکنا للأشراف و المتمتعة بتسمیة الدار بصفتها اقطاعا شخصیا یقع خارج الخطط؟ و بذلک لا یکون زیاد هو الذی اتجه هذا الاتجاه بل إن عمرا هو الذی شرع فیه بصفة طفیفة و توسع فیه عثمان، ثم علی و زیاد أخیرا. و یکون سمح هذا الوالی (زیاد) باستکمال تضییق المرکز من جهة الشمال و الغرب و الجنوب بالخصوص- حیث کان موضع الأسواق بقی کما هو فی الأکثر-، لکن هذا التضییق لم یعمل أیضا علی ابتلاع الرحبة کلها و هو أمر لا مراء فیه. و نوافق البلاذری حین یقول إنه جری تصدیر

ظاهرة المركز إلى المواضع الخالية فى الخطط. كما نوافق على أن الشكل المعمارى للإقامة الخاصة قد تجسم بشدة فى الجو الذى أشاعه زياد، و لعله تشكل كما تشكل عنصر آخر لا يقل صبغة أساسية عنه، نعنى الحمام الذى سيظهر فى المستقبل. هناك تضييق و تعمير الفراغات، و تكثيف العمران، يضاف إلى نقل بعض القبائل: كل ذلك اكتسى أبعادا مهمة قطعا.

لم يبدأ كل شىء فى ولاية زياد كما تدل على ذلك أسماء المكان علما أنها ترجع إلى أشخاص برزوا فى تاريخ المدينة، سواء كان فى فتراته الخاملة أو التيرة، بداية من خلافة على حتى نهاية ثورة ابن الزبير (٣٧- ٧٣ ه)- أى خلال جيل، و سوف نعود إلى هذه النقطة الهامة. لا مفر من التأكيد على ما قام به زياد من عمل حاسم و سريع إحقاقا للحق، إنما ينبغى إدماجه فى مرحلة تاريخية تميزت بالاستمرار فى البناء الذاتى للمدينة. و لا يمكن أن ننسب قطعا لزياد المناهج الكبرى المفتوحة، كما قيل دون أية حجة. و لذا فإن العمل الكبير الذى قام به زياد بقى مرتبطا أصلا بتشييد المسجد و القصر، و قد تمادى فى حركة تمصير الكوفة فى مجموعها، لصالح الأشراف خاصة، و بذلك يكون قد استمر فى العمل بسياسة عثمان.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٣٠

تحوير الهياكل العسكرية و الإدارية

لا تشغل بالنا الهياكل العسكرية و الإدارية و المالية بصفتها تلك، فى هذا القسم من الدراسة لأنها تتعلق أصلا بالعمران و التنظيم البشرى و السياسى، لكن علينا الإشارة إليها نوعا ما لفهم المظهر الحضرى و الطوبوغرافيا و توزيع القطائع و تطورها، و الظروف التى مكّنت الناس من الاستقرار و العيش. و إذا ما فكرنا من جهة أخرى أن هيكلة المدينة ارتبطت ارتباطا عميقا بالمنشآت القبلية و العشائرية فى شكل قطائع متميزة فى الحزام و خارج المركز، فإننا سنجبر حقا على الرجوع إلى كل ما يتصل بتنظيم الجموع القبلية ضمن دراسة حضرية صرف.

و قد بيّنا كيف وزّعت الخطط فى بداية الأمر- أى منذ حلول سنة ١٧ ه- و لا يمكن تجاهل هذا الإستقرار الأول، حتى لو فرضنا أن تغييرات ناتجة عن تدفق جموع المهاجرين المسترسلة قد طرأت عليه بسرعة كبيرة و تسببت فى مصاعب. كان التنظيم الأول يتضمن منطقيا قوة الجمود، إذ كان دقيقا و ملزما لا محالة، و قد اتضح أن المصادر التاريخية التالية، و منها روايات الثورات التى نقلت عن أبى مخنف، أكدت الأمر إلى حد بعيد. مثلا مر على بمواقع عشائر همدان التى كانت فى الشمال كما قال سيف، و هو فى طريق العودة من الجزيرة و الشام، بعد وقعة صفين، أى من الشمال الغربى؛ و خلال ثورة المختار عبر ابراهيم بن الأشتر المركز للحاق بالمختار و كان الأول مقيما بالنخع فى الجنوب. و المرجح أن الثانى كان يقيم بشمال المسجد: كان وصفا ملحميا و غامضا أيضا عند أبى مخنف ذاك الذى خصّصه لهذه الرحلة عبر المركز. هذه حجة أن النخع كانت تشكل مجموعة معتبرة ضمن قبيلة مذحج، كانت تقيم باستمرار فى الجنوب حسب ما رسمه سيف أول مرة لخارطة القبائل. و هناك أمثلة كثيرة من هذا النوع، على أن التصميم الأول يمكن أيضا ألا يطابق تحركات الجيوش التى تابعها أبو مخنف.

نجد فى هذا الصدد التواء ينبغى تعليله قدر المستطاع و يعنى ذلك أنه يصعب التغاضى عن التصور الشامل الأول، و من المهم تكييفه بصفة أو بأخرى مع روايات أبى مخنف. أما كتاب اليعقوبى، فهو قليل الفائدة بخصوص العصر الأموى إلا أنه يوضح توضيحا مهما التحويرات المتأخرة التى جرت فى العصر العباسى. و لنذكر أن النقص الرئيسى الذى

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٣١

اعترى مخطط ماسينيون مصدره أنه وضع خارطة للكوفة تكون صالحة فى آن للعصر الأموى و العصر العباسى، و قد استمد ماسينيون معلوماته من روايات ثورات الشيعة و أيضا من القائمة المتأخرة التى أعدها اليعقوبى. لقد برع فى إضفاء الصبغة

التركيبية على هذين المصدرين و أسقطهما على خارطته، ثم أراد تجاهل التصور الأول الذى ذكره سيف و الذى يبقى على الرغم من بعض التناقضات التى اعترته، هيكلا و أصلا انطلقت منه التغييرات المقبلة كلها.

يقول ماسينيون إن الأرباع التى أنشأها زياد، تندرج فى مجال المدينة، خلافا للأسباع التى كانت سابقة لها، فتحدث فى هذا الموضع عن «تجمع المناطق العسكرية التى تحولت إلى أحياء، و قد تمّ الأمر فى وقت مبكر جدا فى البصرة، و تمّ فى الكوفة سنة ٥٠ ه».

هذا أمر قابل للنقاش تماما، لكنه يطرح قضية العلاقات أو الترابطات بين الخطط بصفتها فكرة طبوغرافية و إطارا للحياة البشرية من جهة و بين تلك المؤسسات العسكرية الجبائية التى تسمت على التوالى، فى الكوفة، أعشارا و أسباعا و أرباعا، و استمرت تسمى أخماسا فى البصرة من جهة أخرى. و قد تبسّطت القضية فى البصرة لوجود احتمال مؤكد فى المطابقة بين الخطة و القبيلة (أهل العالية و بكر و تميم و الأزد و عبد القيس)، و الخمس و هو مؤسسة للتعبئة العسكرية و توزيع العطاء الذى فرضته السلطة و أشرفت عليه. فيمكن التأكيد فى الجملة أن الوحدة السكنية طابقت وحدة التضامن البشرى المتمثلة فى القبيلة. و بإلقاء نظرة خاطفة على خارطة الاستقرار الأولى المحددة بالاعتماد على معلومات رواها سيف، نتبين فعلا أن الخطط أسندت بصفة عامة إلى قبيلة واحدة أو قبيلتين أحيانا. و بالنظر فى روايات أبى مخنف و الإشارات المتفرقة التى تضمنتها مصادر أخرى يتأكد لدينا أن أراضى الخطط كانت ملكا للقبائل. و كثيرا ما ذكرت طيلة القرن الأول عبارات من نوع «من جهة جهينة» أو «مر بثقيف» و أيضا «دخل دور همدان و كندة» و هلم جرا ... عاد اليعقوبى إلى الماضى فقال إن كل قبيلة استقرت فى خطتها (- اختطت) فى بداية الأمر، برئاسة شيخها و حول جبّانة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٣٢

خاصة بها. كان عدد القبائل و العشائر مهما فى الكوفة منذ البداية: من هنا تنافر الكيان القبلى، الذى تضخم بتدفق الروادف المهاجرين بصورة مستمرة، فأصبحت الكوفة لذلك إسقاطا، على مجال صغير، لبلاد العرب قاطبة. فضلا عن وجود البنية الموروثة عن جيش القادسية و ربما السرعة الكبيرة التى بها تم الاستقرار الأول، و بذلك تشعبت القضية.

كان جيش القادسية مقسما أعشارا بالفعل، بمعنى أنه تجمّع فى عشر وحدات و يرجح أنه اقتبس تنظيمه ذاك من النسق الفارسى الذى اعتمد الفرق العشرية أى عشرة و مائة و ألف. كانت تلك الوحدات تشمل عددا متساويا من المقاتلين فى كل وحدة، فكانت وحدات للتجنيد قبل كل شىء حافظت على الكيانات القبلية. و بما أن أعداد الحشود كانت غير متساوية (۴۰۰۰ من تميم و رباب و ۳۰۰۰ من أسد و ۱۳۰۰ فقط من الازد و بضع مئات من ثقيف)، فقد وجب التجميع بصفة منسجمة بحيث لا ينال القبائل أى تشتت.

إذا كانت الجماعة القبلية كافية فى حد ذاتها، كان يمكن تشكيل العشر و جلب الحشود إليه من ذوى القربى. و لا شك أن نسق الأعشار كان الأساس فى أنساق التجمعات التالية. فهل تدخل هذه الظاهرة ضمن ما رواه سيف عن الاستقرار الأول؟ توزّعت الخطط حسب الجهات الأربع حيث تلاحظ مطابقة الخطة لقبيلة وحيدة فى أكثر الأحوال و كان يتجمع حول القبيلة المهيمنة الأخلاط و هى عشائر من قبائل مختلفة، و توجد أخيرا حالات نادرة بحيث يستقر ثنائى قبلى (بجلة و بجالة، الأنصار و مزينة، تميم و محارب). و يقول المؤلف بصراحة: «و جعل هذه الطرقات من وراء الصحن و نزل فيها الأعشار من أهل الأيام و القوادس». ماذا يقصد بقوله هذا سوى أن الجماعات المقيمة بالخطط كانت تطابق الأعشار، و أنه يمكن التأكيد فى هذه المرحلة الأولية على تطابق المبدأين؟ بل نجدها الفترة الوحيدة التى تطابقت فيها بصورة مجملة الخطة و القبيلة و الإطار العسكرى الإدارى الذى كان يجسمه العشر، و سوف تؤثر نهائيا على مظهر الكوفة. فلا الأسباع الوريثة للأعشار و لا أرباع زياد غيّرت أصلا

مواقع القبائل كما تمّ تحديدها، بمعنى تغيير تنظيم المجال بالكوفة.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۳۳

و بقيت همدان و كندة و ثقيف و بجيلة و مذحج و الأزد و جهينة و تميم و أسد، فى مواقعها الأولى قطعا كما ذكرها سيف و مهما قال ماسينيون.

و بما ان الأعشار- القبائل أقامت، بموجب القرعة، بأماكن قررتها الصدفة، و بما أن الاختلال العددى الواضح بينهما ظهر من وقت مبكر جدا، وجب أن يعاد النظر فى هيكلة التنظيم العسكرى الجبائى و عقلنته: فظهرت الأسباع التى أقامها عمر، و حوّرها على، و التى بقيت حتى ولاية زياد. و لم يكن الأمر متعلقا «بمناطق عسكرية» بل بوحدات لتجنيد المقاتلة بإمرة رؤساء ولّتهم السلطة و بوحدات لتوزيع العطاء الذى يسلّم للقادة جملة، و كانوا يسلّمونه بدورهم إلى العرفاء. الواضح أن الانطلاقة لم تبدأ من المعطيات المكانية، يعنى من توزيع الخطط التى كثيرا ما كانت تتحاور فيها قبائل لا يربط بينها ماض مشترك فى سكنها السابق و كانت متباعدة جدا، فى عملية إنشاء الأسباع. فحصل التجميع، بمقتضى علاقات النسب. كان المقصود من ذلك المحافظة على التلاحم فى التجنيد و القتال و بالتالى فإن السبع لم يحقق جوارا أو أى تقارب مكانى إلا فى بعض الأحيان و فى بعض الأماكن: ربما فى الجبّانات أو خارج الكوفة فى «نقط التجمع» بالنسبة للكوفة. على أن مؤثرات هذا الأمر على جغرافيا الخطط لم تكن فى رأينا منعدمة، و لا- سيما أن القبائل الكبرى قد عملت أحيانا على جذب قبائل صغرى قريبة النسب و ضعيفة العدد، فترجم الانتساب إلى السبع ذاته عن طريق الاندماج فى الخطة مكانيا. و لنذكر على سبيل المثال كندة و حضرموت و همدان و حمير و تميم و هوازن.

كانت الخطة تعنى تضامنا بشريا واعيا حيا يستمر فيه و يدوم الكيان القبلى القديم، و ذلك باعتماد القبيلة فى واقع الأمر، لكن السبع كان تصورا مؤسساتيا حافظ لا محالة على صلات الدم الأكثر اتساعا. و فى عهد زياد أدخل الربع تبسيطات أقوى مما كان للخارطة القبلية لأسباب سياسية، فكان يجاور بين مجموعة قبلية متشاحنة (تميم و همدان و أيضا كندة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۳۴

و أسد مثلا)، نظرا لما كان لها من ماض فى شبه الجزيرة، بل بين عناصر يمكن أن تكون متجاورة أو متباعدة فى الكوفة ذاتها. و لا- تتوافر لدينا أية إشارة فى المصادر إلى انتقال تميم إلى الغرب فى سنة ۳۷ ه كما أكد ذلك ماسينيون بالضبط. كما أنه لا يوجد ما يسمح بالتأكيد القطعى كما فعل صالح أحمد العلى و جاراه آخرون، على أن العشيرة أصبحت وحدة الأساس فى التنظيم الإدارى. و الأرباع، أكثر فى ذلك من الأسباع، لم يكن لها أدنى مفعول على جغرافيا الخطط و بالتالى على بنية الحزام السكنى بالكوفة خلافا للأعشار المتجسمة فى المجال بفضل توليفها توليفا قويا بين الواقع البشرى و الإثنولوجى للقبيلة و بين تنظيم المؤسسات، و لأنها وجدت فى لحظة التأسيس الحاسمة.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۳۵

- ۱۷- الكشف عن الكوفة: ثورة المختار (۶۶- ۶۷ ه/ ۶۸۵- ۶۸۶ م)

اشارة

وجدت لحظات قوية سابقة أثرت على الكوفة (۱۷ ه و ۳۷ ه و ۵۰- ۵۳ ه) و ظهرت أوقات أخرى فى فترة لا حقة، استكملت غرضها نسبيا، أو أنها اتسعت خارج المجال المدنى ذاته، خلال ولاية ابن هبيرة و القسرى خاصة. لكن يبدو أن هذه الفترة التى

أتت بعد زياد إلى ثورة ابن الأشعث و التى استمرت خمسا و عشرين سنة (من ۵۳ إلى ۸۰ ه) حيث استقر النسق الاجتماعى على الرغم من الأزمات السياسية، كانت فترة طويلة صلّبت خلالها المدينة خاصياتها و اكتست مظهر الرشد. فقد تشكلت فيها الكوفة الأموية بصورة جعلت خاصياتها معروفة مدة طويلة، باستثناء بعض الجزئيات.

سدّت الثلمات فى كل مكان دون أن تمحى البنية الأصلية لطرق المرور و بالمحافظة على المجالات الخالية. فتكثف السكن و ضاقت الشوارع الكثيرة و نزعت إلى أسلوب المتاهة، و أقرّت الجموع القبلية التى أغفلها التخطيط الأول، و لم تمنع كل هذه الأمور أن تبقى الطرق الكبرى الأولى، كما استمرت الخطط، فبقيت فى الجملة الكوفة الهندسية و بنيتها الثنائية. فما هى أجهزتها الأصلية؟ الجامع و القصر المحصن، حيث اتجه كل شىء إليهما، و الرحبة التى تمّ تجاوزها بصفة متفاوتة فى الشمال و الغرب، و الأسواق المختصة نسبيا و المستقرة شرقى المساحة المركزية و التى لم تكن مبنية بل كانت قائمة بصورة مؤقتة و قد غطتها الحصر التى كانت على قضبان أو أنابيب من حديد أو من قصب، و قد عمرت الدور المجال الجنوبى.

و خلف ذلك تبدأ الطرق الكبرى الفاصلة بين الخطط التى كانت الشوارع تخترقها. كان الحرص يتمثل فى الاحتفاظ بعدة مجالات تقع بمركز الخطط أو بطرفها: إنها الجبّانات و الصحارى. و قامت الأجهزة الكبرى بالكوفة حيث كانت تسير الحياة العامة: الجامع و القصر و الرحبة و السوق و دور الإشراف و السكك المستقيمة أو الملتوية التى تنفتح على الطرق، و الجبانات و الصحارى و الخطط و الكناسة و السبخة. و قبل تحديد مواقعها على

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۳۶

الخارطة يحسن بنا عبور الكوفة كما وصفها أبو مخنف، لّما روى ثورة المختار (۶۶ ه).

ستكون جولة غامضة تمدنا ببعض العلامات، لكنها تسمح خاصة بإحياء الجو الذى كان سائدا فى ذلك العصر.

كانت حركة المختار و شيكة، فاحتاط الأمير و عجّل بالأحداث. فوجّه صاحب الشرطة «حول السوق» الذى أرسل بدوره ابنه برفقة الجند إلى الكناسة. و لا ننس أن قائدى الثورة كانا المختار نفسه المقيم بالمركز كما هو معلوم إلى جانب الجامع، و كان من ثقيف فتقع إذن قطيعته فى الشمال، و قد عوّل بالخصوص على جيران ثقيف من همدان.

و الرأس الثانى هو الأشتر النخعى من مذحج المقيمة فى جنوب المساحة المركزية التى ينبغى عبورها لكى يتصل الجمعان، و قد تحدد موقع القائد الثانى و مذحج بالاعتماد على خارطة سيف.

طلب صاحب الشرطة أياس بن مضارب من الأمير أن يعين فى كل «جبّانة عظيمة» رجلا ثقة برفقة رجال مسلحين. و هذا يعنى:

أ) أن هناك تطابقا و حتى تماثلا فى دور الكناسة و الجبانات.

ب) أن الجبانة كانت مكانا للتجمع داخل الخطط، و موقعا استراتيجيا بالنسبة لقبيلة أو مجموعة من القبائل.

ثم أورد أبو مخنف قائمة الأشراف الذين توجهوا إلى الجبانات الرئيسة لكى يصدوا أفراد قبائلهم عن الخروج و يحتلوا الشوارع الكبرى فى آن واحد، منعا لكل تنقل. و قد ورد ذكر الجبانات الآتية: السبيع (همدان) و بشر (خثعم) و كندة و سالم (قيس) و الصائديين (أسد؟) و مراد (مراد و مذحج). و ذكرت جبانة الصائديين و جبانة كندة أيضا فى الرواية المتعلقة بثورة حجر، على أنهما متجاورتان. و الملاحظ أيضا أن جبانة مراد ورد ذكرها منذ عصر على و لذا يبدو أننا بإزاء أقدم الجبانات و أهمها، و المهم أنها ملك للقبائل اليمنية،

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۳۷

باستثناء جبانة واحدة. و لم يكن لتميم جبانة فأمر رئيسهم شبث بن ربيع بأن يعسكر فى السبخة التى قامت هى أيضا بدور مكان التجمع مثل الكناسة و حلّت محل الجبانة. «و خرج ابراهيم من رحله بعد المغرب يريد إتيان المختار و قد بلغه أن الجبابين قد

حشيت رجالا، و أن الشرط قد أحاطت بالسوق و القصر».

مسير ابراهيم بن الأشتر:

المرجع أن الفرقة الصغيرة التى صاحبت ابراهيم مرت من الجهة الغربية للمساحة المركزية فمرت بدار سعيد بن قيس الهمدانى (هل كانت بالمركز أم بآخر خطة همدان حيث كانت أقرب ما يمكن من المركز؟) ثم بدار أسامة. طلبت من قائدها تجنب الجهة الشمالية الشرقية أى دار عمرو بن حريث «إلى جانب القصر وسط السوق» و خلافا لذلك، اقترحت المرور من قطيعة بجيلة، و اختراق الدور وصولا إلى دار مختار، عبر الممر الجانبى دون شك. و هنا ينجم مشكل صغير- إذ ينبغى الافتراض مسبقا أن خطة بجيلة توجد إلى جانب خطة ثقيف، و أن خطة همدان توجد إلى الغرب. فينشب الخلاف مع التصميم الذى حددناه بالاعتماد على المعلومات الأولى التى ذكرها سيف. لكن ابراهيم أصر على الاستخفاف بالخصم أمام باب فيل (شمال المسجد)، و عزم على الاقتراب من دار عمرو بن حريث (إلى اليمين، كما ذكر بالنص)، فوقعت مناوشة لم ينج منها صاحب الشرطة فاندلعت الانتفاضة. و شعورنا أن المنطقة الموجودة شمالى المسجد و المنفصلة عن خطط القبائل كانت فيها مسالك إجبارية، لا ساحة واسعة مفتوحة، كأن البناء متراص لا ينفتح إلا على بعض الشوارع. و من المعلوم أن المسجد اتسع فى ولاية زياد بزيادة الثلث على الأقل و لم يقع ذلك إلا من جهة الشمال. و قيل أيضا إن بعض الدور شيّدت فى المساحة المركزية.

هذا إذن هو الانطباع الأول.

ثم نشبت الثورة، فعاد ابن الأشتر إلى قبيلته للتعبئة. «إن هؤلاء الرؤوس الذين وضعهم ابن مطيع فى الجبابين يمنعون إخواننا أن يأتونا و يضيقون عليهم، فلو أنى خرجت بمن معى من أصحابى حتى آتى قومى، فيأتينى كل من بايعنى من قومى ثم سرت بهم فى نواحى الكوفة». المقصود هو حمل راية الثورة فى كل مكان، و تجميع الأنصار حيثما

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٣٨

وجدوا بالكوفة. كانت جولة مهمة جدا و محيرة حقا، إذ لم نقدر على تتبعها أحيانا، بل ضعنا فى متاهاتها.

كانت العودة إذن إلى النخع، ثم بدأ التجمع من هناك، فكان مسير ذو منعرجات «و هو فى ذلك يتجنب السكك التى فيها الأمراء»، أى طرق المرور التى تمسك بها الجبانات، و هى الطرق الكبرى التى ورد ذكرها فى هذا الصدد. و تتحول هذه المناهج إلى طرق كبرى متجهة إلى الحيرة، عند مغادرة الكوفة، كما أنها تتجه إلى مكة و دمشق و المدائن و البصرة، و كانت تسمح فى الداخل بتوجيه القبائل إلى المسجد. لا شك أن الجبانات كانت تقفل منافذها و تراقب منها المرور، بكيفية أو بأخرى، و نضيف أنه ربما لم يتبق منها إلا طرق قليلة لا كل الطرق التى خطّت فى البداية. و سينتهى المسير، فى مرحلة ابراهيم هذه ضمن الخطط، و ينتهى باللحاق بالمختار. كان مسلكا مستفزا متسترا فى آن، حسب الوضع.

أ) لقد انطلق من النخع و اتجه إلى مسجد السكون، و هى عشيرة مهمّة من كندة.

و من سيف عرفنا أن خطة كندة كانت مجاورة لخطة مذحج.

ب) ثم دخل المسلك قسرا إلى جبانة كندة التى لا شك أنها كانت غير بعيدة.

ج) تمثل جبانة أثير المرحلة الثالثة. لكن أثيرا رجل من أسد و المعتقد لا محالة أنها كانت تقع بخطة أسد، إلى جنوبى الجنوب الغربى لا فى خطة مذحج كما جاء بخارطة ماسينيون، و قد سمى البلاذرى هذه الجبانة صحراء، أما أبو مخنف فقد حار بين الاسمين. و ما يميّز الجبانة من الصحراء أن الأولى كانت مخصصة للدفن كما للتجمعات من النوع العسكرى، فى حين أن الثانية خصّصت للاحتفالات. لكن يبدو أن صحراء أثير كانت صورة مزدوجة، كما الأمر فى جبانة سليم.

د) دحر إبراهيم خصومه تدريجيا، من صحراء أثير إلى الكناسة. و قد اعتمد ماسينيون مصدرا شيعيا ليجعل منها مزبلة لأسد، و حدد موقعها بالباب الغربى فى الكوفة. يمكن و يرجح أن هذه الساحة الكبرى كانت تقع فى خطة أسد فى بداية الأمر، أى

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۳۹

إلى الجنوب الغربى من الكوفة. كانت هذه الخطة تنفتح على الغرب، و كانت غير محددة، فاتسعت الكناسة و نجت من هيمنة أسد المقيمة هناك. ثم أصبحت فيما بعد، و بصورة سريعة جدا سوقا للبغال و مكانا لحط الأحمال عن قوافل الجمال القادمة من بلاد العرب، فوجب تحديدها على الطريق الرابطة بين الحيرة و مكة إلى الجنوب الغربى، و إبعادها من المركز إلى أقصى حد. لم تدمج الكناسة فى المدينة خلال العصر العباسى حين أقيم الحزام، و هذا ما يوضح القول الذى كثيرا ما ورد فى تأليف أبى مخنف: «يدخل الكوفة من قبل الكناسة». و كان المقدسى واضحا جدا فقال إن الكناسة كانت موجودة من جهة البادية أى من جهة البادية العربية.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة؛ ص۲۳۹

سيطر ابراهيم على المنطقة الجنوبية، فعجل الخطى إلى المختار معيدا المسير فى الإتجاه المعاكس، مر بأسد و النخع و كندة، و بالمسجد الصغير للأشعث بن قيس، و دخل الساحة المركزية فبلغ المختار من جهة القصر، كما ذكر.

وقائع المختار، مشاكل تحديد المواضع

اشارة

كان علينا متابعة تطور الثورة خطوة خطوة لكى نزداد إحاطة بمظهر المدينة و الأماكن الرئيسة التى ينبغى التعرف عليها. ستبقى بعض هذه الأماكن يكتنفها الغموض إلى الأبد فى حين أن بعض الأماكن الأخرى ستتضح معالمها بتقدم البحث. و الواجب أن نميّز بين المعارك التى قادها المختار فى الكوفة، أى الثورة على السلطة التى أقامها ابن الزبير- نعنى ابن مطيع الوالى و شرطته و حشود القبائل الخاضعة له- و الثورة التى قادها الأشراف بعد مدة على حكمه، و أخيرا مقاومته لغزو الكوفة بقيادة مصعب بن الزبير انطلاقا من البصرة. هذه إذن ثلاث مراحل سنجتازها بخطى وئيدة و نتقدم بفضلها فى معرفة الكوفة.

المرحلة الأولى: ثورة المختار

لقد سبق أن قلنا إن ابراهيم لحق به شمال المسجد. و ما يلفت النظر أن المختار أقام معسكره بالسبخة، و هو موضع سيجرى فيه القتال ضدّ شبيب و زيد بن على. و كلمة سبخة تعنى منطقة جافة مالحة و هى صفة تنطبق على النجاف تلك البحيرة المالحة القديمة الواقعة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۴۰

بين الحيرة و النجف المقبل. لكن النجاف ليس السبخة، السبخة التى أرادت بعض المصادر الشيعية المتأخرة المزيفة إلى حد بعيد، أن تجعل منها مكانا لا ماء فيه. بل خلافا لذلك، تبدو السبخة بمعناها الثانى و المرجح أنه هو القديم، و هو الغيضة التى أتخمت ماء فى بعض الفصول، حيث ينبت القصب الردىء. و لا شك أنها كانت منطقة يفيض فيها الفرات لكن بموضع من أرض أجاج، يحدّ دور الكوفة إلى الشرق. و يؤيد هذا الأمر خبر واضح لا غبار عليه ورد ذكره فى تاريخ الطبرى، بخصوص ثورة

شبیب، «السبخة بین الکوفة و الفرات» قبل الجسر. و اعتمد ماسینیون هذا الأمر فعین موقعها علی مخططه شرقی الکوفة تماما خارج المدینة طبعا، لکن فی اتجاه الشمال. إلا أنه یمکن التساؤل عمّا إذا لم یکن من المناسب التقدم بموقعها أکثر إلی الشمال، و ذلک اعتمادا للروایة المتعلقة بثورة المختار.

و خلافا لذلک، تمیل الأخبار الخاصة بمجیء مصعب من البصرة إلی تحدید موضعها فی الجنوب الشرقی فی اتجاه البصرة أی حیث تبدأ البطائح فی الظهور. و ینبغی فی کل حال تحدید موقعها بصفة واضحة خارج الکوفة بحیث یکون لها مجال معین تنفتح علیه، لا أن یکون لها موقع محصور حیث یقترب الفرات أکثر ما یکون من المدینة.

و لنمعن النظر فی النص الذی اهتم بهذا الموضوع لکی نستمد منه ما أمکن بخصوص السبخة کما بخصوص عناصر طوبوغرافیة أخری کالجبانة و بعض الخطط. کان المختار قریبا من ثقیف کما هو مفروض، أی إلی الشمال الشرقی من المساحة المرکزیة و قد انتقل إلی السبخة مع رجاله و رجال ابراهیم، شعورا منه بقرب المواجهة الشاملة بین جنوده و جند السلطة، و قد کان محقا فی تخمینه هذا. الواقع أن الأمیر عمل بنصیحة شبث فجمع کل القادة الذین کانوا قبل ذلک متفرقین فی الجبانات و الکناسة. کانت لیلة ترقب و تأهب للقتال من الجانبین، و لا سیما أن عشیرتین کبیرتین من همدان: شاکر و شبام قد لحقتا بالمختار، و وصلتا إلیه بعد أن مرّت شاکر بجبّانة بشر، و مر الآخرون بجبّانة مراد. و قد اجتهدوا فی تجنب جبّانة السبیع کأن الجبّانات کانت تتحکم کلها فی نقط الخروج، فکادت أن تکون ممرا إجباریا. تمرکز المختار بالسبخة مع ۳۸۰۰ رجل و کان یواجهه ۲۰۰۰ رجل أو یزید، حشدهم الأمیر، بمکان له من السعة ما کان یسمح باحتواء هذا الجمع و یخول

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۲۴۱

أیضا التراجع و استقدام النجدات و حتی الفرار خارج ساحة الوغی: «فلما بلغ ذلک المختار من مشورة شبث بن ربعی علی ابن مطیع خرج المختار فی جماعة من أصحابه حتی نزل فی ظهر دیر هند مما یلی بستان زائدة فی السبخة». و قد تمکن رجاله من سماع ضجیج خصومهم القادمین إلیهم من هناک، «بین بنی سلیم و سکة البرید». و قد استفدنا من سیف أن بنی سلیم أقاموا منذ البدایة فی الشمال الشرقی من المساحة المرکزیة، إما بمفردهم إلی الحد الشرقی الأقصی لخطط الشمال الخمسة و إما فی خطة کبری مع بنی ثقیف حیث تمرکزوا بالأماکن الأکثر بعدا عن المسجد، و هنا لا محالة علامة ذات أهمیة. و الأمر الأکثر صعوبة هو التعرف علی الطریق الکبری الرابطة بین مرکّب المسجد و القصر و بین عاصمة الامبراطوریة، أی طریق البرید و الرحلات الرسمیة. کانت الطریق تمر عادة من النخیلة فی اتجاه دمشق، و لذلک فهی تنطلق من الکوفة من جهة شمال- شمال غربی، دون عبور الفرات. لکن هناک طریقا أخری تؤدی إلی دمشق، و هی تعبر الجسر إلی الشمال الشرقی من الکوفة، محاذیة الفرات علی ضفته الیسری ثم تعبره من جدید فی مکان آخر. و هذه کانت طریق السواد و لا نعلم هل قلّ استخدامها بالنسبة للطریق الأخری، علی أن اسم «سکة البرید»، الذی ذکره البلاذری قد یوحی بالغلط فضلا عن ذلک لشکنا فی إمکانیة نسبتها إلی بغداد أیضا. و فی هذه الحال ینزلق نصّ أبی مخنف فی الخطأ الزمنی و یکون نصّا ألّف أو حوّر فی العصر العباسی. و یبقی إذن موقعها غامضا بالنسبة لذلک العصر، لکن الثابت أن السبخة کانت قریبة من الشمال الشرقی. و لعلها وقعت فی الشمال بعیدا عن سلیم و انتشرت بذلک فی مکان أوسع من المکان الذی حدده لها ماسینیون؛ کما یجب الانتباه إلی عدم إبعادها عن الجسر و لا عن دار الرزق، کما أکدت ذلک المصادر کافة، و لا سیما عند روایة ثورة زید. و المؤکد أنه یمکن الوصول إلی مرکز الکوفة مباشرة من السبخة، عبر عدة طرقات أو سکک یبدو أن أهمها کانت سکة لحام جریر، فوجب التحکم فی «أفواهها» أی مداخلها.

الواقع أنه بعد أن انهزم شبث بن ربعی فی أثناء اصطدامه بالمختار فی السبخة، منعت جیوش الأمیر المتحکمة فی السکک، جنود المختار من دخول الکوفة. فلزم علیهم أن

يجانبوا المدينة من الخارج للوصول إلى المركز و استهداف القصر؛ إنه فعلا تحول حقيقى من الشرق (كما أراده ماسينيون طبق مخططه) أو من الشمال الشرقى إلى الغرب أو إلى الجنوب الغربى، من السبخة إلى الكناسة، كأن هاتين البقعتين الواسعتين الخاليتين المحيطتين كانتا تتواجهان و تشكلان فى كل حال المعابر الأصلية للدخول إلى المركز، الذى منه ينطلق محوران أساسيان. أحاط المختار بالكوفة و كذلك ابراهيم، على حد أقصى دور المدينة و مر بالشمال.

فتوجه حشد من حشود الوالى إلى طريق همدان (سكة ثور) لقطع الطريق من الشمال إلى الجنوب محاذيا المكان الذى سيبنى فيه لاحقا مصلى فى العراء- بناه القسرى (۱۰۵- ۱۲۰) و كان يقع دون شك فى خطة بجيلة. هناك اتفاق إذن مع المخطط الذى وضع بالاعتماد على ما قاله سيف لكن المشاكل تواجهنا قبل هذه المرحلة و مباشرة بعد معركة السبخة: لقد مر المختار فعلا بالجبانة التى سميت على هذا النحو و تعرت من كل صفة. و المرجح أنها عرفت بالثوية التى هى جبانة قريش و ثقيف و أهل المدينة بصفة عامة. و الظاهر أنها كانت تقع فى أقصى شمالى الشمال الشرقى من الكوفة فى طرف الخطط. و غير بعيد عن ذلك، و إلى جوارها،ها نحن قد بلغنا دور مزينة و أحمس و بارق و عنها يقول أبو مخنف: «و بيوتهم شاذة منفردة من بيوت أهل الكوفة». هذه جملة لا شك أنها تطرح علينا مشكلا. فهى فى البداية تناقض تصور سيف فى أكثر من نقطة إذ يمكن القطع بأن مزينة كانت تقيم فى اتجاه الشمال قليلا لكنهم بقوا فى الشرق، تفصل خطط سليم و ثقيف و همدان بينهم و بين بجيلة و إليها تنتسب عشيرة أحمس. و ما عسانا نقول فى بارق و هم من الأزد؟ من هنا ينبغى تحديد مقامهم اعتمادا على سيف أيضا فى الجنوب أو الجنوب الشرقى كما هو مرجح. لكنّ الثابت أن اليعقوبى أكد قائلا: «انتقلت عامة أحمس عن جرير بن عبد اللّه إلى الجبانة».

و مع أن خبره اندمج فى رواية خاطئة من بعض الوجوه فلا يبدو أنها مستمدة من تأويل لرواية أبى مخنف، علما أن مشكل بارق يبقى قائما، و لا شىء يؤكد أنهم انفصلوا عن بقية الأزد، كما

وقع لأحمس بالنسبة لبجيلة. و قد ورد ذكرهم فى أثناء ثورة زيد غير بعيد عن عناصر من قيس هم رؤاس. و الغريب أن نجدهم فى الشمال دائما، على حدود الكوفة. و على كلّ فإن نصّ نا ناصع الوضوح و هو يفيد أن مزينة و أحمس و بارق و هى عشائر تنتسب إلى قبائل مختلفة، تجمعت خارج المدينة أو كادت، حول الجبانة و بعيدا عن الخطط المعهودة على الرغم من كونها عشائر شاركت فى وقعة القادسية. فماذا يعنى هذا الانتقال الذى تم عن طيب خاطر كما هو مرجح؟ هل وقع لأنهم التحقوا بالمهاجرين المتأخرين من عشائرهم حيث لم يجدوا مكانا فى الخطط الأولى؟ هل أن إرادة الابتعاد و التهميش جعلتهم يتجمعون و يشيدون مسجدا مشتركا؟ لقد استقبلوا المختار مرحبين، و قدموا إليه الماء. و لا يبدو أنهم كانوا مهتمين بالاضطراب الذى اجتاح المدينة فى ذلك الوقت. و الملاحظ بهذه المناسبة و خلف الطوبوغرافيا الصرف، أن هناك اتجاها فى الكوفة فى أوقات مختلفة يروم الانسياب إلى الخارج لأن المحيط يجذب القبائل و العشائر و أقسام القبائل، و اليعقوبى نفسه يقول فى ذلك: «جاءت تميم و بكر و أسد فنزلوا الأطراف». و سنرى أن بكرا و عبد القيس اتصفت بعدم الاستقرار بصورة واضحة و هذا يطرح مشكل الجدلية بين المدينة و القبيلة.

لذا، ينبغى علينا قبول التشتت النسبى، و المقام المتكرر أو المثلث لبعض القبائل، بصورة ملموسة و ضمن الهيئة القبلية التى كانت للكوفة، ارتباطا بالطوبوغرافيا و علم أسماء المكان.

المرحلة الثانية: ثورة الأشراف

لم تكن رواية ثورة الأشراف غنية بمحتواها الاجتماعى و حسب، بل إنها تساعدنا على التقدم فى تصورنا لمدينة الكوفة و العوالم القبلية التى كانت تقيم فيها. و يتّضح مرة أخرى دور الجبّانات كما دور الكناسة و السبخة. فقد اجتمعت مضر بالكناسة برئاسة شبث بن ربعى، أى تميم و عبس و ضبّة. كانوا يقومون بأحد الدورين الرئيسيين مع اليمنية و هو دور أهمّ بكثير من دور قيس- و الملاحظ أنهم تميّزوا عنهم- كما أنه يتجاوز كثيرا دور ربيعة، لكن لم تكن لهم جبانة. و بمطالعة المصادر و إمعان النظر فيها، خاصة المصادر المرتبطة بهذه

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۴۴

الفترة، نستدل جيدا على أن هناك استقطابا شديدا للقبائل، و إحياء للروح القبلية و ما يتصل بها من روابط عميقة بين السكن و مكان التجمع، خلافا لما وقع خلال ثورة المختار نفسه. ففى هذه الصورة الأخيرة، توزّعت الحشود بترتيب من الحكم الذى ما انفك قائما موجودا، أما فى الصورة الأولى، فقد صدرت المبادرة عن القبائل. و لذا فهناك احتمالات قوية أنه كان لمضر مواقع يمكن تحديدها الآن فى غرب الكوفة، غير بعيد عن الكناسة، و أن تميما انتقلوا فعلا من الشرق إلى الغرب. كما أكد ذلك ماسينيون و كما عرفناه من المصادر اللاحقة. لا شك أن هذا الانتقال لم يكن تاما شاملا، و لا سيما بالنسبة لتميم، حيث أن مواليهم من الحمراء بقوا فى الشرق، كما يتأكد ذلك من وجود عشائر تميمية فى منطقة ينبغى تحديدها إلى الشرق دون أى شك ممكن. و هنا أيضا تنبغى العودة إلى فكرة تفريق الجموع القبلية حيث بقيت فلول منها بالموقع الأصلى فى حين رحل أكثر أفراد القبيلة.

كانت الأمور أكثر بساطة بالنسبة لليمن خاصة همدان و كندة و مذحج، إذ بدت مستقرة من البداية. و الملاحظ أن خثعم كانت حاضرة بصورة مهمة و قد حطت بجبانة بشر. و اعتقادنا أن الأزد استقروا فى مكانين أو ثلاثة، ثم أنه لم يكن لبجيلة، و هم من الأوائل المقيمين، جبّانة على ملكهم فكانوا ينزعون إلى الانضمام لخثعم عندما تفرض الظروف ذلك عليهم. و لنمعن النظر فى المصدر الموجود بين أيدينا. لقد أقام عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمدانى بجبّانة السبيع، و أقام زحر بن قيس الجعفى (عشيرة من مذحج) و إسحاق بن محمد بن الأشعث فى جبانة كندة، و كعب بن أبى الخثعمى فى جبانة بشر حيث لحقت به بجيلة، و أقام عبد الرحمن بن مخنف فى جبانة مخنف «عن الأزد».

ثم تجمع كل اليمنية، ما عدا أغلب مذحج المقيمين فى جبانة مراد، فى جبانة السبيع- جبانة همدان- حيث تقرر مصير الصراع الذى تواجه فيه الاشراف و المختار. فكان هذا التجمع مكتسبا صبغة استراتيجية واسعة جدا أبرزت أهمية هذه الجبانة، و قد تفوقت فيها همدان ضمن المجموعة اليمنية.

و كانت قيس تمثل القوة الثالثة، و لها أهمية ثانوية، و كانت برئاسة شمر بن ذى الجوشن المعروف فى تاريخ الكوفة. و فى تلك الحقبة من تاريخ العرب الأولى كانوا متميزين عن مضر حيث أن المفهومين اكتسبا دلالة محدودة آنذاك و لم يتطابقا. تجمع قيس فروع

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۴۵

هوازن و هو الإسم الذى اندمجت بواسطته قيس فى إحدى قائمتى الاسباع اللتين وصلتا إلينا، أما سيف فلم يذكر سوى بنى عامر بن صعصعة محددا مقامهم إلى الشرق. و لا شك أن قيسا تجمعوا حول نواة بنى عامر أى جشم و سلول و بنو البكاء و كلاب بالخصوص. و قد كان اسم جبانتهم سلولا. و لا نعلم هل يجب تحديد مقامهم فى الشرق تماما كما فعل ماسينيون أو أن نضعهم

فی خطهٔ تقع شرق- شمال شرقی و تکون امتدادا لخطهٔ بنی عامر الأولی، أو أن نهبط بهم إلی جنوب- جنوب شرقی. أما ربیعهٔ فقد أقاموا فی مکان غیر بعید منهم، بین سوق تجار التمور و السبخهٔ و ما زالت الغموضات تسود موقع هذه السبخهٔ، الذی به یرتبط فی کل حال کل توضیح لمخطط الکوفهٔ: هل کان إلی الشمال الشرقی أم إلی الشرق تماما، أم إلی الجنوب الشرقی؟ و إذا تمکنا من جههٔ أخری من أن نقرر بصورهٔ معقولهٔ مقام قیس فی مکان ما یقع إلی الشرق لأنهم کانوا یملکون جبانهٔ خاصهٔ بهم، و لأن بنی عامر أقاموا فیه فی بدایهٔ الأمر، فلیس لدینا أیهٔ قاعدهٔ توثیقیهٔ و لا أیهٔ علامهٔ دالهٔ تسمح بالقول إنه کان لربیعهٔ أیضا خطهٔ بالرقعهٔ الشرقیهٔ. الحقیقهٔ إذا أقامت ربیعهٔ بین التّمارین و السبخهٔ، و نظرا لقبولنا الترابط القائم بین السکن و الاستراتیجیهٔ، فنحن ملزمون بالتصدیق بوجود دورهم بهذا المکان. و قد ذکر أبو مخنف أنهم تفرقوا سریعا و أمروا بالعودهٔ إلی دورهم. و لذا نجد هذا الاحتمال یؤید وجود جوار معین. و هناک مؤشر إضافی آخر مفاده أنه خلال ثورهٔ زید بن علی، کانت محطته الأخیرهٔ عند تغلب قرب «مسجد بنی هلال بن عامر» حیث تلقی البیعهٔ ثم أعلن عن ثورته فی جبانهٔ السلول و ذلک بعد سلسلهٔ من التنقلات السریهٔ بین القبائل. و یحتمل أن ماسینیون کان محقا فی تحدید موقع بکر علی مخططه ضمن الزاویهٔ التی تقع إلی الجنوب الشرقی من الکوفهٔ، لکن بکرا أقل أهمیهٔ فی هذا الموضوع من عجل التی ظهرت بمظهر النواهٔ المتراصهٔ لربیعهٔ، إلی جانب عبد القیس و أکثر منها. و لعلهم جذبوا إلی مجالهم تغلبا و تیم اللات و النّمر فضلا عن بکر. لکن ینبغی اعتماد فکرهٔ الهجرهٔ الداخلیهٔ لهذه العناصر من شمال- شمال غربی إلی جنوبی- جنوب شرقی

نشأهٔ المدینهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ: الکوفهٔ، ص: ۲۴۶

لأنهم استقروا فی بادیء الأمر بقطیعهٔ تقع فی الشمال الغربی إلی جوار بجیلهٔ. ثم أین نحدد مقام عبد القیس الذین ورد ذکرهم فی الکوفهٔ سنهٔ ۴۳ ه، خلافا لما أکده ماسینیون؟ و أین یوجد موقع أهل هجر أبناء عمومتهم، الذین کانوا آخر من استقروا فی الکوفهٔ بین الروادف بمقتضی روایهٔ المقریزی الذی اعتمد دون شک مصدرا قدیما؟. نحن فی حیرهٔ من المؤلفین المحدثین الذین ینسبون إلی عبد القیس مسجد السهلهٔ بالکوفهٔ و هو ما زال قائما فی حین أنه موجود بأقصی الشمال الغربی من المدینهٔ. فضلا عن أنه ورد بالروایهٔ نفسها فی نص أبی مخنف، ذکر مسجد عبد القیس بحیث لم یبعد کثیرا عن جبانهٔ السبیع، و أنه أقیم قطعا فی المنطقهٔ ذاتها. لذلک تتسلّط علینا الفکرهٔ المتعلقهٔ بثنائیهٔ قطائع ربیعهٔ حیث یکون احتل عبد القیس موقعا خارج المرکز، من جههٔ الشمال الغربی، و احتل غیرهم موضعا إلی الجنوب الشرقی اندمج اندماجا متفاوتا فی قطائع قیس.

و یکشف تحلیل الأخبار المرویهٔ عن ثورهٔ الأشراف، عن وجود تحویر طرأ علی خریطهٔ القبائل فی هذه الفترهٔ الزمنیهٔ التی دامت خمسین سنهٔ و التی فصلت بین المقام الأول (۱۷ ه) و ثورهٔ الأشراف (أواخر سنهٔ ۶۶ ه) فلا شک فی ذلک قط. علی أن هذا التحویر لم یجر

نشأهٔ المدینهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ: الکوفهٔ، ص: ۲۴۷

عشوائیا بل بمقتضی مبدأ جاذبیهٔ صلهٔ القربی، حیث یتم الانتقال إلی قبیلهٔ الأشقاء. فمثلا إذا تجمّعت قیس فی اتجاه الشرق، فالمرجّح أن ذلک تمّ لأن بنی عامر کانوا مقیمین بالمکان، قبل ذلک. و أن رحیل أکثر تمیم إلی الغرب عمل بالتأکید علی تیسیر تمدد خطهٔ بنی عامر؛ و کذلک إذا وجدنا عبد القیس إلی الشمال الغربی فلأنه تقرر- فی بدایهٔ الأمر- إنشاء خطهٔ لتغلب و تیم اللات، لعلها کانت واسعهٔ بالنسبهٔ إلیهم، لکنها اتسعت فی کل حال إلی الشمال و الغرب و استقبلت مهاجری عبد القیس الذین انضموا إلی علی. الحقیقهٔ أننا لا نفهم کیف أمکن لجموع أخری من ربیعهٔ أن یقیموا فی اتجاه الشرق: لعلهم احتلوا الزاویهٔ التی ترکها خالیهٔ التخطیط القائم علی أساس الجهات الأربع. أما عن تمیم و ضبّهٔ، فقد خول لهم الرحیل إلی الغرب الحصول علی مجال حیوی أکبر، قابل للامتداد إلی ما لا نهایهٔ.

و لا بد أنهم استفادوا من وجود خطة اسندت إلى بجالة و بجلة المتفرعتين عن ضبة، و الذين لا شك أنهم لم يكونوا كثيرين. و لعله يجب اعتبار هذه الخطة مخصصة لضبة جميعها، و قد انضمت تميم إليهم فى وقت لا يمكن تحديده بدقة مع أن ماسينيون تمسك بتاريخ سنة ٣٧ ه دون حجج، و قد ذكرنا ذلك. يبقى صحيحا فى كل حال أن مجيء على إلى الكوفة خلخل وجود المصر فى الأعماق و لم يلبث أن انعكس بصورة ملموسة على هياكل عالم القبائل. و ترتب عن مجيئه قدوم أكثرية عجل من البصرة إلى الكوفة، و جموع كثيرة من عبد القيس.

أما عن طيء التى تحدثت عنها الروايات قليلا، و التى كانت فى كل حال حاضرة بالكوفة، فاعتقادى أنه ينبغى تحديد مكانها فى خطة تحمل اسم جديلة. لماذا؟ لأن جديلة اسم لطيء. و حجتنا على ذلك نستمدها من كتاب الجمهرة و من الاشتقاق لابن دريد، و من شاهد شعرى حاسم بخصوص الكوفة. لم تكن جديلة الكوفة من قيس كما زعم سيف، و لا من أسد ابن ربيعة، بل من طيء. هذا و قد أكد اليعقوبى أنهم اختطوا

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٤٨

قرب جبانة بشر التى كانت لخثعم.

هناك قضية تطرح فعلا بخصوص خثعم، لو رمنا أخذ خريطة سيف مأخذ الجد.

كانت خثعم قبيلة يمنية مرموقة و لم تذكر على هذه الخارطة، لكنها شاركت فى حرب القادسية، و يحتمل أن عدد أفرادها كان قليلا، إذ لم يذكر أى رقم بشأنهم. و قد قاموا بدور كبير فى أثناء انتفاضة حجر بن عدى، و قدموا الدعم للمختار و وقفوا ضده. كانت لهم جبانة شهيرة معروفة بجبانة بشر و هو إسم لأحد أبطال القادسية، و قد تأكد أن الجبانة كانت أحد الأماكن الكبرى لتجمع اليمنية، مثل جبانة كندة و مراد. كانت بجيلة تلحق بهم فيها، بصفتهم من أقدم الإخوان لهم، منذ عصر الجاهلية. فهل أفسحوا لهم مكانا فى خطتهم الكبيرة التى زادت اتساعا بعد رحيل أحمس؟ لا- يبدو أن الأمر كما ذكر، لأن قول أبى مخنف «ساروا إليهم»، يفرض مسبقا و صراحة تمييزا فى السكن، كما أن السياق يوحى بالجوار و استمرار علائق القربى السابقة. و على هذا، ينبغى تحديد مقام خثعم بمكان تغلب، و الأمر الأرجح كثيرا أن يكون ذلك فى خطة جديدة كبيرة حددت أثر التخطيط الأول دائما فى الركن الشمالى الغربى، و ربما فى خطة طيء كما أوحى اليعقوبى بذلك؟ و بصورة عامة، إذا قطعنا بخط و همى الكوفة قطعتين، أى الكوفة شمالا و الكوفة جنوبا، يظهر القسم الشمالى أكثر كثافة سكانية، و أشد هيكلة، بقطائعه المتراصة و شوارعه الضيقة. و هذا ما يتجلى من شهادة أحد رؤساء قيس، نعنى شمر بن ذى الجوشن الذى أقام شرقا و دعى لنجدة اليمنية فى جبّانة السبيع. فرفض نجدتهم معللا رفضه بأنه يتعذر عليه القتال فى السكك الضيقة. و كأن الأمر قد تعلق فى هذا الباب بخاصية تميزت بها منطقة الكوفة الشمالية- و نحن ندرك ذلك من قوله علما بأنه كانت هناك من البداية، خمس طرق كبرى ارتبطت بخمس خطط، تقابلها أربع طرق فى الجنوب و ثلاث فى الشرق و الغرب فقط. لا شك أن هذه المساحة المسماة بظهر الكوفة فى جهتها الغربية، كانت لها جاذبية ارتبطت ببعض

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٤٩

العوامل الواضحة منها ارتفاع التربة و متانتها و جفافها. لكن أيضا قربها من النهر- منبع الماء و الحياة و الاتصال بالسواد. و لم يكن الأمر كذلك فى المنطقة الغربية و حتى الجنوبية اللتين كانتا مرتفعتين قطعا، لكنهما امتدتا فى اتجاه البادية، على مسافة كبيرة. و تطرح كثافة العمران فى الشمال مشكلا هو مصير تراتبية تلك الطرق التى تجلت لنا فى خصوص العصر البدائى فهل أن كلمة سكة تنطبق على الطرق الكبرى التى كانت مسالك أو على الشوارع الأقل عرضا التى «تحاذى هذه ثم تلاقيها» أم على الاثنين معا؟. و إلى أى حد بلغ محو نسق الطرق و ما هو الصنف الذى طاوله هذا المحو؟ استمرت قطعا الطرق قائمة بصورة أو

بأخرى على الأقل من حيث انفتاحها على المساحة المركزية، لأن أبا مخنف ما انفك يكرر قوله مع رواة آخرين بخصوص «أفواه السكك» (أى مدخل الشوارع و مخارجها ابرازا لأهميتها الاستراتيجية). فمن تحكم فى هذه «الأفواه» تحكم فى المدخل إلى قلب المدينة:

الأمر صريح بخصوص الشمال و أيضا بالنسبة للشرق قليل الضيق و واضح التخطيط، و يبدو أن هناك طريقا كبرى للعبور كانت تقع بين الكناسة و القصر، بالنسبة للغرب أو الجنوب الغربى، و كان الأمر كذلك فى البصرة بين المربد و المركز.

و يخص السؤال الأخير تحديد موقع الجبّانات دائما بالاعتماد على هذا النص. لا يبدو أنها كانت تقع فى أطراف الخطط بل فى مركزها، فى منتصف المسافة حيث فتحة الخطة على المركز و منتهاها فى الخارج حيث تمحى. و لذا لم تكن الجبانات محيطة فيما يظهر، بل مركزية. و ما يدفعنا إلى اعتقاد ذلك طريقة الهجوم التى سار عليها جنود المختار نحو جبانة السبيع، حيث قدم ابن الكامل و ابن شميط من الجنوب، و هجمت شبام بغتة من الشمال، انطلاقا من قطيعتها العشائرية. فتمت محاصرة الجموع التى تحصنت بالجبانة و جرى القضاء عليها. و لا شك أن الجبانة كانت تحديدا موقعا استراتيجيا من جهة أخرى، و لا شك أنها لاصقت الطريق الرئيسة، و يرجح أن السكك الثانوية كانت تصب فيها. و لا بدّ أنها كانت مفرقا للطرق، فجسمت فى آن مدخلا سدّا يتحكم فى فوضى الخطط. و يمكن

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۵۰

تخيلها مربعة الشكل أو مستطيلة، و أنها غطت عرض الخطة كله أو كادت تغطيه، بعرضها (۸۰ مترا لبنى همدان، و هى خطة ضيقة لكنها تمددت و قد تجاوزت فى الخطط الأخرى هذا الرقم). و امتدت على الطول بالمقدار نفسه أو يزيد: كانت الجبانة مجالا خاليا، غير مبنى و غير مسيج بعد، و هى تحتل ما يقرب من هكتار على الأقل، و تحد امتداد البناءات فى الخطة القبلية، فأتاحت بذلك تجمع عدة آلاف من الخلائق.

حصار مصعب للكوفة و نهاية المختار (۶۷ ه/ ۶۸۷)

إن هذه الحلقة الأخيرة من المأساة تسمح فعلا بمزيد من التطلع، لا لوظيفة التجميع التى تقوم بها الجبّانات الرئيسة، بل لدورها هذه المرة فى الإحاطة و كعقدة لمرور البشر و المؤن، و صلة أساسية بين المركز و العالم الخارجى. فمن تحكم فيها تحكم فى الكناسة و السبخة و يمكنه خنق القصر و المسجد. و هذا ما فعله جيش مصعب بن الزبير الذى جاء من البصرة لإنهاء مغامرة المختار، بعد أن هزم جيشه فى المذار.

و لنوضح بعض الأمور حول السياق السياسى إفادة للقارىء. فى سنة ۶۷ ه كان الأمويون قد حلوا قضية الخلافة داخل الأسرة، و استردوا الشام و مصر. و كان ابن الزبير يسيطر على الحجاز و العراق، باستثناء الكوفة تحديدا التى انتزع منها المختار الولاء. لقد حرض المختار الكوفيين على الانتفاض بإسم الأخذ بثأر الحسين كما بينا، فاستولى على الحكم فى الكوفة. و اعتمد على الموالى مغضبا الأشراف، الذين ثاروا عليه لكن أجهضت ثورتهم. و عند ذلك، توخى المختار سياسة التطرف. و طارد دون هوادة أعداءه و أمر بقتل أسراه كافة. فطارد «قتلة» الحسين و منهم عدد من الأشراف الذين فرت عندئذ جماعات منهم و اتجهوا إلى مصعب فى البصرة و طلبوا منه النجدة و التعويض عما لحقهم من ضرر. و وجه المختار جيشا إلى الجزيرة لقتال عبيد اللّه بن زياد مدبر مقتلة كربلاء و وفق فى القضاء عليه.

و ترتب عن عمله هذا تأخير فتح العراق من قبل الأمويين، فتدخل مصعب الذى كان يريد توحيد العراق تحت راية ابن الزبير فضلا عن أنه كان مدفوعا إلى ذلك بشدة من طرف الأشراف المهاجرين من الكوفة. و اتجه إلى الكوفة بعد انتصاره فى المذار،

على رأس

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۵۱

جيش قوى برا و نهرا فى آن. و حاول المختار المستحيل مع من تبقى من الرجال- و كانوا بضعة آلاف- لقطع طريق الكوفة على مصعب، فتحصن فى السيلحين (هل كانت تقع فى الجنوب الغربى أم فى الجنوب الشرقى؟) «و سكر الفرات على مجتمع الأنهار فذهب ماء الفرات كله فى هذه الأنهار و بقيت سفن البصرة فى الطين». فتأخر وقت الزحف: ثمّ بدأ القتال فى حروراء و كان مركزا متقدما للكوفة على طريق البصرة، حيث أقام الخوارج الأوائل بالذات. و كانت محاولة أخيرة. لكن جيش المهلب بن أبى صفرة القوى حمل على جيش المختار فدحره استمر المختار يدافع عن مدخل الكوفة بحفنة أخيرة من أصحابه دفاعا مستميتا، عند رأس سكة شبث، ثم تحصن فى «قصره» أى قصر الإمارة، و اتخذ كل الاحتياطات لمجابهة الحصار. هذه الأحداث يرويها الطبرى عن أبى مخنف و يرويها البلاذرى عن عدّة مصادر أهمها أبو مخنف، و هى مفيدة لأكثر من سبب. و هذه اللحظة بالذات من ثورة المختار تعلمنا عن المحيط المباشر للكوفة و تطرح مشكلة الماء و مشكلة اتصال الكوفة بالعالم الخارجى و كيف يتم ولوج المدينة فى اتجاه المركز بتقدم بطىء.

قضية الماء:

الواقع أنه ينبغى التساؤل عما هناك من علاقات بين الكوفة و الماء. لقد فرّ العرب الأوائل من عالم المياه، إن أمكن القول، من عالم المدائن المائى، و أنشأوا مدينتهم على اليابسة، على الأرض الصحراوية تقريبا. كان ذلك على ضفة الفرات، لكن قبل عبوره ثم يبدأ بعد ذلك عالم الريف، و هو السواد الذى كانت تخطّه قنوات الرى التى تربط بين الفرات و دجلة. يذكرنا التصور الشائع المترتب عن كلمات مثل الكوفة و الحيرة و الكناسة و البادية القريبة جدا، بالغبار و رائحة الصحراء. هذه حقيقة لأن الصحراء جاثمة عند الباب أمام كل عين بصيرة. و هى موجودة بالداخل أيضا لأن السكان- يا لها من سخرية قصوى- هيأوا داخل الكوفة صحارى صغرى. إنّما كانت هذه الصورة حقيقية إلى حد ما فقط لأن الكوفة فعلا نقطة اتصال بين عالمين، و قد أثبت الماء وجوده فى البداية بفضل الفرات، و بكل ما يتبع الفرات كالسبخة التى أشرنا إليها مرارا، و القصب الذى أضفى على الكوفة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۵۲

وجهها الأول، و بالمقابلة بين اللسان و الملطاط، و بإكثار المصادر من استعمال كلمة «الظهر» (اليابسة التى ترتفع فوق السطح أو التجويف و تقابله، كما يتقابل الظهر و البطن).

و تتكلم المصادر بخصوص الكوفة عن المسنّاة (سد) مع أنه كانت توجد مسناة اسمها مسناة جابر بالحيرة على الرغم من الاعتقاد السائد بأن الحيرة كانت غائصة فى الصحراء.

و تكمن أهمية نصوصنا سواء لدى الطبرى، أو لدى البلاذرى، فى التدليل على وجود شبكة من القنوات فى جنوب الكوفة و فى المنطقة التى كانت تقع قبل الفرات. و هذه القنوات معروفة بنهر الحيرة، و نهر السيلحين و نهر القادسية و نهر يوسف (يرجح أن يوسف بن عمر هو الذى أمر بحفره، و يكون إذن خطأ تاريخى ورد بالرواية). فما هى هذه القنوات؟ أين كانت توجد؟ ما هى وظيفتها؟ هل كانت قنوات قديمة مهملة فتح فعلا المختار اتصالها بالفرات بعد أن كانت مقفلة، و بذلك جف أسفل الفرات؟ علما أن الأخبار الخاصة بمعركة القادسية تحدثت عن قناة اسمها العتيق و يبدو أنها كانت مهملة و لعلها كانت مسدودة، و قد أشار إليها المسعودى أيضا واصفا إياها بأنها مجرى قديم للفرات كان يصب فى بحر قديم قام مكان بحيرة النجف. من المؤكد

أن الحيرة لم تكن تقدر أن تحافظ على وجودها المزدهر فى الماضى كواحة من دون الرى. و قد تغذت الضفة العربية للفرات بالماء بواسطة الأنهار- القنوات. و يحتمل أنها تعطلت أو تقهقرت فى أواخر العصر الساسانى و عادت إلى سالف نشاطها فى العصر العربى. و من المعلوم أن خالد القسرى أمر بعد ذلك بحفر النهر الجامع و نهر خالد و المبارك و باجوّه و بارمانه و لوبه فمثل كل ذلك شبكة حقيقية. و لعل الجامع وحده كان موجودا بمنطقة الكوفة. فهل إليه تلمّح المصادر رغم

أن ذلك خطأ تحقيبى؟ و هل كان قناة مخندقة تحيط بالكوفة و منها تتفرع الأنهار الأخرى كما تصور ذلك ماسينيون، مشيرا ضمنيا إلى خندق المنصور؟ و تكون تضمنت المصادر خطأ تحقيبيا آخر فى هذه الصورة أيضا.

إن هذه المصادر قليلة الوضوح و قد تضمنت الهفوات و التراكيب العتيقة و هى تريد أن تثبت أن المختار أمر بغلق الفرات لصده عن السيل إلى الأسفل. و لهذا سال الفرات بأكمله فى «مجتمع الأنهار» حيث تتجمع القنوات و تنطلق جميعها من الفرات. هذا المكان هو السيلحين الذى لا يمكن تحديده بالجنوب الغربى على حاشية الصحراء بالحيرة و ما خلفها كما فعل صالح أحمد العلى، بل إنه يحدد فى مكان ما بالجنوب الشرقى على الفرات. فهل يعنى ذلك شبكة من القنوات الخالية المهملة المهجورة التى لم يتبق منها سوى أثر مجوف على الأرض و قد أعادتها إلى سالف نشاطها ظروف عسكرية استثنائية أو أنها كانت قنوات مستعملة، ملأها فجأة هذا التفريع أو قد كانت تروى جنوب الكوفة عادة؟ لا ننس أن الحيرة كانت ما زالت قائمة بكل معنى الكلمة فى القرن الأول و ما تلاه. فكيف أمكنها البقاء دون ماء؟ من المعلوم أن هناك قطائع زراعية تابعة لجنوب الكوفة، قبل بلوغ الفرات، منها طيزناباذ. ثم لماذا كانت الكوفة ذاتها تتغذى بالماء بصفة سيئة فى ذلك العصر لعدم وجود فرع من فروع الفرات يسد حاجتها من الشرب على الأقل؟ لا- تناقص فى هذا الأمر حسب رأينا، بل إنه مجرد إهمال. كانت هذه القنوات موجودة أساسا لسد حاجات الزراعة، و كانت الكوفة تقع على حافة الفرات فكانت تحصل مباشرة على الماء، فضلا عن قلة التنظيم، فلم يتوفر لها سوى السقائين و بعض الآبار فى القصر و فى بعض الجبانات و لم يوجد شىء آخر. و بذلك اصطبغ حصار المختار بصبغة فظيعة سنة ۶۷ ه، فكان حصار العطش القاتل. على أنه يجب التأكيد فى كل حال على تدخل عالم المياه و حضوره و تأثيره فى هذه النقطة القصية من الصحراء، فكانت الكوفة تعيش تبعا لذلك وضعا شديد التناقض، و هو تناقض عمّ كل شىء دون ريب.

لقد سمحت الحفريات الأثرية الخاصة بالقصر بإبراز سواق شيدت لإيصال الماء

و المرجح أن ذلك قد تم انطلاقا من الفرات. و لا شك أن السواقى أقيمت فى عصر متأخر خلال حكم الأمويين، و هو تأخير له مغزاه أيضا و يطفح بالغفلة و قلة الوعى. و قد تحدثت عن مثل هذا المصادر بخصوص العصر الأول فى بغداد. لقد وجب تذكير المنصور بضرورة إمداد المدينة بالماء بصورة منتظمة. و لعل كثرة الماء المستساغ هنا و هناك، فى الكوفة كما فى بغداد، قد أغنى عن التفكير فى الأمر، خلافا للوضع الذى ساد البصرة. الواقع لا محالة أن الهدف الرئيسى للحصار الذى ضربه مصعب على المختار، يتمثل فى القضاء على كل مقاومة تصدر عن المختار، فعمل على تعطيشه.

هناك شهادات ملموسة عجيبة فى قوتها و تلونها؛ لقد وزّع مصعب رجاله على النقط الاستراتيجية فى الكوفة لقطع «الماء و الغذاء» عن المحاصرين فى القصر. إنه حصار مدينة عزلاء بلا أسوار، و قد تم فى بادىء الأمر حصار القصر عن بعد، أى فى السبخة و جبانة السبيع أو الصائديين حسب المصادر، و فى الكناسة و فى جبانة كندة: «و لربما رأيت خيل عبيد اللّه (ابن الحر) قد أخذت السقاء و السقائين فيضربون، و إنما كانوا يأتونهم بالماء إنهم كانوا يعطونهم بالراوية الدينار و الدينارين لما أصابهم من

الجهد، و كان المختار ربما خرج هو و أصحابه فقاتلوا قتالا ضعيفا، و لا نكاية لهم، و كانت لا تخرج له خيل إلا رميت بالحجارة من فوق البيوت و يصب عليهم الماء القذر. و اجترأ عليهم الناس، فكانت معايشهم أفضلها من نسائهم فكانت المرأة تخرج من منزلها معها الطعام و اللطف و الماء، قد التحفت عليه، فتخرج كأنما تريد المسجد الأعظم للصلاة، و كأنها تأتى أهلها و تزور ذات قرابة لها، فإذا دنت من القصر فتح لها فدخلت على زوجها و حميمها بطعامه و شرابه و لطفه، و إن ذلك بلغ لمصعب و أصحابه، فقال له المهلب و كان مجربا: اجعل عليهم دروبا حتى تمنع من يأتيهم من أهليتهم و أبنائهم، و تدعهم فى حصنهم حتى يموتوا فيه». و كان القوم إذا اشتد عليهم العطش فى قصرهم استقوا من ماء البئر. ثم أمر لهم المختار بعسل فصب فيه ليغيّر طعمه فيشربوا منه، فكان ذلك أيضا مما يروى أكثرهم.

إنه نص من نوع المنتخبات الأدبية يتضمن عالما قائما بذاته تلتقطه أبصارنا، عالم المرأة الاجتماعى و البشرى. و هو لا يختلف كثيرا عن العصور القريبة منا. كانت النسوة مقنعات

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۵۵

و كن يخرجن من بيوتهن بحجة زيارة الأقارب. لقد تشكلت و اتضحت المظاهر البارزة للحضارة الإسلامية فى خمسين سنة. لكنه يصور الصرامة الكامنة فى قضية الماء على الصعيد المدنى الصرف. و لنقل مرة أخرى إن ما جدّ فى عملية مصعب يسمح عموما بإثراء رؤيتنا للكوفة من عدة وجوه. وها نحن نتعرض لمسألة أو مسألتين أخريين.

من جديد نقاط الدخول: السبخة و الجبانة و الكناسة.

كان على مصعب أن يقطع على المحاصرين فى القصر كل خطوط التموين أى على ما يقرب من ۶۰۰۰ شخص. كيف سيتم هذا العمل الصّارم؟ عسكر مصعب نفسه بالسبخة و نصب قادته بالكناسة و فى جبانة السبيع، و جبانة كندة، و جبانة مراد، و جبانة الصائديين. و المعتقد أن هذا المواقع كانت تمنع كل اتصال بالخارج فهى تمثل لذلك المخارج و المداخل الرئيسة و هى تراقب البقية أيضا، و تراقب طرق الخروج. تقدمت هذه الحشود بحذر فى مرحلة ثانية، كل حشد من الموقع المحدد له، و جهتها المساحة المركزية لتطويق القصر. و ليتم التعرف على هذه النقط الأساسية كان واجبا الربط بين المرحلتين و اعتماد هذه الحركة الزاحفة.

- استهدف احتلال السبخة القضاء على كل اتصال عبر الفرات من أسفل و من أعلى.

فالسبخة تفصل الكوفة عن الفرات إذ إن أعلى نقطة فى الشمال هى جسر المراكب، الجسر الذى عينّ ماسينيون موقعه جيدا. لكن السبخة تتجه أيضا إلى الجنوب، و لا بدّ أنها تتسع عندما تلحق بمشارف بطائح الكوفة و فى اتجاه البصرة.

كانت جبّانة كندة و مراد و الكناسة أيضا، على حاشية الحزام الواقع جنوبى الجنوب الغربى. و كانت لها الوظائف نفسها تقريبا، أى الاتصال بالطريق الكبرى للحج التى تمتد حتى بلاد العرب، مع اعتبار أن هذه الطريق بالذات، طريق الظهر، تنحرف إلى البصرة كما إلى الحيرة.

- تقفل جبانة السبيع المدخل فى الشمال، بداية فى وجه النجدات القادمة من عشائر

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۵۶

همدان المختلفة، مساعدة لإخوانهم الذين كان أكثرهم من همدان، و كانوا تحت الحصار.

لكنها تمنع أيضا الاتصال بالطريق الرابطة بين النخلة و دمشق- التى تراقبها الكناسة كذلك لأن موقعها كان يقع خارج المركز، و هى تشرف على الغرب و الجنوب و تقع بينهما. و انطلاقا من خطة همدان، يمكن فضلا عن ذلك اللحاق بالنهر و اللحاق عموما

بالمنطقة الريفية فى الشمال، منطقة البهقباذ الأوسط. لا مراء فى أن مثل هذا الوضع العاجل يعنى تعطيل الصلة بالخارج و إيقاف المبادلات مع نقط العمران المجاورة فقط، أى القادسية و الحيرة و ممتلكات الأشراف فى محيط المدينة، و قرى الأنباط و مختلف البوادى التى يقيم بها بدو المناطق المجاورة و السواد أيضا الذى كانت علاقته بالكوفة رخوة فى ذلك الوقت، إذ كان يرتبط بها عبر الجسر لا غير.

- يبقى الحديث عما اكتنف جبانة الصائديين من غموض، و كانت من أقدم جبانات الكوفة، و قد جزم البلاذرى بأنها كانت ملكا لهمدان. الواقع أن بنى الصائد شكلوا بهمدان عشيرة معروفة، فلم هذا الاشتباه بجبانة السبيع فى هذا المقام كما فى استراتيجية التطويق؟ ليس هناك ما يوضح هذا الأمر فى تاريخ الطبرى، فقد احتل عبيد اللّه هذه الجبانة، فورد عليه أمر بالتقدم إلى القصر و الوقوف قريبا من دار بلال، (و المرجح أنها كانت لابن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى). ذلك أنّ أحفاد أبى موسى أقطعوا نصف الآرى فى قلب المركز فى جهته الجنوبية الشرقية. و كان رأى ماسينيون أن جبانة الصائديين كانت تقع إلى الجنوب الشرقى، غير بعيدة عن جبانة سالم، اعتمادا لتنوع الروايات الخاصة بالثورات، و ما تضمنت من منطق داخلى. و يبدو أن مسيرة جيش عبيد اللّه بن الحر أكدت هذا الأمر. لكن ما سبب وجود عشيرة من عشائر همدان بهذا المكان؟ و هل يجب إسناد هذه الجبانة إلى عشيرة من أسد هى بنو الصيداء، مما يفسر فى

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۵۷

كل حال سبب تسميتها بجبانة الصيداويين فى مصادر كثيرة؟ و لكن خطة أسد كانت تقع فى الجنوب الغربى بصورة مبدئية اعتمادا للتقسيم الأولى فتبقى القضية قائمة بذاتها.

تسليط الأضواء على المركز

سبق لنا أن رأينا أن مصعبا أمر بوضع الدروب لقطع كل اتصال بين المركز و الخطط.

و لربما تمّ الاحتفاظ بها لأن المصادر اللاحقة تحدثت عنها. تعنى كلمة درب (دروب فى الجمع) أوّلا «سكة قليلة العرض» تمتد من ۸ إلى ۹ أمتار تقريبا. فتجاوز عرضها عرض الزقاق، و كان دون عرض السكة و أضيفت فيما بعد أبواب بأطراف الدروب فاتسعت دلالة هذه الكلمة و أصبحت تدل على الأبواب الكبرى التى تقفل السكك.

و المعتقد أنه وقع تجهيز بعض السكك أو كلها، التى تفتح على المركز بأبواب، و ذلك بداية من عصر مصعب. كان الأمر كذلك فى العصر التالى بالنسبة لأسواق الكوفة بعد أن بنيت و هيئت، و شملت العملية بغداد و غيرها من المدن، فأصبحت الأبواب تغلق عند الطلب، و لا سيما عند المغرب، و اتجه التطوّر نحو استحواذ الخواص على هذه السكك. هنا كانت محاولة لفرض رقابة تامة سلّطتها الدولة على الاتصالات بين المركز العمومى و الحزام السكنى، و ربما تكلل مسعاها بالنجاح أو أنها لم توفق فى ذلك. لقد جسّمت المدينة المستديرة هذه الإرادة التعسفية تجسيما قاسيا كاد أن يكون مرضيا لأن المرور لم يجر أبدا إلا عبر مركّبات الأبواب و كلما تمادت المدينة الإسلامية فى البناء، تحصنت و انغلقت، و كبتت الطاقة البشرية فى بروج داخلية. و من العجيب أن الروح الثورة بالكوفة- التى يمكن مقارنتها بما كان عليه الوضع فى باريس خلال القرن التاسع عشر- كانت مصدرا لمثل هذه الاختيارات.

و نستمد فوائد أخرى من عصر مصعب؛ يقول أبو مخنف: «ثم أن مصعبا أمر أصحابه فاقتربوا من القصر. فجاء عباد بن الحصين الحبطى حتى نزل عند مسجد جهينة.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۵۸

و كان ربما تقدم حتى ينتهى إلى مسجد بنى مخزوم» الذى كان على رمية سهم من القصر. ورد اسم بنى مخزوم فى هذه العبارة، و لم يكونوا من قريش، بل كانوا عشيرة صغيرة من عبس انتمى إليها حذيفة بن اليمان من صحابة الرسول، و قد تضافرت المصادر على ذكر حضور بنى عبس قرب المسجد فى المركز و هذا أمر شاذ. الواقع أن العشيرة المقصودة هى عشيرة عبس التى شاركت حذيفة فى النصف الثانى من الآرى فى قلب المركز، و هو يقع فى الركن الجنوبى الغربى، و كان إقطاعا شبيها بإقطاع أبى موسى الموجود بالركن المقابل. و مبرر ذلك فى كل حال أن بنى عبس بقوا بحامية المدائن عند تخطيط الكوفة، إلا أن سعدا هيأ أماكن للغائبين الذين عرفوا بأهل الثغور. فعلينا التخلى عن فكرة سادت تقول بوجود حزام رقيق داخل المركز، خصص للقرشيين و الأنصار، و أحاط به من كل جانب بما يشبه الخطة المستديرة التى كانت لأهل الراية بالفسطاط، و لكن كان المركز و ما جاوره مباشرة يتضمن بعض الدور الخاصة بالأشراف من كبار الصحابة. و لا شك أن أقرب القطائع من المركز داخل الخطط بالذات، أسندت لأهل العالية و شمل هذا الأمر جهينة و هى تطرح علينا مشكلا، فلقد حصلت على خطة كاملة منذ البداية، كانت تقع بأقصى الجنوب من جهة الغرب. كانت خطة مهمة فى كل حال تساوى خطة كندة و قد ورد ذكرها كثيرا فى مختلف المصادر. و رأينا فى هذا الخصوص أنها كانت تقع بمقدمة كندة، و تجاوزتها فى اتجاه المركز، و كانت ممرا إجباريا له. كان المفروض أن يأتى مثلا الشعبى من كندة فقيل إنه كان عليه المرور بجهينة حيث عليه أن يقطع كل يوم مسافة طويلة تؤدى به إلى الجبانة.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۵۹

باستثناء ذلك، يوحى لنا عصر مصعب ببعض العناصر الطوبوغرافية المهمة المتمثلة فى وجود دار السقاية التى كانت بناية عمومية للتموين بالماء، و فى وجود موضع للحدادين «حيث تكرى الدواب» أى غير بعيد عن الكناسة، و ينبغى تحديده بمكان يقع بين جبانة مراد و الكناسة ذاتها و على الحدود الغربية إلى الجنوب الغربى من المركز. و هنا اسم مكان آخر هو زقاق أو شارع صغير عرف بزقاق البصريين و لعل اسمه مستمد من أن أهل البصرة أقاموا فيه إقامة دائمة، سواء كان ذلك بعد هذا العصر أم لا، و كان بمنتهى سكة جذيمة من أسد. و فيه كمن أحد قادة مصعب فى اللحظة الأخيرة التى تم خلالها تطويق القصر.

هذا خبر ثمين لأنه يعنى أن فكرة السكة استمر تطبيقها على طرق العشائر و ليس على الطرق القبلية الكبرى و حسب، و كانت الأزقة تقطعها قطعا متعامدا أو مائلا. و بصورة أعم، سواء فحصنا هذه الرواية أو غيرها- رواية هجوم شبيب على الكوفة مثلا ثم ثورة زيد بن على - فإن ما يبرز للنظر هو صورة الكوفة التى خطتها السكك من كل جانب، السكك التى كانت الممرات الوحيدة بين المركز و الخارج. ذكر أبو مخنف باستمرار عبارة التحكم فى «أفواه» السكك فى نصه. و تدل التطورات التى مرت بها ثورة المختار على أن هذا يمثّل عائقا يحول دون الدخول إلى المدينة. و تتواجه «الأفواه» الخارجية مع «الأفواه» الداخلية التى تنفتح مباشرة على المركز و هو منطلقها. كانت تلك حال سكة جذيمة. لكن هل حافظت السكك على العرض نفسه على طول امتدادها، أم أنها ضاقت بحيث أن فتحاتها فى المدخل و المخرج شكلت وحدها العرض السابق؟ ألم يمح بعضها فلم تحتفظ سوى «بأفواهها»؟ ألم يبرز غيرها بعد تصميم سعد الأول، ضمن تخطيط آخر، كما وقع فى سكة البريد و سكة لحام جرير؟ لا بد أن طريقة طمس الطرق غير متقدمة بما يكفى فى عصر

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۶۰

المختار و حتى فى عصر لاحق حيث جمع أبو مخنف أخباره من أناس كانوا شهود عيان لم يعيشوا بعد سنة ۱۰۰ إلى ۱۱۰ ه، و لا يكون هذا التطوّر حتمية دون شك و لا حتى تطورا متوقعا ممكنا طيلة العصر الأموى. فقد بقيت الكوفة مصرا عسكريا فكان لازما تجنيد الرجال و توجيههم إلى القتال بسرعة. و المؤكد أن نسق السكك المشع من المركز إلى الخارج دام فترة طويلة.

و هكذا يتضح أن الفترة التى اندلعت خلالها ثورة المختار بمراحلها الثلاث كانت غنية بالأخبار المتعلقة بشخصية الكوفة المادية. علما أننا نتعرف بواسطتها على علامات كثيرة ذات دلالة تمكننا من تحديد موقعها. و إذا ما افتقدنا تلك العلامات، فلا مناص لنا من مواجهة حيرتنا بشأنها، و هى كبيرة.

لقد اطلعنا على الرواية المتعلقة بالمختار على مستويين: مستوى ساذج و مستوى متعمق. و قد جارينا القصّاص فى الحالة الأولى- لأنّه قصّاص حقا- و اكتشفنا الكوفة عبر الأحداث التى خلخلتها و التى رويت مشحونة بحركة البشر و اضطرابهم. و اعتبر المستوى الثانى معرفتنا للثورات الأخرى و قدرتنا على القيام بمقارنة نقدية بين العلامات الدالة أمرا مفروغا منه. إنما نستهدف من وراء ذلك التعرف على الأماكن قطعا و استعراض تخطيط المدينة بصفة عادية. لكن أيضا و مجاراة لأبى مخنف فإنّنا نبعث للوجود مرة أخرى هذه المدينة بصورة من الصور، و نعيد تعميرها و إحياءها، إذ تلك هى الوسيلة الوحيدة لارتياد هيكلها.

لم يكن أبو مخنف يريد إخبارنا عن الكوفة بل عن الأشخاص الذين قاموا بدور ما و عن الوقائع التى جرت على مسرحها. صارت الكوفة منمقا (ديكورا) تتجدد فيه القصة نفسها مما جعل الغموض يسود فنعود بصفة شبه مستمرة إلى النقاط الساخنة نفسها فى رواياته. هل أراد رسم أشخاصه فى إطار غير مميز، بتدقيقات كافية لتغذية الخيال؟ إنه مشكل كبير مطروح فى هذا المجال. لقد اجتهد فى تعريف بعض الناس جيّدا، فاهتم بهم أكثر مما اهتم بالأماكن، فكان يسمى و يعرّف أقل شخص منهم، فتبلور لديه ولدى الإخباريين الآخرين عالم البشر، و عالم العمل و السياسة و عالم الصراع، أكثر من عالم الأشياء الجامد، أى عالم الآجر و الماء و الرمل. لكن هذا العالم كان قائما بذاته و هو يستمد حياته فى جوهرها من حياة رجال التاريخ الذين وضعهم أبو مخنف فى حد أدنى من الشروط الملموسة كما يفعل كل قصّاص يحترم نفسه. و إذا كان أبو مخنف قصّاصا متفنّنا إلا أنه بقى مؤرخا. فكان علينا المراهنة على جزء صغير من الدقة الطوبوغرافية حتى نتمكن من مزيد من الاحاطة بالموضوع، و الاستمرار فى هذه القراءة و مقابلتها بمصادر أخرى. إن أبا مخنف لم يخترع الجبانات أو السكك أو الصحارى أو السبخة، فقد ورد ذكرها فى كتب أخرى. و لسنا

بصدد السباحة فى الخيال بل أن هناك أرضية من الواقع نقف عليها. لكنه يجول بنا على هواه، و يتحول بنا من اليمين إلى الشمال، ثم يدور بنا نصف دورة، و يتركنا متعطشين للتعرف على الأماكن. لقد قال الكثير عنها و لم يقل ما به يشفى غلتنا. و المفارقة هى أنه يحثنا على النزوع إلى الاستماتة فى البحث الطوبوغرافى لكونه يقول الكثير و لا يقول ما يغنى. هذا ميل مشروع ضرورى و غير مجد فى آن. أليس الأساس أن نفهم حقيقة بنية المدينة و سير أجهزتها؟ و ألا يكون مما لا طائل من ورائه للتعمق فى المعرفة أن نتأكد أن السبخة كانت تقع فى الشمال الشرقى لا فى الشمال الغربى؟ هذا صحيح دون شك ضمن مشروع شامل للفهم الوظيفى. و ليس بصحيح، إذا اعتمدنا منظور إدراك الملموس حيث يريد المرء معرفة طريقه لا أن يعطيه ظهره. و هناك حقيقة أصلية للأماكن تجعلها حيث هى لا فى موضع آخر. و ما نستفيده من التمعن فى هذه الروايات أنها تتيح بعض الفرص لإدراك هذه الحقيقة- و لعلنا نتيه- و تفتح لنا آفاق شاسعة لروح الأماكن، و ترسم لنا دون شعور منها الرسم الجانبى للشخصية الجسدية للكوفة فى حياتها الملموسة أكثر ما تكون نصاعة: نحن لا نتحرك فى المجردات بل نحافظ على حد أدنى للاتجاه، مثلنا مثل مسافر متعجل نزل بمدينة يجهلها، و قام بجولة فيها، بحيث يمكن لنا التعمق فى التخطيط و الاجتهاد فى معرفة سكة معينة، أو التشبع بجو المدينة دون النظر لأى تخطيط، أو الانتقال من النظر إلى التخطيط إلى تأمل المحيط. إن مصادرنا تمدّنا بالاختيار نفسه. و شعورنا بصحبة أبى مخنف شعور مزدوج مرير: شعور بتقدمنا الكبير و شعور بتعثرنا التام. و ما قدمه بخصوص جولته عبر المدينة يسمح لنا برؤية كل شىء مع أننا لن نقدر على الرجوع إلى الفندق لو كان علينا الذهاب إليه بمفردنا.

- ۱۸- شبيب (۷۶- ۷۷ ه/ ۶۹۵- ۶۹۷): استطلاع ثان

اشارة

حدث ثورة شبيب له أهمية قصوى و هو معبر فى أكثر من نقطة، و من خلاله تتضح جغرافيا تاريخية كاملة بفضل جولاته السريعة الخاطفة عبر فضاء واسع يغطى منطقة نفوذ الكوفة، فى أذربيجان و بلاد الموصل و أرض جوخى و السواد، و الكوفة ذاتها، و ما حواليها فى باديتها الواسعة. يبرز كل ذلك بصفة غير مباشرة أمام أبصارنا بحيث أصبح يشدنا إليه:

أسماء المكان، الطرق و المسالك، وضع الريف- عالم من القرى و الأديرة و السدود و القنوات- مستقرات البدو فى الجزيرة و السواد و الجبال، أو المترامية فى سباسب الكوفة. و فى الإمكان أن نستمد منها الكثير على الصعيد السياسى و الاجتماعى و البشرى، لكننا لسنا بصدد النظر فى ذلك لأن الكوفة التى اتجه إليها شبيب بعنف تبقى الشخصية الرئيسة.

و تتسع دائرة الاكتشاف قليلا بوجود شبيب، فترفع الكوفة شيئا من الغموض الذى يلفّ هيكلها و محيطها.

نحن ملزمون بالرجوع إلى عموميات الطوبوغرافيا، و اللهث دوما وراء حقائق مستحيلة إلى أن نحصل على بعض التدقيقات. نبدأ بلحمة الأحداث كما رواها أبو مخنف الذى اعتمد عدة شهود و أسانيد فانتاب التردد الرواية و نعتمد آخرين منهم عمر بن شبه. يظهر أن شبيبا كان يرمى إلى بث البلبلة فى جهاز السلطة بالعراق و تحديها، و إشاعة الاضطراب فى مواردها. و الدخول حتى مركز الكوفة، و كان ذلك هو الهدف الرمزى الأسمى فوفق و لو مرة واحدة على الأقل فى ذلك، دون أن يمدد إقامته. لكنّه أصرّ على الإحاطة بالمدينة المدافعة عن حياضها، الخائفة، فكان لا يكل فى البحث عن ثلمة ينفذ منها فأصبح الجسر و السبخة و دار الرزق و كذلك أفواه السكك و القصر و الجامع و خطة بنى

شيبان- قرابته - نقطا حساسة ازدادت وضوحا لدينا.

أ) جاء شبيب مسرعا من المدائن فى مرحلة أولى، فامتنع عليه دخول الكوفة، و حال دونه و دون ذلك جيش مؤلف من ۲۰۰۰ رجل و هو بقيادة سويد بن عبد الرحمن السعدى.

و قد عسكر هذا الجيش فى السبخة ثم عبر الفرات و سيطر على مدخل الجسر، جسر المراكب الذى يجب وصفه و تعريفه بدقة، ما أمكن ذلك. فراوغه شبيب و عبر النهر على مرأى من سويد الذى كان يلاحقه، و بلغ دار الرزق التى ورد ذكرها لأول مرة فى مثل هذه الروايات التى أهملت ذكرها بخصوص المختار مثلا- و علم شبيب بوجود حشد آخر بقيادة عثمان بن قطن نزل بالسبخة، و لذا ينبغى تحديدها فى مكان آخر غير دار الرزق و حتى الجسر، إلى أسفل النهر و فى الشرق تماما، فدار حول الكوفة كلها، و استمر سويد يلاحقه فحال بينه و بين دور الكوفة. و عند ذلك، اتجه شبيب إلى الحيرة، ثم ابتعد نحو أسفل الفرات (على بعد ۲۴ فرسخا)، و عاد أدراجه إلى البادية، باثا الرعب فى بنى شيبان، و عاد أخيرا إلى الشمال مارا بالأنبار، فبلغ أذربيجان، بعيدا كل البعد.

ب) و بذلك كانت هذه المحاولة الأولى فاشلة. و نجحت المحاولة الثانية فى السنة نفسها. اكتسح شبيب الكوفة بسرعة حيرت السلطة و هياكل الدفاع عن المدينة. لكن الحجاج علم بالأمر و هو فى البصرة، فسبقه إلى الكوفة، و لم يكن له متسع من الوقت سوى بضع ساعات لتنظيم جهاز دفاعى، لكنه لم يفعل شيئا. فعسكر شبيب هذه المرة بالسبخة ذاتها، و دخل الكوفة راكبا مع

رفاقه عند المغرب. علينا الاعتقاد إذن أن السيطرة على السبخة كانت تعنى السيطرة على مفاتيح المدينة و أنّ المسافة التى تفصلها عن المركز كانت قصيرة و أن الجانب الشرقى يوفر تسهيلات للدخول، و يمثل إلى حد ما الموقع الرخو للمدينة، إلا إذا تقرر غلق السكك، و لم يكن الأمر كذلك هذه المرة. دخل شبيب السوق، و روى ما يلى: «فجاء شبيب حتى انتهى إلى السوق ثم شد حتى ضرب باب القصر بعموده ... ثم أقبل حتى وقف عند المصطبة» (كانت المصطبة منصة لإقامة الاحتفالات

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۶۴

العسكرية حسب ماسينيون ... و تمثلت المرحلة التالية فى دخول الخوارج الجامع الذى كان «كبيرا لا يفارقه قوم يصلون فيه». قتل بعض الناس و تراجع القوم مرورا بخطة شيبان. و حطوا أمام دار حوشب- صاحب الشرطة- و مسجد بنى ذهل (بن معاوية و هم من كندة قطعا): و قتل رجلان و وقع التشنيع بأحد القتيلين. و لا بد أن هذه الأمور كلها جرت فى فترة وجيزة جدا، و كانت خطة شيبان مجالا لحقد غريب جدا و كثير الدلالة، كان شبيب يكنّه لقبيلته ذاتها، فهل فى الإمكان تحديد موقعها على الأقل؟ كانت تقع على الأرجح فى الزاوية الجنوبية الشرقية على الرغم من أن مسجد بنى ذهل الذى ورد ذكره فى ثورة حجر بن عدى لا علاقة له ببكر و إنما هو مسجد لإحدى عشائر كندة. لكن المهمّ أن شبيبا ترك المكان و اتجه رأسا إلى المردمة. و كان دون شك مكانا يدل على مرتفع من الأرض أو سد على الفرات أو إحدى قنواته. و يدل جذر (ر د م) على فكرة السد، و غلق الثغرة بتكديس المواد فضلا عن أن هناك من يتولّى جمع العشور (المقصود هنا مكوس المرور و الجمارك، و المكوس التجارية)، و أخيرا، لأنا نجد شبيبا بمنطقة الفرات أسفل الكوفة (أسفل الفرات) فورا بعد مروره بالمردمة حيث اصطدم بأحد أعوان الحجاج الذى جاء بصحبته من البصرة و تأخر فى الطريق. و هناك مؤشر أخير هو أن صاحب الكوفة جرحت كبرياؤه و أهين فاستيقظ من سباته و وجه بسرعة جيشا لمطاردة شبيب و التقى قادته فعلا «بأسفل الفرات». إن كل القرائن تدل على أن خطة بكر ممن أقاموا بالكوفة اتحدت مع خطة عجل و تغلب و كانت تقع فى العصر الأموى بالجنوب الشرقى من الحزام السكنى و داخله: بين قيس و بقايا تميم (بنو العنبر) من جهة، و كندة من جهة أخرى، لكننا نجهل هل استقروا بالمكان الذى كان خاليا فى بداية الأمر، على المخطط المتعامد و هل دخلوا الخطة الأولى التى كانت للأزد. و ما زالت؟. أما قضية بكر الخارجين عن الكوفة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۶۵

و الموجودين بأسفل الفرات كما بعيدا جدا إلى الغرب فى قلب البادية فقد اتضح وضعهم إلى حد ما بفضل هذا النّص.

ج) جرت محاولة ثالثة لدخول الكوفة سنة ۷۷ ه. كانت أكثر اتصافا بالمظهر الدرامى من المحاولات الأخرى، لأنها كانت معركة حقيقية و منظّمة خسرها شبيب. فقد ضخم أبو مخنف الأحداث أكثر مما فعل عمر بن شبة الذى ورد ذكره أيضا فى تاريخ الطبرى، فلوّن المحاولة و وتّرها إلى أقصى حد. و الثابت أنه لا شبيب و لا زوجته غزالة تمكنا من دخول الكوفة، خلافا لأسطورة شاعت و تواترت.

و لنستعرض مجرى الأحداث: لقد سبق لشبيب أن هزم جيوش الحجاج «بأسفل الفرات»، ثم حاصر بعد أشهر المدائن و قد قيل إنها كانت أحد أهدافه الرئيسة فضلا عن الكوفة. ثم هجم على الكوفة انطلاقا من المدائن، فمر بالطريق المعهود التى تعبر الصراة و سورا و حمام أعين، و بلغ الجسر فاصطدم بجيش لجب من الكوفيين، لكن هذا الجيش لم يقدر على صدّه فتفرقت ريحه. و لا فائدة من التعليق على السر الموجود فى قوة الخوارج و ضراوتها، و على قلة الروح القتالية عند أهل الكوفة، فليس ذلك موضعنا. يقول أبو مخنف إن الحجاج استنجد بأهل الشام الذين قدموا و دحروا شبيبا فى الكوفة بالذات فأنقذوا الموقف. و روى عمر بن شبة أن أهل الشام لم يتدخلوا و أن قتيبة بن مسلم هو الذى تكفل بالدفاع عن الكوفة فتكللت جهوده بالنصر. اختلفت الروايتان و كانتا غنيتين بالمعلومات الطوبوغرافية. و أفاض أبو مخنف فى القول، و اتسمت رواية ابن شبة بالإيجاز و الكثافة، و كانت مقتضبة

شحيحة التفاصيل، و قد برزت فى كلتيهما أهمية موقع الشمال الشرقى خارج المدينة ذاتها، فكان مكانا مفضلا بصفته مسرحا للعمليات.

و روى أبو مخنف أن شبيبا عبر الجسر و أقام قريبا منه نحو الكوفة، أى قبل جسر المراكب. و قال إنه عسكر ثلاثة أيام دون ذكر اسم الموقع بالضبط، لكنه قال إن شبيبا أمر فى اليوم الأول ببناء مسجد بطرف السبخة من جهة المكان حيث يقيم (أو سيقيم؟) تجّار القّت (و هو نبات للدواب)، حيث يوجد الايوان. و أضاف أن المسجد «قائم حتى الساعة».

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۶۶

و يشدّ اليوم الثانى انتباهنا لأن الحجاج أمر مواليه المسلّحين بالتحصّن فى مدخل السكك.

و كذلك فعل أهل الكوفة الذين «وقفوا على أفواه السّكك»، فكأنما وجدت سكك عمومية أسندت لحرس الوالى وحدهم و لرجاله (المقصودة بالذات سكة البريد التى سيأتى الحديث عنها)، و سكك للخطط ينبغى للسكان أن يدافعوا عنها: هذا مجرد افتراض جدير بالاعتبار.

ثم رتب الحجاج الأمر فى اليوم الثالث، و هو يوم القتال الحقيقى، بحيث تمركز قادة جيش الكوفة، لا- أهل الشام، فى «أفواه السكك». و لم ينج الحجاج نفسه من حركة تطويق قام بها شبيب إلا بالاستماتة فى الدفاع عن سكة لحام جرير إما بمساعدة السكان و إما بمساعدة رجاله، و لا علم لنا بذلك بصفة دقيقة.

اشتد القتال فى اليوم الثالث و قد دار رحاه خارج الكوفة ذاتها، حيث كانت السكك مسدودة، فدار فى مكان خال يبدأ بالسبخة و ينتهى بالجسر. و نحن ندرك حدوده نوعا ما بالمقارنة بين هذه العملية و بين ثورة المختار التى رويت بصورة أقل دقة، إذ أحاطت به علامات كثيرة: القصر بداية و منه انطلق الحجاج ثم سكة البريد التى مر بها و أخيرا «أعلى السبخة» حيث انتهى به المطاف. و بعد أن تمّ صد الحملات العنيفة التى قام بها شبيب من قبل جيش الشام الذى كان حصنا منيعا قام بالدفاع المستميت فلم تمكن زحزحته عن موقعه، فضلا عن أن خطب الحجاج بعثت فيه الحماس، أمر شبيب جانبا من جيشه باقتحام سكة لحّام جرير ليقطع خط الرجعة على الحجاج، لكن ردّ الهجوم. و الملاحظ من الآن أن سكة لحام جرير تقع حيث يمكن الوصول إلى سكة البريد بعد المرور بها، و ذلك بالاعتماد على هذه العملية و أيضا من الوجهة الطوبوغرافية، و حيث يمكن الأخذ بسكة البريد حتى الخروج منها فى أعلى السبخة حيث كان الحجاج فى بدء القتال. و رأيى أنه ينبغى تعريفها كإحدى السكك المتجهة من الغرب إلى الشرق و المنطلقة من المركز، و هى تعبر السوق و تقسم الخطط الشرقية وصولا إلى وسط السبخة. إن هذا التفسير تفرضه إعادة قراءة الرواية الخاصة بالمختار إذ ورد فيها ذكر تلك السكة، كما جاء فيها أن يزيد بن الحارث بن

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۶۷

رؤيم (من ربيعة) تمركز فيها، و قد وضعه أبو مخنف «على أفواه سكك الكوفة التى تلى السبخة». لكن ينبغى تسجيل قدرة الجيش الذى وجهه شبيب على اختراق خطوط الحجاج، و أن هذه الخطوط لم تقدر على منع الدخول إلى السبخة، و سنستعرض فيما بعد النتائج الطوبوغرافية الأخرى المترتبة عن هذا النص.

فى المرحلة الأخيرة من المعركة، أعاد الشاميون الهجوم بعد أن صمدوا دون حراك و على الركب، و كأنهم جدار من الرماح، أمام الهجمات المتكررة لخيل شبيب. فردّوه تدريجيا على أعقابه و قد كان يستميت فى القتال. و بلغ شبيب أخيرا بستان زائدة الثقفى.

أما الحجاج، فقد تقدم و استولى على مسجد شبيب. و نستنتج من السياق أن المسافة الفاصلة بين هذا المسجد حيث عيّن الحجاج نشابين، و بين بستان زائدة لا يستهان بها، لكنهما كانا يقعان بالمنطقة ذاتها. و ما لبث القوم أن نهبوا معسكر شبيب، و يظهر أنه

كان يقع قرب الجسر، و هكذا تحدد المكان فى ثلاثة مواضع مختلفة علما بأن أبا مخنف أكد عند حديثه عن المختار أنه «نزل فى ظهر دير هند مما يلى بستان زائدة فى السبخة»، و المفروض أن زائدة كان من ثقيف فكان بستانه يقع إما فى طرف هذه الخطة و إما فى مكان خارج عنها لكنه موجود فى امتدادها. و قد عمرت هذه المنطقة الشمالية الشرقية المحاذية للفرات بالبساتين فى أيامنا هذه لكن لا شك أن بستان زائدة كان يوجد بعيدا قليلا عن النهر على الحد الشمالى الغربى من السبخة.

فهل تسمح رواية عمر بن شبّة برؤية أدق لهذه النقاط الدالة؟ حقّا كان ابن شبة

من البصرة فى حين أن أبا مخنف كان من أبناء الكوفة بامتياز. و كان يفصلهما قرن أو يزيد، لكن عمر بن شبة كان من المعمّرين و هو يعتبر أول المؤرخين للعصر العباسى و من أجودهم دون شك، فقد اهتم بالمدن و ألف بالخصوص كتابين عن الكوفة استمد منهما الطبرى هذا القول على الأرجح. كان بعيدا عن الأحداث قياسا لأبى مخنف، و أقل دراية منه أيضا- فى نسق المعاش- بأسرار الكوفة القديمة فى العصر الأموى لكن لا يمنع ذلك من أنه مصدر جدير بالثقة و المراجعة و النظر و المقابلة بمصدرنا الرئيس.

يضمّ تأليف عمر بن شبة بصفة تراكمية عدة أخبار حاول الطبرى تقديمها ضمن رواية مسترسلة متفاوتة التماسك. و قد أورد فى عدّة أماكن العناصر الطوبوغرافية البارزة المتمثلة فى دار الرزق و السبخة و الجسر. فورد خبر أول مقتضب يصف الخطوط الكبرى لمسيرة الحجاج و قتيبة: باب الفيل- و طريق دار السقاية- السبخة، «و بها عسكر شبيب». و لم يذكر سكة البريد أو السكك الأخرى، أو أنه ذكر القليل عنها لكنه أوحى بوجود طريق كبرى تنطلق من مركّب المسجد و القصر، و تنفتح على السبخة، و قد كانت محاذية لدار السقاية التى مر ذكرها. ثم يتوسع مؤلفنا فى القول و يدقق و يزداد وضوحا. فقد ذكر أن شبيبا و هو لا يزال على ضفة النهر الثانية وجه أحد ضباطه ليفتش عن مكان يعسكر فيه «على شاطىء الفرات فى دار الرزق» و منع الرجل من ذلك مرة أولى، من طرف جنود تمركزوا بأفواه السكك. فوفق فى هزمهم. و يبدو أن التحكم فى المخارج- مخارج الشمال دون شك- كان حاجزا للوصول إلى هذه الدار. «و مضى البطين إلى دار الرزق، و عسكر على شاطىء الفرات و أقبل شبيب فنزل دون الجسر». المهم فى هذه الجملة تحديد موقع دار الرزق على ضفة النهر اليمنى. و الأهم من ذلك أن عبارة «شاطىء الفرات» فيما يظهر، تنطبق خاصة على قسم معين من النهر يقع فى شمال الكوفة مباشرة بأعلاها و هو ما يطابق بنية معينة لسطح النهر تختلف دون أى شك فى السبخة. هذا و إن مكان دار الرزق بالنسبة للجسر

بقى غير دقيق باستمرار، لكن يبدو أن هناك تجاورا شبه مباشر. و بما أن الحجاج لم يتحرك، فقد تحول شبيب إلى السبخة ليعسكر هناك «بين الكوفة و الفرات». فلم يبق أدنى شك عند هذا المؤلف بخصوص تحديد الموقع، خلافا للغموض الذى ساد رواية أبى مخنف، أى فى الشرق تماما، فتميّزت بوضوح عن دار الرزق و الجسر و الشاطىء كما أكد ذلك بعد قليل سير الأحداث، و لا سيما تراجع شبيب.

و لم يشر أبو مخنف فى أى مكان من كتابه و ضمن هذه المحاولة الثالثة، إلى دار الرزق، فى حين جعل ابن شبة منها محور محيط المعارك هذه، و عنصرا مركزيا فى كل حال. إنما ينبغى التذكير أن أبا مخنف قدم هذه البناية خلال المرحلة الأولى بأنها المكان الذى اختاره شبيب بالذات ليعسكر فيه، فى حين أنه لم يعبر النهر على الجسر. و لعل الدار قريبة من الجسر أو موجودة فى الشمال- أى أنها كانت أبعد بناية فى الكوفة. و من الواضح أنها كانت موجودة خارج السبخة، حتى عند أبى مخنف.

عودة إلى سيف بخصوص دار الرزق

صمتت المصادر حتى ذلك الوقت عن هذه العلامة الأساسية، على الرغم من كون دار الرزق تقع بمنطقة ساخنة و صاخبة و مشحونة بالتاريخ بصفة خاصة. كانت منطقة تربط الكوفة بالسواد- المكان الشديد الحيوية بالنسبة إليها- و الرئة التى منها يتنفس المصر، لأن اهراء القمح هذا لم ينشأ صدفة، حيث كانت الكوفة تستمد قوتها منه، و الأرجح أن دار الرزق أنشئت منذ ولاية زياد. على أن سيفا روى معركة البويب (سنة ١٣ ه حسب تحقيبه) و أشار إليها صراحة عدة مرات فى خبر امتاز بوضوحه، سواء بالنسبة لدار الرزق أو الكوفة كلها. لقد سبق أن قلنا إن المعركة دارت على موقع الكوفة ذاته: «المشركون بموضع دار الرزق، و المسلمون بموضع السكون». ثم دقّق سيف مقاله مرّتين بأن أضاف

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٧٠

أن الفرس عبروا نهر باسوسيا و بلغوا شوميا التى تحدد موقعها بموقع دار الرزق المقبلة.

لعل هذا المكان مطابق لمركز إقامة بشرية ظهرت فى الماضى أو فى ذلك العصر، خصوصا و أن اسم المكان هذا (شوميا) له مظهر سريانى أو آرامى محلى خاص بوادى الرافدين، و الشىء نفسه بالنسبة لباسوسيا فى المرحلة السابقة كرأس جسر؛ على أن كل هذه المعلومات لا تفيدنا كثيرا.

و خلافا لذلك، فما هو موح و مشحون بالإشارات و ذكريات الماضى البعيد و أيضا بالاسقاطات الخاصة بالعصر العباسى الأول أى عصر سيف، إنما هو موجود فى جملة المعطيات الخام المتنوعة التى يقدمها سيف و الطبرى. و هى عبارة عن خليط من الأخبار المدونة فى كل حال بصفة متماسكة كانت عناصرها أصلية فضلا عن الطابع الماضوى المقصود فى الطوبوغرافيا المشار إليها. إن «السكون اليوم» هو حى كندة، أو قسم منه، مما يعيد إلى الأذهان أن هذه العشيرة سبق لها أن اشتهرت بمسجدها و بحضورها فى قلب جنوب الكوفة. و إذا كان الفرس وقفوا حيث نشأت دار الرزق فيما بعد فلأن هذا المكان كان يقع فى الاتجاه المعاكس تماما أى فى قلب الشمال. هما نقطتان قصيتان. و سواء صح الأمر أم كان خاطئا، فهى علامة دالة تريد أن تكون ناطقة مبسطة؛ و بعد إمعان النظر فى التفاصيل نجد أن «المشركين» قتلوا «فيما بين السكون اليوم و شاطىء الفرات، ضفة البويب الشرقية». و لذا يظهر أن «شاطىء» الفرات و دار الرزق مترادفان عمليا ثم ما لبثت التدقيقات أن تراكمت، فوصف البويب بأنه كان قناة لتصريف الفرات فى العصر الساسانى، عند مد البحر، و مغيض النهر الذى يصب فى الجوف. و لعل المعركة دارت على الشاطىء الشرقى من نهر البويب «بين السكون و مرهبة و بنى سليم». هذه ثلاث علامات. و لعل موقع الكوفة عبرته قناة فى اتجاه شمال- شرق- جنوب (إن بنى سليم كانوا حقا علامة يشار إليها باستمرار) مع انحراف طفيف فى اتجاه همدان (مرهبة). و قد انسدّت القناة أو أنها كانت فى طريق الانسداد فهل كان هذا النهر بالذات، أم أنه نهر آخر ذاك الذى سمى «نهر بنى سليم اليوم»؟ كان هذا الخبر استطرادا تخلل الرواية. فحين

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٧١

كان سيف منكبا على تأليف أخباره كانت هناك قطائع بقيت من الخطط القديمة و خلفت آثارها فى أسماء المكان منها سليم و مرهبة و كلاهما موضع حقيقى قائم بذاته، و كانت هناك شظايا ذكريات عن حضور قديم جدا: مثلا البويب ذاته. لكن تنتابنا فى كل حال الحيرة بخصوص دار الرزق التى ورد ذكرها فى أخبار جانبية اعتمدها الطبرى و قد طفت أيضا قصائد فى رواية سيف، و هى تتحدث عن النخيلة «إذ بالنخيلة قتلى جند مهران». ذلك أن هذه الشهادات الأولية استندت دون شك إلى علامة موجودة فى ذلك الوقت، لا إلى علامات مقبلة، و تشكل النخيلة محطة أولى على الطريق الداخلية للجزيرة و دمشق و كانت تقع

إلى شمالى الشمال الغربى من الكوفة؛ على أنه يصعب تحديد موقعها تحديدا قطعيا، و لم يتوفر لنا أى خبر عن بعدها. و بما أنها كانت مرحلة و نقطة توقف فإنه ينبغى التمسك بفكرة المسافة الدنيا- ربما فرسخ. فإما أن هناك خبرين منفصلين انفصالا جذريا و هو الأمر الأكثر رجحانا، و إما أن هناك تربة مشتركة بينهما. فى هذه الحال تكون دار الرزق و النخيلة اختلطتا فى فكر شهود لا ينزعون إلى التدقيق إلا قليلا، و يكون الذى أثر على هذه النظرة هو شعور غامض ببعد دار الرزق عن الكوفة بحيث أن النخيلة و الدار وضعتا معا على صعيد ذهنى خيالى و بصرى واحد. و يتبين من هذا النقاش بالخصوص، و بالاستناد إلى رواية سيف إجمالا، وجود شعور مفاده أن دار الرزق تشغل موقعا قصيا فى اتجاه الشمال الشرقى، أعلى بكثير من الجسر، مع بقائها داخل نطاق الكوفة بالذات و فى محيطها.

حصيلة تصورنا

رأينا أن اقتفاء أثر شبيب أفادنا فى التقدم للإحاطة بالتركيبة الطوبوغرافية للكوفة.

لقد اندمج أكبر قسم من المشاكل المطروحة، و ما كان يؤمل من نتائج فى ثنايا العرض، نعنى موقع قطائع بكر فى حزام الخطط، و تقارب موقع مزينة و سليم، و الأخبار المتوافرة عن تشتت بكر فى الجنوب الشرقى و الجنوب الغربى فى آن واحد أى أسفل الفرات و البادية، و تعميق معرفتنا بمنطقة السبخة و الجسر، و دار الرزق، و أخيرا ملحوظات عن السكك.

هناك بعض النقاط التى تستحق إعادة النظر، و التثبيت و الحسم. و بعبارة أخرى: ما

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۷۲

هى النتائج الدقيقة الجديرة بالتسجيل على خارطة للكوفة؟ و ما هى الحقائق الجغرافية الطوبوغرافية الواجب وضعها؟

و لنوجز القول: توجد بكر فى الجنوب الشرقى، و تقع السبخة فى الشرق تماما و تتقدم إلى الشمال، و يوجد الجسر فى الشمال الشرقى بموقع خارج المدينة، و تقع دار الرزق أبعد من ذلك؛ هذه أمور مفروغ منها أو تكاد. لكن لنتقدم فى مجال النسقية و الدقة.

۱) يمكن التمييز بين الكوفة بالمعنى الدقيق- المركز و الحزام السكنى- و بين امتداداتها المباشرة التى كان من المفروض أن تكون خارج السور، لو كان هناك حرم: السبخة و الجسر و دار الرزق و الإيوان و مسجد شبيب الجديد.

۲) يبدو هذا البلد بالذات كثيف العمران و تشكل الدور المتلاصقة جدارا لا يمكن تجاوزه بالنسبة للأطراف، و ذلك لتلاحمها و امتدادها دون انقطاع، فلا يمكن دخول الكوفة إلا عبر السكك. كان الأمر واضحا بخصوص مصعب، و هو أكثر وضوحا بخصوص شبيب. و المفهوم من ذلك السكك التى شكلت خطا مستمرا للدخول، فكانت إما بقايا للشبكة الأولى، و إما سككا جديدة. لكن السكك الثانوية كانت تلعب أيضا دورا معينا.

۳) إن التحكم فى أفواه السكك أصبح عنصرا أوليا فعالا دائما للدفاع. و اعتقادنا أنه لم يكن يوجد أى جهاز تحصينى بهذه المداخل، كالأبراج و غيرها، فكان المدافعون يجثمون على سطوح الدور أو يكمنون بمداخل السكك. و إذا كانت كلمة «أفواه» تعنى من جهة أخرى و قبل كل شىء كل نقط الدخول للطرق الرئيسة، فإنها تعنى أيضا الطرق الثانوية التى تصب فى الأولى. و إذا اقتحم المهاجمون طريقا كبرى لا يلبث أن يظهر المدافعون من «أفواه» أخرى و بذا كانت السكك تشق كل طريق- فهل كانت تقطعها قطعا تعامديا أم قطعا مائلا؟ إنه لأمر يؤثر على تخطيط المدينة كما هو متصور. إن التخطيط على شكل رقعة غير مرفوض بل بالعكس. لقد أصبح قابلا للتصور أكثر فأكثر، كما أنه صار محل تصديق، لكن لا يوجد أدنى يقين فى هذا الموضوع. و من المعلوم أن سيفا تحدث عن سكك ثانوية كانت محاذية للسكك الرئيسة ثم إنها «تلتقى» بها. فكيف كان يتم

هذا الاتصال؟ هل

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۷۳

كان يتحول إلى زاوية من ۹۰ درجة؟ أم أن تحوله نصف دائرى؟ أو بواسطة نسق كامل من السكك المائلة تتسبب فى تعقيد التخطيط تعقيدا عجيبا؟ أم بالخلط بين النمط التعامدى و النمط المائل، هو الحال تقريبا فى كل مدينة؟

هذه قضايا مستعصية على الحل. لكنّ تشابك الطرق ثابت، بحيث أن تقاطعا ما ينقذ المدينة من الاختناق و يكفل الاتصالات المعقلنة. و لا مراء فى أن فكرة انتظام تخطيط الكوفة تفرض علينا وجودها مجدّدا و بقوة.

۴) إذا وجب اعتبار سكة لحام جرير كأحد الشوارع التى تقطع الجانب الشرقى من المدينة لا كشارع يتجه إلى الشمال الشرقى و ينفتح على الجسر كما تصوره ماسينيون فإن وضع سكة البريد يبقى فى غموض دائم على الرغم من التوضيح الحاسم الذى قدمته النصوص التى روت قضية شبيب. يبقى غامضا لما ينطوى عليه من مخاطر الاسقاطات الزمنية، التى قد تنجم عن التسمية كما عن الأمر ذاته. و إذا ما صدقنا البلاذرى فإن سكة لحام جرير خطأ تاريخى، و هو الذى جزم بأن تسمية بعض الأماكن بأسماء فارسية حصل بعد مجىء جند خراسان (أى بعد سنة ۱۳۲ ه). لكن لعلها كانت موجودة حتى قبل ذلك خلال ولاية الحجاج باسم جرير اللحام و حتى بدون إسم بالمرة. أما بخصوص سكة البريد، فالشك ما زال قائما، و قد أشرنا إلى تخميننا ذاك، و هو يتمثل فى وجود سكة البريد فى العصر العباسى فى اتجاه بغداد. ألم تكن طريق النخيلة أكثر استخداما للذهاب إلى دمشق؟

لماذا تضارب أبو مخنف و المصادر الأخرى بصفة عامة، فقيل لنا إن الطريق كانت تمر بأرحب و شاكر من جهة و إنها كانت تشكل خطا مستقيما يربط بين القصر و شمالى السبخة و الجسر كما هو محتمل من جهة أخرى؟ ألم تتطابق الذكريات بخصوص طريقتين متواليتين

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۷۴

إحداهما من العصر الأموى و الثانية من العصر العباسى؟ و فى هذه الصورة لعل الحجاج لم يعبر سكة البريد الموجودة فى عصره، بل عبر ما سمى بهذا الإسم، و لعلها سكة وجدت على أساس أنها الطريق المؤدية إلى السواد و المدائن، علما أنه يمكن التفكير فى طريق البريد الرسمية التى ربما اتخذت فى العصر الأموى مسلكا آخر مخالفا للمسلك المتوخى داخل البادية، أى أنه مسلك آخر غير مسلك النخيلة، و استخدمت الطريق و المحطات الساسانية. و بذلك لعل طريق البريد من الحيرة إلى المدائن، و من الكوفة إلى دمشق و إلى بغداد العتيدة، تطابق جزءا من الطريق. هذا تعليل يقوم على افتراض صرف. و على كل حال، لا يوجد أى شك بخصوص وجود سكة رئيسة فى القرن الهجرى الأول، تتجه كخط القطر من القصر و تمر بالمسجد (ذكر عمر بن شبة باب الفيل كنقطة انطلق منها الحجاج، و لم يذكر سكة البريد)، و تنفتح على الجزء الشمالى من السبخة، و المرجح أنها تصل إلى الجسر، أما نحن فنميل إلى الاعتقاد بأن هذه التسمية لا تاريخية، سابقة للأوان.

۵) و فيما يتعلق بالمحيط الذى يقع إلى شرقى الشمال الشرقى، و يأتى بعد «أفواه» السكك، أى مداخل المدينة دون أبواب، تبقى المسافات الفاصلة بين المواقع المحددة مجهولة إطلاقا. و لا يعدو الأمر أن يكون إلّا ترابطا للمواقع التى تتشارك فى التحديد.

فانطلاقا من السبخة، و بالاتجاه شمالا و محاذاة للفرات بصورة متفاوتة، يمكن على التوالى استعراض النقط التالية: مسجد شبيب بطرفها، إلى جانب الإيوان (لعله كان عباسيا؟) و بستان زائدة و الجسر و دار الرزق، و يمكن عكس النقطتين الأخيرتين.

و أخيرا، فإن الركن الشمالى الشرقى الذى تخترقه سكة البريد أو ما يقوم مقامها، من طرف إلى آخر، بقى نقطة ممتازة للدخول، على الرغم من امتلاء الفراغ الأصلى بالبناءات، إضافة إلى الجانب الشرقى و الكناسة، و الركن الجنوبى الشرقى بصورة ثانوية.

تلك هى النتائج التى نستمدها من تحليلنا لعملية شبيب التى زادت من وضوح تصورنا للكوفة و قضت على كثير من الشك. من

بين أربع ثورات هزت مدينة الكوفة فى العصر الأموى، كانت ثورة شبيب و ثورة المختار هما الأكثر نطقا على صعيد البحث الطوبوغرافى.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۷۵

الباب السادس التطور و الاستكمال ۸۰- ۱۵۵ ه/ ۷۰۰- ۷۷۲

اشارة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۷۶

- ۱۹- أجيال جديدة، عصور أخرى

اشارة

إنها فترة طويلة دامت ثلاثة أرباع القرن، يمكن فى الوقت نفسه اعتبارها عصرا ثانيا للوجود الأموى و المرحلة الثالثة لعصر تاريخى يشتمل على ثلاث درجات. إن النظرة العادية للحكم الأموى تميّز العصر السفيانى (۴۱- ۶۴)، و العصر المروانى الأول (۶۵- ۹۵ أو ۶۵- ۱۰۵)، و أخيرا عصر المروانيين الأواخر و هو حقبة أفول الدولة، و قد تخللته النزاعات الداخلية. إن مثل هذا التقسيم إلى عصور، صالح من عدة وجوده، إلا أنه لا يأخذ بعين الاعتبار ثراء الأحداث الكبير بالنسبة للعراق و الحجاز تلك الأحداث التى أحاطت بحكم ابن الزبير و دامت عشر سنوات. و بخصوص الكوفة قد يتأكد الشعور أن كوفة المختار تنتسب إلى الجو نفسه الذى عاشت فيه كوفة شبيب لأن شبيبا مدّد بحركته اللحظة السابقة. و على الصعيد المدنى فإنّا نجد الأجهزة نفسها تقريبا و قد احتفظت المدينة بالقسمات نفسها بعد أن استتمت بناء مظهرها الرئيس. لكن إن كانت التغييرات الطوبوغرافية قليلة فى الثمانينات من التاريخ الهجرى، فقد طرأت تحويرات مهمة على نظام المدينة، و فى مظهرها الاجتماعى الداخلى، و علائقها بالخارج. إن هذه اللحظة تشكل انفصاما تراكم على فترات الحكم (مثل ذلك بقاء الحجاج على رأس الولاية)، و قام على تحول طرأ على الهياكل العميقة. و إذا ما سبرنا الأمور، أمكننا طرح القطيعة التى سادت الامبراطورية العربية كافة، قطيعة بين عصر أول امتد على أربعين سنة و تعلق بالعصر الأولى التكوينى و التأسيسى، و بين عصر ثان مجذوب نحو المستقبل، عصر حفاظ و عصر هروب إلى الأمام.

ففى سنة ۸۰، لم يبق على قيد الحياة أى شخص من أولئك الذين عايشوا فترة الرسالة و الفتح. و حتى زهرة بن الحويّة بطل القادسية فقد قتله شبيب، و قد عرفه الحجاج شاهدا

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۷۷

وقورا على عالم بطولى، و معمّرا كاد يبلغ المائة. الأجيال غير الأجيال و العصور غير العصور.

منعرج الثمانينات

بصورة محسوسة أكثر، كانت ثورة ابن الأشعث (۸۲- ۸۳) منطلقا لإنشاء عاصمة إدارية و عسكرية أموية صرف فى العراق، نعنى واسط. و فقد المقاتلة فى الكوفة و البصرة استقلاليتهم بعد أن احتل جيش الشام العراق بصفة دائمة. و بالتالى، صارت الأمصار

منزوعة السلاح فعلا- و استمر العمل بالنسق الجبائى السابق- الذى أنبنت عليه الأمور كافة- (الخراج و العطاء و الرزق)، لكن داخله الاضطراب. لقد قدرت مداخيل الكوفة فى ولاية زياد ب ۴۰ مليونا من الدراهم، فى حين كانت مداخيل البصرة ۶۰ مليونا. و كانت ۶۰٪ منها تحول إلى عطاء الرجال المسجلين بالديوان، و تنفق ۲۷٪ على عطاء الذرية و توجه حوالى ۳ ملايين درهم إلى الخليفة و ينفق الباقى محليا مع إبقاء جزء منه «للبوائق و النوائب». و بذلك بلغ خراج المدينتين ۱۰۰ مليون درهم، و هو المقدار المساوى لما كان يجمع فى خلافة عمر. ثم انخفض فى ولاية الحجاج إلى ۲۴ مليونا، و قد حصل أن ارتفع إلى ۴۰ و حتى ۸۰ مليونا، لكن الانهيار أمر واقع. و ينبغى ربطه بالإرث الذى خلفته فترة طويلة من الاضطرابات السابقة، فضلا عن التشويش الذى أدخله شبيب على النسق الجبائى (كسر الخراج). كان اضطرابا مقصودا متعمدا إذ ألقيت و بعثرت أكياس ملأى بالدراهم. و أخيرا فقد اندلعت ثورة ابن الأشعث (۸۲- ۸۳)، و هى ثورة «المصرين» دون أن يكون لها محتوى إيديولوجى، حيث أن توجهها تمثل تماما فى إرادة القضاء على الحضور الأموى فى العراق.

كانت النتائج متنوعة مهمة، تمثلت فى الانفصام النفسانى بين أهل العراق و النظام كما

فى الاتجاهات الجديدة للسياسة الأموية فى عدة ميادين. و باستثناء هذا الحدث الأكبر شحن العصر بالتحولات: كانت تحولات قادمة من الماضى و بلغت حد النضج، و تحولات مقبلة فى حالة نشوء. روى أن الحجاج طرد شر طردة الأنباط من أهل الريف الذين هجروا الأرض و توجهوا إلى المدينة لمشاركتهم فى ثورة ابن الأشعث. كانت مشاركة ضخمة فعلا. لكن على مستوى التخطيط و القيادة لم يوجد إلا القليل من الموالى المتعربين و المتأسلمين من الذين اندمجوا اندماجا تاما فى الحياة العربية. و لم يبد الحجاج عداء للموالى المتعربين فى أول الأمر، بل أنه استفاد من كفاءاتهم استفادة واسعة. و قد شمل قراره المهم الاعلاج الفارين من الأرض فقط، على ما يظهر.

لقد كانوا جسدا غريبا تمام الغربة، و لا بد أن هجرتهم إلى المصر بدت فى نظره ظاهرة جماعية تسىء إلى التوازن. و الحق أنه من الصعب أن نطالب شخصا مثل الحجاج كما أن نطالب روح ذلك العصر بحل شامل لمشكل العلاقة بين الأمة صاحبة السيادة و الشعوب المولى عليها، لكن نرى المشكل يطرح نفسه بكل الخطورة و أكثر بكثير مما كان عليه زمن المختار، و هو المشكل الذى سيلقى بكل وزنه على أفق نصف القرن القادم. و اختار الحجاج العودة إلى الفتوحات كأفضل علاج يوجه للتكدّر العام المسيطر على العراق. كان ذلك أيضا أنجع وسيلة لتبرير الإبقاء على العطاء و على وضعية المقاتلة بالنسبة لأهل البصرة و الكوفة. فهؤلاء صاروا خاضعين لرقابة أهل الشام فى عقر دارهم و قد انتزع منهم السلاح إن صح القول، لكنهم يقومون بأعباء وظيفتهم القتالية فى الأراضى البعيدة، بخراسان و سجستان و السند، و آسيا الوسطى بعد مدة وجيزة. و استمر و تفاقم توجيه البعوث النظامية بصفة منتظمة و بالمداورة.

لا نزاع فى أن التسعينات شكلت لحظة قوية جدا للتوسع العربى. و قد ترتب عن ذلك اتساع هائل لمساحة الامبراطورية أنجز و توبع بإصرار، فكانت نتائجه دائمة. من فرغانة إلى الأندلس. و فى هذه الربوع النائية سيترسّخ و يتنظم الحضور العربى، و بعد سنة ۱۰۰ للهجرة سيأخذ طابع الدوام و ينفصل انفصالا واضحا متزايدا عن قواعده العراقية. و هكذا

انتقلت عصبية أهل البصرة بكل عنفها إلى خراسان نتيجة استبقاء الوظيفة الحربية بهذه المواجهة. و كان لأهل الشام أيضا مواجهتهم بشمال سورية و بأرمينية و بعد قليل بالجزيرة: مدرسة حربية، عصب للقوة الضاربة و لكن أيضا و للسبب نفسه بؤرة أساسية للاضطراب، هكذا كان دور المواجهات. فلا- عجب إن وجدت الثورة العباسية موقع اختيارها بخراسان، كما أنه من

المتوقع بعد هذا أن تجرى المعركة الحاسمة بين مقاتلة خراسان الثائرين و بين جيش الشام الذى تحوّل مع مروان بن محمد إلى جيش الجزيرة.

كيف يمكن لمثل هذا التحوّل المتجذر بقوة فى منعرج الثمانينات أن يتجسّم فى مصير مدينة كالكوفة؟ بتزايد الصفة المدنية أى بمظهر مدنى (خلافا للعسكرى) يتأكد أكثر فأكثر و يصاحب الهدوء الصبور الذى خيّم على الكوفة بعد إعراضها عن الصراعات السياسية باستثناء فورات لا طائل من ورائها تجدّ كل عقدين. فكانت بالبصرة ثورة ابن المهلّب و هى إعادة لثورة ابن الأشعث، و نشبت بالكوفة ثورة زيد بن على (١٢٢ ه)، و هى بمثابة الصورة المجددة لحركة مسلم بن عقيل و حركة المختار.

ساد جوّ من السلم الداخلى على الأوضاع اذن، و عاد النشاط الاقتصادى إلى سالف عهده، بل هو شهد توسعا ملحوظا فى السواد و بالكوفة ذاتها أيام ولاية خالد القسرى (١٠٥- ١٢٠). و عادت إلى النشاط المسالك التجارية القديمة بعد عاصفة الفتح، و ظهرت مسالك جديدة (فى اتجاه بلاد العرب خاصة). و بصورة عامة، فقد اتسع حجم المبادلات فى كافة المستويات. و بدأت الامبراطورية الإسلامية قاطبة، تستفيد من توحيد المساحات الذى حققته، و من اتساع فضاءاتها و اختلافها. لقد رقّ الاستهلاك و تنوّع و تزايد.

أما على الصعيد الطوبوغرافى، فقد تمخض عن هذه الأمور كافة بناء الأسواق فى الكوفة خلال ولاية القسرى، و لعبت دار الرزق دورا تجاريا جديدا، و اتسعت المبادلات بحيث شملت الكناسة.

و بقى أن نضيف نقطتين إلى هذه الصورة الأولية: إحداهما ترجع للديموغرافيا، و الثانية تستهدف الإشارة إلى أن الكوفة استردت دورها المركزى ضمن جهاز الامبراطورية و زاد التحامها بمحيطها.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٨٠

التطوّر الديموغرافى

صممت الكوفة فى بداية الأمر لإسكان ٧٠٠٠ إلى ٠٠٠، ٣٠ شخص، هذا هو الحجم الذى ذكرته المصادر التى أوردت أيضا رقم ٠٠٠، ١٠ مقاتل (لا ساكن)، و رقم ٠٠٠، ٤٠. و ينبغى اعتماد رقم يتراوح بين ٠٠٠، ٢٠ و ٠٠٠، ٣٠ من المقاتلة. و من المعلوم أن جموع المهاجرين المتأخرين وفدوا فى رادفة أولى و ثانية و ثالثة و رابعة أثناء خلافة عمر، و طيلة خلافة عثمان التى دامت ثلاث عشرة سنة. و قد شارك من الكوفة مع على ٠٠٠، ١٢ مقاتل فى وقعة الجمل، و الثابت أنه لم يخرج معه إلا جزء من أهل الكوفة. و قد ذكر أبو مخنف بعد وقعة صفين، أن عدد المقاتلة من الرجال يبلغ ٠٠٠، ٤٠، و أن عدد الفتيان يكون ٠٠٠، ١٧، و يبلغ عدد الموالى ٨٠٠٠، فيكونون ٦٥٠٠٠ فى الجملة. إلا أنه أورد الرقم نفسه تقريبا بالنسبة لعصر شبيب، بعد أربعين سنة من ذلك.

لدينا أرقام دقيقة فى عصر زياد (٤٥- ٥٣ فى البصرة، ٥٠- ٥٣ فى الكوفة) تستند إلى رواية متينة ذكرتها عدة مصادر. أحصى ٠٠٠، ٨٠ مقاتل فى البصرة بالديوان، معهم ٠٠٠، ١٢٠ من النساء و الأطفال، أى ٠٠٠، ٢٠٠ فى الجملة. و كان فى الكوفة على التوالى ٠٠٠، ٦٠ و ٠٠٠، ٨٠ أى ٠٠٠، ١٤٠ فى الجملة. و الفائدة التى نستمدها من هذا الخبر تتمثل فى وجود إشارة شاملة، مع أن النسبة بين الرجال من جهة، و النساء و الأطفال من أخرى، من شأنها أن تدعو العالم الديموغرافى إلى التفكير. و ينبغى أن نضيف إليهم الموالى و الرقيق رجالا و نساء و أطفالا، حيث تأكد حضورهم القوى خلال ثورة المختار (لا سيما رد الفعل الشديد الصادر عن الاشراف). و بالاقتصار على الرقم الذى ذكره أبو مخنف، نجد أن نسبتهم هى الثمن، و بذلك فعددهم فى عصر زياد يكون يتراوح بين ٠٠٠، ١١

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٨١

و ۰۰۰، ۱۲ رجل. و أخيرا، خفض زياد من عدد المقاتلة بمقدار ۰۰۰، ۱۰ فی الكوفة و ۰۰۰، ۴۰ فی البصرة و رحّلهم للإقامة فی خراسان.

و هكذا شاهدت الكوفة مضاعفة عدد سكانها خمس مرات فی جيل واحد حيث ارتفع عددهم من ۳۰۰۰۰ علی أكثر تقدير سنة ۱۷ ه إلی ۱۵۰۰۰۰ علی الأقل سنة ۵۳ ه.

حدث ذلك فی عصر زياد حيث أخذت الكوفة شكل المدينة و عاشت فترة استبداد و إعادة تنظيم و صرامة فی التصرف فی الأمور. و بإضافة عدد سكان البصرة يكوّن العدد الجديد كتلة من العمران العربی تبلغ ۳۷۰۰۰۰ ساكن، و هذا رقم ضخم يضفی علی المصرين مظهر التجمعين الكبيرين من البشر و يفرض سلسلة من التطورات المقبلة منها تحول مقر الحكم إلی العراق، و ازدهار الثقافة العربية و الحضارة العربية، اللتين كانتا فی حالة نشوء فی هذين المركزين الرئيسين، و تعريب العراق فی القرنين الثالث و الرابع للهجرة، الخ ...

و هو يفرض قبل كل شیء فكرة التوسع المجالی للمدينتين.

أما فی ولاية الحجاج، و باستثناء خبر ذكره أبو مخنف يبدو رجعا للماضی، فهناك رقم شامل يقدر ب ۱۰۰۰۰۰ مقاتل رافقوا ابن الأشعث، من أهل الكوفة و أهل البصرة و أهل الثغور (المناطق الحدودية البعيدة)، و أهل المسالح (جنود الحاميات القريبة من الجزيرة و حلوان و الأهواز و فارس و الجبال). لم تكن البصرة و الكوفة منفصلتين بعد فی تلك الفترة، من الوجهة المؤسساتية و البشرية، عن ممتلكاتهما الإيرانية النائية. و بذلك يشمل هذا الرقم أغلب قسم- لا كله- من الأرخبيل العربی فی العالم الساسانی القديم. و الرقم الأكثر إيحاء هو أن ۱۰۰۰۰۰ من موالی المدينتين رافقوهم علی الطريقة الفارسية. هنا نلتقی مجدّدا بقضية تضخم عدد الموالی من كل صنف: ليس المقصود بالموالی أسری الحرب المعتوقين كما كان الحال فی العصور الأولی، بل كانوا نتاج النزوح الريفی، و نتاج ميل جديد إلی تشكيل جموع من الاتباع للنشاط الحربی أو التجاری. إذا رجّحنا كما يبدو معقولا أن عدد السكان العرب المدرجين بالديوان بقی مستقرا، فإن العدد الإجمالی لسكان الكوفة قد يكون تضاعف، بدفق الأنباط، أو أنه مر علی الأقل بفترة نمو كبير. إلا أن حركة النموّ هذه تعطلت إلی حين من جراء عدّة عوامل منها عملية الطرد التی نفذها الحجاج و سوء الظروف

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۸۲

العامة، و تأسيس واسط أيضا، و استقرار أهل الكوفة فی وقت لاحق فی «مستعمراتهم» القريبة و البعيدة، و حركة انسياب العرب إما فی المحيط البدوی و إما فی السواد. لكن المصادر تصر علی القول إن ۱۰۰۰۰۰ سيف كانت مستعدة لأن تقف إلی جانب زيد فی سنة ۱۲۲ ه لو شاء ذلك، تأتيه من الكوفة و خراسان. هذا الرقم الوارد فی أكثر من خبر، لا يمكن أن يكون مجرد استرجاع لرواية أبی مخنف حول ثورة ابن الأشعث، فهو إما يندرج فی المثالية التكرارية و الرمزية الرياضية، فيكون تقريبا خالصا لا يعبّر إلا عن ضخامة القوة الضاربة. إلا أنه يكشف مع هذا عن شعور غامض بالعدد الكبير، و ينقل فكرة التكثير. لكنه فی أغلب الروايات لا ينطبق علی الكوفة و حسب، و هذا ما يضيف صعوبة أخری.

و يمر الزمن و نأتی إلی سنة ۲۶۴ ه حيث يرد رقم ۸۰۰۰۰ دار أو نار و لعله يقابل ما يقدر ب ۳۲۰۰۰۰ إلی ۴۰۰۰۰۰ ساكن. كان العصر عصر توسع للحضارة الإسلامية، و عصر الذروة بالنسبة للكوفة، و عصر توسع هام جدا للمجال الدينی، كما يشهد بذلك علم الآثار. لكن بغداد من جهة و سامراء من أخری كانتا تجذبان أهم عدد من سكان الريف و المدن و تعوقان التطور الطبيعی للكوفة. فالمفروض إذن أن هذا الرقم يمثل قاعدة تقريبية صالحة لأواخر العصر الأموی: إن رقما يتراوح بين ۳۰۰۰۰۰ و ۳۵۰۰۰۰ ساكن، فی الثلث الأول من القرن الثانی الهجری، لهو قريب من المعقول تماما بالنسبة للكوفة و منطقتها القريبة. و هو ينتسب إلی

تقديرات العصر: كان مثلا عدد العمال الذين استخدمهم المنصور لبناء بغداد ۱۰۰۰۰۰ عامل، و قد قدم عدد هام منهم من الكوفة. و تواجد أيضا أكثر من ۱۲۰۰۰۰ مقاتل فى معركة الزاب (۱۳۲ ه). و أخيرا تؤيد كل القرائن النمو الديموغرافى السريع، منها الوضع الغذائى الممتاز الذى كانت عليه الأمصار التى كانت تستمد كامل غذائها من السواد و الأهواز و فارس و الجبال و أذربيجان بفضل مؤسسة الرزق، مما جعل المدينة مكانا للأمن الغذائى. و هذا ما يفسّر تدفق الأهالى عليها و ما جدّ من مراقبة للنزوح.

لكن هذه الجموع ذاتها تغذى المدينة بدورها بمادتها البشرية. فالتدفق الخارجى هو العامل

الآخر للنمو الديموغرافى الذى لم يعد يرتبط عائقه الرئيس بالحرب، بل بالعمل الهدام المتأتى من الطاعون المتكرر و لا سيما الطاعون الجارف الذى حدث فى سنة ۱۱۶ ه/ ۷۳۴.

فهل أن استرداد الكوفة لموقع مركزى يعود إلى هذا التطور السريع المتسق، و إلى تهدئة النزاعات، و لكونها نسجت صلات متينة بمحيطها، و خلافا لذلك لكون أهل البصرة مارسوا نشاطهم فى بلاد بعيدة (خراسان و السند)؟ لقد بدأت الكوفة تفقد هذا الموقع منذ سنة ۳۰ ه حيث سبقتها البصرة إلى الاستيلاء على خراسان، ذلك البلد الغنى المبشر بخيرات لا متناهية. ثم ظهرت فترة مجد فى عصر على، تجسم فى انتصاره على أهل البصرة فى وقعة الجمل، فأصبحت الكوفة عاصمة للخلافة، و تجسمت إرادة الكفاح و الهيمنة فى معركة صفين. و قد دفعت الكوفة ثمن ذلك بعد مدة قصيرة حيث أن معاوية و زيادا فضلا البصرة التى انفتحت لهجرة كبيرة جدا. و على ذلك نجد معلومات المصادر عن عصر زياد تدل على تفوق واضح للبصرة. لم تعد الكوفة عندئذ تشكل سوى ثلثى مداخيل البصرة و عمرانها، و هذا انقلاب يسترعى الانتباه عندما نتذكر البداية المتواضعة لهذا المصر. ثم استمرت البصرة فى التطور السلمى فى حين أن الكوفة عاشت المآسى تلو المآسى. إن زيادا و الحجاج أيضا و حتى الوالى الذى ولاه ابن الزبير، و قد أشرفوا على العراق كافة، استقروا بالبصرة و لم يوجهوا إلى الكوفة سوى خليفة لهم لا غير. إلا أنهم أقاموا بالكوفة بصورة منتظمة و التحقوا بها كلما فرض الوضع ذلك.

أما فى عصر ابن هبيرة، و خالد القسرى، و يوسف بن عمرو، و عبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز فقد صار الوالى يقيم بالكوفة أو الحيرة إذا لم يكن موجودا بواسط. و هكذا غادر يوسف اليمن إلى الكوفة خصيصا لعزل خالد و تولى الأمر مكانه، و أعد العدة لقمع ثورة زيد و هو فى الحيرة. و يبدو أن ابن عمر أقام بالكوفة و الحيرة أيضا. و بعد مدة، أمر

يزيد بن عمر بن هبيرة ببناء مدينة ملاصقة للكوفة و قصرا. و لعلّه ينبغى الربط بين استئناف الكوفة لمهمة المركز، و اعتراف السلطة بموقعها الاستراتيجى الممتاز، و بين إقامة ولاية مستقلة للمشرق (خراسان) بأمر من هشام. فلم تعد البصرة مصدّرة للرجال لتعمير خراسان، هذه الولاية التى وقفت على قدميها، و بذلك فقدت البصرة جانبا من إشعاعها فى المجال العسكرى و استرجعت الكوفة فى الوقت نفسه موقعها المتميز كملتقى للمواصلات.

و هكذا تلتئم كل العناصر التى بسطناها. إنها عناصر ضرورية لمحاولتنا شرح ما طرأ من تطور على المدينة فى آخر مرحلة مرت بها خلال العصر الأموى. و هى تنير الطوبوغرافيا، التى لا معنى لها إذا لم ترتبط بكيان المدينة كاملا و بمادتها البشرية و مكانها فى تاريخ متسع تشكل هى جزءا منه.

– ۲۰– الاستمراریهٔ، الاضافات و الابتکارات

اشارهٔ

هـذه کوفـهٔ نصف القرن الأخیر من العهـد الأموی هی بالذات التی عاش فیها أبو مخنف. لا شک أنه ألف کتبه فی مطلع العصـر العباسـی، کما بیّن ماسـینیون، فاسـتعرض العصور السابقهٔ، و بذل جهده فی إحیاء ما مضی من الأحداث، لکن الکوفهٔ التی کانت نصب عینیه هی تلک التی امتـدت حیاتها من سـنهٔ ۸۰ إلی سنهٔ ۱۳۰ ه، أی کوفـهٔ لم تعد تحدّد ذاتها المجالیهٔ بالمدینهٔ– المصـر المتراصهٔ المنحصـرهٔ علی نفسـها، بل صارت تنزع إلی ضم العدید من التجمعات شـبه المدنیهٔ التی دخلت فی فلکها و یشهد علی ذلک تکاثر المنشآت الخارجیهٔ التی أمر بها الخلفاء الأمویون الأواخر و الأوائل من العباسـیین علی السواء، من مثل سوق یوسـف بن عمر فی الحیرهٔ، و سوق أسـد و مدینـهٔ ابن هبیرهٔ، وزرارهٔ و هی آخـذهٔ هیئتها فی ذلک الوقت، و الرصافهٔ و الهاشـمیهٔ، و قصـر أبی الخصیب.

أما بخصوص الخطط التی بقیت مع المرکز، العنصـر الأساسـی للهیکل المـدنی، فینبغی تسـجیل اسـتمراریهٔ الاستیطانات القبلیهٔ، و اسـتقرار الأوضـاع أیضـا. لم یـأت سـکان عرب جـدد زرافـات للإقامـهٔ، و لم یجر أی إحـداث جدیـد فی الخطـط و لاـ کـذلک التحولات التی هی هجرات داخلیهٔ کما وقع فی الخمسین سنهٔ الأولی. لقد تزاید عدد الموالی إنما أقاموا فی خطط أسیادهم. و إذ ورد ذکر مسـجد للموالی، و قد وضـعه ماسـینیون غلطا بأحد أطراف المدینهٔ، فهذا لا یدل علی وجود استیطان خصوصی للموالی غیر مندمج فی الخطط، و لا علی سکن مستقل لهم. إن ما طرأ من تغییرات علی نسق الخطط بمفعول النمو العمرانی، قد وقع علی نمط إما التمدد و الدفع إلی الخارج أو عبر التراص الداخلی. لکن عند الحدیث عن الکوفهٔ و الأزقهٔ و المتاهات و الکثافهٔ السکنیهٔ التی لا شک فیها، فلا بد من التعرض إلی الوجه

نشأهٔ المدینهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ: الکوفهٔ، ص: ۲۸۶

الآخر أی إلی الجبانات و الصـحاری و الأفنیهٔ و الرحبهٔ و السـککٔ ذاتها، التی حفظت للمدینهٔ بنیهٔ منفتحهٔ فسیحهٔ بعیدهٔ کل البعد عن صورهٔ المدینهٔ الإسلامیهٔ فی العصور الکلاسیکیهٔ و ما بعد الکلاسیکیهٔ (القرن ۳– القرن ۸ ه).

الواقع أن الاسـتمراریهٔ تظهر فی أغلب المنظر المـدنی و أغلب علامـاته. فعنـد مطالعـهٔ الروایـات الخاصـهٔ بزیـد بن علی، تعود بنا الـذاکرهٔ إلی أماکن عهـدناها هی جبانـهٔ سالم، و الصائـدیین أو الصوداویین (من أسـد)، و الکناسهٔ، و الجبانهٔ، و جبانهٔ مخنف، و جبانـهٔ کنـدهٔ، و اسـتمرت الـدور القدیمهٔ قائمهٔ و هی تحمل أسـماء مؤسسـیها: دار خالد بن عرفطهٔ، و دار عمرو بن حریث، و دار عمر بن سـعد. و کلها تعیـد إلی الأذهان أن عصـر الإنشاء و التشـیید الحقیقی هو عصـر جیل الفتـح و من جاء بعـده، و هم الذین طبعوا بطابعهم أسماء المکان.

لکن السـلالات تبقی و تسـتمر لدی الأشراف، و هذا ما یفسر أن الدور حافظت علی وظیفتها الأولی، باستثناء دار الولید بن عقبهٔ، التی تحولت إلی دار للقصارین.

لم یخـل الأـمر من إضافـات و ابتکارات کبناء الأسواق، و القنطرهٔ و مصـلّی خالـد، و کنیسـهٔ أم خالـد، و دور سوق الرقیق الـذی صارت تقوم به دار الرزق، و تأکیـد الوظیفـهٔ التجاریهٔ و الثقافیهٔ للکناسهٔ. و تزاید عدد الحمامات، و تطوّرت المناطق المجاورهٔ، و زاد الارتباط بالحیرهٔ بصـفهٔ واضـحهٔ. إن هذه المنشآت و الأدوار الجدیدهٔ طبیعیهٔ فی مدینهٔ فتیهٔ لم تنه بعد تشـییدها الذاتی، ضمن حضارهٔ جدیدهٔ تتشعب، و تدقق معرفتها لحاجاتها، و تستوعب التأثیرات الخارجیهٔ. لکنها ابتکارات أملتها أیضا التغییرات الحدیثهٔ.

۱) بناء خالد القسری للأسواق:

أقیمت الأسواق فی الکوفهٔ منذ البدایهٔ، کما هو معلوم، فی کامل الجانب الشرقی من المساحهٔ المرکزیهٔ مستقلهٔ عن المسجد. و الأسواق من عطاءات الحضارهٔ العربیهٔ الأکثر تمیزا، حیث أن الأسواق الدوریهٔ کانت من أسمی مواضع الحیویهٔ الإجتماعیهٔ و الثقافیهٔ العربیهٔ.

لقد جدد عمر القاعدهٔ لتنظیم الأسواق، فقرر أن المکان یعود لمن یحتله أول مرهٔ: «الأسواق علی سنهٔ المساجد. من سبق إلی مقعد فهو له، حتی یقوم منه إلی بیته أو یفرغ من بیعه».

هذا أمر یناقض ثبات نقط البیع و تخصص الأسواق. علی أنه تمّ لاحقا تحدید فی تطبیق هذه القاعدهٔ و قصرها علی المساحات المخصصهٔ من السوق حیث نری ظهور التمیّز من زمن ولایهٔ زیاد بالبصرهٔ. فقد تحدث صاحب أنساب الأشراف عن «سوق الطعام» أی سوق

نشأهٔ المدینهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ: الکوفهٔ، ص: ۲۸۷

الحنطهٔ و الزیوت. و فی واسط، صممت الأسواق بتخصصات متمیزهٔ، مما یفترض أن الوضع کان علی ذلک النحو فی الکوفهٔ حیث استقر الباعهٔ فی أطناف غطتها الحصر و قامت علی أوتاد (المرجح أنها کانت من قصب).

و تندرج بادرهٔ خالد المتمثلهٔ فی بناء أسواق الکوفهٔ، و هی الأولی من نوعها فی الإسلام، تندرج ضمن سیاق عظمت خلاله المبادلات، نعنی سیاق الازدهار الاقتصادی.

لکن هذه البادرهٔ ترتبط کذلک بإرادهٔ البناء و التنظیم. فقد جدد مقصورهٔ المسجد التی بناها زیاد، و أمر بحفر القنوات منها النهر الجامع، مواصلا بعمله کله الجهد الهائل الذی شرع فیه الولید بن عبد الملک الذی مثل تحولا حاسما فی الانطلاقهٔ المعماریهٔ الإسلامیهٔ. لکن خالدا کان صاحب أعمال میالا إلی المشاریع النفعیهٔ.

کانت المصادر مقتضبهٔ فی تدوینها الحدث. قال البلاذری: «و بنی خالد حوانیت أنشأها و جعل سقوفها أزاجا معقودهٔ بالآجر و الجصّ». أما الیعقوبی فإنه قال: «إنه بنی الأسواق و جعل لأهل کل بیاعهٔ دارا و طاقا و جعل غلالها للجند» (أی لجیش الشام). و لم یقل الطبری شیئا عن هذه الأسواق المرکزیهٔ، لکنه أشار إشارهٔ خاطفهٔ إلی فکرهٔ اتساعها فی الخطط. و استمد ماسینیون نظریته عن مرکزیهٔ الأسواق منها، و هو یری أن أسواق الکوفهٔ «لا شک أنها کانت نماذج لأسواق بغداد». إنه رأی صائب جدا لا سیما أن الأسواق الأولی فی بغداد أقیمت فی طاقات مرکب الأبواب. و قد أمر أوائل العباسیین ببناء الطاقات بالهاشمیهٔ. لکن تهیئهٔ الأماکن فی بغداد و الکوفهٔ لم تکن متماثلهٔ حیث انتشرت الأسواق فی الکوفهٔ علی قطعهٔ واحدهٔ فی الخلاء، قریبا من المسجد، فتمتعت حقا بمرکزیهٔ کاملهٔ. و هو نموذج افتقدته بغداد و أسواقها إلی حد ما، فی حین أن أسواق الکوفهٔ اکتست طابعا نموذجیا من کافهٔ الوجوه، و صالحا لکل مدینهٔ إسلامیهٔ مقبلهٔ.

الحقیقهٔ أن المصادر تطرح علینا مشاکل. کیف نتمثل الأسواق المبنیهٔ؟ هل نتصورها صفوفا من الدکاکین المسقفهٔ علی حافهٔ سکک غیر مسقّفهٔ، إذا ما اعتمدنا قول البلاذری

نشأهٔ المدینهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ: الکوفهٔ، ص: ۲۸۸

تماما؟ أو أنها دکاکین مصطفهٔ تنفتح علی شبکهٔ من السکک المسقفهٔ هی أیضا، و هو الأمر الذی ینطبق علی السوق الإسلامیهٔ المعهودهٔ المقتبسهٔ فعلا من سوق الکوفهٔ؟ و الملاحظ فی هذا الموضوع أن ما ذکره الیعقوبی ینبغی اعتباره و کأنه إضافهٔ، إذ إن خالدا أقطع دارا و أروقهٔ قامت بدور النقطهٔ المرکزیهٔ بالنسبهٔ لکل صناعهٔ، فضلا عن الدکاکین: فکانت مکانا للصنع و التخزین، و

دارا للصناعة و نواة للقيصرية. إن الأمر واضح بالنسبة لدار الوليد بن عقبة إذ قيل إنها كانت فى سوق القصارين الملىء بأصوات المقصات و إنها كانت دارا للقاصرين أى ملكهم الخاص.

و لا نعلم إلا القليل عن طوبوغرافية هذه الأسواق التى تفرعت إلى سككك متخصصة، يوجد بقبلة (جنوب) الجامع، الوراقون، و المتوقع أنها كانت مهنة متأخرة لم يرد ذكرها بالنسبة للعصر الأموى. و فى الشمال حيث المكان الذى احتله الجامع الأول و بمركز المساحة المركزية، نجد التّمارين (تجار التمر) و أصحاب الصابون الذى تخصصت الكوفة فى صنعه. و يضيف ماسينيون قائلا: «و إذن البقالون»، لكن ينبغى أن نفهم من ذلك أن المقصودين هم تجار الفواكه الجافة التى كانت بضاعة شريفة. و لا شك أن القصارين بدار الوليد كانوا يقيمون بأقصى الشرق أو الغرب، و العكس بالنسبة للقلائين. فقد ورد ذكرهم كعلامات تحدد الأسواق، حيث كانت العلامتان الأخريان هما مركّب القصر و المسجد فى الغرب و خطة أشجع و ثقيف فى الشمال. و لا شك أن أصحاب الأنماط (صناع السجاد) كانوا غير بعيدين من المسجد، و كذلك أصحاب الخزّ (الحرير). و لا يمكن تحديد أماكن الحرف الأخرى: السواقون، و الخلالون، و السراجون، و الصاغة، و الزياتون، و الحنّاطون، (و الأغلب أنهم كانوا من تجار الأطياب العطور

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٨٩

التى كانت تمسح بها الجثث، أكثر مما كانوا مختصين فى التحنيط بالمعنى الدقيق). و لا شك أن الجزارين كانوا يقيمون خارج الأسواق فى السبخة حيث كانت لهم دار ورد ذكرها أول مرة أثناء ثورة زيد (١٢٢ ه). و كان للحدادين أيضا مكان خارج مركز المدينة، و لعله يقع بين الكناسة و المركز أو بأقصى غرب المركز. و قد غمض أمر سوق الغنم، عند تدوين الرواية بخصوص مقتل هانىء بن عروة، علما أن ماسينيون حددها بأقصى خطة مذحج.

و لا يسمح النص باستخلاص هذا الأمر إطلاقا، لكن المنطق الطوبوغرافى للأسواق قد يحملنا على وضعه خارج المركز. و بالفعل كانت أسواق الأغنام تقع بأطراف المدينة، و هى بعيدة عن المساحة المركزية، و كانت تشكل صنفا مغايرا من الأسواق له طابع خاص، و وظائف مغايرة. فى حين أن الأسواق المركزية كانت بها صنائع نظيفة شريفة، و قد شكّلت وحدة شاملة تفرّعت إلى وحدات أصغر فهى مركب لصنائع متميزة اندرجت فى جغرافيا المركز. إنها سوق مفردة متفرعة إلى عدة أسواق. و كانت شبكة من النشاطات المتكاملة المتداخلة التى جسمها مفرق السكك التجارية المنفصلة بعضها عن بعض، إذ تضمنت دروبا تغلق ليلا أو عند نشوب اضطرابات خطيرة. و الملاحظ أخيرا أن موقع سوق الصيارفة كان خارج المركز فى الركن الجنوبى الغربى للمساحة المركزية قرب مسجد بنى جذيمة (عشيرة من عبس لا أسد كما روى). هذا استثناء وجب التلميح إليه لما اكتساه هذا النشاط من أهمية و هو يفسر بأسباب دينية أو ظرفية.

٢) الأسواق المحيطة. الكناسة و الدور الجديد للحيرة

إن مهمة الأسواق المركزية هى أن تنتج و تخزن و تبيع المنتوجات المصنوعة. و هى تنتمى إلى قطاع التجارة الخاصة و تعبّر عن الوجه الإيرانى و الوجه العراقى للكوفة. و كانت تتعاطى نشاطات من الصنف «الشرقى». و قد تركز فى دار الرزق ما كان يرجع بالنظر للدولة- جباية الضرائب على الإنتاج الزراعى و إعادة توزيعها فى إطار الرزق، و الغنيمة و الرقيق خاصة- و بالكيفية ذاتها، كانت كل علائق التبادل التجارى و البشرى تتم بالكناسة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٩٠

و كل ما من شأنه أن يعبر عن استمرار قوة الصلات ببلاد العرب، الوطن الأم. كانت «أسواق الأطراف» تشمل فضلا عن الكناسة و

دار الرزق منشآت جديدة خارجية منها سوق أسد و سوق يوسف، و تسهم إسهاما نشيطا فى الحياة الاقتصادية بالكوفة بسبب نشاطاتها و موقعها الطوبوغرافى.

و تلفت الكناسة النظر بصورة خاصة. كانت أرضا عراء واسعة فى خلافة على حيث تميم و همدان تفضان الخلافات بينهما. و بداية من ولاية زياد، ظهرت وظيفتها التجارية حيث أمر هذا الوالى بشراء النوق و البغال، و وجّه عليها حجر بن عدى و رفاقه إلى معاوية. كانت تقوم بوظيفة السوق لبيع و كراء الدواب كالجمال و البغال و البراذين، و لاحظ ماسينيون أن «تجارة و صناعة النقل تركّزتا فيها بصورة طبيعية» و أشرف عليهما «النخاسة بالدواب» و هم تجار الدواب عموما، باستثناء الخيل التى لم تعتبر دوابا للنقل أبدا. كانت هذه التجارة نتيجة أكثر منها سببا، للدور الذى لعبته الكناسة كمرفأ للقوافل متجه نحو بلاد العرب أولا و البصرة ثانيا. و أضاف ماسينيون أيضا أنها كانت «مكانا لحط الرحال و حمل الأثقال بالنسبة لقوافل الجمال». فهى باب لبلاد العرب مفتوح مباشرة على طريق الحج، و مصبّ عظيم لسكان البادية: تلك كانت الكناسة. و هى تحمل بصورة قوية عمق الصلة ببلاد العرب، و ترمز إلى الوجه العربى الصرف للكوفة، أى إلى وجهها الآخر، و بعدها المرتبط «بشبه الجزيرة» العربية. كانت كلمة «كناسة» تعنى أصلا مصبا للقمامة، فصارت تعنى فى المعجم العربى اللاحق المكان حيث تناخ الجمال و تحط الرحال بصفة عامة.

إنه تطور فى الدلالة مستمد من اسم العلم هذا، و هو تطور رفضته القواميس الكلاسيكية بتاتا، لكنه حاضر بقوة فى لحمة اللغة المحكية.

لم تكن الكناسة إذن سوقا للدواب فقط، و لم تكن تنفرد بذلك فى هذا المجال، فقد ورد ذكر سوق البراء المتخصصة فى بيع الدواب. لقد كانت مركزا لسوق منتوجات

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة؛ ص ۲۹۰

السواد و ما وراءه من البلاد الإيرانية إلى المدن المستهلكة فى بلاد العرب، و هى مدن مثقلة بالمال. و لم يكن لبلاد العرب ما تبيعه إلا ما قلّ، باستثناء جمالها خاصة. مما جعل للجمل دورا مزدوجا كما ازدوج دور الكناسة: كان دابة للحمل و دابة للتوريد، و كانت الكناسة سوقا للقوافل و سوقا للجمال.

و لا ينبغى تصور الكناسة كتنويعة من الأسواق المركزية، بل كسوق دائمة و مرفأ و نقطة المنتهى. كانت الكناسة سوقا كلها تلونات، و كانت مكانا يلتقى فيه عالمان يسودهما الطابع العربى. و هى أفرزت سوقا داخلية استهلاكية حيث يباع الصحناة، و هو طعام من السمك، كما ذكر فى ملامة عنيفة وجهها شبث بن ربعى إلى أحد موالى المختار.

و لذا، صارت بصورة طبيعية، مكانا مرموقا للشعر البدوى، مثلها مثل المربد فى البصرة، لكن بدرجة أقل. و إنها لصورة مؤثرة لم تكن لتتكرر كل يوم تلك التى تظهر لنا أحد الشعراء واقفا على ناقته ينشد إحدى قصائده التى تثير حساسية طفل. و هذا المنظر يوحى لنا بقوة المناخ الثقافى و عمق الحيوية الاجتماعية بالكناسة.

لا فائدة من العودة إلى الدور السياسى العسكرى الذى كان للكناسة. و لعله كان أهم من دور الجبّانات الكبرى، لأن الكناسة كانت نقطة تجمع لتميم و حلفائها من ضبة و عبس ثم لكونها ملكا للمدينة كلها. كانت مكانا عموميا مزدوجا بالنسبة للمجتمع المدنى كما للسلطة التى لم تمتنع عن جمع جنودها فيها (ابن مطيع مثلا)، و عرض المصلوبين.

و خلافا لما جاء بخبر قليل الوثوق، فإن هانىء بن عروة لم «يصلب» بالكناسة، بل قتل فى ساحة السوق التى لم تكن قد بنيت فى ذلك العصر. لكن لا يبقى أى شك فى عرض جثة زيد بالكناسة على جذع نخلة، و قد نصبت عليها الحراسة ليل نهار من قبل جنود الوالى.

فظاهرة الصلب بالكناسة ظاهرة متأخرة إذن و تبدو منعزلة فى المصادر فلا تمكننا من نعت الكناسة بأنها «مكان للشنق»، كما قال ماسينيون.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۹۲

و المصادر نفسها لا- تخول لنا وضع السماسرة فى بيع الرقيق أو النخاسين فى الكناسة كما فعل ماسينيون أيضا دون برهان. و يكفى ما روى صراحة بخصوص مسلمة بن عبد الملك الذى هدد ببيع بنى المهلب رقيقا بعد ثورة يزيد (سنة ۱۰۲ ه) فى دار الرزق، للتدليل على أن هنا لا بالكناسة كانت تعقد مثل هذه الصفقات المرتبطة بالحرب، و بالدور الاقتصادى التوزيعى للدولة، المتركز بدار الرزق فعلا.

و بقدر ما كان هذا المخزن الكبير للدولة يوزع على فترات منتظمة المنتوجات الغذائية على السكان العرب فى شكل أرزاق، فقد كان على هؤلاء السكان خزنها و الاستغناء بذلك عن نقاط البيع بالمفرّق داخل خطط القبائل، إذ لم يرد ذكرها بالمرة. و هكذا نجد أسواقا كبرى و مؤسسة عمومية تشرف عليها الدولة من جهة، و شكلا اقتصاديا عائليا من جهة أخرى، فضلا عن نشوء أسواق جديدة خارج الكوفة، حين بدأت المدينة تزدهر. كان أسد بن عبد اللّه القسرى شقيق خالد، واليا على خراسان مدة، فأمر ببناء قرية و سوق فى منطقة الكوفة. و سمى هذا المركّب (سوق أسد) باسم السوق الدورية أو الدائمة. و قال البلاذرى إنه «نقل إليها الناس»، مضيفا أنها كانت معسكره أصلا، عند توليه خراسان.

إن هذه المدينة- السوق التى تدور فى فلك الكوفة، أنشئت إنشاء إراديا، و كانت فى آن مستقلة و مرتبطة بوجود الكوفة. و لها مقابل فى إنشاء يوسف بن عمر لسوق يوسف فى الحيرة بالذات.

و قد استرجعت هذه المدينة العربية القديمة الموجودة قبل الإسلام عنفوانها فى عصر هذا الوالى (۱۲۰- ۱۲۶)، و اعتاد الولاة الإقامة بها حتى فترة ابن هبيرة، بحيث يمكن التساؤل عما إذا لم تصبح لحين المقر غير الرسمى للحكم فى العراق، الأمر الذى يبين إرادة الابتعاد عن الكوفة و الاقتراب منها فى آن، بالتخلى عن واسط. و بدون أن نقول إن «أرباض» الكوفة صارت تمتد حتى الحيرة، و هى ظاهرة سوف ترى فيما بعد أى فى القرن الثالث كما أثبتته آثار الحفريات، فإنه يمكننا التأكيد أن الحيرة دخلت فى فلك الكوفة سنة ۱۰۰ ه، فأصبحت تعيش ملتحمة بها. لقد ولى الزمن الذى كانت تؤثر تأثيرا عميقا على المصر، من حيث الهندسة المعمارية و الكتابة و الصياغة (كانت سوق الصاغة من الحيرة) و الخزف و التقنيات المصرفية و الصيرفة، مع بقائها منعزلة لأنها كانت مقرا لشكل عروبى

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۹۳

مهترىء خاضع متمسّح، فيما كانت الكوفة قلعة للإسلام، و رمزا لحداثة مطلقة للعروبة.

ففى عصر الحجاج مثلا (سنة ۷۷، خلال ثورة شبيب)، كان لهذا الوالى أن يشير إليها بالبنان كملجأ محتقر نوعا ما لليهود و النصارى، و كعالم صغير للغير، و ليس بعالم الإسلام المناضل: كان هناك إذن حاجز نفسانى يفصل بين المدينتين العربيتين. و فى حين كانت الكوفة تتشبع بالإسلام أكثر فأكثر، كانت الحيرة بصدد فقدان عروبتها، و تحدد وضعها بمغايرة دينية. إن التفتح الواضح على النصرانية الذى طرأ على الكوفة فى ولاية خالد القسرى، و انطلاقة المصر نسبيا خارج حدوده الأولى، و التضخم العظيم لتنقل البشر طيلة قرن، و الإنتصار الكامل للاتجاه العربى الإسلامى على أى شكل منافس آخر كل هذا غير من طابع العلائق. صار الآن ممكنا التمون من الحيرة و كأن المرء ذاهب إلى ضاحية، إما بسوق الحيرة، إذ استمر قائما، و هو واحد من الأسواق العشربن التى وجدت فى العصر الجاهلى، و إما بسوق يوسف الجديد. و تزايدت حوالى سنة ۱۰۰ ه لقاءات الشعراء و الأشراف المعربدين فى الأديرة المحيطة بالحيرة. كانوا يحتسون الخمر و يقولون الشعر فيها على هواهم. و قد أخذ ماضى الحيرة

الذى تشهد عليه القصور القائمة على حدود الصحراء، يحاور الخيال و الإحساس العربيين.

سوق أسد، و سوق يوسف، و سوف حكمة: إن تفجّر الكوفة على الخارج، و تدجين المحيط بالحمامات الخارجية (حمام أعين، الخ ...)، و بالقرى، و المزارع، لهو بمثابة الرفع للحواجز الشرسة للكوفة الأولى. إنه شاهد على الانفتاح على العالم يعارض بشدة انغلاق و بمثابة تملك جديد لهوية مدينة مدنية تماما.

٣) القنطرة و الحمامات:

القنطرة أو الجسر المبنى:

كان على أهل الكوفة أن يقتصروا لحد ذلك الوقت على جسر دائم من المراكب لكى يعبروا الفرات و يدخلوا السواد، و كان يقف على حراسة الجسر موظفون (كان مسروق

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٩۴

مكلفا بالسلسلة بمدينة واسط) هذا الجسر يسهل قطعه، هو ضيق نسبيا، إذ حين يتكاثر الناس عليه يدور الحديث عن الزحام. و لّما اتسع حجم المبادلات و تزايدت حدة الشعور بالتنظيم و الاستقرار اتخذ عمر بن هبيرة الوالى (١٠٣- ١٠٥) قرارا ببناء قنطرة بمواد صلبة. و أعاد القسرى البناء و حسنه ثم جرى إصلاحه عدة مرات بعد ذلك.

أورد البلاذرى خبرا مفاده أن أصل البناء يعود إلى العصر الساسانى الغابر، و روى أن مهندسا عربيا من النساطرة الجعفيين بنى القنطرة التى انهارت بعد مدة (لأنها بنيت من لبن على الأرجح)، مما أدى إلى إقامة جسر من المراكب كممر بديل. و يزعم هذا الخبر أن زيادا كان أول من أعاد بناء القنطرة، و أن ابن هبيرة و خالدا و ابن شبيرة الثانى قاموا بإصلاحها ثم تناوب الولاة على الاصلاح. و من العسير اعتماد هذا الخبر، لأنه لم يرد خبر آخر يتعلق بوجود قنطرة فى ولاية زياد بل بعد زياد. و روى أبو مخنف أن هناك قنطرة قريبة من دير عبد الرحمن، كما ذكر أن أهل الكوفة خرجوا سنة ٨٢ ه لاستقبال ابن الأشعث «بعد ما جاز قنطرة زبارا».

فهل يطابق هذان الخبران الصادران عن هذا المؤرخ، اسقاطا لواقع لاحق، كما كان ديدنه فى صور كثيرة؟ و هل أنهما يتعلقان بأمر آخر غير قنطرة الكوفة؟ فى الحقيقة، الأقرب إلى الصواب أن تكون القنطرة أمرا حديثا، و أنها من عمل ابن هبيرة نفسه الذى روى عنه فضلا عن ذلك أنه كان أول من نظم الأسواق فى واسط حيث ولّى صاحبا للسوق. بقى علينا أن نحدد مكانها. لا يمكننا القطع أنها كانت تقع مطلقا على الرافد الكوفى للفرات بدل نهر سورا. و المرجح أنها كانت توجد دون شك بمكان يعرف بزبارا بعيدا عن الجسر فيما يظهر، كما أكد ذلك خبر ورد بكتاب المقاتل أدرج فى رواية تتعلق بثورة أبى السرايا. إن

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٢٩۵

المصادر متضاربة و غامضة فى الغالب، لكنها تذكر رغم ذلك واقعا أساسيا فى الموضوع، هو تعدد نقط العبور الثابتة و القناطر العربية المبنية بمنطقة الكوفة و بهذا الصدد فإن الذى يهمنا هو الانطباع العام أكثر مما هو ضبط الأمور. قنطرة الكوفة، و قنطرة زبارا (سواء طابقت الأولى أم لا)، و قنطرة دير عبد الرحمن، و قنطرة الحيرة: لقد جعل هذا التراكم من القنطرة عنصرا جوهريا فى محيط الكوفة. و حين يأتى الوقت الذى ستحاط خلاله المدينة بخندق من الماء سوف تبرز القناطر المجهزة بالابواب فى كل مكان، و سوف تطبع بوجودها منظر المدينة.

الحمامات الداخلية و الخارجية:

و لم تكن مساهمة الحمامات أقل من ذلك فى وسم المظهر الحضرى و وتيرة الحياة فى الكوفة كما فى البصرة، و بالتالى فى كل مدينة إسلامية. كانت الحمامات موروثة عن الساسانيين، و لعلهم اقتبسوها بدورهم من الحمامات الرومانية. و قد ظهرت الحمامات بعد مدة طويلة، المدة اللازمة كى تدخل الممارسات التعبدية أعماق المجتمع و تندمج فى الحياة اليومية، و ينسجم مجهود الابتكار و التنظيم مع احتياجات الكيان الاجتماعى، و إلى أن استوعبت النماذج الخارجية للحضارة. و قد طابقت بالخصوص شعائر الوضوء.

أقيمت الحمامات فى ولاية زياد، فى البصرة كما فى الكوفة، مع بعض التضييقات.

و يبدو أن زيادا فرض الحصول على الاذن مسبقا، و حددها خارج محيط المدينة. ثم تكاثرت بعد مدة فى البصرة، و أنشئت داخل المدينة خاصة، هذه المدينة التى أتخمت ماء، و تعددت فيها القنوات. كان عدد الحمامات المعروفة بالكوفة خمسة منها حمامان كانا خارج المدينة، فى حين أن البلاذرى ذكر أسماء أربعة عشر حماما فى البصرة. أقيم حمام عمرو بن حريث و حمام قطن بن عبد اللّه من جهة خطط الشمال، لكن لا يمكن ضبط موقعهما أكثر من ذلك، مع أن الحمام الثانى لم يكن على الأرجح بعيدا عن جبانة السبيع، و حدد موقع حمام المهبذان بوضوح فى السبخة حيث كان التزود بالماء متيسرا. و قد تزود الحمام الأول و الحمام الثانى بالماء من نهر بنى سليم. أما الحمامات الموجودة خارج المدينة، كحمام أعين و حمام عمر بن سعد، فإنه ينبغى تحديدها بين رافدى الفرات على طريق المدائن و خراسان.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۹۶

و كانت هذه الحمامات أيضا أماكن استراتيجية من المقام الأول، حيث عسكرت فيها عدة جيوش، و أقيمت فيها المرافق بحيث تحولت تلك الأماكن إلى منشآت مدنية أو شبه مدنية.

تذكر المصادر أن عمر بن سعد عندما حاول «الخروج» من المدينة حين طارده المختار، لجأ إلى حمّامه، فدخله ثم عاد و قتل. و حدده أبو مخنف تحديدا أدق ضمن روايته بخصوص شبيب، فجعله يقع بعد مكان يعرف بقبين و قبل قصر ابن هبيرة (العتيد).

و أخيرا، فلما أمر الحجاج، بعد ثورة ابن الأشعث، برحيل الجيش النظامى أى «ضرب البعث»، و هو الجيش المتكون من أهل الكوفة، عسكر الجميع بحمام عمر.

و استخدم حمام أعين كمعسكر- و أعين أحد موالى بشر بن مروان أصبح من موالى الحجاج- و كمكان للاستراحة و كمرحلة أولى بعد الخروج من الكوفة. و كذلك استعمله ابن الأشتر فى طريقه إلى الجزيرة، و عتّاب بن ورقاء عند خروجه لملاقاة شبيب، و شبيب نفسه. و ورد ذكره صراحة بأنه يقع على الصّراة. و يبدو أن الموقع الخارجى لبعض الحمامات كان من خاصيات الكوفة. لكنها بقيت كما فى البصرة، من نصيب أناس مقربين من الحكم، سواء كانوا عربا أو موالى، و كانت السلطة هى التى تأذن بالاستغلال. فيقابل عمر بن سعد و عمرو بن حريث فى البصرة عبد اللّه بن عثمان بن أبى العاص و مسلم بن أبى بكرة، و يطابق أعين شخص فيل و هو من موالى زياد، و قد تسمى باسمه باب الفيل فى الكوفة. و من المعلوم أيضا أنه كان فى أول الأمر للحمامات مداخيل كبيرة و كبيرة جدا فى البصرة، بلغت ۱۰۰۰ درهم فى اليوم، فساعد ذلك على انتشارها. و قد عرف أصحاب الحمامات فى الكوفة كيف يحافظون على شبه الاحتكار الذى كانوا يتمتعون به، و كان ذلك أحد النشاطات التجارية النادرة التى تعاطاها أشراف الكوفة.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۹۷

– ۲۱– رجوعا إلى التقاليد العربية: الجبّانات و الصحارى

ذكر اليعقوبى فى كتاب البلدان أن كل قبيلة اختطت مع رئيسها قال: «و كان لكل قبيلة جبانة تعرف بهم و برؤسائهم». و أضاف فى التاريخ ملحوظة مفادها أن الأشعث خط جبانة كندة، قال: «فاختط الأشعث جبانة كندة و اختطت كندة حوله» و فعل سعد الشىء نفسه بالنسبة للجامع و القصر. و هذا يعنى أن القبائل منحت حرية التصرف فى المكان المخصص لكل منها، و فى التنظيم الداخلى للخطط. و كانت التهيئة المكانية للمركز من صلاحيات السلطة فى حين أن تهيئة الخطط كانت ترجع بالنظر إلى القبائل. و تقوم دار الرئيس مقام العلامة المركزية الدالة على غرار القصر، و يتواجه الجامع و الجبانة، فالجامع هو المكان الأول المحدد فى الخطة و الذى ينبغى أن يحتل منها المركز الهندسى. كما أن الجبانة قامت بدور المركز لتجميع القبيلة، فكانت النقطة الحساسة، و الساحة العمومية، و قلب الخطة النابض.

كانت الجبانة ثمرة للعفوية الخلاقة فى عالم القبائل لأن السلطة لم تتدخل فى إقامتها، فكان عليها أن تنجو منطقيا من تأثير الحضارات المحلية المحيطة، و خلافا لذلك فهى ترجع إلى نسبها العربى. لكن ما هى سلالة التقليد الثقافى العربى المقصود؟ فعلا، لقد تراكمت و تجاوزت فى الكوفة عدة عوالم عربية مختلفة نسبيا، يمكن ترتيبها فى أصناف ثلاثة:

– قبائل قيس و مضر من رعاة النوق. و هم رحل و بدو من الطراز الأول، منهم تميم و أسد و عامر و هوازن، فضلا عن العشائر و الحلفاء.

– عالم المستقرين المتحضرين من الحجاز، و كانوا من مكة و يثرب (المدينة) و الطائف

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۹۸

من قريش و الأنصار و ثقيف. و منهم كانت الجماعة السياسية الحاكمة و العسكرية و الدينية، و هى فى القمة تمسك بزمام السلطة العليا و السلطة الحكومية فى الكوفة. و كانت جماعة قليلة العدد، لكن انضمت إليها قبائل و عشائر بدوية الأصل، بفضل أحلاف قديمة أو حديثة أبرمها الرسول معهم. لنذكر كنانة و خزاعة و مزينة و جهينة. و كان لوجود شخصيات معتبرة أمسكوا بزمام سلطة القرار (سعد و المغيرة و زياد و الحجاج)، أن بدا تأثيرها واضحا على الصعيد التمصيرى. إذ نحت أفرادها وجه الكوفة، بصفتهم رجالا مسؤولين عن جماعة يعملون فيها طبق اختبارات مدبرة و بعد التروى فيها، و هم فى هذا منفتحون على جملة من الآفاق الثقافية، أكثر مما كانوا ممثلين لنوعية معينة. لكن هذه النوعية كانت موجودة كتقليد حضرى عربى أصيل يختلف عن تقليد الحيرة و تقليد اليمن.

لقد رأينا أنّ مكة تميزت بحيّزها المقدس أى الحرم، بمسجدها و أماكنها التى يجتمع فيها الأشراف و المعروفة بالنوادى و بتكاثر منشآتها المعدة للاستقبال و دورها الجماعية (دار السقاية مثلا). و كانت الطائف تعرف بسورها المتقن الذى وقف عرضة فى سبيل تقدم الرسول نفسه و اختط الرسول أول مسجد للإسلام فى يثرب، فكان نموذجا قيست عليه كل المساجد الأخرى، و أدخل ضمنيا مبدأ التخطيط و الاقطاع بالنسبة للأراضى و الأملاك الفردية. كانت المدينة بلا شك مرحلة أساسية فتحت للسلطة القدرة على القيام بالمبادرة التنظيمية. و لا شك أن الحاكمين استفادوا من مخزون الخبرات هذا.

– يمثل اليمنية ثالث هذه العوالم و قد كانوا حاضرين حضورا مكثفا فى الكوفة، و كانوا الورثة المتأخرين لحضارات متكاملة عرفت نظام الدولة و الكتابة و الرى و المدينة. و قد عاش اليمن انهيار الأسر المالكة الأخيرة التى حكمته و عاش تفككك قواعد حضارته، خلال المرحلة المتأخرة من وجوده التاريخى. فتمخضت عن هذا الأمر هجرات متوالية و احتلالات خضع لها، فخضع لاحتلال الفرس و الأحباش، و يحدونا الشعور أن اليمن كان مجالا لدفع بدوى قوى، و أن القبائل المعتبرة قبل الإسلام كانت

متأثرة بالبداوة شديد التأثر منها همدان

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۲۹۹

و مذحج، اللتان تفوقتا على حمير و حضرموت تفوقا واضحا فى ذلك العصر. و نجد فى المقابل، أن ما دخل بعد ذلك فى الفلك اليمنى مثل كندة، تمسك بتثبيت الهوية اليمنية بمفعول «الهيبة الحضارية». و لا شك أن اليمنية نقلوا معهم إلى الكوفة عدة عناصر من متبقيات حضارتهم القديمة و أصروا على الحفاظ عليها. و هذا لا يعنى أنهم مثلوا النواة التمصيرية الوحيدة، كما فهم ذلك ماسينيون، و القطب الرئيس لممارسة الحياة الحضرية و مع ذلك فقد أضفوا على الكوفة لونا نوعيا لا ينكر. و ظهر ذلك فى خطط القبائل حيث يمكن للعفوية الخلاقة أن تعطى أكلها أكثر مما كان فى المساحة العمومية حيث تدخلت ارادية السلطة القرشية- الثقفية مستعينة بنصح المستشارين من فارس و الحيرة (الذين كانوا يمثلون عروبة من نوع آخر، احتكت بالحضارة الفارسية، فاعتبرت عروبة الحيرة غريبة خارجية مع أنها أثرت لا محالة على كل ما يرتبط بالعمارة فى بادىء الأمر).

فإذا أمكن أن ننازع فى وجود أى تأثير يمنى على تصور الرحبة المركزية بالرغم من وجود الرحبات أى المساحات الخالية فى المدن اليمنية القديمة، فإنه يجب أن نأخذ بعين الاعتبار الجبانات بصفتها عملا يمنيا مباشرا. كان قول اليعقوبى فى محله حيث أكد أن جبانة كندة كانت الأولى من حيث التخطيط و التشييد. فضلا عن أن النظر فى قائمة الإحدى عشرة جبانة التى ورد ذكرها فى الكتب الموجودة بين أيدينا، يدل على أن أكثرها كان ملكا للقبائل اليمنية.

- كانت جبانة السبيع التى تقع فى الشمال، ملكا لقبيلة همدان، و قد استمدت اسمها من البيت الشريف بهمدان.

- جبانة كندة فى الجنوب، تابعة لكندة.

- جبانة بشر فى الشمال، من المحتمل أنها كانت فى خطة بجيلة حيث أقامت

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۰۰

خثعم. و هى تحمل اسم خثعمى شارك فى حرب القادسية، و هى تابعة لهذه القبيلة.

- جبانة مراد فى الجنوب. كانت تقع فى خطة مذحج، و هى تابعة لقبيلة مراد، و تستخدمها مجموعة مذحج.

- جبانة مخنف باسم مخنف بن سليم الأزدى. لا شك أنها كانت تقع فى خطة بجلة و بجالة حيث أقام أكثر الأزد.

- جبانة الصائديين فى الجنوب الشرقى، التى تطرح مشكلا. لقد سمتها أغلب المصادر بهذا الإسم و نسبتها نسبة صريحة أحيانا إلى عشيرة الصائديين من همدان.

و بالعودة إلى ما اتصف به موقع هذه الجبانة من غرابة، فقد استمد ماسينيون رأيا يقول بانتقال قسم من همدان إلى شرقى الجنوب الشرقى تعويضا لجموع قبيلة أخرى إلا أنها كانت جبانة قديمة و مهمة جدا. و قد أشير إليها بالخصوص كمكان للتجمع، خلال اندلاع ثورة حجر. و باستثناء اسم المكان هذا، فلا وجود لأية إشارة تدل على إقامة همدان فى هذه المنطقة و على ذلك فهناك احتمال مفاده أن هذه الجبانة القريبة من جبانة سلول، كانت ملك عشيرة الصوداويين من أسد، حيث أقام قسم من هذه القبيلة إلى جانب عامر خلال فترة التخطيط الأولى. و قد سبق أن أشرنا عند طرح هذا المشكل، إلى تردد

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۰۱

المصادر فى موضوع تسمية هذه الجبانة التى تنسب إلى الصائديين تارة، و إلى الصوداويين طورا- لكن المصادر المتأخرة هى التى تستخدم دائما هذه التسمية الثانية. و ما تواتر فى المصادر هى التسمية الأولى بنسبة عالية جدا. و لذا، يمكن حسم الأمر حسما قاطعا أو يكاد، لفائدة الصائديين. و فى صورة ماذا كانت جبانة الصائديين منشأة يمنية فلا يعنى ذلك انتقال عشائر همدان، بل إنه مجرد حضور عشيرة صغيرة فى وقت من الأوقات؛ أتيح لها فيها بعد أن تهاجر إلى مكان آخر. و على النقيض من

ذلک، فإذا تم هذا الإنشاء بمنطقة تفوقت فيها بکر و قيس فذلک يدل دلالة واضحة على الطابع اليمنى الصرف للجبانات.

- من إحدى عشرة جبانة عدتها الکوفة کانت ست جبانات يمنية، إذا عددنا جبانة الصائديين. و الأهم من ذلک أن حدثت بهذه المواقع أحداث جسام، منها الانتفاضات المسلحة و الثورات و المعارک، و قد ارتبطت صميم الارتباط بحياة المصر. و نستثنى جبانة سليم التى کان لها اسم آخر هو جبانة بنى سلول و التى کانت ملکا لقيس، و کانت الوحيدة من بين ما تبقى من جبانات التى يمکن مقارنتها بجبانات اليمن. ذلک أن شمر بن ذى الجوشن انتصب مع قيس فى جبانة سالم خلال ثورة الأشراف على المختار، فى حين اجتمعت اليمنية بجبانة السبيع و جبانة بشر، و فى حين لم يکن لمضر (تميم و عبس و ضبة) سوى الکناسة، و حيث اکتفت ربيعة بمکان غير محدد کان يقع بين التمّارين و السبخة.

و فى سنة ۱۲۲ ه سوف تکون جبانة سالم المکان الذى يختاره زيد بن على لجمع رجاله و اعلان الثورة.

- و کانت جبانة أثير تابعة لأسد التى کانت قبيلة مضرية کبيرة. فوجب تحديد موقعها إلى الجنوب الغربى، فى خطتها و فى اتجاه الکناسة. و لم يذکرها الطبرى سوى مرة واحدة عندما کانت مقرا لمناوشة بين ابراهيم بن الأشتر و أحد خصومه، کان قد تغلب عليه و طرده حتى الکناسة بالذات. و لذا لم يکن لها من الأهمية ما کان للجبانات اليمنية

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الکوفة، ص: ۳۰۲

الأخرى، و لا حتى جبانة سالم التى تبدو ممثلة حقا تمثيلا استثنائيا للجبانة غير اليمنية ذات الاشعاع الکبير. فضلا عن أن ما يدل على ذلک أن جبانة أثير تسمى کذلک بصحراء أثير، کما سماها أبو مخنف نفسه. و لا يقل دلالة عن هذا الأمر أن جبانة سالم صنفت مع الصحارى، کما ورد فى مصدر انفرد حقا بهذا الخبر و أشار إليها فى بيت شعر. ذلک أن مثل هذا التمثل لم يرد أبدا فى المصادر التى بين أيدينا، فيما يخص الجبانات اليمنية الکبرى.

فضلا عن أن الکلمتين غير مترادفتين. لقد ميز ماسينيون بين الفکرتين و حمل نفسه على طرح معادلة بالنسبة لسالم و أثير فحسب، و هو ما يفسر حيرته کما يفسر إلى أى حد تبقى الجبانة ظاهرة يمنية فى صفائها. و لا يعنى الصفاء فى هذا المجال أن الوظائف کانت بسيطة بل أن الأمر يستدعى على النقيض من ذلک جملة من الدلالات التى لا يمکن أن تحملها إلا مؤسسة متقدمة کانت ثمرة لتجربة تاريخية طويلة.

- جبانة عرزم حيث کان يصنع اللبن الردىء، کانت تقع دون شک غربا، فى خطط عبس و قد ورد ذکرها فعلا فى رواية أبى مخنف عن ثورة حجر (۵۱ ه). روى أن قافلة الأسرى مرت من هناک و هى فى طريقها إلى دمشق و کان لقبيصة بن ضبيعة العبسى دار فيها- لم تکن داخل الجبانة دون شک، بل إلى جانبها- و قد توقف فيها ليعلن وصيته الأخيرة. ثم مرت القافلة بالغرّيين غربا، مما يلى النجف، و تحولت قسرا إلى الشمال، وجهتها دمشق. يمکن أن نفترض أن هذه الجبانة التى کانت تحمل اسم شخص لا- اسم عشيرة أو قبيلة. کانت ملکا لعبس. لکنها لم تقم بأى دور فى النزاعات السياسية إذ کانت مضر تجتمع بالکناسة. و بما أنها کانت مقرا لنشاط اقتصادى الطابع- يتمثل فى صنع اللبن و قولبته- فقد أقرها ذلک فى وضعية خاصة غير معهودة.

و الآن نصل إلى الجبانة أو الجبانتين الأخيرتين اللتين کانتا موجودتين فى العصر الأموى، إذا ما تقرر التطابق بين تسمية الثويّة و الجبانة (بدون أية صفة أخرى)، دلالة على

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الکوفة، ص: ۳۰۳

الواقع نفسه، أو الفصل بين التسميتين.

و يرى ماسينيون و فى أثره البراقى أن أول يخص الکيان نفسه الذى تسمى باسمين مختلفين، و قد تتضافر الدلائل على صحة هذا

الرأی. لکنه لیس بدیهیا من أول وهلهٔ، کما أنه من غیر البدیهی تحدید الموقع من قبل المؤلف نفسه فی الشمال الشرقی عند طرف خطهٔ ثقیف. و لنذکر أن الجبانهٔ أو الثویهٔ کانت لجمع أهل المدینهٔ المشتمل علی القرشیین و الأنصار و الثقفیین و مواليهم و حلفائهم. فما سبب هذه التسمیهٔ المزدوجهٔ المحیرهٔ؟ و ما سبب الاشارهٔ إلی الثویهٔ فی المصادر کلما دفن فیها أحد الأشخاص المهمین من العصر الأولی، لا سیما زیاد (توفی سنهٔ ۵۳ ه). علما أن هذه الکلمهٔ ظهرت أول ما ظهرت بشأنه فی حین أن الجبانهٔ لم تذکر بصفتها مقبرهٔ سوی مرتین بمناسبهٔ دفن الفضل بن دکین مولی آل طلحهٔ الذی توفی فی خلافهٔ المعتصم، و سهل بن حنیف و کان من الأنصار و من صحابهٔ الرسول، و قد مات فی خلافهٔ علی سنهٔ ۳۸ ه؟. و خلافا لذلک فإذا تعلق الأمر بأعمال تاریخیهٔ أو أشیر إلی هذا المکان کعلامهٔ طوبوغرافیهٔ للثورهٔ- المختار وزید- أو کنقطهٔ للمجتمع، فإن تسمیهٔ الجبانهٔ هی التی ترد دائما و لیست الثویهٔ.

روی أن زیادا و قبله المغیرهٔ بن شعبهٔ، و کذلک أبا موسی الأشعری، و الأحنف بن قیس دفنوا بالثویهٔ. و قد جاء فی أشعار کثیرهٔ ذکر اسم الثویهٔ مع قرنه بهیبهٔ قریش و قد ورد صدی هذا الاسم فی قصائد المتنبی. کان للکلمهٔ فی حد ذاتها رنین شعری و هی تخرج عن المعجم العادی، و تضیف لفکرهٔ الموت لونا من العطف و الرقهٔ، جاعلهٔ من المقبرهٔ «دار ضیافهٔ»: إنه المعنی الأول للأصل ث، و، ی. لا شک أن هذا البعد هو المفسر لثنائیهٔ التسمیهٔ، الأولی شعریهٔ و الثانیهٔ عادیهٔ. فوجب قبول هذه الثنائیهٔ لأن کلمهٔ ثویهٔ أصبحت تستعمل للتفخیم و هی تلطف من رهبهٔ الموت، و تمتزج بصورتها فقط لما تنزل علی الفضلاء و عظماء القوم من قریش لتمیزهم عن الآخرین، و هی فی الآخر کلمهٔ تثیر منا الخشوع.

نشأهٔ المدینهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ: الکوفهٔ، ص: ۳۰۴

و لذا تسترد کلمهٔ جبانهٔ حقوقها حین یضطرب الناس و یثورون، لکن المقصود بالذات فی هذا المقام أیضا هی الجبانهٔ بلا نعت بمعنی الجبانهٔ الفذهٔ التی یقع هکذا تفخیمها بسلبها من أیهٔ نسبهٔ. و قد ورد ذکرها فی العصر الأولی کمکان یؤمه الزهاد من أصحاب ابن مسعود للصلاهٔ و العبادهٔ. و بدایهٔ من عصر زیاد استخدمت الجبانهٔ مصلی لصلاهٔ الجمعهٔ. و هی ترد فی غیر هذا و بصورهٔ مرکزیهٔ أثناء ثورهٔ المختار - لا ننس أنه من ثقیف- و ثورهٔ زید بن علی و کان من قریش. ظهر المختار فیها بعد انتصاره فی السبخهٔ ثم «طلع» إلی دور مزینهٔ و أحمس و بارق و قد کانت بعیدهٔ عن المدینهٔ أو بطرفها. یجب تحدیدها بأقصی الشمال، و المحتمل أن یکون ذلک خارج الخطط المعروفهٔ کما یوحی السیاق و کذلک فبعد أن سیطر زید علی الکناسهٔ، حل مدهٔ قصیرهٔ بالجبانهٔ التی یبدو أنها کانت خارج الکوفهٔ ذاتها بصورهٔ واضحهٔ. و هی لم تستخدم للقتال فی الحالتین معا أو للتأهب له، بل کانت مرحلهٔ أو مکانا للعبور. إنه لأمر مهمّ ینبغی تأکیده. هذا و لم یکن اسم الجبانهٔ دون أیهٔ صفهٔ أخری صورهٔ فریدهٔ، بل إنه کان موجودا فی البصرهٔ و المدینهٔ. ففی المدینهٔ أمر عمر خلال سنهٔ الرمادهٔ بإقامهٔ خیام بدو محارب الجائعین فی الجبانهٔ. فهل کانت موجودهٔ منذ ظهور الإسلام أم قبله؟ و فی الحالهٔ الثانیهٔ، یکون ذلک دلیلا علی تأثیر الیمن منذ القدیم، علی مدن شمالی بلاد العرب.

لکن جبانات الکوفهٔ بقیت خاصیهٔ من الخاصیات المیزهٔ للکوفهٔ، و معبرهٔ عن الوجود القوی الذی کان للیمنیین فیها، و بفضل عددها و تعدد وظائفها و ما کان لها من دور اجتماعی

نشأهٔ المدینهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ: الکوفهٔ، ص: ۳۰۵

و عسکری و سیاسی کبیر. و لنذکر أن أقدم الجبانات- ما عدا الجبانهٔ- ملک لقبائل الیمن: السبیع و مراد و کندهٔ و الصائدیین. و هی أیضا أهمها مع جبانهٔ سلول. و الملاحظ أیضا أن تمیما و ضبهٔ و ربیعهٔ لم تکن لها جبانهٔ. و لعل الأحنف دفن بالثویهٔ لهذا السبب، و لأنه کان شخصیهٔ مرموقهٔ. فی حین أن طیا و بجیلهٔ المتحالفتین مع خثعم، کانت لهما جبانهٔ بشر، و أن بجلهٔ المتصاهرهٔ

مع الأزد كانت تستخدم جبانة مخنف لدفن موتاها و تنظيم حياتها الاجتماعية. فكان على بعض القبائل الكبرى كربيعة و مضر التى كانت اقامتها غير قارة نسبيا أن تستخدم أمكنة أخرى للاجتماع أو لدفن الموتى. يقول أبو مخنف: «و كان الناس إنما يدفنون فى دورهم و أفنيتهم».

وها أن خباب بن الأرت و هو من مشاهير الصحابة مات فى غياب على بوقعة صفين، فدفن بالظهر و هو الحد الذى كان للكوفة مع البادية، و أضاف أبو مخنف قائلا: «و دفن الناس إلى جنبه».

ماذا يعنى بقوله هذا، لا سيما و أن الدليل متوفر على أن كثيرين منهم استمروا يدفنون فى الجبانات؟. لكن اذا اعتبر بعضهم خبابا حليفا لبنى زهرة أى حليفا لقريش، فقد اعتبر البعض الآخر أنه كان حليفا لتميم مقيما بخطتها فى جهارسوج جنيس. من هنا نستخلص أن تميما هى المقصودة بصفة خاصة عند أبى مخنف بقوله هذا الثرى بالمعانى على الصعيد الانثروبولوجى. تشمل كلمة «أفنية» قطعا الجبانات لكن أيضا الصحارى و كافة الأراضى الخالية الأخرى الموجودة فى الخطط. و لا شك أن الأهالى استمروا فى دفن موتاهم فى دورهم الخاصة، و بقيت هذه العادة شائعة فى المدن الإسلامية إلى عهد قريب.

و على هذا تتمثل الوظيفة الأولى للجبانات فى القيام بدور المقابر القبلية كما كان الأمر

فى مقابر البصرة. لقد أقيمت هذه المقابر وسط الخطط القبلية معبرة بذلك فى أعمق دخيلتها، بفعل الدفن و أزليته، عن الضمير الجماعى للقبيلة و من انتسب إليها. و بدون الدخول فى البحث فى أنثروبولوجيات الموت، الذى نزعم أنه يكتسى أهمية قصوى، ففى الإمكان أن نفترض أن الجبانات بقيت مدة طويلة بدون أنصاب و أحجار على القبور.

و قد أوصى بعضهم مثل شريح ببناء لحد داخلى، لكن عدم ذكر اسم المدفون فى الخارج هى القاعدة المعمول بها فى أكثر الأحوال. علما أن اليمن عرف قديما أنصابا كانت تحمل كتابات منقوشة (المسند). و لا شك أن المثال البدوى عاد متفوقا فى هذا المجال، بعد أن أضفى عليها الاسم طابعه القدسى: كان مثال التستر و الزهد و عدم الاكتراث بالقبر بوصفه علامة مرئية. و لم تكن اللامبالاة تتجه إلى الميت الذى يتضرع الشاعر العربى إلى السماء يستعطفها، راثيا إياه، طالبا منها أن تجود عليه بمائها المنعش. كما أنها لم تتجه إلى الموت فى حد ذاته و قد كان مبعث الفزع و الألم فى القرن الهجرى الأول، كما ورد بأقوال ابن سعد، و منطلق مشاعر أخرى طبعا.

لا شك أن أرض الجبانات كانت منبسطة، حتى تطأها أقدام البشر و الخيل بالآلاف و تدور فيها معارك حامية دون ضيق واضح. و هكذا يصل بنا القول إلى أن الوظائف التى قامت بها هذه الأماكن كانت متعددة. كانت فى البداية نقطة إشعاع و مركزية مجالية: فقد أشعت العشائر بقطائعها ضمن الخطة القبلية، انطلاقا من جبانة مركزية؛ ثم قامت بدور المقبرة؛ و المقر للتجمعات و مركز العصب للحياة الاجتماعية عند القبيلة عندما تكتسى نبرة رسمية؛ و أخيرا فقد كان لها دور عسكرى بمعنى معين. لم يكن الجانب العسكرى متوقعا فى البداية قطعا، إذ كانت الحشود التى تخرج إلى القتال من الكوفة كما من البصرة، من الأسباع و الأخماس، تتجمع خارج المدينة فى أمكنة تؤخذ من الصوافى كما

صرح بذلك سيف و روى عنه الطبرى بالنسبة للبصرة فى العصر الأولى. أما فيما يتعلق بالكوفة، فقد ورد خبر هام مفاده ما يلى: «أمر على الناس أن يخرجوا بسلاحهم فخرجوا إلى المسجد حتى امتلأ بهم». و كان ذلك سنة ۳۷ ه، أو ۳۸ ه، بعد وقعة صفين و لما بلغ خطر الخوارج أشده، فوبخهم على لدخولهم المسجد حاملى السلاح، معتدين بذلك على حرمته، و أمرهم أن «يذهبوا إلى جبانة مراد» فأطاعوه. فكان على أول من بادر بجعل الجبانة مكانا لحشد كافة الناس لا قبيلة معينة، لأن الجبانة كانت أكثر

اتساعا، أو أنها كانت موجودة على طريق حروراء. هكذا و فى مثل هذا الوقت الذى كانت صبغته استعجالية، استنفر أهل الكوفة لكن لم يعرفوا مكانا يتجمعون فيه داخل مدينتهم لأن الجبانات لم تكن موظفة بعد لمثل هذا الأمر على ما يبدو. إن عليا هو الذى شرع فى إضفاء دور عسكرى على الجبانات بتيّة القيام بعمليات داخلية أو لتنظيم تجمعات عاجلة. ذلك أنه لم تظهر أية رواية تتعلق بفترة سابقة باستثناء الرواية الغامضة الخاصة بمقبرة بنى حصن فى البصرة و المتعلقة بأحداث جرت سنة ٣۶ ه قبل وقعة الجمل. لقد ارتبطت هذه الظاهرة هنا و هناك بأمر استثنائى غير متوقع، و بجو الحرب الأهلية. فكان الرجال و القادة يبحثون عن أمكنة داخلية للتجمع: منها المسجد فى الكوفة و دار الرزق فى البصرة و جبانة مراد، و مقبرة بنى حصن. و ارتجلت القرارات انطلاقا من اختيار معقلن قائم على القابلية الطبيعية للجبانات، لكى تحوى عددا كبيرا من الأشخاص. فقامت منذ ذلك الوقت بدور استراتيجى و أبقت عليه، و تخصصت حسب القبائل أو مجموعات القبائل و ارتبط الأمر دائما بالاضطرابات الداخلية، بجو الدراما و الطوارىء: قضية حجر بن عدى (۵١ ه) ثورة المختار (۶۶ ه)، انتفاضة الأشراف (۶۶ ه)، دخول مصعب (۶٧ ه)، ثورة زيد بن على (١٢٢ ه).

و استخدمت الجبانات فى كافة هذه الحالات من قبل القوات الثائرة كما من قبل قوات السلطة الحاكمة (زياد و ابن مطيع و المختار نفسه و مصعب). و إن بدا أن الولاة الأمويين عند قيام الثورات فضلوا المسجد مكانا للتجمع، فذلك لكى يفكوا التعبئة فعلا، لا لكى يقوموا بها، بمعنى أن هدفهم كان دفاعيا. فى حين كانت الجبانات تستخدم للعمل الهجومى، أو لرد الهجوم، و فى الجملة القيام بثورة أو للعمل على مقاومتها. أما عن نقاط تجمع الحشود النظامية (الأرباع) التى تحشدها السلطة و تشرف عليها، تأهبا للحملات السنوية فى اتجاه العالم الايرانى، فقد استمر اختيارها خارج المدينة. و لم تقم فيها الجبانات بأى دور، حتى و لو

كان للتعبئة الأولية لكل قبيلة على حدة. كان المقاتلة يتحركون فرادى و جماعات و كتلا مضطربة أحيانا، مرهقة مرهبة فى اتجاه السبخة و كانوا كثيرا ما يعبرون الجسر للذهاب إلى حمام أعين و حمام عمر بن سعد و غيرهما. و كان ذلك خارج المدينة طبعا، دون أن يقع أى تجمع مسبق فى الداخل. و علينا إذن أن نتصور الدور العسكرى الاستراتيجى و الثورى للجبانات ضمن هذه الحدود و هو الدور الممتلىء حضورا و الأساسى جدا فى حياة الكوفة: لم يكن دورا عسكريا عاديا متسقا مندمجا فى الهياكل القائمة بل كان بالأحرى دورا مرتبطا بالقلاقل الداخلية، و الحروب الأهلية و أوضاع الانقسام و الطوارىء. و الملاحظة الأخيرة أن الجبانة أحيت القبيلة بصفتها وحدة مقاتلة و الروح القبلية الانقسامية. إنها عكس العنصر التجميعى بالنسبة للكيان الاجتماعى.

و تبقى مشكلة السكن فى الجبانات قائمة. و قد ارتأى هندزM.Hinds أن الناس بنوا فيها و سكنوها فى فترة مبكرة دون أية حجة بل وصل به الأمر إلى القول بأن المختار اعتمد على أهل الجبانات مما يدلل على سوء فهم كبير للأوضاع بالكوفة. الحقيقة أن المصادر قليلا ما تورد أسماء أشخاص يقطنون فى جبانة ما خلال العهد الأموى، و المقصود هنا هو قرب الجبانة، و المثال على ذلك هو قبيصة العبسى صاحب حجر بن عدى الذى يقول عنه الطبرى: «فلما انتهوا إلى جبانة عرزم نظر قبيصة بن ضبيعة العبسى إلى داره و هو فى جبانة عرزم فإذا بناته مشرفات» و المرجح إذن أن الجبانات لم تكن طوال القرن الأول لا مبنية و لا مسكونة. لكن لعل الأمور تغيرت مع العهد العباسى لوجود ضغط ديموغرافى و لأن الجبانات فقدت وظائفها العسكرية- الثورية المعهودة، و من الممكن إذن أن اجتاحتها البناءات خصوصا و هى تقع داخل «المدينة» التى صارت مسورة. و لنا إشارة طارئة على هذا فى طبقات ابن سعد حيث يأتى ذكر محاضر بن مورّع الهمدانى و هو من رجال آخر القرن الثانى فيقال عنه: «كان يسكن جبانة كندة».

الصحارى (جمع صحراء): هل كانت معادلة تماما للجبانات بالنسبة للجماعات غير

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۰۹

اليمنية من قيس و مضر و ربيعة؟

لقد سبق أن أشرنا إلى جبانتين فقط كانتا ملك قبائل الشمال، أثير و سالم، من بين الجبانات و تطلق عليها تسمية جبانة تارة و صحراء طورا، فى حين أن جبانة عرزم بقيت غامضة الأصل. فضلا عن أن الصحارى الصرف التى ليس لها من اسم سوى اسم صحراء كانت كلها ملكا لمضر و قيس و ربيعة، و لا يملك اليمنية شيئا منها. كان عددها خمسة باستثناء صحراء أم سلمة التى أنشأها العباسيون:

- صحراء شبث: تميم.

- صحراء البردخت: ضبة.

- صحراء بنى قرار: ضبة.

- صحراء عبد القيس: ربيعة.

- صحراء بنى عامر أو على الأصح بنى جعفر بن كلاب: عامر بن صعصعة (قيس).

لعل الأمر يتعلق ببديل عن الجبانة اليمنية و تقليد لها، مع اللجوء إلى استعمال اسم ورد من شمال بلاد العرب. أو أنها كانت مؤسسة، بالمعنى الواسع، قبلية عربية متجذرة فى العصر الجاهلى و انتقلت إلى الكوفة. و تعرف المعاجم الصحراء بأنها «الأرض المنبسطة و الفضاء الواسع لا نبات فيه». كانت الأرض العراء حقا و القاحلة، لكن يبدو أنها لم تكن الصحراء الكبرى (الفيافى) المفتوحة و الخلاء الشاسع. و لم تستخدم هذه الكلمة أيضا دلالة عن الأراضى التى فى وضعية ما بين السباسب و الفيافى من بلاد العرب أو مما يقع بين العراق و بلاد العرب، حيث كانت تستخدم كلمتا بادية و بر. و عند الاقتضاء يمكن التساؤل عما إذا لم يكن التعريف المدرج مستمدا من الخبرة العربية فى الأمصار، التى كانت حضرية محضة، و عما إذا لم يتعلق الأمر بفسحات خالية هيئت داخل النسيج الحضرى و كانت محدودة ظرفية؟ إنها لم تكن متسعة إلا بالنظر لمجموعة المساحات الصغيرة الموجودة فى

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۱۰

الخطط، و المدعوة أفنية أو رحابا (جمع رحبة)، حيث يستلقى الناس على الرمال طلبا للراحة، و حيث يجتمعون حلقة لعقد الحوار، و التى كانت شواطىء داخلية و مساحات للراحة و اللقاء و أماكن للمداولات و الممارسة الاجتماعية. و يتضح هذا الأمر جيدا فى فقرة وردت فى كتاب أخبار القضاء، و تعلقت بالجولات اليومية التى كان يقوم بها الشعبى.

لكن الصحراء تقع مثلها مثل الجبانة على مستوى أعلى، فيما يخص الاتساع و الوظائف التى تقوم بها.

و قد أبدى البراقى رأيا مفاده أن الصحراء كانت مخصصة للاحتفالات و المظاهر و التظاهرات الجماعية و أن الجبانة خصصت للدفن. لكن الدفن كان يقع أيضا فى الصحارى حيث أن لبيدا دفن بصحراء بنى جعفر بن كلاب، و قد عرفها البراقى دون شك بأنها صحراء بنى عامر. و سبق أن رأينا أن الجبانات كانت، على النقيض من ذلك، مقرا للتجمعات الكبرى يعنى للقتال فى الحقيقة. لكن المصادر ظلت صامتة فيما يخص انتشار الناس عند إقامة الاحتفالات على مستوى القبيلة، بالنسبة للجبانات كما بالنسبة للصحارى.

و إذا ما فكرنا أن الصحراء تمثل اللون الشمالى- و الشرقى- من بلاد العرب للجبانة، و بشكل أعم صورة لعالم المدينة فى اليمن و حتى فى الحجاز، فإن كانت هناك معادلة، فإنها غير تامة. لماذا تلصق بصحراء أثير و سالم فقط صفة الجبانة، دون الصحارى الأخرى؟ و لماذا لم يعترضنا أى شىء عن الصحارى فى روايات أبى مخنف و سيف و عمر بن شبة، حتى كمجرد علامات

طوبوغرافيـة، باسـتثناء ما ورد ذكره فى شأن صـحراء عبـد القيس؟ و ليس هناك من قائمـة، على نقصـها، سوى فى فتوح البلدان، للبلاذرى. و أخيرا فإن الحالـة الوحيـدة التى أشير إليها بخصوص الدفن فى الصـحراء تتعلق بلبيد و تسـتند إلى صـحراء جعفر بن كلاب من عامر، التى لعلها هى جبانة سالم، مع أن الأمر قليل الاحتمال.

و ليس ثابتا أن الصحارى قد حددت و اختطت منذ البداية مثل الجبانات و لا سيما

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣١١

بمركز الخطط القبليـة ما عـدا الصـحارى المرتبـة فى مرتبة الجبانة. لا شك أنها كانت توجد فى محيط المدينة بصورة متفاوتة، و كأنهـا ألحقت بهـا. كمـا يحتمـل أنهـا كـانت أصـغر من الجبّانـات و أنها تشـكّلت ضـمن مجال أقل تهيئـة و أن وظائفها لم تكن واضحة. و فى حين أن الجبانة كانت تظهر كأنها جهاز مجرّب، و أنها استقرت فورا فى وضع جبانة و مساحة مركزية ثم تبين فيما بعد أنها اختبرت مسـرحا للقتال، قد تكون الصحراء إسقاطا لساحة التجمع القديمة داخل محلة القبيلة أو خارجها، و التى لم تكن صالحة للرعى دون شك، أو أنها كانت اسـقاطا لفسـحات صحراوية متناثرة على أرض القبيلة حيث لا ينبت أى نبات؟ و فى هذه الصورة الأخيرة فلعل المقصود هو العودة المؤثرة إلى الماضى، و التعبير عن الحنين إلى الفسيح الرحب و عن مقاومة خفية لهوس الانحصار و الاختناق و الانغلاق. و فى مرحلة ثانية فقط، تحولت الصحراء إلى جبانة و اقتربت من مثال الجبانة، طلبا للاندماج فى المجال الحضرى بصفتها إحدى أجهزته.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣١٢

– ٢٢– مساجد الكوفة

اشارة

تـذكر المصادر المعهودة و مصادر الشـيعة ثلاثين مسـجدا بالنسـبة للكوفـة و هو عـدد لا نجد مثيله فى مدينة أخرى– كالبصـرة و المدينـة و بغداد– خلال العصـر نفسه من تاريخ الإسـلام. إن مصدر هذه الكثرة هو الروايات المفصـلة عن الثورات، كما الشـعور الدينى الشـيعى الخصوصـى جدا، الذى عمل على تصـنيف و ترتيب و تعديد مساجد الكوفة، و هى مساجد تكون محل تقديس أو لعنة حسب الأحوال. ينبغى التمييز قطعا بين المسـجد الجامع الذى سـمى المسـجد الأعظم أحيانا و المخصص لصلاة الجمعة و كافة الصـلوات الرسـمية التى تبدأ بالخطبة، و لاجتماع الجماعة كافة بإشـراف الوالى، و بين المساجد الأخرى المتكاثرة البسـيطة. كـان للمسـجد الأعظم وضع خاص، لا لأنه كان أوسع من غيره بل لما كان له من وظائف و لرمزيته العظيمـة، و لعله كان الوحيد المقرر فى التخطيـط الأول. و خلافا للجبانات، فإن المساجـد العاديـة لا تظهر بصـفتها مساجـد أصـلية. بل إنها ظهرت بعـد المـدة الأولى ضـمن الخطط القبلية إما كمساجد ارتبطت بشـخص و تسـمت باسـمه، و إما كمساجد للعشيرة لا للقبيلة. و يمكن افتراض أنه كان لكل عشيرة بالكوفة فى وقت من الأوقات– بعد سنة ١٠٠ دون شك– مسجد خاص بها مما يرفع عدد المساجد إلى أكثر من مائـة. إن تكاثر مبانى العبادة و امتـدادها عبر كافـة المجال الحضـرى، إلى جانب وجود جامع أعظم مركزى، كل هذا يشـكل كـل مدينـة اسـلامية مقبلـة و بالتـالى فهو ارث من القرن الأول. الأمـر الـذى يؤكـد بقوة أنه ينبغى اعتبار الأمصار المقر و المركز لأسـلمة العرب أنفسـهم، فضـلا عن وجود دورين آخرين، كنقط للهجرة و الإشـراف و كحراس للبلـدان المفتوحـة فى آن. و إذا كـان الجـامع الأعظم يقع فى المساحـة العموميـة، فإن المساجـد الأخرى كلها تقريبا تقع بحوزة القبيلـة داخل قطائع العشائر. و إذا كان الجامع الأعظم من إنشاء السلطة، ارتبط ارتباطا وثيقا

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۱۳

بممارساتها فإن المساجد الأخرى مؤسسات خاصة أنشأها الأفراد و العشائر و لا يبدو أنها كانت نقطا انطلقت منها الثورات و القلاقل خلافا للجبانات. كانت تنوب عن المسجد الأعظم فى القيام بالشعائر كل يوم فقط، و أحيانا حتى فى صلاة الجمعة، و بذلك تلتئم الجماعة لكن ليس بقصد تنظيم عمل سياسى متعمد لم يرد ذكره بمصادرنا أبدا.

هذا و قد حثت السلطة و شجعت على بناء مساجد للعشائر. فقد أمر زياد فى البصرة ببناء المساجد «لشيعة بنى أمية»، بمعنى العشائر المؤيدة للأمويين، منها مسجد بنى عدى و مسجد بنى مجاشع و مسجد الاساورة و مسجد الحدان. و برزت الظاهرة نفسها فى الكوفة دون شك، مباشرة أو عن طريق الاشراف أو كلاهما. و على كل حال، فإن مساجد الكوفة التى حملت اسم شخص- هو مؤسسها- فإنما هو اسم أحد الأشراف الذى ألصق بها، من بين كل من ساعد الأمويين عموما: مسجد الأشعث المرتب ضمن المساجد الملعونة حسب التقليد الشيعى اللاحق و مسجد شبث الذى وقع له الشىء نفسه، و مسجد سماك. أما مسجد عدى بن حاتم، فقد استثنى من ذلك. و هذه قائمة بالمساجد مستمدة من مصادر مختلفة، مع التحرى اللازم فيما يخص مصادر الشيعة التى كانت متأخرة عموما، و كذلك تجاه ماسينيون الذى لا يبدو أن قائمته مؤكدة.

قائمة مساجد الكوفة

اسم المسجد/ اسم آخر يسند إليه/ القبيلة المنتسب إليها/ المصادر

مسجد عبد القيس/ مسجد ظفر و ربما السهلة عبد القيس/ الطبرى، ج ۶، ص ۴۹.

البراقى، ص ۴۴، ماسينيون، ص ۵۲.

مسجد أبى داوود/ مسجد القصاص/ وادعة/ الطبرى، ج ۶، ص ۴۸.

مسجد عدى بن الحاتم// طى/ الطبرى، ج ۵، ص ۲۶۷.

مسجد أحمس/ مسجد مزينة، مسجد بارق/ بجيلة، مزينة، الأزد/ الطبرى، ج ۶، ص ۲۶ و ۴۸.

الأغانى، ج ۸، ص ۳۱.

مسجد الأنصار// الأنصار/ الجنابى، ص ۸۸.

مسجد الأشعث/ مسجد الجواشن/ كندة/ الطبرى، ج ۶، ص ۲۲، البراقى ص ۴۵.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۱۴

اسم المسجد/ اسم آخر يسند إليه/ القبيلة المنتسب إليها/ المصادر

مسجد بنى عبد اللّه ابن دارم/ تميم/ البراقى، ص ۴۴.

مسجد بنى عدى/ قيس (هوازن)/ الطبرى، ج ۷، ص ۱۸۳.

مسجد بنى عنز/ وائل بن قاسط/ (ربيعة)/ فتوح البلدان، ص ۲۸۳، ابن الفقيه، ص ۱۸۳.

مسجد بنى أود/ مسجد بنى فرن/ مذحج/ ماسينيون، ص ۵۲.

مسجد بنى البداء// كندة/ أنساب الأشراف، ج ۵، ص ۲۰۷.

مسجد بنى بهدلة// كندة/ فتوح البلدان، ص ۲۸۴.

مسجد بنى ذهل// بكر/ الطبرى، ج ۵، ص ۵۷۸، و ج ۶، ص ۲۴۱.

مسجد بنى جذيمة// عبس أو أسد/ فتوح البلدان، ص ۲۸۳، ابن الفقيه، ص ۱۸۳.

مسجد بنی دهمان// جهینهٔ/ الطبری، ج ۶، ص ۵۹.

مسجد بنی هلال// عامر/ الطبری، ج ۷، ص ۱۷۲.

مسجد بن کاهل/ مسجد أمیر المؤمنین/ أسد/ البراقی، ص ۴۶.

مسجد بنی مخزوم// عبس/ الطبری، ج ۶، ص ۱۰۵.

مسجد بنی المقاصف// عبس/ فتوح البلدان، ص ۲۸۴؛ ماسینیون، ص ۵۲.

مسجد بنی مرهٔ// بکر/ ماسینیون، ص ۵۲.

مسجد بنی السید//-/ البراقی، ص ۴۴.

مسجد بنی شیطان// تمیم/ الجمهرهٔ، ص ۲۲۸.

مسجد جریر بن عبد اللّه البجلی// بجیلهٔ/ البراقی، ص ۴۴.

مسجد جعفی// مذحج/ ابن سعد، ج ۶، ص ۳۸۰، ۳۹۶، ابن الفقیه، ص ۱۷۴، البراقی، ص ۴۴، ماسینیون ص ۵۳.

مسجد غنی// سلیم أو الأنصار/ ابن الفقیه ص ۱۷۴، البراقی ص ۴۴.

مسجد الحمراء// حلفاء تمیم/ ابن الفقیه، ص ۱۷۴، البراقی، ص ۴۴، ۴۵.

مسجد النخع// مذحج/ ابن سعد، ج ۶، ص ۱۱۹.

نشأهٔ المدینهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ: الکوفهٔ، ص: ۳۱۵

اسم المسجد/ اسم آخر یسند إلیه/ القبیلهٔ المنتسب إلیها/ المصادر

مسجد موجود بالحمراء// حلفاء تمیم/ البراقی، ص ۴۵.

مسجد السکون// کندهٔ/ الطبری، ج ۹، ص ۲۱.

مسجد صعصعهٔ إبن صوحان/ عبد القیس/ البراقی، ص ۴۶.

مسجد شبث// تمیم/ الطبری، ج ۶، ص ۲۴، ۲۷۰.

مسجد سماک/ مسجد الحوافر أو بنی هالک/ أسد/ فتوح البلدان، ص ۲۸۲- ۲۸۳؛ الجمهرهٔ ص ۱۹۱؛ الأغانی، ج ۷، ص ۱۸۴.

مسجد تیم// رباب (تمیم)/ البراقی، ص ۴۴.

مسجد ثقیف/// البراقی، ص ۴۵.

قائمهٔ إضافیهٔ بأسماء مساجد قبیلهٔ کندهٔ التی وردت عند هشام الکلبی و لم ترد عند غیره

مسجد بنی زید بن حارثهٔ

مسجد بنی ذهل بن معاویهٔ

مسجد بنی امرىء القیس بن الحارث (فترهٔ عباسیهٔ)

مسجد بنی مالک بن الحارث

مسجد بنی الطمح بن الحارث

مسجد بنی مالک بن ربیعهٔ

مسجد جبلهٔ بن عدی بن ربیعهٔ

مسجد بنی الحارث بن عدی

مسجد بنی مرة بن حجر بن عدی بن معاویة

مسجد بنی عمرو بن وهب بن ربیعة

مسجد بنی أبی الخیر بن وهب بن ربیعة

مسجد بنی الأرقم بن عمرو بن وهب

مسجد بنی شجرة

مسجد بنی سلمة (بنی أبی کرب بن ربیعة).

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۳۱۶

بعض الملاحظات عن الجدول الأول: لم یرد فی القائمة مسجد المعادل الذی حدد موضعه خطأ بفهرس تاریخ الطبری، و عند الجنابی بالکوفة مع أنه کان یوجد فی البصرة. کما أننا أغفلنا عمدا إضافة مساجد العصر العباسی إلی القائمة، منها مسجد المروزیة، و مسجد وکیع بن الجراح و مسجد دار اللؤلؤ الذی ذکره ماسینیون بدون أی سند. و لا یمکن ادراج مسجد الموالی بتاتا فی هذا الجدول، لأنه کان یقع خارج الکوفة بشراف، بعیدا جدا عن القادسیة کما ورد فی الاشارة الوحیدة المتوفرة لدینا. فقد أخطأ ماسینیون حینما حدده بالکناسة عند بنی أسد (عشیرة کاهل) قائلا: «أری أن مسجد الموالی أقیم فی هذه العشیرة الأخیرة التی کثرت مواليها، فکانت تسمیة فریدة لفت إلیها النظر غولدزیهر Goldziher. فإن کانوا فعلا موالی لأسد، فإن المقصودین بالذات هم بنو أسد المتواجدون فی البادیة قریبا من طریق الحج، لا- أولئک المقیمون بالکوفة: ذلک أن هذا المسجد کان یبعد عن الکوفة ۱۳۰ میلا أی ۲۶۰ کیلومترا.

کان کتاب الطبری أضمن مصدر لضبط هذا الجدول، فقد أمدنا بأکبر قسم من أسماء المکان و تلاه البلاذری، و نقل ابن الفقیه عن البلاذری و اعتمد کذلک مصادر الشیعة التی استفاد منها البراقی کل الاستفادة. فقد اقتبس البراقی معلوماته عن المجلسی و عن الحر العاملی و عن کتب الزیارات، فذکر أسماء مساجد لم یرد ذکرها فی المصادر المعروفة، منها مسجد جریر بن عبد اللّه البجلی، و مسجد صعصعة و مسجد تیم. و أورد بالخصوص ما رواه الشیعة عن المساجد المبارکة و المساجد الملعونة، فجاء ذلک قراءة معیاریة جدیدة لمواقع الکوفة من طرف الضمیر الشیعی. و تظهر هذه القراءة المستجدة نفسها اسقاطا علی الفضاء لرؤیة خاصة بتاریخ المدینة فی القرن الأول. و قد قامت هذه الرؤیة أصلا علی جدلیة الصدیق و العدو. فقد تعرّض کل الأشخاص و العشائر الذین واجهوا «قضیة الشیعة» بالفتور و العداء، لأن تصنف مساجدهم و خططهم أیضا فی صنف الملعون. فکان الأمر

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۳۱۷

کذلک بالنسبة لمسجد الأشعث و جریر البجلی و سماک و شبث، و مسجد ثقیف، و المسجد الواقع عند الحمراء. و وصفت المساجد بأنها مبارکة، إذا مر بها وصلی فیها أحد الأئمة الأوائل و لا سیما علی. الواقع أنها تحیل علی شخص أو عشیرة أیدوا القضیة. و هذه حال مسجد السهلة الذی قال عنه البراقی إنه تحقق من کونه مسجد بنی ظفر و قال ماسینیون إنه مسجد عبد القیس. و من المعلوم أن الارتباط قوی جدا بین عبد القیس و بین علی و قد وقفوا إلی جانبه فی وقعة الجمل، و حتی منذ وصوله إلی ذی قار قرب الکوفة. و کذلک حال مسجد جعفی و مسجد غنی، مع أن الأمر کان أقل وضوحا، و کذلک الأمر بالنسبة للحمراء، و هو شیء محتمل لأنهم أیدوا المختار، و قد تماثل مسجدهم بصورة مثیرة بمسجد یونس.

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۳۱۸

المصطلحات

١: دار عمرو بن حريث

٢: دار الوليد بن عقبة

٣: دار المختار

٤: دار خالد بن عرفطة

٥: دار أبى موسى

٦: مسجد بنى مخزوم

٧: مسجد الأشعث

٨: جبانة كندة

٩: مسجد بنى البدّاء

١٠: مسجد السّكون

١١: مسجد بنى أود

١٢: مسجد النخع

١٢ م: جبانة مراد

١٣: مسجد جعفى

١٤: مسجد سماك

١٥: جبانة أثير

١٦: مسجد بنى كاهل

١٧: جبانة عرزم

١٨: مسجد بنى جذيمة

١٩: صحراء البردخت

٢٠: مسجد بنى مقاصف

٢١: صحراء بنى قرار

٢٢: مسجد دارم

٢٣: مسجد بنى شيطان

٢٤: مسجد بنى تيم

٢٥: مسجد شبث

٢٦: صحراء شبث

٢٧: مسجد بنى دهمان

٢٨: جبانة مخنف

٢٩: صحراء عبد القيس

٣٠: مسجد عبد القيس

٣١: مصلى خالد

٣٢: جبانة بشر

٣٣: مسجد جرير

٣٤: جبانة السّبيع

٣٥: مسجد أبى داود

٣٦: مسجد ثقيف

٣٧: حمام قطن بن عبد اللّه

٣٨: حمام عمرو بن حريث

٣٩: مسجد أحمس

٤٠: الجبانة

٤١: بستان زائدة

٤٢: مسجد شبيب

٤٣: الايوان

٤٤: دار الرزق

٤٥: دار الجزارين

٤٦: حمام المهبذان

٤٧: صحراء بنى عامر

٤٨: مسجد بنى غنى

٤٩: جبانة سلول

٥٠: مسجد بنى عدى

٥١: مسجد الحمراء

٥٢: جبانة الصائديين

٥٣: مسجد بنى عنز

قطيعة عشيرة

سكة

دار (مسكن الأشراف)

مسجد

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣١٩

– ٢٣– وضع السكك: السور و الخندق

لا يبدو أنّ الإنارة كانت موجودة باستمرار فى الكوفة، خلافا لما قد يظنّ اعتمادا على إشارة ماسينيون الذى يتكلّم عن «المشاعل

المنارة ليلا». كان الظلام يسود الكوفة بالليل، كما كان يسود روما، و تقريبا كافة المدن التى سبقت العصر الحديث. و لنا على ذلك حجج مباشرة و غير مباشرة، فمثلا كان عبيد اللّه بن زياد يتفقد المسجد ليلا، سنة ۶۰ ه. بالمصابيح مقلبا الزوايا. و قد وقف الحجاج فوق باب القصر، عند دخول شبيب إلى الكوفة «و ثم مصباح مع غلام له قائم» داعيا الناس إلى الحشد، و يرشدنا السياق إلى أن الرؤية كانت غير ممكنة بالمرة. و كانت المشاعل التى تحدث عنها ماسينيون و جاراه البراقى فى ذلك، من الهرادى الذى أشعلها جنود زيد بن على (۱۲۲ ه). لما ثاروا بالليل، و ذلك للتعارف و إشاعة الدفء بينهم فى آن لأن «الليلة كانت شديدة البرد». إنها لظاهرة استثنائية و هذا ما يفسر ملاحظتها و تدوينها، ذلك أن الأمر لم يكن متعلقا بإضاءة عادية مستمرة للسكك. و يظهر أن الهرادى كانت لا- محالة حزما من القصب ربطت بينها فروع الكرم (راجع تاريخ حنبعل) يتمّ اشعالها و رفعها، و هى تحترق سريعا جدا، «فكلما أكلت النار هرديا رفعوا آخر». أما الحجج غير المباشرة فكثيرة. ورد بالمصادر أن الليل كان يساعد على التجمعات تأهبا للانتفاض، و اندلاع الثورات، و أيضا تدبير المؤامرات و التنقلات أو مجرد العنف اليومى، و لا سيما السرقات. و كان هذا العنف حاضرا و شاملا، و قد شهر به زياد وندد به فى خطبته التى كانت فى الواقع بمثابة منشور موجه لأهل البصرة.. و قد غلب

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۲۰

عليه الشعور بقوة الاضطراب العمومى الذى هو اضطراب يتبع الحق العام لكن ارتبط ببداية الاضطراب السياسى. كان الأمر كذلك عندما بدأ الانتفاض على عثمان: فقد بدأت الفوضى تدب و ظهرت نزعة مخيفة إلى الإجرام. و كان ذلك عبارة عن نوائب من الحمى، و اهتزازات من الضيق لكنه كذلك انخرام طرأ على تكيّف الروح العربية بالمحيط، بالنظر لضياع الفرد فى المدينة التى عمّتها البلبلة، و أخيرا فهو عنف عادى يفرزه كل تواجد حضرى فى كل عصر و يحتار منه الناس فتستغله السلطة أو المشوشون فى اتجاهات مختلفة.

و الظاهرة الكبيرة هنا أن زيادا فرض استبدادا شحن بالمخاطر و أوقع بهذا تحولا فى تاريخ العراق و الإسلام، و هو أمر شعر به أبو مخنف لوضوحه. فما هو منطلقه؟ كان الأمر عبارة عن معاينة لفوضى عامة عادية يصرح بها زياد بهذه العبارة: «الغارة فى النهار و السرق فى الليل».

و يضيف: «و إياى و دلج الليل فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه». و أخضع البصرة إلى نظام منع التجول بصورة مستمرة لا هوادة فيها. كان المقصود من ذلك اتخاذ إجراء لحفظ الأمن اليومى الحيوى، و هو تنظيم للتعايش الجماعى حتى و لو أخفى هذا الأمر نوايا سياسية دون شك. ذلك أن زيادا نفسه مؤسس الدولة السلطوية و فارض الاستبداد و العسف و الممارس للقسوة فى الضرب على أيدى الأعداء، كان أيضا منظما و مربيا. و قد بيّنا أنه جعل من البصرة و الكوفة على صعيد التمصير الصرف، مدينتين حقيقيتين. و إضافة إلى جهده المعمارى، فقد أصدر تدابير كثيرة لفائدة المدينة، و لا- سيما المحافظة على نظافة السكك. فكان السكان ملزمين برفع أكوام الطين بعد نزول الأمطار، و رفع القمامات من السكك و بلغ به الأمر فى البصرة إلى حد إنشاء مصلحة مختصة لرفع القمامة. و المفروض أنه طبق السياسة نفسها فى الكوفة. لقد أشار البلاذرى إلى أن المكان الموجود بدار الروميين فى المركز، كان مصبا للزبال: يعنى ذلك أن الناس كانوا يذهبون إليه لصب زبالهم و «الرمل». ثم فى عصر يزيد بن عبد الملك، نظّف هذا المكان و بسط. و قد أشرنا كذلك إلى وضع الكناسة التى كانت مصبا للقمامة، ثم أصبحت سوقا كبرى للقوافل. و ما يستخلص من هذه الأمور أن شاغل نظافة السكك كان موجودا.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۲۱

الواضح أن هذه السكك لم تكن مبلطة بل حافظت على وضعها خلافا لما كان عليه الأمر فى مدينة أخرى هى حمص. لكن

حمص كانت تابعة للمملكة الرومانية البيزنطية التى يعترف كتّاب عرب كالجاحظ بتفوقها على مجال وادى الرافدين ما عدا بغداد التى فاقت فى نظره مدن «الشامات» فعلا. و من المعلوم أن موضوع نظافة السكك و الرحاب تدقيقا، تجسم فى بغداد حيث كانت السكك تكنس و تزال أوساخها كل يوم. لكن المحتمل أنها لم تكن مبلطة فى بادىء الأمر، لأن التبليط كان فى الحقيقة ابتكارا رومانيا لم يدخل كل مكان.

أشرنا سابقا إلى السور و الخندق و لنوجز القول بشأنهما. لقد فرضهما أبو جعفر المنصور على السكان فحمّلهم النفقات سنة ۱۵۵ ه عقابا لهم على نزعاتهم المتشيعة لعلىّ، و إحصاء لعددهم- كما جاء فى الروايات. و الواقع أن ما قام به أبو جعفر يعبّر عن ظهور تصور كامل جديد للمدينة. هذا التصور إنما ترمز إليه بغداد تماما، إذ كان جهازها الأساسى السور و مركبات الأبواب. و هكذا تعود التقاليد البابلية إلى سالف قوتها، بعد أن اختفت إلى حين. و قد أراد المنصور توسيع هذا التصور إلى عاصمته القديمة حيث ارتجف لفكرة هجمة يقوم بها جيش ابراهيم بن عبد اللّه العلوى الثائر فى البصرة. ليس هناك أى شىء؟؟؟ فى أن الجهد التمصيرى الذى قام به المنصور فى بغداد و الكوفة و غيرهما، قد داخله شاغل الاحتماء من الثورات الداخلية. إنها لمفارقة أنه فكر فى الأمر بعد أن استتب النظام.

و ينبغى أن نضيف لهذه الأسباب سببا آخر هو أن الكوفة لم تعد مصرا للمقاتلة بل أصبحت بلدا تابعا، و مدينة من مدن الخليفة. فكان السور استجابة «لتمدين» الكوفة تمدينا كاملا شاملا، و للتحول الطارىء على اتجاهها، و المسيرة التى قطعتها طيلة قرن و نصف منتقلة من وضع المصر المسلح المهاجم المضطرب المهيمن، أحد منابع القوة العربية، إلى وضع مدينة الثقافة و الصناعة المنزوعة السلاح و الهشة. فكان ينبغى حمايتها من العالم الخارجى.

لعب السور بصورة ملموسة دورا أقل أهمية من الخندق الذى كان قناة حقيقية محصنة، و كان متضمنا للجسور بأبوابها، و كانت الأفلاك و المراكب تعبره. كانت الكوفة فى الماضى مدينة مليئة بغبار و برائحة الصحراء فأضحت مدينة الماء. كانت محاصرة بين النهر و الصحراء، فمالت إلى جهة النهر، و جلبت مياهه و سيطرت عليه و عبرته و جعلت منه حزاما

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۲۲

تحتمى به. فكان سور الكوفة الحقيقى الخندق- القنال، أى ما عرف بالخندق. و قد أشار إليه الطبرى عند حديثه عن ثورة شقيق أبى السرايا سنة ۲۰۲ ه. و من نتف الأخبار التى يمكن اقتباسها من هذا الحدث يتبين أن الربض كان موجودا بالخارج، و هو ربض عيسى بن موسى، و كذلك الكناسة التى أصبحت ربضا مبنيّا. و بذلك فقد أحاط السور «بالمدينة» أى بالمركز و الخطط، و حدودها القديمة التى أمحت و تحولت إلى أحياء حضرية مع ما تبقى من الجبانات. و هكذا تحولت الكوفة إلى مدينة إسلامية كلاسيكية، لها بنية مزدوجة تتركب من «المدينة» و الأرباض، و حيث كان الخندق و السور يحددان «المدينة» أكثر مما يحميانها، و قد رسما الحد الفاصل بالضبط بينها و بين الأرباض.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۲۳

الباب السابع الكوفة كنموذج للمدينة الاسلامية؟

اشارة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۲۴

- ۲۴- الكوفة و المدن المنشأة بالعراق قبل بغداد

اشارة

إذا ما وافقنا على أن الكوفة كانت منذ البداية حاضرة، اختطت تخطيطا كاملا، و وافقنا على وجود الثنائية بين المساحة العمومية المتركبة من القصر و المسجد و الأسواق من جهة و الحزام السكنى المخصص لخطط القبائل من جهة ثانية، فإنه يمكن التساؤل تساؤلا مشروعا عن النموذج الذى جسمته الكوفة بالنسبة لكل مدينة إسلامية مقبلة. و يزداد المشكل دقة بقدر ما ندخل فى العصر الأموى حيث امتلكت أسلوبا معماريا يبدو أن واسط قلدته، و بغداد، و لو تجاوزنا منطقة وادى الرافدين، قصور الشام. و يكون النموذج إذن نموذجا للتخطيط و أيضا للتمصير فى المرحلة الأولية و نموذجا معماريا جاء بعده لما تبلور الفن الأموى فى وادى الرافدين.

و لذا، لنا أن نستفهم فى هذا الموضوع المؤلفات القديمة و الحديثة. جاء فى أحد المصادر بخصوص البصرة ما مفاده أنها اتبعت مثال التخطيط كما كان بالكوفة: «و اختطت على نحو من خطط الكوفة». كذلك فقد أقر ماسينيون مركزية الأسواق كأساس فى بنية الحاضرة الإسلامية، فعرض افتراضا يقول أن أسواق بغداد قلدت أسواق الكوفة من حيث الهندسة المعمارية و الوظائف. و أوضح صالح أحمد العلى بدوره ما هنالك من تشابه ملفت للنظر بين الامصار و بين بغداد فى عصر المنصور لا بسبب المحافظة على البساطة العربية القديمة و حسب، بل بما كان عليه المسجد من طابع مركزى مدمج و كذلك القصر و الدواوين، فقال متحدثا عن بغداد «إن الأمر كان تماما على نحو الأمصار الأولى».

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۲۵

و ذهب التفكير بغرابار O.Grabar فى بحث مهم، تجاوز فيه مؤلفه الأفكار الشائعة نوعا ما، إلى أن قصر المنصور فى بغداد كان مقتبسا من العصر الأموى و أنه كثيرا ما جرى تجاهل وجود أسلوب معمارى أموى فى وادى الرافدين، الذى جسمته واسط و الكوفة، و لعله انتقل إلى الشام. و تساءل فعلا عن دور الكوفة، و كان سؤاله عما إذا كانت نموذجا للبناءات الأموية (فى واسط) كما العباسية (فى بغداد). ينبغى العودة للبحث فى هذا المشكل، لأن المؤلف بقى على سطح الاتجاه إلى المقارنة الهندسية الصرف، و لم تشمل افتراضاته المجموعات المدنية، لكن الأمر يتعلق بمؤشر لا مراء فيه. و قد مر بنا أن لاسنر Lassner كان يلح على فكرة الأصالة فى المدينة المستديرة، و قد رأينا أن تصوره كان خاطئا بشأن كيفية إنشاء الأمصار و تطورها. و بالرغم من ذلك فقد تحدث عن «التشابهات العجيبة» بين مركز بغداد من جهة، يعنى «المجال الشخصى» للخليفة، و بين مركز الكوفة و واسط من جهة أخرى. و قد لاحظ وجود مركب القصر و المسجد فى الموقعين و طابعهما الاتصالى و أن المسجد كان أصغر من القصر. أما فيما يتعلق بالعلاقة المادية الجوهرية بين القصر و المسجد فقد نسب وجودها فى الكوفة الأولية، و ظهورها من جديد فى بغداد إلى الإرث الساسانى المشترك الذى ينبغى التدليل عليه، فى حين أنه كان أكثر معقولية و أكثر مصداقية أيضا أن تعتبر تأثيرا من الكوفة على بغداد.

من المناسب أن نقول إن هذه الانطباعات المتفرقة تأتى لدعم فرضيتنا القائلة بأن الكوفة نموذج، أو على الأقل أن الكوفة لعبت دورا بارزا فى توضيح التصور الحضرى الإسلامى. فقد استند المؤلفون السابقون إما إلى تشكيلة المركز و إما إلى هندسة القصر. لكن سبق أن أشرنا إلى عنصرين للمشكل هما ثنائية المساحة العامة و مساحة السكنى، و بنية الخطط ذاتها التى تحدد إمكانية أصلية للتطور نحو حاضرة متشعبة ملتوية المظهر، فكان ذلك سبقا للنموذجية التى كان عليها وضع الكوفة، و أيضا طرحا لقضية الاستمرارية فى مشروع الاسلام الحضارى.

الكوفة و البصرة:

تفقد هذه النموذجية كل حدتها إذا رضينا بما ورد فى الروايات التاريخية بخصوص

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۲۶

أسبقية إنشاء البصرة، لأن المشكل يصبح عندئذ مشكل مصادر أثرية و أدبية. الحق أننا لا نعلم إلا القليل عن تكوّن البصرة، و لم يمدنا علم الآثار بشيء بعد، على أن القليل الذى وصلنا ينفى الفكرة التقليدية فى الموازاة بين المصرين منذ البداية. حتى و لو وافقنا، مع أبى مخنف، و المدائنى، و ابن اسحاق و غيرهم على أن العرب أقاموا فى الخريبة منذ سنة ۱۴ ه/ ۶۳۵، فلا تكون هذه الاقامة إلا مؤقتة لا محالة. و حين تدعم وضع العرب بعد وقعة القادسية و اتجهت الاقامة إلى الاستمرار حوالى سنة ۱۶- ۱۷ ه فلم تقع بالكيفية الرسمية و الادارية و المنظمة تنظيما دقيقا التى تمت بها فى الكوفة. فقد تضافرت القرائن كلها على اعتبار الكوفة مصرا حقيقيا بينما تكون البصرة قد نشأت عرضا. و استمر الطابع الوقتى للمنشآت بعد سنة ۱۶ ه و اتسم بخاصيات مشوبة بنظام المعسكر الذى كان بصدد التحول البطيء، حيث كان ينبغى لأهل البصرة أن يتمكنوا فعلا من امتلاك قاعدة عقارية بواسطة الفتح، فحملهم ذلك على التقدم إلى خوزستان. و لذا تبدو أسبقية البصرة مفتعلة فلا تنقص فى شيء من الأهمية القصوى التى كانت لعملية التخطيط التى حدثت بالكوفة، و من نموذجيتها.

يسهل اتهام سيف بعصبيته الكوفية و تخطئة الخبر الذى ذكره عن جماعة صغيرة بقيادة عتبة بن غزوان انطلقت من المدائن و اتجهت إلى موقع البصرة، فأصبحت بذلك نوعا من السليل لجماعة سعد الرئيسية. و يسود فعلا الشعور أن مقصده كان المطابقة بين زمن الانشاءين بحيث يكون ذلك قد تم فى بداية سنة ۱۷ «فى نفس الشهر» حسب قوله. لكنه يعترف أن ثلاث محاولات للاستقرار «نزولات» قد جرت، ثم يناقض نفسه فيقول إن البصريين الجدد كانوا موجودين على ضفاف دجلة حين كان الكوفيون العتيدون يقيمون فى المدائن. و بذلك فهو يلتحق بالروايات الأخرى التى تتحدث عن مرحلة أولية تم خلالها

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۲۷

فتح «كور» دجلة.

و سواء اعتمدنا سيفا أو المخبرين الآخرين، و بالرغم من اختلافاتهم، فإن قراءة نقدية للنصوص تحملنا على الاقتناع بأن عملية عسكرية ثانوية للتلهية جرت بين سنة ۱۴ و ۱۶ ه، و قد كانت بقيادة عتبة بن غزوان و بتوجيه من المدينة. و لا شك أن جموع بكر المقيمين بالحدود قد أشاروا بها. فتسببت هذه الحركة فى هجرة محدودة. و كانت عملية ضعيفة المدى حدثت بأسفل دجلة، فتم الاستيلاء على الأبلّه- مقر الحامية الفارسية- و دستميسان و الفرات. و كان من السهل انهاؤها مما يفسر أن العرب المهاجرين تكاثروا بسرعة. و لا شك أن ذلك قد وقع منذ سنة ۱۵ ه بعد القادسية مباشرة. و كان على هذه الغزوات أن تكتسب لها قاعدة فقامت الخريبة بذلك. و قد أكدت بعض الأخبار أن العرب بنوا سبع قرى محصنة هى الدساكر. و لعل المعسكر فى هذه الصورة اتخذ شكل منشأة قروية متفرّقة، فكان نواة للبصرة العتيدة. لكن ذلك يبدو متناقضا مع أقوال هذه المصادر بالذات بخصوص إقامة معسكر من الخيام، و أكواخ من القصب، القصب الذى يقتلعه العرب فى كل حملة لكى يتمّ تركيبه عند العودة. من رأينا أنه ينبغى رفض فكرة بناء هذه

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۲۸

القرى، و قبول فكرة المنشأة الأصلية المزدوجة: يكون اقرار المهاجرين فى قرى الأهالى، و اقرار رفاق عتبة فى معسكر حقيقى على النمط العربى. و هو ما لا يتناقض مع إمكانية اختطاط مسجد فى الهواء الطلق منذ سنة ۱۴ ه. و قد تم التخطيط الشامل باشراف أبى موسى الأشعرى بعد سنة ۱۶ ه. فقط، فبدأ البناء باللبن، و شيد المسجد و القصر.

لكن المسجد كان صغيرا و كان القصر بعيدا عنه، و الواضح أنهما كانا مخصصين معا لمجموعة صغيرة من الناس. و لم يتوفر أى

خبر دقيق، ما عدا الخبر الذى يقول بتزامن التخطيطين: تخطيط البصرة، و تخطيط الكوفة، بخصوص التاريخ الذى مارس فيه أبو موسى التخطيط، فى حال ما إذا تعلق الأمر بعمل سابق لعمل سعد. كل ما نعلمه أن أبا موسى خلف عتبة سنة ١٦ ه. لكن ليس واضحا بتاتا أنه بادر بتمصير حقيقى للمعسكر. كان عدد المهاجرين ضعيفا جدا، و كانت الموارد تعوزهم كثيرا، و لذا فمن الصعب أن يتم التخطيط النهائى فى عام ١٦ أو ١٧ ه. و سيقع فعلا تغيير فى جغرافيا القبائل بالبصرة، بكيفية متسعة بين سنتى ١٧ و ٢٠ ه/ ٦٣٨- ٦٤١ ارتباطا بفتح خوزستان و بفضل هجرة جموع قبلية ضخمة منسجمة. و هذا لا يعنى كذلك أنه كان يجب بدء هذا الفتح، و بالأحرى انهاؤه أو ترقب الاقامة المخططة فى الكوفة، لكى يقوم أهل

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣٢٩

البصرة بتخطيط يخصهم. يحتمل كثيرا أنهم سبقوا أهل الكوفة فى مدة تقع بين سنتى ١٦ و ١٧ ه/ ٦٣٧- ٦٣٨. و ما ينبغى تسجيله خاصة هو الفرق بين ظروف الاقامة هنا و هناك، و الفارق الدلالى الكبير بين هاتين الظاهرتين. كان جيش الفتح موجودا فى الكوفة التى كانت ترمز إلى تجربة الاستيطان العربى فى بلاد الرافدين، بالنسبة لعمر. و قد توفرت لهذا الجيش أرض مفتوحة تستدعى التنظيم مع ما يشمل ذلك من ابتكار و تهيئة و استيعاب للتجارب الواردة بالمحيط. و كانت البصرة ثمرة لعفوية لم يجر السيطرة عليها تماما، و ثمرة لعمل إضافى ثانوى فى البداية، و ثمرة رغبة فى الهجرة بأقل التكاليف. فكانت إذن محتشمة ضعيفة المدى و استفادت من الانتصارات التى ترتبت عن خوض معارك كبرى وقعت بمركز القرار فى بلاد بابل. كانت هناك لحظتان واضحتان فى ظهور البصرة: فترة إقامة مؤقتة سنة ١٤، بعد وقعة البويب مباشرة، و فترة اقامة دائمة مصحوبة بالتخطيط و البناءات، بعد سنة ١٦ ه/ ٦٣٧. لكنه كان تخطيطا منقوصا حتما، و هو ما يفسر فيما بعد اتساع أعمال التحوير و التشييد التى أمر بها زياد. و لا شك أنه أخذا بوجهة النظر هذه ينبغى الاحتفاظ بالأسبقية فى التخطيط للكوفة أو على الأقل على كثافة أعظم فى الدلالة، و حتى تخطئة الموازاة أو التوأمة بين المصرين فى هذه المرحلة الأولية. و من الممكن أن التقليد التاريخى العربى قد أسقط على وضع مختلف صورة الكوفة الأولية و الصورة التى أضحت عليها البصرة بعد ذلك. و على كل، فقد اتصفت الكوفة من أول وهلة بصفة المدينة، أو أن تخطيطها على الأقل، أكد طموحها لذلك لأن أهل الكوفة قاموا بحربهم، فجنحوا إلى الحياة المدنية. أما البصرة فباستثناء الغارات الأولى التى وقعت فى مرحلة الخريبة، فقد كان عليها أن تشن حربها (فى خوزستان) لتربح سلمها و تدعم وجودها. فما أعوز نشوؤها من صفات العز التى توفرت للكوفة- النموذج التمصيرى و التنظيم الجبائى العسكرى و كبرياء السابقة- عوضت عنه بأن كانت مكانا للمبادرة و الخلق و التماسك الذى استحقته بقدر ما منحته. لقد بقيت الكوفة حبيسة نشأتها المنظمة جدا، و المرتبطة كثيرا بالحرب و الحكم. و بفضل عفويتها الأولى، حصلت البصرة على قدرة كبيرة على التطور، و نزعة عميقة إلى السلم الداخلى.

الكوفة و واسط:

سبق أن قلنا أن غرابار أقام صلة أساسية بين الكوفة و واسط و بغداد، فلفت بذلك نظر الباحثين إلى أهمية العمارة الأموية بوادى الرافدين و حتى إلى دورها النموذجى لا فى الاتجاه الأموى- العباسى فقط حيث طرح الاستمرارية، بل أيضا فى الاتجاه الفضائى العراق-

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣٣٠

الشام (قصر المشتّى خاصة). لكن إذا لم يشغلنا الآن المشكل المعمارى- تصميم القصور، و بنية الايوانات و وجودها، و الشرفات الخاصة بالأبواب- فذلك لا يعنى أنه ليس مؤشرا رفيعا على التسلسل الرابط بين الكوفة و بغداد، مرورا بواسط، على مستوى

التصور المدنى الأوسع. على أن غرابار جعل من واسط المثال الوحيد لبغداد، فأنزل الكوفة منزلة الأصل فقط، بسبب التماثلات المدهشة (مثلا القبة الخضراء) و التقارب الزمنى و طابع مدينة الحكم، أى مدينة شبه امبراطورية، الذى كانت عليه واسط. لكن العباسيين أقاموا بالكوفة و عرفوها، و استخدموا مهندسين معماريين من الكوفة و قد بينا ذلك. و أخيرا فبالرغم من قلة الثقة المتبادلة فقد كانت لهم جذور بالكوفة، فى حين كانت واسط تجسم السلطة المكروهة التى قاموا بتقويضها. هذه عناصر نفسانية ينبغى أخذها بعين الاعتبار و هى تحملنا على الاعتقاد بأن المنصور استمد نموذجه مباشرة من واسط و الكوفة معا، مع اعتبار التأثيرات الخارجية طبعا و الجانب الخلاق بالمقدار نفسه. الواقع أن واسط سمت كثيرا بالتصور المعمارى الكوفى. كان كل شىء كبيرا بها، المسجد و القصر، و يمكن مقارنة ذلك بمنجزات المنصور بخصوص الأبعاد. كانت مدينة للحكم كما قلنا و لحكم مهدد كما أنه صار متعسفا، لكنها كانت مدينة مصطنعة أيضا، لا وجود فيها لمجموعة حقيقية من السكان، خلافا لما كان عليه الأمر فى الكوفة، و فى حين أنها توافرت لبغداد، بغداد التى بنت لنفسها مصير حاضرة كاملة مندمجة.

لقد اعتمدت المصادر المتوفرة لدينا على كتاب بحشل تاريخ واسط أساسا فضلا عن معلومات متفرقة وردت فى الأدب التاريخى الجغرافى، و على ما كتبه ياقوت الحموى و على فقرة قصيرة من كتاب البلدان لليعقوبى. كما أمدتنا التنقيبات الأثرية التى أجريت بين سنة ١٩٣٦ و ١٩٤٢، بمعلومات هامة.

أنشئت واسط بعد ثورة ابن الأشعث (أى بين سنة ٨٣ و ٨٤ ه/ ٧٠٢- ٧٠٣).

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣٣١

فهى إذن ثمرة لإرادة السلطة الأموية فى العراق- بمعنى إرادة الحجاج- فى التخلى عن البيئة العربية المحيطة به، و إنشاء مقر للحكم و الاحتلال أو نحوه، فى محيط معاد. الواقع أن واسط قامت إلى جانب حاضرة أهلية قديمة هى كسكر، و حافظت على تميزها فأنشئت على شاطىء دجلة الغربى، فى حين أن المدينة القديمة كانت تقع إلى الشرق. إنما جرى الإبقاء على ما كان من صلة بينهما، فشيد جسر من المراكب، و ثبتت وحدة المدينة بتمامها شيئا فشيئا- أى المدينة القديمة و الجديدة- و تراكبت هكذا على النهر كما كان الأمر فى بابل. على أن مدينة الحجاج حافظت مدة على ذاتيتها التى كان السور يرمز إليها و يجسمها. و لم يكن للمدينة الجديدة إلا أن تأخذ بعين الاعتبار التجربة الحضرية التى استوعبها العرب بوادى الرافدين. كان جهد البناء هاما، و قد تجاوز المحاولات الأولية وهيأ للأعمال الكبرى الأولى فى العمارة العربية التى سيدشّنها الوليد. و لقد أتى هذا المجهود فى فترة تأكيد الذات فى الميدان الفنى، فى فترة تحول طرأ على الحضارة العربية الباحثة عن أسلوب لها، و مجد تسجله على الحجر أو الآجر. فظهرت القبة الخضراء المعروفة التى قلدها المنصور فكانت حدثا فنيا مع أن قبة الصخرة سبقتها فى الوجود. هذا و إن بنية النواة المركزية كانت من النوع الكوفى: كان القصر يفتح على المسجد، و قامت غير بعيد من ذلك أسواق متخصصة.

مع الفارق أن البناء تم على نطاق أعظم، و لا شك أنه كان أكثر تهذيبا. كانت أقيسة القصر المربع، ٤٠٠ ذراع* ٤٠٠ ذراع، و كان المسجد أصغر من ذلك (٢٠٠* ٢٠٠). إن هذه الأقيسة مساوية تماما لما سيتم فى بغداد و أكثر مما كانت عليه فى الكوفة. كانت السوق غير بعيدة عن القصر، و عالية التخصص و قيل أنها كانت متسعة كثيرا. لكن عدد الصنائع المذكورة فى المصادر غير هام جدا، و هذا دليل واضح على الفارق الموجود بين الأهداف التى قصدها الحجاج و واقع الاستقرار.

و قد فرضت الأمور تسلسلا مع الكوفة، فى تصور المركز هذا. لكن كافة الأشياء

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣٣٢

المتعلقة بامتداد الأقيسة و البحث عن المظهر العظيم و المترف، توحى باستيعاب أكثر رقة للمكاسب السابقة كما توحى بالذات بوعى للحضارة العربية و هى بصدد التكوين، و بترجمة معمارية عن شعور بالقوة، فيما كانت منطقة الشام و فلسطين توحى

بالبحث عن الجماليـة و الجماليـة فحسب. فهل كان ذلك بمثابـة عودة أكثر وضوحا إلى المثال الآشورى- البابلى الـذى ساعـدته ظرفية الدفاع و الصراع؟

إن الظـاهرة الجديـدة فى واسـط بالمقارنـة مع الكوفـة و البصـرة، هى أن يشـيّد خط مضاعف من الأسوار، و خنـدق، و أن توجد أبواب جيـدة الحراسـة. هذا احياء لبابل و صورة مسـبقة لبغداد أيضا، كأن واسط أرادت أن تمر من فوق مرحلة الأمصار الصـرف لوصل الحاضـرتين الكبيرتين بوادى الرافـدين. كانت الكوفـة الأوليـة و الأمويـة مدينـة مفتوحة فعلا. و لم ترض، شبيهة فى ذلك باسبرطـة، بسور سوى ذاك الـذى ترفعه سـيوف أبنائهـا. لقـد تبقى فيهـا مـا يشـبه الشـعور بالحريـة العربيـة ذاتها، حريـة المقاتلين المتأهبين للهجوم، لا سيما حرية البدو المولعين بروح الصحراء. و لعلهم كانوا يتبرمون من العيش المدنى و يختنقون فيه اختناقا و لعلهم كـانوا يتصورون أى سور كحائط سـجن يحبسـهم بصـفة لا تطاق. و لعل امتناع المصـرين من قبول النظام الاسـتثنائى، نظام الرقابة و حظر التجول ليلا، الذى شرع زياد فى تطبيقه و تمادى فيه الحجاج، هو الذى جعل هذا الأخير يقدم على الفصل بين مقر الحكم و السـكان العرب. إن التمييز بين المجتمع و السـلطة هو وحده الذى يفسر تشييد الأسوار فى واسط كما فى بغداد، و ليس الخطر الخارجى. بقى أن يجرى التنقيب عن نموذج فى الحضارات السابقة ...

فى البدايـة، تماثل المجتمع بالشـعب العربى من مهاجرة الكوفـة و البصـرة. كانت أمـة من المقاتلين تشـعبت تشـعبا عميقا بذاتيتها بالنسـبة لجهاز الدولة الذى اعتبرته طفيليا باستمرار. و هناك أيضا عالم أهل السواد، الذى منع عليه الحجاج التسرب إلى الحاضرة العربيـة. لـذا اختير السـكان العرب فى واسـط اعتمادا على ما أبـدوه من ولاء، فتكونوا من أهل الشام و من عـدد من أهل الأمصار المنتخبين، و الرأى عندى أنهم كانوا قليلى العدد و لم يشـكلوا مجموعة حضرية منسجمة و متميزة فى آن. أما أهالى السواد، فقد حظّرت عليهم

الاقامـة عبر تمييز عنصـرى لا يتصور، إذ كانوا ملزمين بمغادرة المدينـة قبل أن تقفل أبوابها عنـد المغرب. كان للعرب المختارين فقـط حق الاقامـة، لكنهم كـانوا مثل الآخرين و على حـد سواء، خاضـعين لنظام الرقابـة و الارهاب. فيـذكر لنا بحشل أن الحجاج وضع الحرس على كل باب من أبواب السور و يذكر لنا أيضا أن العرب كانوا يدخلون المدينة عند المغرب فيما يخرج منها أهل السواد. إذ لا حق لهم بالمبيت فيها.

و هكـذا نجـد فى المشـروع الحجـاجى لواسـط ارادة واضـحة لاقصـاء الغير، و هـذا مـا أضـفى على واسط مظهر المدينـة المغلقة الخاضـعة للرقابـة، و مثل هـذه النيـة تبرز فى مخطط المدينة المدورة، لكن الكوفة و البصـرة لم تتصـفا بهذا المظهر، ما عدا بعض الفترات الخاليـة من الارهاب. و لقـد قيل إن أفصح العرب أقاموا بواسط لنقائهم العرقى، و فى مكان آخر إن أهل الكوفة اختلطوا بأهـل السواد و أهل البصـرة فى الخوز، و هـذا دليل على عمق المبادلات بين المصـرين و محيطهما البشـرى. و قـد برزت سياسـة التعسف الاسـتثنائية التى توخاها الحجاج فى نهب زخارف العمارة بالمـدن القريبـة، لا سـيما أبواب الحديـد بمدينة؟؟؟ ند ورد و الدوقرة، و دير ماسـرجيس و سـرابيط، كما تناقلته الروايات، و اسـتقدمت لتركيب أبواب واسط، و أعيد اسـتخدامها فى بغداد من قبل المنصور. لكن هـذه السياسة التى توخاها الحجاج جاءت معاكسة للتيارات المتجهة إلى الاختلاط و لحركات النزوح الريفى إلى المدينة، و لذا جرى العدول عنها بعد موته. و لئن ظهرت الكوفة بمظهر النموذج على صـعيد العمارة للنواة المدنية فإن واسط اختلفت عنها جذريا، على الصـعيد البشـرى و الثقافى، و قد ترجم ذلك من حيث العمارة إلى تعارض دامغ فى واسط، بين مركز سياسـى- دينى عظيـم و حزام سـكنى- متركب من محلات- هزيـل فعلا- و عنـدما «تمـدنت» البصـرة و الكوفـة بانتفـاء الصـفة العسـكرية عنهمـا، تم ظهور واسـط كمركز استيعـاب لجيش الاحتلال الشـامى، معوضـة الكوفـة و البصـرة فى اختيارهما الحربى

السابق، لكنها وقفت نفسها على خدمة دولة و خصوصية سياسية معينة.
نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۳۴

– ۲۵– الكوفة و بغداد

سبق أن اقترحنا وجود تسلسل مزدوج بين الكوفة و بغداد، بداية و أصلا عن طريق تدخل واسط و ثانيا بالعودة المباشرة إلى التصور الحضرى الكوفى بصورة شاملة و تفصيلية.
لكن بمفعول العودة يتبين تأثير بنية بغداد على الكوفة و هى ما زالت فى حالة تطور.
لقد ألح التقليد الاستشراقى مدة طويلة على الطابع الفارسى الذى طبعت به بغداد، و هو أمر واقع لكنه يبدو ثانويا. و اليوم أكثر من أى وقت، تفرض نفسها على المؤرخ فكرة الاستمرارية الهيكلية بين الإرث الأموى و الانشاءات العباسية الأولى، لكن مع وجود انفصام معين. و فى الجملة فقد جمعت بغداد– طبق نظام زمنى معكوس– بين واسط و الكوفة، و تجاوزتهما فى آن.
كانت الكوفة عاصمة إدارية للعباسيين قبل سنة ۱۴۹ ه/ ۶۷۲، لأنها اشتملت على الدواوين المركزية. و كانت العاصمة السياسية تتجسم قطعا فى المدينة حيث يقيم الخليفة فى تنقلاته المختلفة، و لا سيما مدينة ابن هبيرة فى خلافة المنصور. لكن هذه المدينة
نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۳۵
الأخيرة كانت مصطنعة الانشاء، و كانت تقابل الكوفة و تستقبل منها قسرا كافة التأثيرات. و قد روى أن بغداد تقرر لها التمتع بموقع أفضل من موقع الكوفة. على أن الموقع لا يمكن اعتباره إلا عن طريق الغايات التى يختارها المؤسسون، و ليس فى حد ذاته.

كانت الكوفة أحسن موقعا ضمن تشكيلة معينة للتاريخ، و لأن العرب الأولين أدركوا بطريقتهم ما كان للفضاء الجديد المفتوح من اعتبار: كانت الكوفة تستجيب لتخوفهم تجاه الأهالى و تربطهم بالوطن الأم. و قد استجابت بغداد بدورها إلى تمثل جديد للفضاء و البشر الذين تكونت منهم الامبراطورية، و قد ارتبطت بغاية أخرى تخالف غاية عمر. و ظهر فى إنشاء بغداد الطموح إلى الجديد، و رمزية الجدة، و معنى الامبراطورية و عزتها، كما برز تصور حديث للموقع الهندسى الذى كان لهذه الأمبراطورية.
نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة؛ ص۳۳۵
ا هى العناصر الرئيسية التى تركبت منها بغداد فى خلافة المنصور؟ كان للمدينة المستديرة مركز، حزام سكنى، و أسوار متشعبة. و قد امتدت منذ البداية إلى أراض قامت خارج الأسوار.
و كما حدث بالكوفة و واسط، فقد حدد المركز المساحة العمومية حيث يوجد القصر و الجامع الأعظم، و قد كان القصر كذلك أوسع من المسجد. كما أن هناك دارا للشرطة و بعض البنايات الادارية الأخرى و كما هو الشأن بالكوفة أيضا، فإننا نجد حزاما سكنيا يحيط
نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۳۶
بالمساحة العمومية و تخترقه السكك المختطة اختطاطا هندسيا. إن تقسيم المدينة المستديرة إلى منطقتين مجاليتين– أى المساحة العمومية و مساحة للاقامة– يظهر استمرارا ممتازا لتركيبة الكوفة. و قد ذكرنا أن هذا التطور ظهر أول ما ظهر بالكوفة، و ما يلفت النظر أن كل من درس وضع بغداد، بداية من لاسترانج
Le Strange
حتى لاسنر، مرورا بهرزفلدHerzfeld و كرسويل و عبد العزيز الدورى و صالح العلى، لم يهتموا بمصير الحزام السكنى داخل

أسوار المدينة أو أنهم لم يفكروا فى اعتباره عنصرا حاسما للبنية المدنية الاسلامية فى حد ذاته أولا و فى كونه يتعارض مع المركز السياسى- الدينى ثانيا. فلو أراد المنصور بناء قلعة فحسب أو «مقرا شخصيا» لما أقيمت هذه المنطقة السكنية و هذه السكك و عددها ۴۱ كما ذكر ذلك اليعقوبى. صحيح أن رقة الحزام- من ۳۰۰ إلى ۴۰۰ متر عمقا.. أى ما يعادل طول الطاقات- لا تؤيد ما كان يتوقع له من أهمية. و صحيح أيضا أن الاقطاعات التى منحها قادة الجيش خارج المدينة المستديرة، و كان ذلك منذ البداية فيما يظهر، تدعو إلى القول أن الاسكان تمّ تصميمه خارج المدينة.

على أن المساحة المخصصة للسكن داخل المدينة مهما صغرت، فإنها تؤيد التصور المدمج للحاضرة على النمط الكوفى، لأن المركز مهما كان متفوقا، فإنه لا يبتلع المكان كله.

إن وجود مثل هذا الحزام- زيادة على بنية المركز نفسه من جامع و قصر و رحبة- يحملنا على الاعتراض على تصور المدينة- القصر، و يطرح استمرارية أساسية مع الأمصار.

فى حين أن لاسترانج اعتمد بصراحة المعطيات التى ورد ذكرها لدى اليعقوبى و الخطيب البغدادى فوزع على المركز البنايات الادارية و دور أبناء الخليفة، نجد أن لاسنر قد تصور تصميما آخر تماما. هو أخرجها من المركز وضمها إلى مساحة السكن فشيد حلقة إضافية و ترك فراغا بينها و بين القصر، معتمدا ما ذكره الطبرى لا غير، بخصوص

بيوت القادة، التى كانت تنفتح على الرحبة، و لا سيما إشارة وردت فى كتاب البلدان جاء بها:

«و ليس حول القصر بناء و لا دار و لا مسكن لأحد إلا دار من ناحية باب الشام للحرس و سقيفة كبيرة ...، و حول الرحبة كما تدور منازل أولاد المنصور الأصاغر و من يقرب من خدمته من عبيده و بيت المال و خزانة السلاح و ديوان الرسائل و ديوان الخراج و ديوان الخاتم و ديوان الجند و ديوان الحوائج و ديوان الأحشام و مطبخ العامة و ديوان النفقات». هذا نص هام دون شك، و الغريب أنه لا هرزفلد و لا كرسويل اعتمداه فى تخيلهما لتصميم مخطط المدينة المستديرة، لكن لم يكن الأمر على هذا النحو بالنسبة للاسترانج. فهو يوزع هذه البنايات بين القصر و الحزام السكنى، تاركا فسحات بينها و محترما الطابع الواضح للرحبة. الواقع أن تصميمه يستجيب أكثر لمجموع المعلومات التى توفرت لدينا، مما تستجيب لذلك الحلقة الاضافية التى تصورها لاسنر. و ما قدمه هذا الأخير من حجج لم يكن مقنعا، بما فيها قصة عيسى بن على التى لا تدل إلا على أن الرحبة كانت حيّزا كبيرا للسير على الأقدام بالصورة نفسها التى بقى ما قاله اليعقوبى غامضا. كان المجال المركزى واسعا فعلا: كان قطره يتراوح بين كيلومتر و كيلومترين حسب التقديرات و لذا، يمكن تصور القصر و المسجد منعزلين تماما دون إضافة حلقة أخرى مفردة لا بد أن تكون المصادر قد أشارت إليها لو كانت موجودة حقا. فضلا عن أن مقر المصالح الادارية كان فى كل زمن بالمركز العمومى سواء فى الكوفة أو البصرة أو واسط و الأكثر أن يكون فى القصر ذاته أو إلى جواره. لكن بخصوص المدينة المستديرة فإنه ينبغى ابعادها كما أكد ذلك اليعقوبى و لأنه أكد الأمر، دون إقصائها عن المركز الذى من وظائفه أن يتقبل وجود هذه المصالح. و بالفعل فإننا نستعين فى مثل هذه الصورة، بمعرفتنا بالكوفة الأولية و بتلك البنية الحضرية الموظفة التى استنتجناها، و هى تسمح لنا بأن نحسم فى اتجاه المصداقية. على أن الرحبة لا تغطى المركز كله إلا على سبيل المجاز. إن المقصود بالتحديد من هذه الكلمة هو المجال المحيط بمركّب القصر و المسجد، و الذى يفصله عن قطائع السكنى. و كما كان فى الكوفة، لكن بصورة أعظم، أصبحت هذه الرحبة «رحبة المسجد» بعد ذلك ممددة إياه، و استخدمت للصلاة فى الهواء الطلق (أى كمصلى). و تؤيد كل هذه

الأسباب فكرة تعمير المركز بواسطة البنايات الادارية، و إلا كان ساحة شاسعة خالية أو يكاد. إن هرزفلد يقدر قطر المدينة المدورة ب ٢۶٨٠ مترا: لكن تصعب الموافقة على هذا الرقم لأنه يزيد من الاختلال بين المركز و الحزام السكنى الذى كان عمقه هو عمق الطاقات فعلا (٥٣٨ ذراعا- ما يقرب من ٢٩٠ مترا، و هناك زيادة طفيفة بإضافة الطاقات الصغرى). و يقترب عمق مركّبات المداخل المنتهية حيث تبدأ الرحبة من ٧٠٠ ذراع (- ٣٧٠ مترا) إذا جمعنا العناصر المكونة لها. الأمر الذى يجعل قطر المركز يتجاوز ألفى متر، و هو رقم لا يمكن الموافقة عليه، كما لا يمكن قبول التقدير القصير (حيث يساوى القطر الكامل ۶٠٠ متر)، مما يضفى مصداقية على رقم الميل الواحد (كيلومتران) الذى ذكرته المصادر. و حتى فى هذه الصورة يبقى المركز أعظم من مركز الكوفة، لكن التخطيط لمثل هذه البنية سابق الوجود فى واسط. و فى بغداد بالذات وقع التعويض عن نحافة الحزام السكنى بالقذف بأرباض السكنى خارج المدينة، و لئن كانت منطقة السكنى مشلولة نسبيا فإنها حافظت على تصور الحاضرة الكاملة و كانت امتدادا فى بنية الأمصار السابقة. من كان يقيم فيها؟ نجد بها قادة الجيش و موالى المنصور، و لم يقم فيها ال ۴٠٠٠ من حرس المداخل،

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣٣٩

كما يحمل الأمر على الاعتقاد لأن أكثرهم كانوا يقطنون فى الطاقات حيث كانوا من جند الحامية لا غير. لكن هنا عنصر هام يميز فيما يبدو المدينة المستديرة عن الكوفة: إنه فقدان الأسواق فى المساحة العمومية. كان وجودها فى المرحلة الأولى قد تأكد فى الطاقات ثم استقرت فى مرحلة ثانية فى الكرخ خارج المدينة. صحيح أن هذه الممايزة فى هذه النقطة المهمّة فعلا قد تؤيد بخصوص بغداد المنصور صورة المدينة الملكية و الادارية، أو التى صارت ادارية بصورة متزايدة. على أن الطاقات التى لم تقع بالمركز من حيث المجال، تابعة للمجال العمومى لا للمجال السكنى الخاص، من حيث الوضع المؤسساتى و ليست لها صبغة الاقامة، فضلا عن إمكانية وجود الأسواق فى هذا المكان بسبب قرار نقل، لا منذ البداية، لو صدقنا رواية أوردها الخطيب تحمل على الظن أن الأسواق كانت موجودة فى بداية الأمر غير بعيد عن القصر أى فى المركز. الواقع أن تنقلات الأسواق تكشف عن التردد العميق الذى كان عليه المنصور بخصوص رؤيته لغائية انشائه الجديد، أو على الأقل مقاومته لجاذبية النموذج الكوفى حيث بقيت مركزية الأسواق مكسبا جوهريا. و لا شك أنه كان يريد فى البداية مدينة «ملكية»، لكنها تامة. و لا شك أنه غير من تصوره بعد ثورة ابراهيم بن الحسن دون أن يستطيع المساس بالمخطط الأول للمدينة المستديرة. فقرر افساح المجال لإقامة جيش دائم قوامه ٣٠،٠٠٠ رجل و قرر عندئذ منح القطائع و الأرباع خارج الأسوار، فتحولت بسرعة كبيرة إلى أرباض. و تم الانتقال من الوحدة المدنية المغلقة إلى المجموعة المدنية المركبة، أى إلى المنطقة- المدينة؛ إنه لانتقال حاسم إذ برز معه الثنائى

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣۴٠

الإسلامى المتركب من المدينة و الأرباض. و اتضح مفهوم المدينة بوجود بغداد فى العمران الإسلامى، مع أنه استمد وجوده من الازدواج الفارسى الواضح القائم بين الشهر و البيرون. إن الكوفة على العكس مدينة مفتوحة لا وجود فيها للأرباض كوحدات خارجية تقابل و تمدد كيانا مدنيا متراصا شديد التمييز. و قد تكونت الأرباض فيما بعد و طبق نموذج بغداد- و هذا تأثير انعكس من بغداد على الكوفة- باصطفاء المركز و الحزام السكنى الأقرب (الموافق للخطط القديمة)، و فصلها عن المناطق المحيطة التى استمرت تمتد، و تجسم الانفصال ببناء الأسوار سنة ١۵۵ ه/ ٧٧٢ ببادرة اتخذها فعلا المنصور.

لكن الأسوار كانت جزءا أساسيا فى تشكيلة بغداد، و لم تكن مقررة فقط لتمييز المدينة عن الأرباض. لقد لعبت هذا الدور بعد ذلك حين تشكلت وحدة الكيان البغدادى. و من العسير تبين وظيفتها الأصلية. فهل كانت لأسباب خاصة بالأمن؟ لكنها تكون

فی هـذه الحالـة قـد بنیت لـدرء أخطار الثورات الداخلیة أو کانت رمزا لتعالی السـلطة التی أرادت الانفصال عن الأهالی؟ أو هل أنها عادت إلی العمل بتقلید تشـیید المدن علی النمط الفارسـی، المسـبوق بالتقلید الآشوری البابلی؟ الملاحظ فی هذا الصدد أنه کـان لواسـط خـط مضاعف من الأسوار، فلا لزوم للرجوع إلی التقلیـد الفارسـی. فقـد انفصـلت واسط فعلا عن النموذج المفتوح للامصار بفضل سورها، فاکتست بهذه الکیفیة طابع السـجن أو الثکنة الذی کان کثیر الوضوح فی مظهر المدینة المستدیرة حیث لا- یوجـد اتصـال بین المرکز و مساحـة الحزام السـکنی مباشـرة. بل کان علیه أن یمر بالفواصل ثم بمرکّبات الأبواب التی کانت عبارة عن معابر شدیـدة الحراسـة. کانت المدینـة المسـتدیرة بتصورها الأول، قبل أن یقیم الجیش فی محیطها، أی قبل أن تتحول إلی «مدینة»، قد اسـتهدفت من سورها إبعاد و اقصاء العالم الخارجی فقط، ذاک المحیط الزاخر بالعجم. فی حین انفصلت الکوفة عنه بواسـطة النهر أی بوقوعها علی حافة العالم العربی الأصـیل، خارج العراق تقریبا. و کلما تقدم العرب إلی قلب وادی الرافدین ازداد ارتفاع أسوارهم. وفـد صاحب هذا التقدم مسـیرة إلی غابر الزمن، فنتج عنها تجدید العهد بالحضارات القدیمة و محاکاتها. کانت عودة غیر واعیة

لا محالة، ازدوجت بعوامل ملموسة تماما: تسـرب العناصر الأعجمیة بالتناضح البطیء، و تطور السلطة و تطور المجتمع الشامل فی علاقـاته مع السـلطة. فحتی مع العباسـیین القریبین جـدا من الخراسـانیین، بقی عـالم أهـل السواد العالم الغریب، الخاضع، الأهلی، المحتقر احتقارا عمیقا، و قـد حاصـروا المدن بحضورهم القریب جدا، و أثاروا ردودا دفاعیة خیالیة صـرف. و هکذا فمن الکوفة إلی بغـداد مرورا بواسط امتـدت الرؤیـة الحضـریة العربیـة و تحولت فی آن. و قد اسـتمرت واسط فی بغداد بوضوح. أما بالنسـبة للکوفة، فقد انفصلت بغداد عنها من عدة جوانب، و تمادت فیها من جوانب أخری. انفصلت بغداد عن روح الصحراء التی کانت حیـة جـدا فی الکوفـة، و التی جعلت منها مدینـة مفتوحـة- ما عـدا فترات الارهاب. و عادت بغداد إلی النموذج الکوفی بواسـطة تصور المرکز أصـلا و المدینـة بصـفتها مرکزا و مساحـة سـکنیة، لکن مع رفض مرکزیة الأسواق و هذا یمثل خروجا علی التقلید الکوفی و الإسـلامی معا. و أخیرا فقـد أثرت علی الکوفـة رجعا و حثت علی ظهور الثنائیة الکلاسـیکیة بین المدینة و الأریاض، و هذه کیفیة لمراقبة انفجار النواة الحضـریة. کان انفجارا سریعا مذهلا بخصوص بغداد. و لا شک أنه یجب تکریس الفرق الکیفی فی هـذا الصـدد، القائم بین بغـداد و الأمصار القدیمـة بحیث نلحظ ترکیزا أقوی لامکانات الامبراطوریة علی صـعید أسـمی لبناء الحضـارة الإسـلامیة. فبین ضـخامة حجم بغـداد الکبیرة و سـامراء، و الحجم المتوسط الـذی کانت علیه الکوفـة و البصـرة، و بین السـرعة الخاطفة للنمو من جهة و بطء التجربة من أخری، یتبین الفارق نفسه الذی وجد بین الحاضرة الهلینستیة (الإسکندریة مثلا فی عصـر بطلیموس فیلادلفوس عند عظمة تتویجه)، و بین حاضـرة یونانیة من العصر الکلاسیکی (أثینا فی القرن الخامس). لکن عمل احتضان الأمصار الـذی اسـتمر وجوده یتراجع طیلـة قرن و نصف، هو الـذی قامت علیه حضارة بغـداد. و المفارقـة فی هـذا الصدد أن هذه المدینة الحبیسة، کما کانت فی بدایة الأمر داخل أسوارها بقرار من السـلطة، قامت بتفجیر الأسوار لتصـیر حاضـرة مفتوحة لکل التیارات. فی حین أن الأمصار التی کانت مفتوحة بطبیعتها، زرعت الهویة الثقافیة و حفظتها.

خاتمة الوجه المدنی للکوفة- مصیر الکوفة و هویتها-

لا تنتهی أیـة مدینـة من بنائها الـذاتی و هـدمها الـذاتی أبـدا، ذلک أن نبضات حیاتها ترتبط بالمادة البشـریة الموجودة داخلها، و بالمـد البشـری المحیـط بهـا، کما ترتبط بوتائر التاریـخ الکبری بالمقـدار ذاته، حیث المسـتوی السیاسـی یثبت أحیانا قـدرته علی

الهيكلة بصورة خاصة. فهو قادر بقرار بسيط على تغيير المظهر الاجتماعى و المظهر المدنى إلى أجل. لقد نشأت الكوفة عن قرار اتخذه سعد، و عمر أيضا على مستوى أعلى. و رغم ما انتاب العصر الأموى من هزات و تغييرات، فقد ساده انسجام كبير. و كان للتحول العباسى الذى حدث فى الوقت المناسب، تأثير و وزن كبيران على مصير المدينة.

و قد سبق أن أشرنا إلى الطابع الممتاز الذى اتصف به العصر الأموى، و يجب التأكيد على كلاسيكية معينة داخل هذا العصر، ارتبطت بفترة حبلى بالأحداث، بدأت من سنة ۶۰ ه و انتهت فى سنة ۱۲۰ ه، حيث اتجهت المدينة إلى نحت أدل تعابيرها، فأوحت بانطباع التماسك و اتخذت شكل إطار قارّ للحياة الجماعية، و قد داخلتها قطعا بعض الاضافات و التحويرات و الاستكمالات.

لو رمنا تجميع الكيان الكوفى فى صورة وصفية وظيفية، و القيام بقطع جانبى عبر العصر الأموى و هو العصر الأكثر تعبيرا لوجب التذكير بالثنائية الأساسية بين المركز و الخطط، التى تضاف إليها أجهزة الأطراف الأساسية الموجودة بالمدينة و خارجها. على هذه القاعدة التفكيكية ضمن ثلاثية منقوصة، يهمنا أن نؤكد وحدة المجموع، و تكامل المجموعات الفرعية و كذلك تشعب الأجهزة و تنوعها. إذ لدينا من جهة دائما مساحة عمومية تتركز فيها أهم الوظائف السياسية و الدينية و العسكرية المتداخلة لحدئذ، و من جهة أخرى الخطط، و هى عبارة عن أماكن قبلية و طوبوغرافية مخصصة للسكن. فضلا عن أن المركز يتحمل هو أيضا وظيفة السكن إذ تضمن دورا كثيرة للاشراف، و خطط بعض العشائر

كعبس و الأشاعرة بصورة استثنائية، علاوة على أن الخطط تتحمل على عكس ذلك وظائف عسكرية قائمة على دور السكك و الجبّانات، و هذا تراكب تنويعى. و يتضح الثراء الممتاز فى الأجهزة و العناصر المكونة للمركب المدنى كله. فتجاوزا للتقسيم الثنائى أو الثلاثى- إلى مركز و خطط و محيط يستثنى الضاحية- نلاحظ وجود تعددية و تنوع كبير فى الأجهزة و المواضع من قبيل: المسجد الجامع و القصر و مساجد العشائر و الجبانات و الصحارى و الأقنية و الحمامات و السكك و الأزقة و الكنائس و أماكن العبادة فى الهواء الطلق (مصلى خالد) و دور الاشراف، و أيضا دور لعامة الناس و هى البيوت، و دار الروميين، و دار الضيافة، و الأسواق المركزية، و الكناسة و السبخة و دار الرزق، و جسر السفن و القنطرة، و الرحبة التى صارت امتدادا جزئيا للمسجد الجامع فى ولاية يوسف بن عمر. و فى الجملة هو عالم مدنى مهيأ مركّب بعيد عن كل التصورات المقامة على فكرة البساطة البدائية، سواء صحت أو كانت محض خيال. لا شك أن هذا التطور فى سبيل التنوع حدث بدافع الاحتياجات، كما حدث بفضل القوة الخلاقة المنطلقة بصورة طبيعية و بطول المدة فى كل مجموعة بشرية تحررت من البحث عن الغذاء. لكن حضور التقاليد الحضارية المتعددة، منها تقاليد كانت موجودة قبل عند العرب و منها ما استبطنوها، و كذا الدفع من إرادة منبثقة عن حكم مركزى قوى، كل هذا أمر لا يقل حسما. لقد دام هذا العمل التركيبى العظيم قرنا من الزمن، لكن دون الوصول إلى تأسيس أكثر من هيئة أولية للمدينة الإسلامية و نموذج استبقى منه المستقبل الأشكال الاسلامية أو الشرقية- الإسلامية أكثر مما استبقى الإرث العربى المحض بوجهيه العربى- الشمالى و اليمنى. و بعد، فإن أهمية الكوفة تكمن، و أكثر من البصرة، فى كونها تمثل لحظة عبور و تحول من العروبة القديمة إلى الإسلام المهيكل، هى فى الحقيقة لحظة كانت تبحث فيها الحضارة الإسلامية عن نفسها فى ظلام الولادة و التكوين. لحظة ذات أهمية مؤكدة بالنسبة للمؤرخ و محيرة اطلاقا بالنسبة للخيال العادى.

لم تدمّر الكوفة بيد المغول و لا بحديد تمرلنك و ناره، بل دمّرها النهب الشديد الذى قام به بدو الجزيرة العربية: قرامطة، شمّار، خفاجة. لقد بناها العرب و دمّرها العرب. إنها بعد الآن مدينة ميتة لم يبق منها سوى بعض الآثار المتأخرة عموما، لكنّها عكست قدسيّتها الشيعيّة على النجف التى يتقاطر إليها الألوف لزيارة العتبات المقدّسة، ضريح علىّ.

فيا لسخرة التاريخ أو يا للقدر المشؤوم! مدينة يبنيها شعب و يقتلها هذا الشعب نفسه، لا فى سورة غضب و اهتياج، بل بهجمات خارجية متتالية كما لو كان الأمر متعلّقا بمدينة أجنبية و مكروهة، يجب نهبها و تحطيمها. و فى هذا جاذبيّات جيو- بيئيّة و تاريخيّة تفتن الألباب بتواصلها أو بتكرارها: الصحراء خطر دائم على السهل الطميّى، و القبيلة صارت

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۴۴

مجدّدا العدو المميت للمدينة. إن توحّش البداوة هذا الذى تمعّن فيه ابن خلدون، يكشف عن انهيار أول شكل ارتدته الحضارة العربية و الإسلامية: حضارة القرون الخمسة أو الستة الأولى. و صار تاريخ الكوفة تاريخ تحوّلات العروبة بالذات: بادىء الأمر، عروبة منتظمة، منضبطة، شديدة التأطر بالدين الجديد، متمدّنة، منبنية، ثم عروبة منفلتة، حبلها على غاربها، فتيّة، شرسة، هدّامة، لا ميزة لها سوى حفاظها على هويّتها، بينما تأسست عروبة الكوفة و كذلك البصرة، على أساس الحضارة الإسلامية بقدر ما غرقت فى بلاد رافدين استعربت أو تعرّبت بفضلها. و منذ أن استبعد العبّاسيون أهل الأمصار من العطاء، نشهد انبثاثا للحضريين العرب فى السّواد، نشهد ترييفهم و دخولهم الكثيف فى الحياة التجارية و الزراعية. و تاليا تغذّى تعريب العراق من غذاء كوفة متفجرة، كما تعيّن على الثقافة الاسلامية المأثورة جدا، أن تعتاش من جهد شرّاحها و نحوييها و فقهائها. و محل الكوفة العسكرية، و المطبوعة أيضا منذ البداية بطابع مدينة كبرى بتوجهها، حلّت فى القرن الثانى و القرن الثالث مدينة مسالمة و ثقافية، مطبوعة بالطابع الشيعى فى أعماقها الاجتماعية، قبل أن يستوعبها التشيّع استيعابا كاملا. و الحال، فى خضم الحوادث الكبرى، كانت فى القرن الأول الممثلة و المسرح الذى نهل منه إسلام الفرق معنى لبنائه الذاتى.

مركز الهجرة العربية إلى بلاد الرافدين، موقع أساسى لتثبيت و توسيع الفتوحات التى ستقوم بتشكيل المجال الإسلامى شرقا، مختبر تجربة تعايش القبائل العربية المتحضرّة، مشاركة بقوّة فى الصراعات السياسية- الدينية للإسلام الأول، هكذا كانت الكوفة ما قبل العصر العبّاسى. و هى التى انكببنا على ترميمها فى بنيتها الحضرية. يبقى أن يواصل هذا الجهد بدراسة اجتماعية و سياسية. و لكن، كما رأينا بوضوح، لا يتعلق الأمر بدراسة مدينة ما، بل يتعلق بدرس مدينة نشأت فيها و تحدّدت حضارة كبرى، و لا يتعلق بمدينة مستقلة بل بواحد من أكبر المراكز فى امبراطورية شاسعة. و فى كل المستويات، تتماهى دراسة الكوفة مع دراسة الإسلام العربى الذى كانت رمزا لقوته الاتساعية فى زمن أول، و لقدرته على البذل الثقافى و الاجتهاد فى زمن ثان.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۴۵

ملاحق

اشارة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۴۷

ملحق (۱) الكوفة فى تاريخ الإسلام

اشارة

الكوفة هى إحدى المدينتين الكبيرتين اللتين تأسستا فى العراق فى العصر الإسلامى الأول، و الأخرى هى مدينة البصرة. و كانت الكوفة، منشأة العرب العسكرية الدائمة فى بلاد الرافدين، تسيطر على جملة السواد العراقى. و قد أسهمت إسهاما بالغا فى الفتح

الإسلامی لبلاد فارس، و کانت طیلة القرن الأول للهجرة (القرن السابع المیلادی) بؤرة غلیان سیاسی. و هی التی أنتجت کما البصرة أیضا، التراکم الفکری الذی أنجب الحضارة و الثقافة العربیتین الإسلامیتین علی مدی ثلاثة قرون. ثم عرفت الکوفة الانحطاط ثم الخراب؛ و لم یبق منها الیوم سوی آثار معظمها من فترات متأخرة، و أصابها تغییر کثیر.

أسّست الکوفة فی العام السابع عشر للهجرة (۶۳۸ م) علی ید سعد بن أبی وقاص بطل القادسیة بعد أن تمّ انتزاع کامل العراق من ید الساسانیین، و لا سیما بعد سقوط المدائن (۱۶ ه/ ۶۳۷ م) التی لم یطق العرب مناخها. لکن، إضافة إلی هذا السبب، کانت هناک أسباب أخری لا تقلّ أهمیة: ففی إزاء رغبة العرب فی الهجرة و الإقامة، کان الخلیفة عمر یرغب فی إبقاء العرب علی مسافة من الشعوب و المناطق المحتلة، حفاظا علی استمرار التواصل المکانی مع الجزیرة العربیة. و هذا ما یدفع إلی الاعتقاد بأن الأسس التی ستنظّم علاقة الشعب المحتلّ بشعوب المناطق المحتلة، جری وضعها علی الفور: عدم الانتشار فی سواد العراق، و الامتناع عن إقامة منشآت زراعیة؛ الإبقاء علی حضور القوة العسکریة الضاربة؛ وضع خطة ضریبیة مالیة جدیدة تضمن الحصول علی خراج الأراضی العراقیة من دون أن یعمد العرب إلی الاستغلال المباشر لذلک الخراج؛ الرهان علی تعایش القبائل العربیة الکثیرة الاختلاف فی الأصل. کما أن دور الدولة الجدیدة و الدین الجدید، بوصفه أداة توحید و قوة حمایة، کان أیضا یؤخذ

بالحسبان ضمنا. و لیس ثمة أدنی شک فی أن الخلیفة عمر کان یرید أن یجعل من الکوفة مهدا لتجربة تضع نظامه علی المحکّ العملی؛ و لذا أنشأ الدیوان بین عامی ۲۰ و ۲۳ ه/ ۶۴۰ و ۶۴۳ م.

– مدینة الکوفة

أسّست الکوفة، فولدت من عدم، علی تخوم البوادی العربیة فی محاذاة مجری نهر الفرات الأوسط، لضمان حمایة الطریق إلی بابل، و منها إلی المدائن علی بعد بضعة أمیال شمال- شرقی الحیرة: موقع تواصل بامتیاز بین عالمین، و هو موقع ألفه الجیش العربی لأنه یوجد فی منطقة القادسیة؛ إذ تقع الکوفة علی الضفة الیمنی من النهر، علی لسان رملی جاف رمادی اللون ممزوج بالحصی، و قد رفعت قلیلا عن مستوی الماء؛ و لذا فهی تستغل ماء النهر أفضل استغلال من دون أن یصیبها فیضان میاهه. کما أنها تنعم بمناخ صحی ممتع.

لا نعلم بدقة معنی کلمة "کوفة". غیر أن المؤرخین و الجغرافیین العرب جعلوا من هذه الکلمة، کما هو شأنهم مع کلمات أخری، اسم جنس یدلّ علی کل أرض رملیة منبسطة. علی أن الکلمة لم تکتسب هذه الدلالة إلا بعد بناء المدینة. أما ماسینیون فقد أعاد کلمة "کوفة" إلی الأصل السریانی "عکولا"، مستندا فی ذلک، بخاصة، إلی روایة صینیة؛ و فی نص للطبری یحدد المؤرخ موقعا یدعی عکول، بین الفرات و منازل الکوفة، و من المحتمل أن یکون شمال هذا المصر. و لعلّ الأقرب إلی المنطق أن یکون أصل الکلمة فی السریانیة هو "کوبا" (راجع: سرکیس Sarkis)، فی مجلة سومر، ۱۹۵۴). وحده، سیف بن عمر یذکر فی نص له معلومات مفصلة عن أول استقرار و عن تخطیط المسجد و القصر، و توزیع الأراضی علی القبائل و العشائر و فروع القبائل التی تألّف منها جیش المدائن (راجع: الطبری، تاریخ، طبعة القاهرة، الجزء الرابع، ص ۴۰).

لکن هذا النص یجب أن یقرأ و یفهم علی ضوء نصوص تاریخیة و جغرافیة أخری. ففی أول الأمر جری وضع حدود لمدی الحیّز العمومی، الذی ینبغی له أن یضم المسجد و قصر الوالی، و أن یصبح النقطة المرکزیة التی منها تتسع المدینة و تنتشر أبنیتها الأخری. فالمناهج أو الشوارع الخمسة عشر التی تفصل خطط القبائل، و یبلغ عرض کل منها أربعین ذراعا، یبدأ أولها من هذه المساحة المرکزیة. و علی طول المناهج الخمسة لناحیة الشمال، استقرت قبائل سلیم و ثقیف و همدان و بجیلة و تغلب و تیم

الّات؛ و لناحیهٔ الجنوب قبائل أسد و النّخع

و کندهٔ و الأزد؛ و لناحیهٔ الشرق، الأنصار و مزینهٔ و تمیم و أسد و عامر و محارب؛ و لناحیهٔ الغرب قبائل بجیلهٔ و جدیلهٔ و جهینهٔ. هذه اللوحهٔ تخالف روایهٔ للبلاذری عن الشعبی (فتوح، ۲۷۶) بأن الیمنیین جمیعا کانوا لناحیهٔ الشرق بین المسجد و نهر الفرات، و أن النزاریین کانوا إلی الغرب؛ و هو حدیث لا- تؤیده دراسهٔ طوبوغرافیا الکوفهٔ، علی نحو ما تظهر من خلال الروایات عن الثورات الکبری التی حدثت فی القرن الأول ه/ القرن السابع م. لکن من المؤکد أن تغییرات کثیرهٔ جرت مع تطور الأحداث لتغیر وجه الجغرافیهٔ القبلیهٔ المرسومهٔ فی تلک اللوحهٔ: فتمیم نزحت مع عبس من الشرق إلی الغرب؛ و مسألهٔ القبائل الکبیرهٔ کربیعهٔ و بکر و عبد القیس تبقی مطروحهٔ. انتقل قسم کبیر من قبیلهٔ بکر إلی البصرهٔ، و بقی قسم منهم فی الکوفهٔ، کآل ذی الجدّین. أما عبد القیس الذین استقروا أول الأمر فی البصرهٔ، فقد انتقل معظمهم إلی الکوفهٔ فی عهد الخلیفهٔ علی لیعودوا إلی البصرهٔ مرهٔ أخری العام ۴۰ ه/ ۶۶۰ م.

علی أیهٔ حال ثمهٔ سمات میّزت تموضع القبائل فی الکوفهٔ: استقرار القسم الأکبر من المقاتلهٔ- و لیس قطعا جمیع المقاتلهٔ- العرب، الذین سبق أن قاتلوا جیش الساسانیین؛ عدم تجانس البنیهٔ القبلیهٔ، خلافا لما کانت علیه الحال فی البصرهٔ؛ وجود أکثریهٔ من مضر و قیس، تکوّنت إما من القبائل البدویهٔ الکبیرهٔ (تمیم، أسد)، و إما من عشائر الحجاز (ثقیف، سلیم، جهینهٔ، مزینهٔ)، مع وجود بارز لأقلیهٔ یمنیهٔ کبیرهٔ لا وجود لها فی أماکن أخری، حتی إنه یصحّ التساؤل عما إذا لم یکن فی الکوفهٔ الأولی أکثریهٔ یمنیهٔ تحوّلت فی ما بعد إلی أقلیهٔ کانت تزداد ضعفا. و قد ذهب بعض الکتّاب المعاصرین إلی حدّ الجزم بأن تخطیط الکوفهٔ صمّم کی تحتضن المدینهٔ هؤلاء المهاجرین البعیدین، بالإضافهٔ إلی المهاجرین من الحجاز، أکثر مما صمّم لتستوعب الآخرین (راجع:

Martin Hinds،» Ku? fan Political alignments «، International Journal of Middle East Studies، II، ۱۷۹۱،. ۶۴۳/ ۷۴

). و کان للقبائل الیمنیهٔ المحض (حمیر، همدان، حضرموت، مذحج) وجود کثیف فیها، إلی جانب القبائل الأخری الحدیثهٔ العهد بالیمنیهٔ (و لا سیما کندهٔ و بجیلهٔ، و کذلک طیّ و أزد السّراهٔ). و قد غدت قبیلهٔ همدان أکثر عددا من القبائل الیمنیهٔ، و حتی أکبر من القبائل الأخری، بالرغم من أن هذه القبیلهٔ لم تکن قدیمهٔ الوجود فی الکوفهٔ، کقبائل مذحج و بجیلهٔ و کندهٔ، بل إنها تکوّنت فی معظمها من المهاجرین الجدد الذین وفدوا إلیها (الروادف) فی عهد عثمان و علی، و ربما فی عهد معاویهٔ أیضا. یبقی أن العنصر الیمنی سیکون حاسما فی

تقریر مصیر الکوفهٔ السیاسی، کما فی تحدید طابعها الحضاری. و فی رأی ماسینیون أن العنصر الیمنی القدیم و الحضری منذ زمن بعید، هو صاحب الفضل فی تحضیر القبائل العربیهٔ فی الکوفهٔ، أی أنه لعب دورا تمدینیا رفیع المستوی.

تختلف الأرقام التی تقدّر عدد سکان الکوفهٔ باختلاف المصادر و المراحل التاریخیهٔ. ففی المرحلهٔ الأولی، یقدّر هذا العدد بین عشرین ألفا و ثلاثین ألفا (البلاذری، فتوح، ۲۷۶)، علی أن یاقوت یقدّره بأربعین ألفا (بلدان،۴۹۱ ،IV). و فی نص لأبی مخنف (کما یذکر الطبری،۷۹ ،V) أن علیا استطاع أن یجنّد منهم ۵۷ ألف مقاتل، بینهم ۱۷ ألفا من الشبان الیافعین، و أربعین ألفا من الرجال البالغین. و عندما وسّع زیاد بن أبی سفیان المسجد، جعله یتسع لستین ألف شخص، و هو رقم أکّده البلاذری (فتوح، ۳۴۵) من خلال المعلومات الرصینهٔ التی ذکرها عن عدد الأشخاص المسجّلین فی الدیوان: ستین ألف رجل و ثمانین ألف امرأهٔ

و ولد، فی العام ۵۰ ه/ ۶۷۰ م، أی ۱۴۰ ألف عربی، لا بد من إضافة الموالی و العبید و غیر العرب إلیهم. فی الحقبة نفسها، کان عدد سکان البصرة (۲۰۰ ألف شخص) یفوق علی نحو ملحوظ عدد سکان الکوفة؛ غیر أن التزاید الدیموغرافی فی غضون جیل واحد کان کبیرا و یفسّر کیف استطاع زیاد فی خراسان أن ینقل خمسین ألف مقاتل، منهم من البصرة أربعین ألفا و من الکوفة عشرة آلاف. و من المعقول جدا أن یکون عدد العرب الذین شملهم الإحصاء و کانوا یتقاضون العطاء، قد بقی علی حاله، بعد عهد زیاد، و طیلة العصر الأموی، لیبدأ بعد ذلک بالانخفاض، منذ عهد الحجّاج (۷۵- ۹۵ ه/ ۶۹۴- ۷۱۳ م). غیر أنه لم یکن ممکنا تحدید عدد الذین هم من غیر العرب، و المقتلعین من أرضهم، و الموالی الجدد الذین تدفّقوا علی المصر. و تبیّن التدابیر الزجریة الرادعة التی اتخذها الحجاج لمکافحة تدفقهم علی المدینة، مدی الفوضی التی کانت تسود ذلک التدفق، و مدی خطورته علی توازن المدینة و انتظامها. و قد تمیّز تاریخ أهل الکوفة، فی العصر الإسلامی الأول و فی العصر الأموی، بالتوسّع الدیموغرافی السریع، العربی تحدیدا، فی مرحلة أولی (۱۷ - ۵۳ ه/ ۶۳۸ - ۶۷۳ م) أعقبها استقرار متقطّع، بسبب موجات المهاجرین من غیر العرب، القادمین من الأریاف.

تطوّر الشکل الطوبوغرافی للکوفة خلال القرن الأول للهجرة/ القرن السابع المیلادی، لکنه ظلّ محافظا علی الخطوط الأساسیة الأصلیة. کانت الکوفة الأولی، فی عهد عمر (۱۷- ۲۳ ه/ ۶۳۸- ۶۴۳ م)، معسکرا هندسی الشکل،

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۳۵۱

مفتوحا، رحب المساحات، تنتظم فیه صفوف الخیام التی یمکن نصبها و اقتلاعها بسرعة، إنفاذا للبعثات العسکریة. بعد ذلک بوقت قصیر، عندما هدأت المعارک مع الفرس، برزت الحاجة إلی الاستقرار و المزید من الثبات فی الأرض؛ لذا استبدلت الخیام ببیوت من القصب المتوافر بکثرة فی المنطقة. فی المرحلة الثالثة تمّ استبدال هذه البیوت القصبیة بدور مبنیّة باللبن أو الطین المجفف و المقطّع فی أشکال مستطیلة، و ذلک فی عهد المغیرة بن شعبة (۲۲- ۲۴ ه/ ۶۴۲- ۶۴۴ م).

هذا ما قاله یاقوت، و نقله عنه ماسینیون، لکنه یخالف حدیثا رواه سیف، یقلّص المراحل، إذ یقول إن بناء الکوفة باللبن و الطین، کان مقررا منذ العام ۱۷ ه/ ۶۳۸ م بل منذ ما قبل التخطیط. و لعل هذا البناء کان قد بدأ قبل عهد المغیرة، ثم تعمم فی عهده و استکمل. و أخیرا، استخدم فی عهد زیاد (۵۰- ۵۳ ه/ ۶۷۰- ۶۷۳ م) الآجرّ المشوی فی بناء المسجد، و قصر الوالی المحاذی للمسجد، من جهة الجنوب، و ذلک فی مرحلة أولی؛ ثم استخدم فی مرحلة ثانیة، فی بناء الدور أو البیوت الأرستقراطیة. و قد أنفقت أموال طائلة فی بناء المسجد علی نحو هندسی طبعه بطابع عمرانی مخصوص: فقد جیء بمواد البناء من الأهواز لبناء الأعمدة، و استجلب البناؤون من الفرس و الآرامیین. فأخذت الکوفة تتحوّل إلی مدینة مشیّدة، و بدأت تتشکل، فی عهد هذا الوالی، ملامح المدینة و تتخذ طابعها الأساسی الذی لم یتغیّر إلا فی نهایة العصر الأموی، و بدایة العصر العباسی.

لم تکن الکوفة، زمن الأمویین، محاطة بالأسوار. و کانت هذه المدینة دائرة لا تتعدی ألفی متر. و کانت نواتها العمرانیة المرکزیة تتألف من جامع و قصر محصّن و رحبة أو میدان تقام فیه الاحتفالات، و أسواق بنیت فی عهد خالد القصری (۱۰۵- ۱۲۰ ه/ ۷۲۳- ۷۳۷ م) لکنها کانت متخصصة منذ ما قبل ذلک.

و یری ماسینیون أن هذه الأسواق کانت نموذجا حذت حذوه أسواق بغداد؛ و یجوز القول إن هذه الأسواق کانت نموذجا للأسواق فی کل المدن الإسلامیة فی القرون الوسطی، و تمیّزت بقببها و هیکلة اختصاصاتها التجاریة، حیث یحتلّ قطاع الصیرفة و تبدیل العملات موقعا متمیّزا؛ إذ کان الصیارفة یتعهّدون الوالی بالإنفاق، کما یموّلون الحرکات الشیعیة. من هذا الوسط المرکزی العمرانی، تبدأ الخطط و توزّع حصص القبائل و مواقعها التی تشکّل معظم أبنیة المدینة. علی أن ثمة قطائع، أو حصص فردیة، منحت منذ العصر الأول، کهبات استثنائیة للصحابة و بعض الأشراف الذین ابتنوا فیها بیوتهم؛ و غالبا ما کانت هذه البیوت

قريبة من المركز، وسط المدينة. و يذكر اليعقوبى قائمة من خمسة و عشرين دارا

للصّحابة و الأشراف، بينهم طلحة و الزبير و سعد و ولده عمر، و أبو موسى الأشعرى و أبناؤه و أحفاده الذين لعبوا دورا مهما فى الكوفة قبل أن ينتقلوا إلى قم، و عبد اللّه بن مسعود و خالد بن عرفطة، أحد كبار قادة المعارك، و عدى بن حاتم و جرير بن عبد اللّه البجلى و الأشعث الكندى و أم هانى، أخت على.

و تذكر مراجع أخرى دورا خاصة، كمنزل الوليد بن عقبة و المختار الثقفى و عمرو بن حريث.

بالإضافة إلى وسط المدينة الفخم، و الخطط الجماعية، و الدور الخاصة، كانت هناك عناصر أساسية تميّز طوبوغرافيا الكوفة: المناهج أو الشوارع الفسيحة، الأزقة أو الشوارع الضيقة، الصحارى أو الأراضى البور (و هى تشبه الجبانات كصحراء البردخت، مثلا)، الحمامات، المساجد (و هى جوامع صغيرة خاصة بالعشائر و الأحياء). و هناك خصوصا جبانات الكوفة، الموزّعة على جميع أنحاء المدينة، و عددها اثنتا عشرة جبانة، و كانت منذ عهد على مقابر يعود كل منها إلى قبيلة معينة تدفن فيها موتاها. و كانت الجبانة تكتسب أهميتها من كونها مكانا للتجمّع و التحشيد و التعبئة و أخذ السلاح؛ و قد ارتبطت أسماء بعض هذه الجبانات بلحظات تاريخية كبرى، كثورة المختار مثلا. و لعلنا فى ذلك أمام نموذج من تأثير القبائل اليمنية القديمة على البنية الحضرية للكوفة. و من الجبانات الرئيسية نذكر جبانة السّبيع التى آلت إلى همدان، جبانة مخنف (و هو من الأزد)، جبانة مراد (من مذحج)، جبانة كندة (كندة و ربيعة)، جبانة الصائديين (عشيرة من همدان)، جبانة أثير (من عبس).. إلخ.

و من عناصر طوبوغرافيا مدينة الكوفة بالذات، أو أرباضها، هناك أيضا الكناسة التى غالبا ما يرد ذكرها فى المراجع، و تتمتع بأهمية معينة، و هى الأماكن المخصصة لرمى القمامات، و كان موقعها غرب المدينة- المعسكر، ثم أصبحت فى العهد الأموى، مكانا لإفراغ البضائع من القوافل القادمة من الجزيرة، و سوقا للمواشى، و كانت تستخدم أحيانا مكانا للتعذيب أو الإعدام، و أحيانا أخرى ساحة للمبارزات الشعرية على غرار المربد فى البصرة. دار الرزق، سكة البريد، باب الفيل، القنطرة، ذلك كله كان فى الداخل. حمّام أعين، سوق أسد، دير هند، دير كعب، دير الجماجم، قصر مقاتل، كانت هذه خارج المدينة و لكن بمحاذاتها مباشرة. و كانت كلها أماكن متمازجة فى حياة المدينة كلها.

فى العصر الأموى، تطورت الكوفة متسمة بالطابع المدينى الذى تركته فيها أعمال زياد و خالد القصرى العمرانية، مع حفاظها على الترسيمة الأصلية، من

المعسكر البدوى الطابع إلى المدينة المشيّدة، الواضحة و العملية، و هو تطور اكتمل فى العصر العباسى، بالنظر إلى حالة النضج التى بلغتها الحضارة العربية الإسلامية فى ذلك العصر، و التى كانت الكوفة أحد مهديها الأساسيين. و على امتداد القرن الأول الهجرى/ القرن السابع الميلادى بقيت الكوفة مكشوفة الأمداء، لا تحيط بها أسوار، مفتوحة على البادية العربية، يشهد على ذلك حركة الناس، و كثرة الشعراء و حضور النمط البدوى القوىّ فيها. و لا يمكن فهم تحوّلها الذى لا ينكر إلى الحضرية و المدينية، بنجاح و سرعة، من دون حبل السرة الذى ظلّ يصلها بالجزيرة العربية؛ فعرب الكوفة كانوا مستقرين، قطعوا كل صلة لهم بنمط عيش البداوة و الترحّل. و تلك هى المرة الأولى التى ينجح فيها العرب فى تأسيس مجمّع مدينى بهذه الضخامة، ليكون بمثابة بؤرة تتعايش فيها و تتفاعل نماذج و عينات مختلفة، تفد إليها من جميع أنحاء الجزيرة العربية. على الصعيد المدينى، تعرضت الكوفة لتغييرات عميقة فى العصر العباسى؛ فالخلفاء العباسيون الأوائل كانوا ينوون جعلها عاصمة لخلافتهم، فأقاموا فيها فترة و جيزة من الزمن.

غیر أن تعاطف هذه المدینة العام مع علی و التیار القوی المؤید له فیها، جعلهم یترددون بینها و بین الأنبار، و مدینة الهاشمیة الجدیدة، المتصلة بقصر ابن هبیرة، و ذلک قبل أن یبنی أبو جعفر المنصور مدینة بغداد، العام ۱۴۵- ۱۴۶ ه/ ۷۶۲- ۷۶۳ م، التی نقل إلیها من الکوفة بیت المال و الدواوین الإداریة (البلاذری، فتوح، ۲۹۳). و هذا یعنی أن الکوفة لعبت دور العاصمة الإداریة للخلافة العباسیة، حتی و لو لم یکن الخلفاء العباسیون یقیمون فیها علی الدوام.

خلال هذه الفترة الزمنیة القصیرة التی لم تتجاوز ثلاث عشرة سنة (۱۳۲- ۱۴۶ ه/ ۷۵۰- ۷۶۳ م) اصطبغ جزء من الکوفة بصبغة إیرانیة بعد أن تدفق علیها الجنود الخراسانیون: شارع لحّام جریر، مثلا، و شارع حجّام عنترة، و إطلاق تسمیات علی مفترقات الطرق بالأسلوب الإیرانی: کشهرسوج(C ?aharsu ?dj) بجیلة مثلا (البلاذری، فتوح، ۲۸۰). من جهة أخری، بنی العباسیون الأوائل فی الکوفة، الرصافة و قصر أبی الخصیب. و بعد ما انتقل أبو جعفر المنصور إلی بغداد، شیّد سورا یحیط بالمدینة و حفر خندقا یلتف حولها، فارضا علی أهل الکوفة تحمّل أعباء هذا المشروع و نفقاته. و لربما کان هذا السور لا یشمل الکناسة و بعض الجبانات المنحرفة الموقع، فبدأ التمییز إذذاک بین المدینة و أرباضها. إن کلمة مدینة، بمعنی النواة الحضریة المرکزیة، تاریخیا، المنشأة ککتلة واحدة و المحمیّة بجدران تسورها، و تتخللها بوابات، نجدها عند الطبری،

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۳۵۴

فی ما یرویه عن ثورة ابن طباطبا (العام ۱۹۹ ه/ ۸۱۴ م). و یشیر الطبری نفسه إلی أن الکناسة کانت تضمّ منازل سکنیة، کما أنه یستخدم کلمة أرباض ۵۶۱ ،(VIII) أی الضواحی. هنا نجد أنفسنا أمام تحضیر الکوفة بکل معانی الکلمة:

فقد غدت مدینة إسلامیة نمطیة (کلاسیکیة)، بعد ما کانت مدینة/ معسکرا عربیة، أی أنها غدت مرکزا حضریا بعد ما کانت مجمّعا عسکریا. و أخیرا، طوال القرن الثالث الهجری (القرن التاسع المیلادی)، بقیت الکوفة عربیة الطابع، لکن سکانها بدأوا یتحولون إلی خلیط من العرب و السواد یین، و هم أهل السواد الذین أخذوا یدخلون فی الإسلام. علی أن المسألة تکمن فی معرفة ما إذا کانت الکوفة، و هی مدینة فی ذروة مجدها، قد فقدت فقدا تاما طابع المدینة الرحبة الفسیحة، لتغدو مدینة تشبه تلک المدن الإسلامیة التی بنیت فی أزمنة لا حقة، حیث باتت المدینة کتلة من المنازل المتلاصقة الخانقة. و لا نعتقد ذلک، لأن الجغرافیین الذین عاشوا فی زمن لاحق، أمثال المقدّسی، ثم ابن جبیر، فی ما بعد (و قد کتب ابن جبیر فی زمن کانت فیه المدینة قد انهارت تماما)، ذکروا مساحات خضراء واسعة و بساتین غنّاء فی قلب المدینة. کما أن هؤلاء الجغرافیین أنفسهم تحدّثوا عن امتداد الکوفة، لناحیة الغرب، إلی أبعد من حدودها الأولی، کما تدل علی ذلک أیضا بقایا آثار تمتد حتی النجف. إنما لم تعد الکوفة مرکز إشعاع للإسلام الأول، إسلام الفتح العربی الظافر، بل غدت مدینة من مدن العراق المهمّة و قصبة ولایة إداریة.

إن ترییف مدینة الکوفة، لا بل انحطاطها، أصبح أمرا واقعا فی القرن الرابع الهجری/ العاشر المیلادی. فقد أخذ التنظیم البنیوی القدیم (الأرباع العسکریة، الروح القبلیة، النظام المالی) یضمحلّ و یتلاشی. و ذلک لأن الصرح الذی بناه الفتح بالقوة العربیة، و الذی لم تکن الکوفة سوی تجسید له، أخذ یشیخ و یلفه الإهمال، فی حین أن الخلیفة المتربّع علی قمته کان ألعوبة فی ید البویهیین، و فی وقت بدأت فیه الانقسامات تدبّ فی کیان العالم الإسلامی و تهدد وحدته. لذا، لم یکن تقهقر الکوفة إلا تعبیرا عن هذا التغیر العمیق الذی لم ینفع النشاط التجاری الواسع بین أطراف العالم الإسلامی المترامیة، فی تعزیزه و إطالة أمده، قرنا أو قرنین من الزمن، کما فی البصرة. کان یمکن الکلام علی أزمة المدینة الإسلامیة (ماسینیون)، لو لا- أن الأزمة کانت شاملة أصابت الإسلام الأولی بوصفه دولة و مجتمعا، أو بالأحری بوصفه حضارة. أو ربما کان ثمة ما هو أکثر من ذلک: أی، تحول تاریخی لم یکن هناک بدّ من أن تدفع ثمنه مدینة کالکوفة.

نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۳۵۵

عمليا. فى أواخر القرن الثالث الهجرى/ القرن التاسع الميلادى، حدثت الثورة الإسماعيلية الكبرى، و كان مهدها الكوفة، و كان من تجليات هذه الثورة عنف القرامطة و آثاره المدمرة. و كانت الكوفة، على فترات متعاقبة، هدفا لهجمات القرامطة و نهبهم فى الأعوام ٢٩٣، ٣١٢، ٣١٥، و لم يكن بإمكان الكوفة أن تتعافى من آثار تلك الهجمات. و هذا ما يفسّر نشوء النجف و مشهد على، العام ٣٣٤ ه/ ٩٤٥ م، على مقربة منها، بفضل المساعدات التى قدّمها بنو بويه، و بروزهما عنوانا للتديّن الشيعى الذى بدأ، منذ القرن الثالث/ القرن التاسع، يميز الكوفة التى تكثفت فيها الرمزية الدينية الشيعية. و لكن فى الوقت نفسه، اندثرت الكوفة العربية القديمة التى لم تتماه مع الظاهرة الشيعية. و بذلك انهار النظام القبلى المدينى، فى وقت بدأت فيه "البدونة الجديدة" (العودة إلى البداوة)، أو بدأ، على أية حال، يتعاظم تهديد العالم البدوى الجديد، للمدى العراقى العربى. ففى العام ٣٨٦ ه/ ٩٩٦ م أقطع بهاء الدولة الكوفة إلى سيّد بنى عقيل. و سيطر على الكوفة بنو أسد و طيّ الذين بقى قسم كبير منهم خارج الإطار المدينى، و لكن على تعايش وثيق مع المدينة، و كذلك بنو شمّر الوافدون الجدد على الساحة، فأتلفوها. فكان بنو أسد، هؤلاء، جزءا من انهيار الكوفة التى غدت تحاكى بابل و أور و لاغاشLagash و تستحيل مواتا مثلها. و أسد أولئك (و هم غير أسد الذين كانوا مستقرين فى المدينة) كان النّحاة فى الكوفة يأخذون عنهم، بمنهج إثنولوجى حقيقى، الكلام السليم و النطق الصحيح و العبارة الفصيحة بوصفها درعا يحمى أصالة هويتهم. فى العام ٤٩٥/ ١١٠١، عندما بنيت الحلة، فقدت الكوفة أهميتها إلى الأبد، و هجرها معظم أهلها. و يصفها ابن جبير (٥٧٨- ٦١٤ ه/ ١١٤٤- ١٢١٧ م) الذى زارها فى وقت لاحق، بأنها مدينة مهجورة خربة، ما زال فيها قليل من السكان، يتعرضون على الدوام لغزو قبيلة خفاجة (رحلة، طبعة بيروت، ١٩٥٩). كل العمران المشيد بين الجامع و الفرات استحال دمارا و خرابا، و هو اليوم بساتين و أراض مزروعة، كما يقول ابن جبير.

و يقول أيضا إن الجامع المركزى ما يزال منتصبا بسقوفه العالية و أعمدته الداخلية وقاعة الصلاة بأقسامها الخمسة، و آثاره المقدسة حيث تتجاور أساطير الشيعة و أساطير بابل القديمة التى ورثها الإسلام: مصلى إبراهيم، محراب على، تنّور نوح، قبر مسلم بن عقيل (أو ما يقال إنه قبره). و عندما استتب الأمر للمغول فى العراق و أخضعوه لسلطانهم، كتب المستوفى القزوينى إلى أمير المغول كتابا (نزهة القلوب) يتضمن وصفا لجميع موارد البلاد. و يذكر فى الكتاب أن الكوفة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣٥٦

محاطة بأسوار طولها ١٨ ألف قدم، و يتحدث عن دورها الزراعى المهم.

و يستعيد ابن بطوطة (القرن الثامن الهجرى/ القرن الرابع عشر الميلادى) بخصوص الكوفة، بعض ما قاله ابن جبير، و لكنه يضيف إلى ذلك شيئا من عنده، فيراها، كما المستوفى، مدينة شبيهة بالحطام، لكنها ما زالت غير ميتة. و لم يبق من قصر الإمارة إلا أساس البنيان؛ غير أن الأسواق ما زالت بهيّة كما كانت.

و يتحدث أيضا عن جبانة الكوفة، كأنما لم يكن هناك إلا جبانة واحدة، حيث يرى ضريح المختار الذى شيّدت قبة عليه (رحلة، طبعة بيروت، ١٩٦٠). فى عهد العثمانيين، جعلت الكوفة إداريا، ناحية تابعة لقضاء النجف التابع بدوره لسنجق كربلاء. و قد زارها الرحالة نيبورNiebuhr و وضع خريطة لها. وزارها ماسينيون للمرة الأولى عام ١٩٠٨، كما زارها ثانية عام ١٩٣٤، فتحدث عن «مكان هو الآن مهجور، من المدينة التى كانت أكثر المدن الإسلامية عروبة»، و التى تميّزها أبنية كالجامع، و ضريح هانئ بن عروة، و ضريح مسلم بن عقيل، و بيت على، و موقعين للحراسة، أحدهما بناه الإنجليز، و المصلى الصغير المعروف باسم حنّانا، و مسجد السهلة. و يذكر ماسينيون أن ضاحية جديدة ظهرت بين الجامع و الفرات. و هى ما زالت موجودة و آخذة فى التطور، إلا أنها تبقى أقل أهمية من حى الغرب الجديد، لجهة النجف، و هو حى سكنى. كما قامت عدة بعثات أركيولوجية أوروبية بزيارة الحيرة (و بخاصة بعثة تالبوت رايسTalbot Rice فى العام ١٩٣١). و منذ العام ١٩٣٨ حين أعلنت الكوفة موقعا أركيولوجيا،

أصبحت موضع اهتمام مراكز الأبحاث و الآثار العراقية الأكاديمية، و جرت فى العام نفسه أول حملة تنقيب فى هذا الموقع. و ما يزال الجامع الكبير الذى أعيد ترميمه، و على نحو عشوائى أحيانا، هو المبنى المركزى؛ و قد تمّ إعلاؤه عن مستواه الأصلى الذى لم يبق منه إلا أسواره القديمة. أما القصر، و هو الأكثر ضخامة بين الأبنية جميعا، فقد تمّ إجلاؤه بعد أن أخذت جدرانه تتقشر من جميع الأنحاء الخارجية، لكنه أفصح من حيث الدلالات العمرانية و أكثر وضوحا من الجامع. و لا بد من الإشارة هنا إلى جامع السهلة، الكائن غرب الموقع، و الذى وجد فيه الكثير من التحف الزجاجية و الخزفية المشغولة (السيراميك)، و قطع من عملة معدنية تعود إلى العصر الأموى. و ما زالت أعمال التنقيب الأركيولوجى فى موقع الكوفة، فى بداياتها؛ فإذا جرت بطريقة مدروسة جيدا، فإنها ستحمل إلينا معلومات قيّمة جدا عن المدينة التى لا نعرف عنها إلا من المصادر الكتابية فقط.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۵۷

II- السياسة و الإيديولوجيا و الثقافة فى الكوفة

فى حين لعبت الكوفة فى القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى دورا سياسيا من المقام الأول، فكانت منطلقا لعدد كبير من معانى الإسلام و مغازيه فى فترة لاحقة، فإن السياسة و الصراع على السلطة انتقلا إلى خارج الكوفة، فى القرن الثالث/ الثامن، أى منذ إنشاء مدينة بغداد، و بدء انفتاح الإمبراطورية الإسلامية. فتحولت الكوفة، خلافا لذلك، إلى مدينة تعجّ بنشاط ثقافى بلغ ذروته بين عامى ۱۵۰ و ۲۵۰ ه/ ۷۶۰ و ۸۶۰ م. فكان من البديهى أن تكتسب الكوفة ثلاثة وجوه: فكانت كوفة سياسية (حتى العام ۱۵۰ ه) و كوفة ثقافية (بين العامين ۱۵۰ و ۲۵۰ ه) و كوفة إيديولوجية محض (بين عامى ۲۵۰ و ۳۵۰ ه) سرعان ما غدت المركز الأساس للعقيدة الشيعية.

الأحداث الأساسية التى طبعت العمل السياسى فى الكوفة، هى: الإسهام فى الثورة ضد عثمان (۳۴- ۳۵ ه/ ۶۵۴- ۶۵۵ م)، الوقوف إلى جانب على فى المعركتين الكبيرتين المصيريتين: وقعة الجمل (۳۶ ه/ ۶۵۶ م) و وقعة صفين (۳۷ ه/ ۶۵۷ م)، نشوء حركة الخوارج فى الكوفة، بداية التشيع السياسى مع ولادة حركة التمرد التى قادها حجر بن عدى الكندى، و التى انتهت بالقمع و الدم (۵۱ ه/ ۶۷۱ م). منذ ذلك الحين تتابعت الثورات الشيعية، و كان مصيرها جميعا القمع و الدم: حركة مسلم بن عقيل و مأساة كربلاء (۶۰- ۶۱ ه/ ۶۷۹- ۶۸۰ م)، مسيرة التوابين (۶۵ ه/ ۶۸۴ م)، ثورة المختار الثقفى (۶۶- ۶۷ ه/ ۶۸۵- ۶۸۶ م)، دعوة المغيرة و بيان، ثورة زيد بن على (۱۲۲ ه/ ۷۳۹ م)، ثورة عبد اللّه ابن معاوية (۱۲۷ ه/ ۷۴۴ م). و فوق ذلك، فإن الكوفة كانت الدماغ المفكر للدعوة العباسية، و فى المسجد الكبير تمّ تسلم الخليفة العباسى الأول مقاليد الخلافة (۱۳۲ ه/ ۷۴۹ م). بيد أن الكوفة كانت كذلك هدفا لهجمات الخوارج المتلاحقة، و لا سيما منها تلك التى وقعت العام ۷۶ ه/ ۶۹۵ م بقيادة شبيب، ثم تلك التى كانت أشد عنفا و أكثر فتكا و قادها الضحاك (۱۲۷- ۱۲۸ ه/ ۷۴۴- ۷۴۵ م). كما أنها شاركت، إلى جانب البصرة (۸۲- ۸۳ ه/ ۷۰۱- ۷۰۲ م)، فى ثورة ابن الأشعث الكبرى التى كادت تطيح بالخلافة الأموية، و شاركت فيها الأمصار جميعا، من دون الأخذ بأية إيديولوجيا. كثرة الثورات و حركات التمرد و العصيان، و تزايد شق عصا الطاعة و الاضطرابات السياسية هذه، طبعت الكوفة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۵۸

بطابع المدينة الهائجة الطموحة، و تحولت فى الوعى الشيعى اللاحق إلى مدينة شهيدة. من هنا الأفكار الجاهزة الجامدة التى كانت لدى الأغلبية السنّية، و الأفكار الأبوكاليبتية لدى الجهة المقابلة التى كانت ترى أن بغداد اللعينة ستتحول إلى كتلة من الدمار لتصبح الكوفة ملكة العالم بعد أن كانت دار منفى للمؤمنين الصادقين، بحسب قولة سلمان: «الكوفة قبة الإسلام سيأتى يوم

سیقطنها کلّ مؤمن حقیقی أو أن قلبه یحنّ إلیها» (راجع: ماسینیون، Opera Minora، III، ص ۵۴).

و الحق، أن هذا الغلیان السیاسی المستمر طیلهٔ القرن الأول ه/ السابع م، مبعثه بنیهٔ الکوفهٔ بالذات فضلا عن تطوّر أحداث التاریخ. بقیت الکوفهٔ الرکن الأساس فی نظام الأمصار حتی العام ۳۰ ه/ ۶۵۰ م، علی أقلّ تقدیر، و هو العام الذی بدأت فیه البصرهٔ تتقدّم علی الکوفهٔ فی فتح الشرق الفارسی. و استمرت الکوفهٔ فی احتضان فاتحی العراق منذ الموجهٔ الأولی المعروفهٔ باسم" أهل الأیام" و حتی موجهٔ" أهل القادسیهٔ". و کان أهل الموجهٔ الأولی یفاخرون بأسبقیتهم فی اعتناق الإسلام و غیرتهم علیه، فی حین أن أهل الموجهٔ الثانیهٔ شارکوا فی الردّهٔ، و کانوا کذلک ذوی حسب عربی رفیع. کانت الکوفهٔ تستأثر بالقسم الأعظم من موارد السواد، و کان قادهٔ الجیش یدیرون شؤون الأراضی الملکیهٔ القدیمهٔ الواسعهٔ، و التی غدت فی ما بعد، موضع نزاعات و صراع، فی حین أن الهجرهٔ إلی البصرهٔ- باستثناء هجرهٔ بکر- غدت هجرات متأخرهٔ قامت بها قبائل جنوب شرق الجزیرهٔ، و الوافدون الجدد الذین وصلوا إلی ساحات الفتح، فی مجموعات قبلیهٔ متجانسهٔ. کانت البذور التی أنبتت التوتر و الصراع مطمورهٔ فی بنیهٔ الکوفهٔ القبلیهٔ، و فی الظروف التی و اکبت نشأتها، و کذلک فی التجاذب الذی وقع علی المهاجرین الجدد، أو الروادف، من أجل استمالتهم، کما فی العجز عن فرض الرقابهٔ علی الهجرهٔ بسبب کثافتها فی العصر الأول. لقد کان التوازن محفوظا فی عهد عمر، و کانت جیوش الکوفهٔ منهمکهٔ بإخضاع فارس. و لم تبدأ الصراعات الداخلیهٔ بالبروز إلی العلن، إلا فی عهد عثمان: فالنخبهٔ الإسلامیهٔ القدیمهٔ التی أحیاها عمر، تراجعت أمام الزعامات التقلیدیهٔ التی تقاسمت الأعمال (الولایات) و شعرت بتزاید قوتها و علوّ کعبها، بفضل موجات هجرهٔ الروادف التی حملت إلیها أهلها و قبائلها (و ینطبق ذلک أفضل انطباق علی حالهٔ الصراع التی کانت قائمهٔ بین الأشتر النخعی و الأشعث بن قیس). فانتهی المطاف بحماسهٔ" أهل الأیام" الذین خذلتهم السیاسهٔ الجدیدهٔ، إلی مقتل عثمان الذی تورّط فیه بعضهم، لیجدوا أنفسهم مرغمین علی الوقوف إلی جانب علی. و کان فی مجیء علی إلی

نشأهٔ المدینهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ: الکوفهٔ، ص: ۳۵۹

الکوفهٔ بروز ظاهرهٔ جدیدهٔ هی تفوّق الأمصار علی الجزیرهٔ فی تحدید مصیر العرب السیاسی: ظلت الکوفهٔ طیلهٔ أربع سنوات مرکز القرار و مقرّ الخلافهٔ، إن لم تکن عاصمهٔ الإمبراطوریهٔ الإسلامیهٔ، ذلک لأن الإمبراطوریهٔ کانت منقسمهٔ علی حالها. و من هذه الفترهٔ المتمیزهٔ من وجودها، استمدت الکوفهٔ مطامحها المستقبلیهٔ، لکنها استمدت منها أیضا إخلاصها لعلی و آل بیته، و هو إخلاص لم یتراخ قط. غیر أن هذا الوفاء لم یحظ منذ أن بدأ، بإجماع تام. فقد کان الأشراف أو زعماء القبائل، الذین شارکوا بعامهٔ فی القادسیهٔ، و أدرجت أسماؤهم فی قوائم" شرف العطاء"، فاتری الحماس لقضیهٔ علی. کذلک، کان الفتور یشوب موقف العامهٔ التی تبعتهم، من سکان المدینهٔ. کان هناک أیضا النشطاء الذین کانوا یسمّون" القرّاء"، و کان معظمهم قد ربط مصیره بمصیر علیّ الذی أغدق علیهم فضائله و نعمه. لکن أقلیهٔ منهم بقیت متحفظهٔ تجاه علی، علی الرغم من أنها کانت أکثر تشددا من الآخرین فی تأییده، و ما لبثت أن ناصبته العداء. بعد التحکیم لم یعد علیّ قادرا علی الاتکال، بالمعنی السیاسی للکلمهٔ، علی أنصاره، أی شیعته. فالتحق الجناح الأکثر تشددا من القرّاء بالخوارج، فی حین أن جماعهٔ الأشراف المحافظین تخلوا عن علی. فتبعثرت أطراف التحالف الذی کان قد أنشأه. و فی هذا ما یفسر العجز الذی أصاب الشیعهٔ طیلهٔ قرن ظلوا فیه، علی الدوام، أقلیهٔ. و الحق، أن بنی أمیهٔ کانوا یحکمون بدعم من الأشراف الذین کانوا، رغم ذلک، لا یحبونهم، و إنما یرون فیهم قاعدهٔ نظام، کما کانوا راضین بنفوذهم الاجتماعی المتعاظم الذی یحمیه النظام الأموی. و هذا ما یفسّر وقوفهم الدائم إلی جانب سلطهٔ النظام، فی کل مرهٔ ینفجر فیها تمرّد شیعی، فیقدمون ید العون و المساعدهٔ لهذا النظام من أجل إحباط ذلک التمرد. فی العام ۶۱ ه/ ۶۸۰ م ذهب الأشراف حتی إلی المشارکهٔ فی قتل الحسین، کما أنهم أسهموا فی قمع ثورهٔ المختار التی هددت

امتیازاتهم، و تعاونوا مع الوالی لقمع حرکة زید بن علی. وحدها الثورة الکبری، العام ۸۲- ۸۳ ه، کانت ثورة عراقیة خالصة ضد هیمنة" أهل الشام" و ضد استبداد الحجّاج، الوالی. فقد کان رأس هذه الثورة أشراف و قرّاء معا. لکنها أسفرت عن نزع سلاح المصر و بناء مدینة واسط و استدعاء الجیش السوری إلی العراق، کما لو أنه أرض محتلة.

إذا کان معظم الأشراف قد وقفوا طیلة القرن الأول ضد الحرکات الشیعیة، فإن بعضهم انضم إلیها و أسهم فیها بنشاط، کما المختار نفسه، و إبراهیم بن الأشتر، و عبد الرحمن بن شریح الشبامی. بعد المختار، کانت العناصر الشعبیة

هی التی تدعم الحرکة الشیعیة، سواء کانت هذه العناصر من العرب الیمنیین، و لا سیما من عشائر همدان (خارف، شاکر،.. إلخ) أم من الذین کانوا یجنّدون من عامة الموالی الجدد، المهاجرین، الذین کان المختار یحرضهم و یستعین بهم.

و لربما کان تحالف الیمنیین مع القضیة الشیعیة متأتّ من وضعهم الهامشی، ثقافیا و اجتماعیا، فی المدینة العربیة. إذ من الثابت الذی لا شک فیه أن عددا من الفقراء کانوا یجنّدون من عشائر همدان (عشائر روادف؟) و أن الدعوة إلی آل البیت، تجاوبت أصداؤها فی جنبات الوعی الیمنی القدیم. و هذا ما یفسر الطابع الشعبوی الذی اکتسبته ثورة المختار (۶۶- ۶۷ ه/ ۶۸۵- ۶۸۶ م)، و لعلّها کانت أکثر الثورات الشیعیة أهمیة فی القرن الأول/ السابع: فقد أفلحت فی الإمساک بزمام السلطة فی الکوفة، فترة من الزمن، کما أفلحت، بخاصة، فی تشکیل الوعی الشیعی، فمنحته نفسا صوفیا، و زودته بلغة و شعارات و عناصر عقیدة.

و لاحقا، غدت الکیسانیة التی تفرعت منها، علی ید أبی هاشم، فی أساس الدعوة فی سبیل آل البیت.

مع الأسرة العباسیة، بدأ تعمیق الحرکة الشیعیة و تحویلها إلی حرکة فکریة، إذ خفتت حدّة العمل السیاسی و أصبح متقطعا. و کان ینبغی انتظار العام ۱۹۵ ه/ ۸۱۴ م لکی ینبعث من جدید فی ثورة بأسلوب قدیم، هی ثورة ابن طباطبا، ثم العام ۲۵۰ ه/ ۸۶۴ م لکی تنفجر ثورة أکثر فشلا هی ثورة یحیی بن عمر. غیر أن التشیّع، بوصفه معتقدا، لم یتوقف عن النمو و الانتشار فی المدینة، إلی أن غدا الإیدیولوجیا الوحیدة فی الکوفة، أواخر القرن الثالث/ التاسع، و أضحی عقیدة دینیة و ثقافیة فی القرن الرابع/ العاشر. إذ ذاک قوی المخیال الشعبی علی قراءة تاریخ المدینة و ترتیبه من جدید، فصنّف معالمها و مواقعها، و قسّم أحیاءها و مساجدها، وفقا لمعاییره، إلی قسمین، واحد فیه البرکة و آخر علیه اللعنة.

استطاعت الکوفة أن تنقل وعیها الشیعی إلی الفضاء الثقافی الإیرانی، و بخاصة إلی قم، التی کانت امتدادا للکوفة الشیعیة، کما کانت بلخ و مرو و نیسابور امتدادا للبصرة. و لذا کانت الکوفة، بوصفها مرکزا استعماریا، دون البصرة نشاطا و فعلا. و معلوم أن کلا من المصرین، کانت له ثغوره و ماهاته، و هکذا توزّعت الأراضی المرکزیة الإیرانیة بین المصرین عملیا: کانت الری ثغر الکوفة، و أصفهان تابعة لها. غیر أن ماه الکوفة، نهاوند، کان أقل نشاطا من ماه البصرة، دیناور (علما بأن بعض المراجع تتحدث عن دیناور و تصفها بأنها ماه الکوفة). بید أن البصرة تفوّقت علی الکوفة فی السباق علی فتح الأراضی

الإیرانیة البعیدة عن المرکز، ابتداء من العام ۲۹ ه/ ۶۴۹ م، عندما فتحت البصرة خراسان، فی حین کان علی الکوفة أن تکتفی بأذربیجان و قزوین، أقصی ثغر لها، و هی منطقة قلیلة الإنتاج. و مع ذلک، فرضت خصوصیة الکوفة الشیعیة نفسها، بالتغلغل البطیء، علی مرّ العصور و عبر بغداد، علی الوعی الشیعی فی الإسلام کله، ثم عبر قمّ و مشهد، علی الأراضی الإیرانیة الحدیثة کلها، فی حین أن البصرة لم تکن وحدها التی حددت بنیة الإسلام السنّی المتأخر، علی الرغم من الدور المرکزی الذی لعبته فی بلورة فکرة الجماعة.

بید أنه لا یمکن حصر إرث الکوفة، الدینی و الثقافی، فی نشر التراث الشیعی، و ذلک لأن إسهام الکوفة فی بلورة الثقافة العربیة

الإسلامية الكونية، يتضح، بعد التحليل، أنه أكثر أهمية بكثير، و أن جذوره تضرب عميقا فى هذا المصر الكبير، على امتداد القرنين الأولين. و قد ورثت بغداد البصرة و الكوفة، هذين المهدين الأساسيين اللذين أرسيا الخطوط الأساس فى ثقافة الإسلام، و وضعا، كلّ منهما بحسب عبقريته الخاصة، عناوينها الكبرى: فقد برعت الكوفة فى استعادة التراث الشعرى العربى، فى تفسير القرآن، و فى الفقه و علم الأنساب، فى حين أن البصرة التى كانت أكثر عقلانية و أعمق نقدا، أبدعت قواعد اللغة العربية، و كانت البؤرة الأساس لفكر المعتزلة.

فترتان عظيمتان فى تاريخ الكوفة الثقافى: الفترة الشفوية (١٧- ١٥٠ ه/ ٦٣٨- ٧٦٧ م)، و هى فترة حمل لم تكن فيها الأمور قد اتضحت بعد، و لم تكن الثقافة قد تميزت بل كانت ما تزال تبحث لنفسها عن أسس حقيقية؛ و الفترة الثانية (١٥٠- ٢٥٠ ه/ ٧٦٧- ٨٦٤ م) هى فترة التفجر التى أنجبت كلاسيكية حقيقية و أنتجت أعمالا عظيمة. فى هاتين الفترتين التاريخيتين، كان القطبان الأساسيان اللذان تمحورت حولهما الثقافة الجديدة، هما العروبة البدوية و الرسالة الإسلامية، إذ اتضح أن الشعوب المغلوبة لم يكن لها أى تأثير يذكر.

و فى الكوفة تجلّى الخط العربى الذى غدا خطا رائعا، بلا شك، بمساهمة عرب الحيرة، و هو أقدم نموذج للخط العربى بعد ظهور الإسلام، و لو أننا نجد هذا الخط مثبتا على الدراهم فى العهد الساسانى. و فى الكوفة أيضا، فى عصرها الأول، عاش ابن مسعود و علّم، و ما لبث أن أطلق اسمه على كل شىء، فسمّى به تيار المحدّثين الذى ارتبط به أتباع و مريدون أمثال علقمة بن قيس، الأسود بن يزيد، مسروق بن الأجدع، عبيدة، الهمدانى و شريح. و يرى شاخت أن الدور الذى لعبه ابن مسعود دور افتراضى بل وهمى، فقد أسقطت

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣٦٢

عليه إنجازات و ثمرات جهود بذلت بين عامى ١٠٠ و ١٣٠ ه/ ٧١٩ و ٧٤٨ م، عندما تواصلت السلسلة من حماد بن أبى سليمان إلى إبراهيم النخعى إلى ابن مسعود. و مع ذلك فإن الفقه، و هو سابق على الحديث، لم يولد أوّلا إلا فى الكوفة. و الحق أن هناك ثلاث شخصيات عاشت فى القرن الأول/ السابع، لعبت دورا رائدا فى المحاولات الأولى فى الفقه و الحديث و التفسير، هى إبراهيم النخعى و سعيد بن جبير و عمرو بن شرحبيل الشعبى. و فى الميدان الروحى، لم يكن هناك من هو فى وزن الحسن البصرى، غير أن اتجاهات الزهد و التصوف وجدت لها شيوخا فى أوس القرنى و ربيع بن الختيم. و فى ميدان التفسير و الأخبار نذكر رائدين من روّادهما، هما مجالد بن سعيد و محمد الكلبى. و فى جمع الشعر نذكر حمّادا، أما فى ميدان الإبداع الشعرى فقد كان هناك أعشى همدان و الكميت.

شهدت الفترة الثانية من تاريخ الكوفة الثقافى، و هى فترة بدأت مع بداية العصر العباسى، ولادة التمايز بين العلوم و بروز مؤسسيها الكبار: أبو حنيفة، شيخ مدرسة الرأى فى الفقه، و المتوفى فى العام ١٥٦ ه/ ٧٧٢ م، أبو مخنف، أحد كبار الإخباريين (المؤرخين) العرب (توفى العام ١٥٧ ه/ ٧٧٣ م)، الرؤاسى الذى ينسب إليه أول كتاب فى النّحو، عاصم بن بهدلة (المتوفى العام ١٣١ ه/ ٦٤٨ م)، و حمزة و قد وضعا مع الكسائى ثلاثا من أصل قراءات القرآن السبع.

و لاحقا، اضطلع جيل الذين توفوا بين عامى ١٨٠ و ٢٠٠ ه/ ٧٩٦ و ٨١٦ م بمهمات جمع المعارف التى وضعت فى القرن السابق، و إحصائها و تصنيفها و تبويبها، حتى إن الكتب التى بقيت من ذلك الوقت، و التى هى بين يدينا اليوم، تعود إلى ذلك الجيل من المريدين النجباء و النشطاء، و منهم فى الفقه أبو يوسف (المتوفى العام ١٨٢ ه/ ٧٩٨ م) و محمد بن الحسن الشيبانى (المتوفى العام ١٨٩ ه/ ٨٠٤ م)، و فى علم الأنساب العلامة الكبير و الإخبارى الضليع فى معرفة التراث العربى هشام بن محمد الكلبى، الذى بذل جهودا جبارة فى جمعه و إثباته (توفى العام ٢٠٦ ه/ ٨٢١ م)، و أخيرا الكسائى (المتوفى العام ١٧٩ ه/ ٧٩٥ م) شيخ مدرسة

الصرف و النحو فى الكوفة. و ما زالت هذه المدرسة تعيش فى أذهان الناس حتى يومنا هذا على أنها المنافس لمدرسة البصرة، و ينسب إلى هذه المدرسة معرفة أكثر عمقا بالبيئة العربية، و حسّ بالشعر أكثر حدّة و رهافة، و فى النّحو بالشواذ. و لكن، يتبيّن بعد التفحّص الدقيق أنها ليست سوى واحدة من التنويعات التى أنجبتها مدرسة البصرة، أى الخليل بن أحمد، و هو المعلم فى كل

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣٦٣

شىء؛ مع أنه يجب الكشف عن الدور الذى لعبه الرؤاسى. و عليه، فإن الكسائى، كسيبويه فى البصرة، دشّن سلسلة من النحويين كان من بينهم الفرّاء فى مقابل الأخفش، و ثعلب فى مقابل المبرّد. و هذان الأخيران اللذان توفيا حوالى العام ٢٥٠ ه/ ٨۶۴ م، كانا بمثابة محصّلة جمعت المعارف التى أنتجت قبلهما فى كلتا المدرستين. إلا أن بغداد التى كانت قد استقبلت و احتضنت كبار المشاهير و الأسماء فى الكوفة و البصرة، و على مدى جيلين، بدأت تفرز معارف فى كل الحقول و الميادين المعرفية، متمثلة و متجاوزة للمعارف السابقة، مقدمة للعالم الإسلامى ما أنتجته الكوفة و البصرة، خلال القرنين السالفين.

ما يعرف عن الكوفة على نطاق واسع، هو مدرستها النحوية و دورها فى ولادة التشيّع فى الإسلام؛ و ربما كان ذلك، بسبب ما امتازت به على نحو خاص، فى الحالة الأولى، و بسبب ما عصمها من الموت و الاندحار، فى الحالة الثانية. و لعلّ الاهتمام من جديد بالتاريخ السياسى و الثقافى للإسلام القديم، هو الذى أتاح المزيد من الاطلاع على الدور الذى لعبته الكوفة بوصفها مكانا لاستقرار الهجرات العربية، و ساحة للصراعات السياسية الكبرى، و مدينة عربية محض، أرست جنبا إلى جنب مع البصرة، و على نحو جذرى، أسس المشروع الثقافى فى الإسلام.

بيبليوغرافيا

المصادر الأكثر قدما فى تاريخ الكوفة، و التى كتبها الإخباريون فى القرن الثانى/ الثامن، اختفت عن آخرها. غير أنه يوجد شذرات منها، متفاوتة الأهمية، فى الكتب الكبرى المعروفة التى أخذت عنها معلوماتها. نذكر منها كتب الهيثم بن عدى (خطط الكوفة؛ ولاة الكوفة؛ قضاة الكوفة و البصرة؛ و فخر أهل الكوفة على البصرة)، و كتب عمر بن شبة البصرى (الكوفة، أمراء الكوفة).

الدراسات المونوغرافية الوافية التى وضعها أبو مخنف، و التى استعادها الطبرى بخاصة، تخبرنا بالأحداث الأساسية، كما تطلعنا، بطريقة غير مباشرة على طوبوغرافيا الكوفة. و يوجد فى برلين مخطوط ينسب إلى أبى مخنف، تحت الرقم ٩٠٣٩ و يحمل الرمز Spr.٠٦١، ضمن فهرست يحمل اسم AHLWARDT و هو بعنوان: خبر المختار و ابن زياد. و عند ما قمنا شخصيا بتفحصه، بدا لنا أنه مزيّف. على أية حال، ثمة دراسات مونوغرافية أخرى وضعت فى أوقات

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣۶۴

لاحقة، ضاعت هى الأخرى، و منها دراسة محمد بن على النجاشى الأسدى (كتاب الكوفة)؛ و دراسة محمد بن جعفر النجار (تاريخ الكوفة).

الكتب الكلاسيكية المعروفة:

أ) المصادر الأساسية: البلاذرى: فتوح البلدان؛ أنساب الأشراف. تاريخ الطبرى. ابن سعد، الطبقات، الجزء السادس المخصص

للكوفة. اليعقوبى:

تاريخ اليعقوبى؛ بلدان اليعقوبى. ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان. ياقوت:

معجم البلدان.

ب) مصادر إضافية: و تشمل معظم التاريخ و الجغرافيا و الأدب و الفقه إلخ.. و أكثرها فائدة، علاوة على تلك المذكورة فى نص البحث، نذكر كتب:

نصر بن مزاحم (وقعة صفين). الدينورى (الأخبار الطوال). خليفة بن خياط:

تاريخ. تاريخ العباس و ولده (من دون اسم المؤلف، طبعة الدورى). تاريخ الخلفاء (من دون اسم المؤلف، طبعةGriyaznevitch). ابن حزم (جمهرة). ابن الكلبى (نسب). الذهبى (تاريخ الذهبى؛ ميزان الاعتدال). الأصفهانى (الأغانى؛ مقاتل الطالبيين). ابن النديم (فهرست). الجاحظ (البيان و التبيين). ابن حبيب (المحبّر). الخطيب البغدادى (تاريخ بغداد).

علاوة على كتب الجغرافيا و الأدب الكلاسيكية المعروفة، نذكر: الشابشتى (ديارات، بغداد، ١٩٥١). و من كتب الفقه، نذكر بخاصة: أبو يوسف (الخراج). أبو عبيد بن سلام (كتاب الأموال). قدامة بن جعفر.

ج) المصادر الشيعية: الكلينى (كتاب الكافى). القشى (أخبار الرجال، بومباى، ١٣١٧). مختار نامة (من دون ذكر اسم المؤلف، طهران، ١٣٥١).

طبرسى نورى (نفس الرحمن، طبعة ١٨٦٨؛ الاحتجاج، النجف، ١٩٦٦). ابن أبى حديد (شرح نهج البلاغة). البراقى (تاريخ الكوفة، النجف، ١٩٦٠).

د) دراسات: كل ما كتب حديثا عن الإسلام الأولى و الأمويين و تطور الثقافة الإسلامية و عن الشيعة، و تشير إلى الكوفة، نحيل إليها القارئ. و فى ما يلى، بعض الدراسات المختصة بالكوفة:

Le Strange، Baghdad During The Abbasid Caliphate، Oxford، ١٩٢٤.

L. Massignon، Mission en Mesopotamie، I، Caire(IFAO)، ١٩١٠.

L. Massignon،» Explication du plan du Koufa «، in: Melanges Mas- pero، III، pp. ٣٣٧- ٦٣٠.

L. Massignon،» Explication du plan de Basra «، in: Westotliche Aban- dlungen R. Tschudi، Wiesbaden، ١٩٥٤(١٥٤- ١٧٤).

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣٦٥

P. Pelliot،» Des artisans a? la capitale abbaside «، in Toung Pao، ١٩٢٨- ٢٩.

R. Guest،» A Tablet in Kufik from Ku? fa «، in JRAS، ١٩٣٣.

F. Kmietowicz،» Un tresor de monnaies coufiques trouve? en Pologne «، in Folia Orientalia، I/ ٢(١٩٥٩)، ٢٠٩- ٢٣٠.

M. Watt،» Shiism Under the Umayyads «، in JRAS، ١٩٦٠، ١٥٨- ١٧٢.

Martin Hinds،» Ku? fan political alignments and their background in the mid- seventh century A. D «، in Intern. Journal of Middle East Studies، II(١٩٧١)، ٣٤٦- ٣٦٧.

M. A. Shaban، Islamic History، Cambridge ١٩٧١.

Hicham Djait،« Les Yamanites a Kufa au Ier siecle de l'He? gire »، in Jesho، XIX/ ۲(۶۷۹۱)، ۱۸۱ -۸۴۱.

- محمد على مصطفى: «تقرير أوّلى عن التنقيب فى الكوفة»، مجلة سومر، الأعداد ١٠، ١٢، ١٣ (مع ترجمة إلى الإنجليزية فى العدد ١٩ من المجلة نفسها).

- صالح أحمد العلى: «دراسة طوبوغرافية لناحية الكوفة»، مجلة سومر، العدد ١٩، ١٩٦٥.

- مهدى المخزومى: مدرسة الكوفة و منهجها فى دراسة اللغة و النحو، بغداد، ١٩٥٥.

- كاظم الجنابى: تخطيط مدينة الكوفة، بغداد، ١٩٦٧.

- يوسف خليف: حياة الشعر فى الكوفة، القاهرة، ١٩٦٨.

- حسين الزبيدى: الحياة الاجتماعية و الاقتصادية فى الكوفة فى القرن الأول الهجرى، بغداد، ١٩٧٠.

- عبد اللّه الفياض: تاريخ الإمامية و أسلافهم من الشيعة، بيروت، ١٩٧٥.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣۶۶

ملحق (٢) اليمنيون فى الكوفة فى العهد الأموى

اشارة

ليست الكوفة، فى الوعى التاريخى الغربى، سوى اسم لمدينة إسلامية قديمة، لا مجال لمقارنتها بمدينة بغداد أو بمدينة مكة أو سمرقند أو حتى البصرة. و فى الوعى الثقافى العربى الإسلامى اليوم أن الكوفة، و هى المقابلة للبصرة فى علاقة جدلية بينهما، كانت مركزا ثقافيا و مدرسة لغوية و فقهية، لا يوجد فهم لواقعها التاريخى، إلا من زاوية ثقافية، و بوصفها مرحلة من مراحل التطور الثقافى الإسلامى.

و لم يولد إلا- مؤخرا تصور جديد للتاريخ الإسلامى، مبنىّ على قراءة دقيقة للمراجع، جرت فى نطاق ضيق ضمّ بعض المستشرقين، و ضمّ بخاصة جيلا جديدا من المؤرخين من أصل عربى؛ نذكر منهم صالح أحمد العلى و شعبان، و أعمالهما التى تنم عن وعى تاريخى لا سابق له، كما تنمّ عن مدى أهمية العوامل الاجتماعية السياسية فى تطور الإسلام الأول؛ فقد وجد هذا الإسلام نفسه مرغما على الخروج من القيد الدينى المزدوج الذى كان، حتى ذلك الوقت، مقيدا به: إذ هو فى نظر المستشرقين رسالة سماوية و تاريخ دينى، و هو فى نظر المسلمين تاريخ مقدس و منطلق كل المعانى و الدلالات المستقبلية.

هكذا انتقلت مسألة الوحى و الرسالة السماوية إلى المحل الثانى لتخلى المحل الأول للظاهرات الجماعية الكبرى: توحيد الجزيرة العربية تحت هيمنة دولة المدينة [يثرب]، حركة الهجرة الضخمة التى قام بها العرب إلى خارج جزيرتهم و استقرارهم فى البلدان التى احتلوها، التدمير الكلى أو الجزئى للإمبراطوريات السابقة، مشكلة تعايش المهاجرين العرب فى ما بينهم و مع الشعوب الأصلية، كيفية إدارة أوسع إمبراطورية فى العالم،.. إلخ. من هذا

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣۶٧

المنظور، تكتسب الدراسة التاريخية للكوفة، و هى أضخم مركز هجرة عربية إلى أرض غير عربية، أهمية بالغة؛ فالكوفة هى منطلق العالم العربى إلى الخارج، و مركز سيطرته، و هى المختبر الذى جرت فيه تجارب تنظيم المجتمع الجديد، و بؤرة الصراعات الداخلية، و هى أيضا، إلى جانب البصرة، الرحم الذى ستولد منه الحضارة العربية الإسلامية بقضها و قضيضها.

I- انطلاق القبائل اليمنية فى العصر الأول

اشارة

بين المدينتين/ المعسكرين الأكثر أهمية فى الإسلام الأول، الكوفة و البصرة، أثبتت الكوفة أنها أكثر عروبة، و أكثر تسيّسا، لأنها اجتماعيا أقل تجانسا؛ فقد احتضنت فاتحى الإمبراطورية الساسانية، و الظافرين فى معارك القادسية و المدائن و جلولاء، أى الذين نفروا، على اختلاف أشكالهم و ألوانهم، لتلبية نداء الجهاد من اليمن و الحجاز و شتى أنحاء سباسب الفرات.

على مدى السنوات الثلاثين الأولى للهجرة، كانت الكوفة مصرا بامتياز، كانت" قبة الإسلام" و" جمجمة العرب"، بحسب قولة تنسب إلى عمر الذى جعلها مركز نظامه العسكرى و إدارته المالية. و لم تبدأ البصرة بمنافسة الكوفة إلا فى عهد الخليفة عثمان بن عفان، و ذلك بسبب غزوها لخراسان و سيطرتها على موارد المشرق التى أتاحها ذلك الغزو. و لعبت البصرة فى القرن الثانى الهجرى، دورا ثقافيا من الطراز الأول. لكن، إذا نحن شئنا أن نرسم صورة دقيقة لهيئة العروبة الإسلامية الأولى، فلا جدال فى أن الكوفة هى التى يتعيّن علينا تفحصها.

فالكوفة، كما أسلفنا القول، هى التى اختار المقاتلة الأوائل أن يجعلوها مقرا لهم. و كان معظمهم من ربيعة و اليمن. و فى ما يخص اليمن تحديدا، كانت الكوفة تضمّ معظم اليمنيين الأقحاح، أى قبائل مذحج و همدان و حمير و حضرموت. و يذكر الطبرى أن القبائل التى كان منها أكثر المهاجرين إلى العراق، هى ربيعة و مذحج و همدان؛ و تتميّز ربيعة بكونهم استقروا إلى هذا الحدّ أو ذاك، و منذ ما قبل الإسلام، إما فى العراق، و إما عند تخومه، بينما لم تأت مذحج و همدان إلا مع مجيء الإسلام. حتى أنه يحق التساؤل عما إذا كانت همدان هى القبيلة العربية الأكثر تعدادا فى العراق، و ما إذا كانوا قد أقاموا فى أماكن أخرى خارج الكوفة. من جهة ثانية، و خلافا لذلك، من الثابت أن قسما

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۶۸

من ربيعة- و منهم بكر التى لعبت دورا رئيسا فى الغزو- هاجروا إلى البصرة أو التحقوا بمنازلهم الأولى شبه البدوية، حتى أن تخطيط الكوفة بالذات، ربما كان صمّم خصيصا للمهاجرين الأوائل و بخاصة اليمنيين منهم. هذا كله يثبت أفضل إثبات، أهمية الهجرة اليمنية وصلتها الجوهرية بالكوفة، و فى ما يتعدّى الكوفة، تاليا، بمغامرة العروبة الإسلامية فى مرحلتها الأولى.

«هجرة مسلحة»:

يتضح مدى أهمية دراسة مراحل غزو العراق فى فهم الصراعات الاجتماعية السياسية لاحقا و بدليل أن الإسلام، فى بداياته الأولى، وضع معيارا للتصنيف الاجتماعى هو الأقدمية الزمنية أو الأسبقية. فكانت النواة المركزية لجيش الفتح فى العام الثانى عشر للهجرة، و تدعى" أهل الأيام" تتألف من عناصر من جيش المدينة الذى يقوده خالد، و من عناصر من جيش بكر بن شيبان، و لم يكن بينهم يمنيون.

و فى المرحلة الثانية، أرسل أبو عبيد على رأس جيش لنصرة المثّنى رئيس بكر فى العام الثالث عشر للهجرة. و قد تميزت هذه المرحلة بهزيمة الجسر. هذه المعارك أيضا لم يكن لليمنيين أى إسهام فيها.

أما فى المرحلة الثالثة، فقد طلب الخليفة عمر من جرير بن عبد اللّه الحميرى أو البجلى أن يجمع قبيلته بالتبنى بجيلة الموزعة بين القبائل فى شتى أنحاء الجزيرة، و أن يقودها للقتال فى العراق، واعدا إياه بمنحه ربع الخمس أو ربع السواد. و بجيلة قبيلة يمنية

شاركت فى معركة البويب، التى مهّدت لمعركة القادسية، مع سبعمائة رجل من الأزديين المتطوعين من بارق و بالطبع بكريى المثنى. هذا العمل الرائد أكسب بجيلة مكانة رفيعة فى الكوفة عندما تمّ تأسيسها.

فى المرحلة الرابعة، و هى مرحلة التجمع العربى الكبير تحت قيادة سعد بن أبى وقاص بغية خوض معركة القادسية، دعا الخليفة عمر العرب إلى الحشد و التعبئة على نطاق واسع، شاملا بذلك أهل الردّة الذين ظلوا حتى ذلك الوقت خارج حملات الغزو و لا يشاركون فيها. و تنقسم هذه المرحلة بدورها، إلى عدد من المراحل الصغرى؛ فقد أحاطت بسعد بن أبى وقّاص فى المدينة، نواة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۶۹

الجيش الأولى و قوامها أربعة آلاف رجل، بينهم ثلاثة آلاف من اليمن و السّراة و يصنفهم الطبرى على النحو التالى:

السّراة: ۷۰۰ مقاتل من بارق و غامد و ألمع، فهم إذا أزديون.

اليمن: ۲۳۰۰ مقاتل معظمهم من مذحج، و هم ثلاث عشائر: بنو متبّه (زبيد) و يقودهم عمرو بن معديكرب، جعفى (سعد العشيرة) و عشائر الصدى و جزء و مسلية. أى ۱۳۰۰ من مذحج، و ۶۰۰ من حضرموت و الصّدف، و الباقى من النّخع.

بعد الخروج من المدينة، تضخمت تلك النواة، فبلغت عشرين ألف مقاتل، انضم إليهم عشرة آلاف مقاتل من الأيام الذين كانوا فى العراق؛ فبات الجيش يعد ثلاثين ألف رجل. فى هذا المدد، ثمة أربعة آلاف رجل من تميم و الرّباب، و ثلاثة آلاف من أسد، و بعض رجال من كندة على رأسهم الأشعث بن قيس.

لا بد هنا من الإشارة إلى أن سوريا هى فى الأصل، الجبهة الأساس؛ و فى هذا ما يفسر امتناع العرب، و بخاصة اليمنيين، عن الالتحاق بالجبهة العراقية التى أصبحت فيما بعد، مع القادسية، الجبهة الأكثر أهمية. على أن المراجع التاريخية تذكر الدور الحاسم الذى لعبته بجيلة و مذحج فى هذه المعركة. و كان يرافق هؤلاء اليمنيين زوجاتهم و أبناؤهم؛ و ذاك دليل قاطع على أنهم كانوا عازمين على الهجرة. من جهة ثانية، تدفّق المدد و العون من سوريا، إما أثناء القتال فى المعركة و إما فور انتهاء القتال. و كان القسم الأكبر من هذه القوات يتألف من" مقاتلة الأيام" الذين كانوا قد انتقلوا من العراق للمشاركة فى الجبهة السورية، ثم عادوا إلى العراق، و لكن- و هنا الجديد فى الأمر- يرافقهم رجال من مراد و همدان. و كان عمر حصيفا بتسجيلهم فى ديوان العطاء باعتبارهم مقاتلين فى القادسية (" أهل القادسية") تمييزا لهم عن المهاجرين المتأخرين أو الروادف الذين تدفقوا على العراق فور انتصار العرب فى القادسية.

الاستقرار فى الكوفة:

جرت معركة القادسية فى العام الرابع عشر للهجرة (۶۳۶ م) أو بعد ذلك

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۷۰

بقليل و تم تأسيس الكوفة بعد ثلاث سنوات. و قد تم هذا التأسيس وفق تخطيط وضع خصيصا، ورمى إلى إسكان القبائل المقاتلة، أو أجزاء من هذه القبائل، على التخوم بين الجزيرة و الإقليم المحتلّ، و منحها خططا داخل المدينة/ المخيم (المصر) و توفير حياة جماعية لها، و فصلها فى الوقت نفسه عن الوسط المحيط بها. كانت فكرة الخليفة عمر أن ينشئ تراتبية هرمية مبنية بحسب الشرف الإسلامى، أى تبعا لأسبقية الدخول فى الإسلام و فى الجهاد، و لكن حتى أثناء خلافة عمر، كان المبدأ القبلى يؤخذ فى الحسبان فى تأليف الجيش و تنظيم الفضاء و تجميع الناس. و كانت الأسبقية تعتمد فى التمييز بين الأشخاص، لكنها لم

تكن على الإطلاق أساسا فى التنظيم الاجتماعى. و تبعا لـذلك، تمّ إسـكان العرب فى الكوفـة وفقا لنظام الخطط القبلية، و علاوة على ذلك، لا يمكن أن نتبيّن، لـدى تفحّص خريطـة التوزيع الأول للخطط فى عهـد عمر، أى تقسـيم للمكان بناء على مبـدأ غير قبلى. نجـد فى تاريـخ الطبرى، و هو المرجع الأكثر صدقيـة بين المراجع التى بين أيدينا، أن خطط اليمنيين تحاذى خطط مضـر و ربيعـة. فإلى الشـمال من المسـجد، نلاحظ خطط همـدان و بجيلـة إلى جانب خطط سـليم و ثقيف، و إلى الجنوب خطط النخع و كندة و الأزد إلى جانب قبيلة أسد الكبيرة، فى حين أن تميم تحاذى الأنصار، لناحية الشرق.

و لم تحدث طيلة العصر الأول من تاريخ الكوفة و حتى عهد زياد (٥٠ ه/ ٦٧٠ م) أية تغييرات مهمة فى مواضع القبائل الكبرى؛ و كل ما تذكره المصادر يفيد بأن العشائر التى لم يكن لها وزن فى الكوفة استطاعت تغيير مواضع سكناها، لتنتقل إلى جوار إخوان لها قـدموا فى هجرات لاحقـة. كـذلك فإن عددا كبيرا من الجماعات المتحدرة من بعض العشائر اجتذبتها عشائر أخرى مختلفة، تشدّها إليها أواصر قربى معينة أو تمتلك نفوذا بارزا. على أن منازل

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣٧١

اليمنيين بقيت ثابتة طوال العصـر الأول (حتى العام ٥٠ ه/ ٦٧٠ م) فى حين أن منازل تميم انتقلت إلى غرب المدينـة، و عاد بعض بنى أسـد و بكر إلى حيـاة البـدو الرحـل، كمـا هـاجرت بكر بـن شـيبان و عبـد القيس و تميم و الأزد بكثافـة صـوب البصـرة. و باختصار، أثبت اليمنيون تعلقا شديدا بموطنهم الجديد:

الكوفة.

موقع اليمنيين فى التنظيم العسكرى الإدارى:

من ناحية التنظيم العسـكرى الذى لا يتطابق مع التوزيع الحيّزى أو المكانى، كان مقياس الانخراط فى الجيش هو السّبع (و جمعها أسباع) حيث كـان يتمّ دمـج القبائـل الكبرى فى الجيش، تبعـا للانتمـاءات الإقليميـة، أى بالرجوع إلى مواقع القبائل القديمـة فى الجزيرة. فى عهد عمر، كانت الأسباع فى الجيش مكونة من القبائل على النحو التالى:

١) كنانة و جديلة.

٢) قضاعة، بجيلة، خثعم، كندة، حضرموت، الأزد.

٣) مذحج، حمير، همدان.

۴) تميم و الرّباب، هوازن.

۵) أسد، غطفان، محارب، النّمر، ضبيعة، تغلب.

۶) إياد، عكّ، عبد القيس، هجر، الحمراء.

هـذه اللائحة ينقص منها سـبع واحد. و يعتقد ماسـينيون أن بالإمكان إكمال هذا النقص، و أن السـبع السابع هو طىّ. و لئن كانت الأمور قـد تبـدّلت قليلا فى عهـد عثمان ثم فى عهـد على، فإن هـذه اللائحة الأولى التى نجدها عند الطبرى هى لائحة تقريبية، و نجدها كاملة عند البلاذرى يؤكدها حديث لعمر بن شبّة، و هى التالية:

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣٧٢

١) همدان و حمير.

٢) مذحج، أشعر و لا سيما طىّ.

۳) قیس عیلان و عبد القیس.

۴) کندهٔ، حضرموت، قضاعهٔ، مهرهٔ.

۵) الأزد، بجیلهٔ، خثعم، أنصار.

۶) بکر بن وائل، تغلب، ربیعهٔ (باستثناء عبد القیس).

۷) قریش، کنانهٔ، أسد، تمیم، ضبّهٔ، الرّباب، مزینهٔ.

نلاحظ أن هناک أربعهٔ کوادر یمنیهٔ من أصل سبعهٔ کوادر عسکریهٔ، و أن هناک، بخاصهٔ، انشطارا فی سبع همدان/ مذحج، بسبب الأهمیهٔ العددیهٔ لهاتین القبیلتین. علاوهٔ علی ذلک، حذفت أسماء بعض القبائل الأخری، ربما لأنها ذابت فی قبائل أخری أقوی و أکثر عددا، أو أنها تجمّعت فی قبیلهٔ واحدهٔ اتخذت اسما أکثر شمولا.

هل یمکن، و الحالهٔ هذه، أن یکون قد جرت هیمنهٔ یمنیهٔ فی الکوفهٔ؟

فالأرقام غیر دقیقهٔ أبدا، کما سیتضح لنا؛ إلا أن الیمنیین لم یکونوا أکثر عددا من مضر و قیس و ربیعهٔ مجتمعتین. و یعنی ذلک أن أهمیتهم النوعیهٔ کانت کبیرهٔ بسبب تماسکهم و کثافهٔ وجودهم القبلی، و لا سیما فی همدان و مذحج و کندهٔ. فضلا عن أن الجماعات الیمنیهٔ الصغیرهٔ، مثل حمیر و أشعر و حضرموت و خثعم، لم تلبث أن اجتذبتها الجماعات الکبیرهٔ فذابت فیها، و لو علی الصعید الإداری وحده، علی أقل تقدیر، و ذلک منذ عهد زیاد.

إن الإصلاح الذی أدخله زیاد، والی الکوفهٔ، بین عامی ۵۰ و ۵۳ للهجرهٔ (۶۷۰ و ۶۷۳ میلادیهٔ) استبدل التنظیم العسکری القدیم القائم علی سبعهٔ أسباع، بنظام عسکری إداری جدید قوامه أربعهٔ أرباع، و یتمیز بتبسیط و تجمیع الخریطهٔ القبلیهٔ؛ إذ لم یبق فی واقع الأمر، من الأسباع القدیمهٔ إلا القبائل الکبری، أو اتحادات القبائل:

۱) أهل المدینهٔ.

۲) مذحج و أسد.

نشأهٔ المدینهٔ العربیهٔ الإسلامیهٔ: الکوفهٔ، ص: ۳۷۳

۳) کندهٔ و ربیعهٔ.

۴) تمیم و همدان.

من جههٔ ثانیهٔ، حدث تزاوج بین أقطاب قبلیهٔ متقابلهٔ، فکل قبیلهٔ یمنیهٔ کانت تأتلف مع قبیلهٔ مضریهٔ أو ربیعیهٔ (تآلف بقایا العشائر فی الکوفهٔ). و کانت عملیهٔ التبسیط و الاختصار التی حدثت داخل منطقهٔ القبائل الیمنیهٔ بالذات، تعنی أن قبائل حمیر اندمجت بقبائل همدان، و الأشاعرهٔ بمذحج، و الحضارمهٔ بکندهٔ، و الأزدیین بمذحج کذلک، و بخاصهٔ بمراد.

II- توزّع العشائر الیمنیهٔ فی العصر الأموی

اشارهٔ

العصر الأموی هو العصر الذی استقرّ فیه الوضع المدینی و القبلی، و ذلک علی الرغم من انعدام الاستقرار السیاسی. عندما بنیت الکوفهٔ تطورت تدریجیا من وضع المدینهٔ/ المعسکر ذات الوظیفهٔ العسکریهٔ المحض، إلی وضع المدینهٔ ذات الطابع المدنی، و هو وضع لن یتخذ معناه کاملا- و یقوم بوظیفته التامهٔ إلا- فی العصر العباسی، فی القرنین الثانی و الثالث للهجرهٔ. و قد اضطلع الیمنیون فی انبناء الکوفهٔ، بدور واسع جدا، و إن لم یکن الدور الأهم. المعلومات التی فی حوزتنا، و المبیّنهٔ بالأرقام، هی

معلومات عامة و شمولية. ثمة نص لأبى مخنف يصف الوضع كما كان فى عهد الخليفة علىّ، فيذكر أن عدد المقاتلة فى الكوفة كان ۵۷ ألف رجل، بينهم أربعون ألفا من الرجال البالغين و سبعة عشر ألفا من الشبّان اليافعين. كل شىء يبعث على الاعتقاد بأن فى هذا الرقم بعض المبالغة، بالقياس إلى ذلك العصر، على أن هذا الرقم أصبح معقولا فى عصور لاحقة، تتناسب تحديدا مع العصر الذى عاش فيه أبو مخنف بالذات (۸۰- ۱۲۰ ه). و ثمة مراجع أخرى تذكر أرقاما قريبة منها: فالمسجد الكبير الذى بنى

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۷۴

فى عهد زياد صمّم ليتسع لستين ألف شخص؛ أما البلاذرى فيذكر بخصوص عدد سكان الكوفة ستين ألف رجل و ثمانين ألف امرأة و ولد. و هذا ما يصوّر كم كان واسعا ذلك المدى الذى تبلغ نسبة اليمنيين فيه، بحسب المعلومات التى يذكرها الشعبى، الثلث: خمسون ألف منزل لربيعة و مضر، و ۲۴ ألف منزل لليمن.

من قراءاتنا فى كتاب الطبقات لابن سعد، يتضح أن همدان كانت، فى المنطقة اليمنية، هى الأكثر عددا، تليها مباشرة مذحج؛ فمثلا، فى الطبقة التى تلى مباشرة طبقة المحدّثين الأوائل الذين نقلوا أحاديث عن على و عن ابن مسعود، هناك ۳۴ شخصية معروفة، بينها ثمانية من همدان، و خمسة من مذحج، و ثلاثة من الأزد ... إلخ؛ و فى الطبقة التى تليها، أى طبقة الشعبى و سعيد بن جبير و إبراهيم النخعى، هناك ۶۹ اسما، بينها ۹ أسماء من همدان، و ۶ من بجيلة، و ۴ من مذحج (بينهم ثلاثة من نخع)، و ۳ من طىّ، و ۴ من الأنصار. فى رأينا. أن همدان كانت القبيلة الأكثر تعدادا بين قبائل اليمن، و ربما فى الكوفة كلها.

۱- عشائر النواة اليمنية:

اشارة

أظهر تبسيط الخريطة القبلية فى عهد زياد، أهمية الثنائى القبلى همدان/ مذحج، و كشف الموقع الاستثنائى الذى يحتله فى الفضاء اليمنى. و قد ظهر هذا الموقع بوضوح أثناء تمرّد حجر بن عدى (العام ۵۱ ه): يميز الطبرى هاتين القبيلتين من" قبائل اليمن الأخرى" الأزد و بجيلة و خثعم و قضاعة و خزاعة و الأنصار. و قد مرّ بنا أن فروع القبائل هذه ذابت فى الأرباع. و لكن، فى ما يتعدى الجانب السياسى و الإدارى للأمور، ينطوى ذلك التمييز على صيغة واضحة لدرجات الانتماء إلى النفوذ اليمنى و أشكاله. و بما أنّه حدث فى العهد الأموى تجاوزا للإسلام عودة إلى الأشكال القبلية القديمة، كذلك انبعثت بقوة التحالفات القبلية القديمة. و لم تستعد مجموعتا القبائل الكبيرتان يمن/ قيس العداوة الضارية بينهما إلا فى نهاية القرن الأول، فاكتسبت فكرة اليمن دلالة واسعة شملت القبائل اليمنية الأصيلة و القبائل اليمنية الأقل أصالة (قضاعة)، ماحية الفوارق القبلية بينها.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۷۵

خلافا لذلك، ظل وجود مهاجرين يمنيين أقحاح، على صلة وثيقة بأصولهم، يلعب، طيلة الشطر الأكبر من القرن الأول، و فى الكوفة أكثر منه فى أى مكان آخر، دورا كابحا لذلك النمط من البناء السياسى/ الميثولوجى. من هنا ضرورة التشديد على وضع تعريف دقيق و واضح لليمنية يتيح التمييز بين نواة مركزية و أطراف، و يلغى نهائيا المفهوم الإيديولوجى الواسع لليمنية.

همدان:

لا شک فی أن الثنائی القبلی همدان/ حمیر هو الذی یمکن له أن یفخر بکونه یمثل الأصالهٔ الیمنیهٔ. لم یعد الحمیریون کما کانوا من قبل، و ذلک لکثرهٔ ما استنفدوا فی الماضی طاقاتهم السیاسیهٔ، لکنهم ظلوا محتفظین، معنویا، بهویتهم القبلیهٔ علی الرغم من اندماجهم فی همدان. و لیس من قبیل المصادفهٔ أن یکون هذا الاندماج قد حصل: فهو یسقط علی الکوفهٔ ما کان یوجد أصلا من تعایش قدیم. و من بین القبائل الکبری جمیعا، کانت همدان هی صاحبهٔ الدور الأکبر فی بناء الحضارهٔ الیمنیهٔ القدیمهٔ؛ إذ نعثر علی اسمها ثلاثا و ثلاثین مرهٔ فی النقوش، کما أن کتاب الإکلیل یظهر مدی رسوخها فی تلک الحضارهٔ.

و کانت هذه القبیلهٔ قد استقرت، منذ ما قبل الإسلام، فی المنطقهٔ الواقعهٔ بین مأرب و نجران، حیث طردت طیّا من ذلک الموقع، علی ما یبدو. لا شک فی أنها کانت حضریهٔ، غیر أن المشکلهٔ هی معرفهٔ ما إذا کانت قد أخذت جمیعها بالحیاهٔ الحضریهٔ، أم أنها حافظت علی العلاقات التی تصلها بنمط حیاهٔ البداوهٔ.

و إنه لذو دلالهٔ واضحهٔ أن تکون الکتب العربیهٔ التی تبحث فی الأنساب ککتاب جمهرهٔ أنساب العرب لابن حزم تمیز بوضوح نسب همدان و حمیر. علی أن

مصادر أخری، تعود إلی زمن أکثر قدما، تشیر إلی أن همدان تتألف من خطین:

الأحمور أو الأحمور التی تتشکل من عناصر حمیریهٔ قدیمهٔ و من عناصر همدانیهٔ صافیهٔ، و الخط الثانی هو أعراب همدان (البدو الرحّل). هذه البنیهٔ المزدوجهٔ، الحضریهٔ/ البدویهٔ، وجدت قبل الإسلام، کما یقول الشعبی: ربما کانت المسألهٔ إسقاطا علی الماضی، إلا أنه یمکن أن یفسّر أیضا تطوّرا بدأ قبل الإسلام فی سیاق انهیار المملکهٔ الیمنیهٔ. بعض فروع همدان (خارف، صائدیون، السّبیع) تحضّرت و انخرطت فی نمط الحیاهٔ الیمنیهٔ، و التحقت بها بقایا من حمیر (آل ذی حدان، آل ذی رضوان، ذی لعوهٔ، ذی مرّان)، فی حین أن فروعا أخری من همدان القدیمهٔ قد تکون بقیت بدوا رحّلا (غدر، یام، ذهم، شاکر، أرحب).

و ما أکثر العشائر الهمدانیهٔ المذکورهٔ فی المصادر التی بین أیدینا- و بخاصهٔ الطبری و ابن سعد- فی سیاق أحداث تاریخیهٔ أو فی کتب التراجم و سیر المحدّثین و الرواهٔ. و قد استقرت تلک العشائر شمال المدینهٔ و شمال غربیّها، فی سککهم و حول مساجدهم. و من العشائر التی یتردد ذکرها کثیرا:

- ثور (الذین یجب تمییزهم عن ثور البکریهٔ) و لهم سکّهٔ.
- شبام (الذین قتل منهم ۱۸۰ رجلا فی وقعهٔ صفین) عشیرهٔ مجالد بن سعید.
- الفائشیون.
- ناعط.
- الصائدیون، و هم عشیرهٔ ذات شأن، أطلق اسمها علی إحدی سککک المدینهٔ.
- السّبیع بن السّبع، عشیرهٔ قائد همدان سعید بن قیس (و جبانهٔ السّبیع هی أحد الأماکن التاریخیهٔ فی الکوفهٔ).
- أرحب، عشیرهٔ یزید بن قیس، قائد شرطهٔ علی.

- مرهبهٔ.
- ودیعهٔ، عشیرهٔ مسروق بن الأجدع. بنو الیام.
- شاکر، عشیرهٔ کبیرهٔ جدا، و منها ابن کامل، أحد صحابهٔ المختار.

مذحج:

تحتل مذحج المرتبة الثانية على مستوى اليمن كما على مستوى الكوفة.

و يضعها ماسينيون فى مقام همدان، سواء من حيث "اليمنية" أم من حيث المدنية. لكنها لا تبدو كذلك، لأننا لا نجد شيئا من ذلك فى النّقوش فى جنوب الجزيرة، بسبب موقعها الكائن فى الشمال على تخوم الصحراء العربية العميقة، و لأن بعض قصائد الشعراء توحى بأنها كانت مشبعة بقيم البداوة. و من المعلوم أن قبيلة مذحج تنقسم إلى أربعة فروع هى: جلد، مراد، سعد العشيرة، عنس.

و فى حين شكلت مراد عشيرة واضحة الهوية عمليا (فقط فرعان من مراد، استطاعا العيش و الاستمرار، هما يشكر و ناجية)، اضمحلت جلد و تلاشت تماما تقريبا أمام عشيرة النّخع، أكبر العشائر و أقواها فى الكوفة. يمكن إذا وضع مراد فى المرتبة الثانية، و فى المرتبة الثالثة جعفى من سعد العشيرة، أود، منبّه (أو زبيد)، مسلية. و تظهر دراسة أسماء المواقع فى الكوفة أن هذه المواقع تحمل من آثار مذحج أقلّ مما تحمل من آثار همدان. مع هذا، فلنذكر على سبيل المثال جبانة مراد، و ذلك الأثر الذى لا يزول لشهادة هانئ بن عروة المرادى الذى ما زال اسمه خالدا مع جملة أسماء أخرى. و نذكر كذلك مسجد جعفى. لقد ذابت قبيلة أشعر إداريا فى قبيلة مذحج، تماما مثلما انصهرت حمير فى همدان.

على أن قدم يمنيتها مسألة لا تحتاج إلى إثبات. و كانت عشيرة جماهر أهم عشيرة

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۷۸

فيها، فهى عشيرة أبى موسى الأشعرى الذى لعبت ذريته المتكاثرة فى الكوفة، كما فى البصرة، دورا اجتماعيا و ثقافيا و سياسيا مرموقا. و قد جاء زمن انتقل فيه الأشاعرة إلى قم التى غدت فرعا ثقافيا و فكريا من فروع الكوفة وسط بلاد فارس.

فى النواة المدينية، اليمنية القديمة، ينبغى أن ندرج جماعة يمنية أصيلة، لكن هامشية بسبب دينها، هى جماعة بلحارث من نجران. هؤلاء عقدوا صلحا مع النبى فأبقاهم على دينهم، و لكن فرض عليهم جزية فادحة. غير أن عمر اتهمهم بالعودة إلى الربا فنفاهم من الجزيرة العربية إلى سوريا و العراق. كانوا يعدون أربعين ألف نسمة. و كانت السلطة فيهم للمسيحيين اليعاقبة الذين كانوا أكثرية، و كانت اليهود أقلية فيهم. و استقر معظم النجرانيين فى الكوفة و فى ضواحيها القريبة، فى المكان المعروف باسم النجرانية، و انخرطوا فى حياة المدينة. و فى عهد معاوية، دخل عدد كبير منهم فى الإسلام. أما الذين بقوا على دينهم، و كان يقودهم العاقب و الأسقف، فقد شكلوا طائفة ارتبطت بعهود و مواثيق مع سلطة الدولة. و قد عانت هذه الطائفة من التشتت، و مالت إلى التشرذم، أو على الأقل، إلى الضعف العددى. غير أن قيادة هذه الطائفة كانت فى الكوفة، و كانت تشكو و تتظلم، و فى مقدّم مطالبها، إعمال العدل فى الضرائب (الجزية) التى تدفعها و تكييفها مع الظروف و الأوضاع المستجدة.

و عند ما لاحظ عمر بن عبد العزيز أن النجرانيين انخفض عددهم إلى عشر ما كانوا عليه، خفض الجزية المفروضة عليهم إلى ۲۰۰ حلّة (الجبة اليمنية) بدلا من ۲۰۰۰ حلّة كما كانت سابقا. و اتبع يوسف بن عمر معهم سياسة الشدة التى كان ينتهجها الحجّاج، أما أبو العباس السفاح، أول الخلفاء العباسيين، فقد اعتمد سياسة معتدلة، رسّخها بعد ذلك هارون الرشيد الذى أخرجهم من حكم العمال و ألحقهم بحكم بيت المال، إسوة بباقى المسلمين.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۷۹

۲- عشائر الأطراف اليمنية:

تتميّز الأطراف اليمنيـة، و هى غير قبائل النواة المركزيـة التى عرضـنا لها أعلاه، بأقدميـة أقصـر زمنا و ثبات أقلّ اسـتقرارا فى البلد الأصـلى. فقد كان لقبائل كندة و الأزد و بجيلة و بعض عشائر قضاعة و طيّ فى جنوب الجزيرة، قبل الإسـلام، حياة نصف بدوية/ نصف حضرية (باستثناء حضرموت التى انضمت إلى كندة، على يد زياد).

أما كندة بالذات، فقد كانت، إبّان ظهور الإسـلام، تعيش فى اليمن، و فى الكوفة كان" مشايخ اليمن" هم الذين يروون أحاديث ارتداد هذه القبيلة عن الإسلام، معترفين بأنها جزء من تاريخهم.

كانت كندة تشغل حيّزا وسطا بين همدان و مذحج من جهة و الأزد و بجيلة من جهة ثانية.

و عشائر كندة فى الكوفة هى التالية:

- بنو معاوية الذين كان فيهم" بيت كندة"، بيت الأشعث بن قيس، و كذلك كان منهم حجر بن عدى.

- بنو الرائش: و منهم القاضى شريح.

- السّكون، الـذين اسـتقرّ قسم كبير منهم فى سوريـا، مع أبنـاء عمّهم السّكاسك. و تبيّن دراسـة المواقع فى الكوفـة موقع جبـانة كندة، و مسـجد السـكون، و مسـجد الأشعث، و مسجد بنى بهدلة، و دار محمد بن الأشعث، و دار حجر بن عدى، و قصر و قرية الأشعث.

- الأزديون الذين كانوا يتضامنون فى البصـرة مع القضية اليمنية، و كانوا أول من أشعل العصبية القبلية عام ٦٤ ه/ ٦٨٤ م، أصبحوا أقليـة فى الكوفـة، حيث لا يوجـد إلا أزد السّراة. و لمـا كـانت الأزد تحالفا قبليا يضمّ عـددا من القبائل، فإن بعض العشائر التى اختارت الكوفة، كانت ذات شأن لا يستهان به. نذكر من هذه

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣٨٠

القبائل، على سبيل المثال، بارق وراسب، ودوس، و غامد. و كانت غامد عشيرة متميزة، انقسمت عشائر عدّة ما لبثت أن انقسمت بدورها فروعا مختلفة:

كـان منهـا عشـيرة سـعد منـاة الـتى اسـتقرت فى الكوفـة، و كـانت تضم" بيت أزد الكوفـة"، و آل مخنف، و كـانت بين العشـائر المرموقة فى المدينة، و كانت لها جبانة مخنف، و منها المؤرخ الشهير أبو مخنف.

- عشائر طيّ التى ورد ذكرها هى عشائر جديلة و نبهان و سـلمان بن ثعل، و بخاصة عشـيرة بنى الأخزم التى ينتمى إليها سيد طيّ فى الكوفة عديّ بن حاتم. لا نجد أى أثر لهذه العشائر فى المواقع و الأماكن الكوفية، فى حين أن واحدا من بشر هو خثعم ترك اسمه مقرونا بإحدى الجبّانات فى المدينة.

- يفترض بعشـيرة بجيلة أن تكون قبيلة الشـتات اليمنى: تقول الروايات إنها تشتتت إثر حرب الفجار. و لقد رأينا الدور الذى لعبه جرير بن عبـد اللّه فى لمّ شـملها، و كيف كـانت بجيلـة فى عـداد القبائـل الأولى التى سارعت إلى القتال فى العراق. و لعلّ هـذه القبيلـة التى أسـهمت فى ولادة الكوفـة، منـذ البداية، تراجعت أهميتها بسـبب تناقص عديد أفرادها، و لأنها كانت غير قادرة على طلب العون و المـدد، من قبائل أخرى كى تردفها بالمزيد من موجات المهاجرين (الروادف) على غرار ما فعل غيرها من القبائل، لتعزز بهم موقعهـا. و ربمـا لهـذا السـبب بالـذات، كـانت بجيلـة أكثر القبائل كوفيـة؛ فهى فضـلا عن ذلك، هاجرت جميعا، دفعة واحدة، إلى الكوفة، و إلى الكوفة وحدها (و لم يستقر فى البصرة إلا فرع صغير من عشيرة أحمس، بنو الدهن بن معاوية).

أما عشائر بجيلة التى تذكرها المصادر فى الكوفة، فهى:

- قسـر، و هم فرع من قبيلـة، بعشائرهم المختلفـة: عرينـة (و هى عشـيرة جرير)، أفرك (عشـيرة خالد بن عبد اللّه، والى العراق فى عهد هشام).

- أحمس، و هم عشيرة كبيرة، و منها رفاعة بن شداد، من أوائل الشيعة و أحد قادة حركة التوابين. و منها أيضا، فى زمن لاحق، القاضى أبو يوسف من

أصحاب أبى حنيفة. و تذكر مصادر الأماكن و المواقع فى الكوفة و ضواحيها عددا من الرجال البارزين فى بجيلة: دار أبى أرطاة بن مالك البجلى، نهر خالد، سوق أسد و هو قرية حملت اسم أسد بن عبد اللّه القسرى.

٣- مقارنة مع الأمصار الأخرى:

لا يسعفنا فى فهم خصائص الكوفة، و إدراك ميزاتها، إلا مقارنتها بأماكن أخرى للهجرة العربية فى القرن الأول، استقرت فيها قبائل يمنية. و هنا نصطدم بغموض معنى كلمة يمن التى أردنا، من جهتنا، أن نحدّدها، فميّزنا فيها بين النواة المركزية و الأطراف، فاستثنينا منها، على أية حال، جماعات قبلية كقضاعة و الأنصار، مثلا.

أ) لا نجد فى البصرة أية عشيرة تنتمى إلى النواة اليمنية؛ فالتعديل الذى أدخله زياد على التنظيم العسكرى، حينما جعله أخماسا، يظهر جماعات فيها هيمنة قيسية واضحة (أهل العالية)، و جماعة من تميم، و أخرى من بكر، و أخرى أيضا من عبد القيس (و كلا هذين الأخيرين من ربيعة). و هناك أيضا خمس آخر مؤلف من الأزديين، و تشارك فيه معظم العشائر، و لكن بهيمنة واضحة لأزد عمان على أزد السراة على الرغم من أن هؤلاء وصلوا مع بدء الاستقرار، فى حين أن أزد عمان لم يصلوها إلا فى نهاية حكم معاوية. لم تتمثل اليمن فى البصرة إلا بالأزديين وحدهم، أى بجماعة من الأطراف و من عمان بالأساس، لا بقبائل يمنية قديمة. و لئن كان الأزديون قد تمكنوا من إنشاء تحالف قوى استطاع أن يقف فى وجه تميم، و اكتسبوا فى البصرة، أو حملوا إليها معهم، وعيا يمنيا قتاليا و حربيا، فتلك مسألة أخرى سنتفحصها على حدة.

ب) كذلك، لا نعثر على يمنيين فى الجزيرة، شمال العراق، بل نعثر على

قيسيين و قضاعة و ربيعة.

ج) على العكس من ذلك، يبدو أن هجرة مبكرة و لكن محدودة إلى سوريا، قامت بها همدان و مذحج، و كندة بخاصة (سكاسك) و عكّ و أشعر، و هى جماعات شاركت فى وقعة صفين إلى جانب معاوية.

د) هاجرت قبائل يمنية قديمة إلى مصر. و من هناك انتقلت إلى المغرب، حيث نجد إشارة إليها فى مراجع الشخصيات التى تنتمى إلى عشائر حميرية (رعين)، و كندية (تجيب) و مذحج. تتكرر كلمة معافيرى، نسبة إلى المعافر، كثيرا فى كتب الطبقات، و كذلك كلمة صنعانى نسبة إلى صنعاء، و باب أصرم و هو اسم يمنى محض، كان أحد أبواب القيروان الأولى. و يبدو هذا الوجود اليمنى فى إفريقية ظاهرة تستحق الاهتمام. أفمن هناك، و من سوريا، انتقلت هذه الجماعات العربية الجنوبية إلى إسبانيا؟ فهم موجودون فى كل مكان: الأشاعرة فى ريّة، و طىّ فى بسطة و تاجلة و غوليار، و عنس (و هى من مذحج) فى قلعة يحصب، و خولان فى قرطبة، و حضرموت (و منهم آل خلدون) فى إشبيلية.. إلخ.

فإذا استثنينا اليمن حيث بقيت جماعات كثيرة من جنوب الجزيرة، بحسب شهادة الهمدانى، يكون الشتات اليمنى قد تجمّع، بعد الإسلام، فى الكوفة و فى الغرب الإسلامى (المغرب و إسبانيا). أوليست المفارقة فى أننا نجد تلك الجماعات حيث لا نجد بالضرورة الجماعات العربية المهيمنة: تميم و قيس عيلان و كلب؟ ثمة مفارقة أخرى: فى الكوفة، و هى مركز التجمع الأكبر

لقبائل همدان و مذحج و أشعر و حمير و حضرموت و بجيلة، كان الصراع الإقليمى/ القبلى
نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣٨٣
اليمنى- القيسى غائبا تماما، فى حين أنه كان على أشدّه فى سوريا و البصرة و الجزيرة و خراسان. و سنرى أن ذلك عائد إلى أن اليمنية المناضلة لم تكن متطابقة مع اليمنية التاريخية، و أنها كانت تخوض نضالات أخرى. من جهة ثانية، تظهر هذه المفارقة الزائفة هامشية القبائل اليمنية القديمة بالنسبة إلى الشكل الجديد للعروبة التى دخلت التاريخ بالإسلام و مع الإسلام. و مهما بلغت من كثافة الحضور فى الكوفة، فإنها لم تكن أكثرية فيها؛ و مهما كان لهذا الحضور من إشعاع ثقافى، فإنه لم يكسف محور ثقافة العروبة الشمالية. و من هنا ارتباطها بالمسألة الشيعية، و هو ارتباط ما لبث أن أخذ يزداد رسوخا، و ذلك بمقدار ما كان التشيّع يزداد تحوّلا إلى معارضة يائسة، لا بل إلى ميثولوجيا. فهل هامشيتها هى التى دفعتها إلى تكثيف وجودها فى الكوفة، فساعدها نفوذها- كما يقول ماسينيون- على «تمدين العرق العربى»؟ الثابت هو أن الكوفة تدين للحضور اليمنى فيها، بقدر كبير من أصالتها: و هى لا تدين لها بثقافتها (الفقه، التصوف، اللغة) بمقدار ما تدين لها بصبغتها الاجتماعية التى تمتاز بعروبة راسخة، موغلة فى القدم، أرستقراطية، و بمقدار ما تدين لها أيضا بحسّها التاريخى. و قد يكون، فى العمق، أن من اليمن القديمة هذه، استمدت الكوفة هامشيتها الحادة التى قادتها ببطء إلى الموت، بعد أن كانت المركز الملتهب للإسلام فى عصره الأول.

III- اليمنيون و صراعاتهم السياسية

١- المشكلة "الشيعية":

حاول ماسينيون، فى دراسته الملهمة عن الكوفة، أن يحلل- كما يحلل المطياف الألوان- الألوان السياسية للقبائل و العشائر، و لكن انطلاقا من خط فاصل محدد. هذا الخط يفصل بين الجماعات تبعا لمعيار الارتباط و الوفاء لقضية على، أو العكس. و يخلص ماسينيون إلى استنتاج مفاده أن اليمنيين مؤيدون للشيعة، و أن ربيعة هى أيضا كذلك. أما قيس مضر فقد كانت معادية للشيعة بوضوح. و إذ ينهى ماسينيون عملية تحليل طيف الألوان السياسية، يخلص إلى النتائج التالية:
نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣٨٤
أ) يمن:
- همدان: شيعية جامحة؛ أسهموا فى الثورات الزّيدية (باستثناء عشيرة ناعط، فقد كانت من أنصار عثمان فى العام ٣٧ ه).
- مذحج: شيعية بعشائرها جميعا، و بخاصة عشيرة النخع، و كذلك عشيرة جعفى و مراد. تستثنى عشيرة أشعر التى وقفت على الحياد، و عشيرة بلحارث التى يقول ماسينيون إنها اتبعت الخوارج فى العام ٤١ ه. ثم تحوّلت إلى تأييد بنى العباس فى العام ١٣٢ ه.
ب) قبائل الأطراف اليمنية، موقف معتدل:
- كندة: تشيعت جميع عشائرها (راجع حجر بن عدى) لكن تشيّعها كان شكليا فقط.
- بجيلة: وقفت منذ البداية ضد الشيعة (راجع موقف جرير) مع بعض الاستثناءات.
و حيث إن ربيعة كانت شيعة فى البصرة بخاصة، و هذا ما يستدلّ عليه من وقوف قبيلة عبد القيس بثبات إلى جانب علىّ، قبل وقوع معركة الجمل، لأن تشيعهم كان متميّزا بأسبقيته أكثر منه بديمومة فعاليته، فإننا هنا فى إزاء مواجهة فقط بين مضر و يمن. و كانت هذه المواجهة تشتدّ و ترسخ بمقدار ما كان وهج الكوفة يذوى و يأفل مجدها، و يتبلور الوعى الشيعى و السنى: و من هنا

كان انتقالها إلى المجال المدينى. فسرعان ما غدت الكناسة موئلا للعناصر القبلية غير المتحمسة لقضية على: عبس و ضبّة و تميم. من هنا، عمدت الميثولوجيا الشيعية، فى ما بعد، إلى تعيين هوية كل حى من أحيائها" المدنّسة": الكناسة، خطّة ثقيف، دور بنى أمية، الخوارج،.. إلخ.

وجهة نظر ماسينيون صحيحة فى الجزء الأهم منها. كان يمنيو الكوفة بسبب هامشيتهم بالذات، يدعمون، طيلة القرن الهجرى الأول، حزب على ثم الهاشميين المطالبين بالحكم، و لكن وفق أشكال كانت تختلف باختلاف المراحل التاريخية. عندما استتب الأمر للعباسيين، واصلوا دعمهم لأبناء على المطالبين بالحكم. و فى النهاية، بين القرنين الثالث و الرابع تحوّلوا إلى تشيّع يتجمّد فى مذاهب دينية، بعد أن كان التشيع يتجسد فى معارك سياسية محض. و لكن كان يجب إيضاح هذه الاختلافات الزمنية و إجراء المزيد من البحث و التنقيب فيها.

فإذا أخذنا مثلا، هو دعم على فى معركة صفين، فإن هذا الدعم لم يكن له

المعنى الذى اتخذه التشيع حين غدا ميثولوجيا فى القرن الرابع الهجرى، و صار يميّز بين الأحياء فينعت بعضها بالمدنسة، و يفرّق بين مساجد لعينة و أخرى مباركة، و يرسم طريقا دينيا فوق آثار المدينة.

هكذا فإن الدعم اليمنى لعلى فى نضاله المسلح من أجل الحكم، لم يكن عفويا و لا جماهيريا. عندما انتقل على إلى ذى قار، فور توليه الخلافة، كان مساعدوه الأقربون من طىّ و أسد و عبد القيس الذين فى البصرة، و بكر.

و طوال معركة صفين كان أكثر المتحمسين للقتال إلى جانب على هم من ربيعة؛ كما يشار أيضا إلى همدان و مذحج الذين قاتلوا، لفترة قصيرة، إلى جانب الأشتر. و على العكس من ذلك، قاتلت عكّ و أشعر بضراوة إلى جانب السوريين. أما الكوفيون، و لا سيما اليمنيون منهم، فقد اصطفوا مع على. لكن وراء هذا الاصطفاف كانت هناك قضايا سياسية و اجتماعية و اقتصادية، أكبر بكثير من مجرد موقف تحركه المشاعر العاطفية. فهو اصطفاف ظرفى أحاطت به ظروف محددة فى سياق وضع محدد، كما أثبتت بعد ذلك الأحداث، كما أنه اصطفاف يتحدّد من خلال التراتب الاجتماعى داخل القبائل.

و قد بدا ذلك بوضوح فى أثناء ثورة حجر بن عدى الكندى (٥١ ه/ ٦٧١ م). فمن بين الذين شهدوا ضدّه، كان هناك عدد من الأشراف المعروفين فى القبائل اليمنية الكبرى؛ و إنه لأمر ذو دلالة أن يكون أكثر الذين طاردوا حجرا و رفاقه، هم من همدان و مذحج. فى ذلك الوقت، لم يكن ممكنا التماثل

و التطابق بين الشيعة و القبائل اليمنية، كما لم تكن ممكنة المماثلة و المطابقة بين دعم على فى حياته، و بين شكل ما للوعى" الشيعى".

فلنتابع مسارنا التاريخى. كشفت ثورة المختار عن تطور فى الوعى، لكنها سرّعت أيضا فى تطويره، تاركة بصماتها على الحركة اللاحقة فى جملتها. و قد أثبتت أو أنها ولّدت لدى اليمنيين، و ربما للمرة الأولى، تماهيا نسبيا مع" القضية" التى غدت قضية سياسية- دينية اغتنت بلغة عاطفية مؤثرة. بطبيعة الحال، كانت لثورة المختار أبعاد مركبة: فالمطالب الاجتماعية التى رافقتها و أودت بها إلى الفشل و الإخفاق، شملت قطاع الموالى الذين لم يندمجوا فى المجتمع بل ظلوا على هامشه، دهماء غير منظمة و قابلة للانفجار. و قد حجبت المشاعر و الانفعالات الدينية المطالب الاجتماعية ذات الجذور العربية، و على صعيدها العربى. من هذه الزاوية يجب النظر إلى الأمور بدقة. ضمّت ثورة المختار، على المستوى القيادى، نوعين من القادة، كانا فى الأساس، منفصلين، هما: الناجون من عين الوردة، و هم من حركة التوّابين، و أنصار المختار المخلصون. و فى كلا النوعين، كانت

الأكثريـة يمنيـة، أو على الأقـل، كان هناك عـدد كاف لفرض كلمتها، و منهم: أحمر بن شـميط، عبـد اللّه بن شـداد، ابن كامل، السائب بن مالك. و كان بين المتعاطفين أشراف و قادة قبائل، منهم مثلا، عبد الرحمن بن شريح من شبام الذى يقال فيه: «و كان عظيم الشـرف»، و إبراهيم بن الأشتر الـذى غـدا رأس حربـة الثورة بعد انضـمامه إليها. كذلك، فإن العشائر التى لبّت جميعا نداء المختـار، على الرغم من الظرف غير المؤاتى و الضـغط الـذى مارسـته أكثريـة الأشـراف، كـانت فى معظمهـا قبائل يمنيـة: شاكر، خثعم، شبام. لقـد سبق للمختار أن كان شديـد التأثير، بخطابه الحماسـى الملتهب فى نفوس «مشايخ همدان» الذين كانت الناس تشاهدهم يبكون فى مسجد الكوفة عندما تذكر مآسى «ابن بنت نبيّكم». كان اليمنيون يتأثرون بكل

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣٨٧

شكـل من أشـكال الوعـظ" الشيعى": و كـانت بعض القبائـل تتـأثر بسـهولة أكـثر من بعضـها الآـخر، كمـا كـانت بعض الفئـات الاجتماعيـة، داخل القبيلة، تتأثر أكثر من بعض الفئات الأخرى. فى واقع الأمر، يجب ألا ننظر إلى موقف همدان السياسـى أو إلى موقف مذحج كأنه موقف واحد لا يتخلله تمايز و لا اختلاف:

ذلـك أن التنظيم الأـفقى للبنيـة القبليـة، يواكبه تنظيم عـامودى اجتمـاعى يتيـح إظهـار اختلاف المواقف. كان الأشـراف، بعامّـة، معادين لثورة المختار منـذ أن انـدلعت؛ ثم أصـبحوا أكثر عـداء لها عنـدما طالبت بتحرير العبيد و الموالى. من أصل سـبعة زعماء قبائـل، سـعوا إلى الوقوف فى وجه الثورة، كـان هناك أربعـة زعماء يمنيون. و قـد ضـمت مؤامرة الأشـراف، بعـد انفجار الثورة، زعماء قبائل من بجيلـة و خثعم و الأزد، و كـذلك من ربيعـة و تميم. كانت مضـر كلها مجتمعة فى الكناسة تحت قيادة شـبث بن ربعى، و كانت اليمن مجتمعـة تحت قيادة عبد الرحمن بن سـعيد بن قيس الهمدانى فى جبانة السّبيع. كانت حماية نظام المصالح و الـدفاع عنهـا أقوى بكثير من العواطف الإيديولوجيـة. و لكن فى صف المختـار، كـانت تقف أكثريـة يمنيـة جاءت من الفئات الشـعبية و تولى تنظيمها و تأطيرها أشـراف مغمورون. و لئن كان إبراهيم بن الأشتر قـد دعم الانتفاضة، فإنما فعل ذلك عن قناعة بالقضـية و بدافع من الطموح الشخصـى و التقليد العائلى فى آن معا. و من المؤكد أن اليمنيين خاضوا أقسـى المعارك و تكبدوا أكـثر الخسـائر، و أن قـدرة عظيمـة على الوفـاء و الإخلاـص لأسـرة النـبى طبعت موقفهم، و تعـدّت التقسـيم الاجتمـاعى الهرمى، متجـاوزة حـدود التضـامن القبلى. فتمكنـت بـذلك الأجيـال الجديـدة، فى السـنوات الستينيـات للهجرة، من الاضـطلاع بـالمهمة بكاملها. فحجر بن عدى فى العام ٥١ الهجرى، و عروة بن هـانئ المرادى فى العام ٦٠ الهجرى، كانا يناضلان فى العزلة؛ تكونت هذه المرة حركة استندت إلى قاعدة واسعة، و كانت هذه القاعدة ذات أكثرية يمنية ساحقة. على أية حال، لم يكن هناك علاقة واضحة و واعية بين الانخراط فى هذه الحركة و بين الانتماء اليمنى.

ظهرت أهمية النظام الاجتماعى المحض، و برزت قوة الجمود المتجسد فى العلاقة العميقة بين السلطة و الأشراف، مرة ثانية، أثناء ثورة زيد بن على فى العام

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣٨٨

١٢٢ ه. هنا، تختلط علينا الأمور: ذلك أن أول من قـدّم الولاء لزيـد ليسوا اليمنيين، فكأنما المناقشات كانت قد بلغت من العمق ما جعل الخيار موقفا شخصـيا، نابعا من قناعـة خاصـة، تفوق أى اعتبار آخر. فكان بين الذين ضـلعوا فى المؤامرة عبسـىّ و كندىّ و أنصارى و لم يكن هناك أى همدانى. السـيناريو نفسه تكرر كما مع الحسين: كان ردّ فعل السـلطة أنها طلبت إلى الأشـراف أن يتـدخلوا من أجل تهدئـة القبائل، ثم تكفّلت القوات السوريـة بإتمام الباقى. لقد أخطأ ماسـينيون خطأ بيّنا عندما بنى جازما موقف قبيلـة بأكملها من التشيّع إلى الأبـد على حادث تاريخى واحـد أو على موقف شخصـية تاريخيـة واحدة. و إنما سير الشخصـيات الشـيعية اللاحقـة هى التى أتاحت حركـة الرجوع إلى الوراء، بـدءا من واقع حالها، لكشف المواقف و الولاءات بدقة، انطلاقا من

التاريخ و من أجل التاريخ.

و لئن كانت الثورة العباسية قد انطلقت من خراسان، فإن رأس الثورة كان فى الكوفة. و قبل أن تتمأسس هذه الحركة فى دولة جديدة، كانت قد وضعت نصب عينيها هدفا مبهما: استعادة حق آل البيت. و الحال، أن أبا سلمة كان مولى، و لكن مولى لعشيرة يمنية هى السّبيع؛ و البيعة أخذت من الخراسانيين فى الكوفة، و فى جبانة السبيع، لا فى مكان آخر. و أبو حميد، أحد قادة الشيعة، الذى ارتدّ على أبى سلمة، تأييدا للفرع العباسى، كان حميريا. هذه المؤشرات تدلّ دلالة كافية على استمرار تيار مؤيد لحق آل البيت فى أوساط اليمنيين فى الكوفة. و لم يتحول التشيّع إلى إيديولوجيا، و تتزايد فيه الانقسامات إلى ملل و مذاهب، إلا لاحقا أى فى القرنين الثالث و الرابع الهجريين. و هكذا بدأ الوعى الشعبى يتعمّق، و يتعمم الشعور بالخصوصية الشيعية. و ما من شك، كما سبق لنا القول، فى أن وعيا ما بهامشية يمنية ما هو الذى دفع إلى الالتحاق بالهامشية الأخرى- الشيعية- و إلى التواصل معها.

٢- العصبية أو الصراع فوق القبلى:

سواء تحوّل هذا الصراع إلى حرب أم بقى عداء أصمّ، فإنه يحدث على مستوى أرفع من مستوى القبيلة، فوق القبيلة؛ فهو لا يظهر بين قبيلتين (كما كان

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣٨٩

يحدث قديما بين بكر و تغلب، أو بين عبس و ذبيان)، بل يظهر بين مجموعتين من القبائل، تنتسب كل مجموعة منهما إلى أصول واحدة. و لئن كانت التسميات لا- تتغير فى اليمن، فإنها فى الجانب المقابل، تضيق أو تتسع، بحسب الحالات المختلفة: قيس، مضر، عدنان. معروفة هى ضراوة هذه الصراعات التى جرت فى تاريخ العرب الأول الذى يمكن تعيين بدايته بوفاة يزيد بن معاوية (٦٤ ه/ ٦٨٣ م) فبموته انفلتت كل القوى التى كانت مكبوتة. فى البصرة وقف الأزديون، حلفاء ربيعة، ضد تميم من دون سبب سياسى، و بأسلوب يعود إلى عصر الجاهلية؛ و كادت أن تقع الحرب، و لكن أمكن تفاديها. أما فى بلاد الشام، فقد تحوّل الصراع بين كلب و قيس، إلى حرب دامية، فى سياق النزاع على الحكم: بعد يوم جيرون التقى التّحزّبان فى مرج راهط فى ٦٤ ه/ ٦٨٣ م، و دارت بينهما معركة انتهت بهزيمة القيسيين. بعد هذه الهزيمة، علا شأن كلب فى الشام و أمسك المروانيون بزمام الحكم. طيلة العشر السنوات التالية استمر الصراع الدامى، و بخاصة فى الجزيرة و انتقل إلى خارج المحورين الأساسيين فى النزاع السياسى الأكبر: الزبيريين/ المروانيين، شيعة/ مروانيين. ما يسترعى الانتباه، هو أن الكوفة، المدينة اليمنية بامتياز، ظلت باردة تجاه هذا النزاع، فى مرحلته الأولى، فى حين أن سوريا، مركز الخلافة، كانت خلافا لذلك، تلتهب حماسا له. و قد سبق لبعض المستشرقين أن أشاروا إلى ذلك. هذا التناقض ليس استمرارا لظاهرة جاهلية كما يمكن أن توحى به أدلجة كتب الأنساب، كما أنه ليس صراعا سياسيا خالصا، أى أنه ليس صراعا على السلطة. و لئن أمكن له أن يتخذ، جزئيا، شكل الصراع بين الزبيريين و المروانيين، فإنه لاحقا، تعدّى هذا الشكل ليتبنّى قضايا أخرى: منها على سبيل المثال، استبدال التوسع العسكرى اللامحدود بوقف الفتوحات و استقرارها، و بخاصة فى خراسان، على نحو ما يبيّن شعبان. فى غضون ذلك، و المروانيون فى أوج عظمتهم، سواء فى عهد عبد الملك أم فى عهد هشام، تحول ذلك الصراع، بعد أن استقر على شكل

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ٣٩٠

خصومة و منافسة، إلى آلية للحكم: تداول السلطة فى الدولة. تارة يحكم "اليمنيون" و طورا "القيسيون"، لتحقيق غاية بديهية هى فرّق تسد. و كان الأمويون و نظام حكمهم يفعلون كل شىء من أجل توسيع ذلك الصراع، و تعميمه على الأمصار، إلى أن

اتخذ طابعه العنصرى المعروف، و الذى ما لبث أن ارتدّ على النظام نفسه.

من تلك الملاحظات الأولية نستنتج ما يلى:

أ) إن معظم اليمنيين الذين انخرطوا فى الصراع فى الشام هم من قضاعة:

كلب، تنوخ، جهينة، بلى؛ و قد انضم إليهم من أطراف اليمن: سكاسك (و هى من كندة؛ أزد). تأتى بعد ذلك، قبائل يمنية خالصة استقرت فى سوريا (حمير، عكّ).

ب) إن ما يميّز هذه القبائل عن تلك التى فى الكوفة ليس" يمنيتها" المفترضة، و إنما هو واقع مشاركتها فى الحكم الأموى. فالعداوة بينها و بين القيسيين دخلت فى صلب النظام، و أصبح كلا الطرفين قبائل حكومية بالمعنى الواسع للكلمة. و عندما هاجت العصبية فى الكوفة، أواخر العصر الأموى، فإن القبائل السورية هى التى جلبته، و لم يكن معنيا به إلا يمن و مضر الشام وحدهما.

ج) فى خراسان، كان الصراع بين الأزد و تميم و قد انتقل من البصرة.

فإذا بقيت الكتلة اليمنية الكبرى فى الكوفة خارج ذلك الهيجان، فإنه لا بد من الإجابة على السؤال: لماذا رأت هذه الخصومة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية (النزاع على الحيّز المكانى فى الجزيرة كان عاملا حاسما) بين القبائل المسيطرة، و التى تتعايش مع نظام الدولة، أن من الأفضل أن تستتر وراء شعار:

يمن/ عدنان؟ إن انتماء قضاعة اليمنى، هو تاريخيا، انتماء افتراضى. و لئن كان ثمة هجرة يمنية حدثت فى عصور ما قبل الإسلام، فماذا يمكن أن يكون قد بقى عالقا منها فى الوعى و الذاكرة، بعد نصف قرن من ظهور الإسلام؟ و بدلا من القول بأن عودة ما، أو انبعاثا ما قد حصل، نريد أن نقول إن تماهيا حديثا قد حدث بتأثير من بعض عناصر يمنية قديمة، حديثة الهجرة إلى سوريا، كان أحد وجوهها

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۹۱

البارزين ذو الكلاع الحميرى. فى وجه الطموح المضرى إلى اكتساب شرعية تاريخية بالنبوّة و الهيمنة اللغوية، نهض طموح آخر لاكتساب هذه الشرعية، يستند إلى العظمة التاريخية القديمة و الملوكية و الحضارة. فمجرد كلمة يمن، كانت كافية وحدها، بما تختزن من رفعة و سمو قدر، لتفرض نفسها قطبا آخر للعروبة. و ثمة رجال من هذا اليمن كانوا هناك لشحذ هذا الوعى التاريخى، أو لتكوينه لدى قبائل أقلية و قديمة مستقرة فى جوار قبائل كبيرة تزعم اليمنية لنفسها (قبيلة كلب، مثلا)، و كانت تلعب دورا فى التاريخ الجديد. فالدور الذى كانت تلعبه قبيلة كلب فى الشام/ الجزيرة، لعبته قبيلة الأزد فى البصرة و خراسان. بمقدار ما كانت البنية الاجتماعية الاقتصادية فى الكوفة تخلو من شىء يحفز التضاد بين الكتلة اليمنية و القبائل المضرية (أسد، تميم)، و بمقدار ما كان الكوفيون كلهم يجدون أنفسهم مبعدين عن المشاركة فى سلطة الحكم المركزى، كانوا يجدون أنفسهم فى منأى عن صراع يرفع راية اليمن، فى كل مكان لا يكون فيه فى الواقع لليمنيين الأقحاح إلا وجود ضئيل. و لكن كم كانت كبيرة الخدعة التى عادت بعد قرون فسحبت نفسها على اليمن بالذات، لأن الهمدانى و آخرين نادوا، بسذاجة، بوعى يمنى مشوّه. و قد تكون العصبية أسهمت، بمفارقة مدهشة، فى تعزيز الوعى القومى لدى العرب، و فى إغناء وعيهم التاريخى، بإغناء تراثهم بهذه الملاحم، و بترسيخ شجرة أنسابهم إلى الأبد.

IV- دور اليمنيين الحضارى و الثقافى

يمكن الاعتقاد بأن اليمنيين قد أسهموا، فى ما يتعدى الدور الذى لعبوه فى بناء الوعى التاريخى العربى، إسهاما أكثر وضوحا، فى

إغناء الحضارة العربية الإسلامية، بحكم تجربتهم الحضارية العريقة. و هذه فرضية معقولة، على الرغم من القطيعة التى حصلت منذ ما قبل الإسلام، فى الحضارة اليمنية، و على الرغم

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۹۲

من هيمنة القبائل العربية الشمالية (عبر الإسلام و اللغة و الدولة) فى تحديد الإطار الجديد للوجود العربى.

يقول ماسينيون، بخصوص الكوفة، إن «العرق العربى أصبح مدنيا فى الكوفة بفضل العنصر العربى الجنوبى الذى كان حضريا». فإذا تذكرنا أن القسم الأعظم من المهاجرين كانوا إما بدوا عريقى البداوة (مضر- تميم) و إما نصف بدو (ربيعة)، فإن السؤال حول الحضرية يبقى قائما يحتاج إلى إجابة. فالحضرية ليست تثبيت البدو فى مكان محدد فقط، و إنما هى أيضا تمرّس بحياة المدينة يصعب الحصول عليه، و تجربة تعايش بين القبائل، و تربية اجتماعية تتولاها عقلية معينة. من هنا جاءت الفرضية التى أطلقها ماسينيون حول الدور التحضيرى الذى قام به اليمنيون أمثال همدان و حمير و مذحج. و قد كان للقبيلتين الأوليين، على الأقل، تمرس فعلى بحياة المدن كما بحياة الأرياف. فالهمدانيون كانوا يقيمون فى الوديان شمال صنعاء، فى تلك القرى إياها التى حملت أسماءها قبائل انتقلت إلى الكوفة: شبام، ناعط، ديبان، السّبيع، مرهبة، شاكر، خارف، إلخ. حتى إننا نتساءل إن لم تكن المطابقة بين العشيرة (و هو مفهوم يقوم على نسب الدم) و بين القرية- الأصل (و هى مفهوم يقوم على حيّز جغرافى) التى جاءت منها هذه العشيرة، قد تمّت أثناء الهجرة، بغية تكييفها مع العادات البدوية المهيمنة، لا سيما أن القبائل العربية الجنوبية الأكثر "حضرية"، بما فيها الحميريون، عاشت فى هيكليات قبلية. كانت حمير، داخل مجمّع القبائل اليمنية الأصيلة، القبيلة السياسية؛ و لا نعلم ما إذا كان عددها قليلا على الدوام، أم أنه كان لممارسة السلطة يد فى إضعاف عددها. و على الرغم من عراقة همدان، فإنها ربما كانت على صلة ما بالمدّ البدوى فى اليمن الذى تحمّل، إلى هذا الحدّ أو ذاك، أوزار دكّ صرح الحضارة اليمنية. ثمة إذا أسئلة مستعصية مطروحة، إلا أن المؤكد هو أنه كان هناك تعايش بين بنيتين قبلية و حضرية (كما فى حالة قريش و ثقيف ...)، و أنه إذا كانت القبيلة تحدّد بوعيها بالأصل المشترك الواحد، فإن العشيرة فى اليمن تتحدد بالعيش المشترك فى قرية واحدة.

تصطدم فرضية ماسينيون بعقبتين كبيرتين:

أ) ليس هناك من دليل على الدور "التمدينى" الذى لعبه هؤلاء اليمنيون.

خلافا لذلك، وجد اليمنيون أنفسهم مرغمين على الإعراض عن الهيكلية

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۹۳

القروية و الانضمام إلى النظام العشائرى العام.

ب) الدليل المضاد هو أن البصرة، التى لم يكن لهذه العناصر من وجود فيها، تمدّنت بأسرع من الكوفة، و ذلك بحسب ما يقول ماسينيون نفسه.

يمكن الاعتراض أيضا بالقول إن التخطيط (و هو قرار الاستقرار و البنيان، أى النقل العملى لما كان مرسوما على الورق من ترسيمة عمرانية إلى الأرض؛ و توزيع المواقع و الحصص على القبائل) كان من عمل قادة قريش و ثقيف الذين انتدبتهم قيادة المسلمين فى المدينة ثم الخليفة الأموى فى الشام، كما أن عمليات البناء الفعلية فى المدينة، كانت تجرى تحت إشراف مباشر من زياد، و هو الآخر من ثقيف، و كان فضلا عن ذلك مطلعا على المهارات الفارسية فى هذا المضمار. فإذن، إن فرضية ماسينيون، لا تثبت أمام النقد، و يصبح أكثر عقلانية إسناد هذا الدور التمدينى إلى النخب السياسية القرشية و المدينية و الثقفية، و ربما أيضا لبعض عناصر من ربيعة (إياد، عبد القيس، بكر) و لبعض عرب الضاحية (العربية- الفارسية). أما التنفيذ العمرانى

الفعلى فقد تمّ تحت تأثير فارسى- بابلى، كما تدلّ حكايۀ بناء مسجد الكوفۀ على يد زياد، و كما يدل أيضا استخدام الآجر المشوى و نمط العمارۀ العربيۀ فى العراق فيما بعد.

من الواضح أن الوجود الكثيف لليمنيين فى الكوفۀ حال دون أن يكون لهم تأثير على الصعيدين المعيشى و الحضرى للمدينۀ. و يقضى المنطق أن نبحث عن أدلۀ لهذا التأثير فى ما هو كوفى مخصوص. و لكن من البديهى ألا يكون هناك سوى فرضيات. ليس من شك فى أن اللبن، و هو الآجر المجفف الذى يقطّع و يرقّق، و بنيت به المدينۀ كلها، فى المرحلۀ التى أعقبت مباشرۀ مرحلۀ الإسلام الأول (حيث لم يكن هناك إلا- أكواخ من القصب)، كان من أصل عراقى بحت. و إذا كان ما يزال اليمنيون يستخدمونه إلى يومنا هذا فى بناء منازل عاليۀ و جميلۀ و متينۀ فبتأثير من العراق. و معلوم أن الكوفۀ كانت تحوى جبانات

نشأۀ المدينۀ العربيۀ الإسلاميۀ: الكوفۀ، ص: ۳۹۴

و رحبات يبدو أن البصرۀ كانت لا تعرفها. ترجم ماسينيون جبانۀ إلى الفرنسيۀ بcimetie ?re أى مقبرۀ بمعناها الشائع المعروف، لكنه يضيف قائلا إن الجبانۀ كانت أيضا «مساحۀ واسعۀ خاليۀ من الأبنيۀ تستخدم للعرض العسكرى و الخطابات». و فى الواقع، تذكر المراجع أنها كانت ت، ستخدم لدفن الموتى و لكن نادرا و بإيجاز. خلافا لذلك، تكثر الإشارات إلى الاجتماعات السياسيۀ و النزاعات و التحشيدات العسكريۀ التى كانت تحدث فى الجبانات. ثمۀ احتمال كبير فى أن تكون هذه السمۀ المميزۀ لطوبوغرافيا الكوفۀ مأخوذۀ من اليمن؛ فالجبانات التى ما زالت قائمۀ فى بعض مدن اليمن كصنعاء، ليست مقابر، بل هى مساحات مسوّرۀ، مزوّدۀ بمحراب و تقع مباشرۀ خارج السور، و تستخدم كمصلى فى المناسبات الكبرى، كما تستخدمه القبائل لاستعراض قوتها القتاليۀ.

كان فى اليمن القديمۀ رحبات (جمع رحبۀ) أى ساحات مركزيۀ وسط المدينۀ.

و الجذر (ج ب أ) فى النقوش و المدوّنات يعنى، فى جنوب الجزيرۀ، «ردّ» و «استردّ»، و يعنى جمع و تجمّع فى لغۀ الغا؟؟؟ زgue ?ze (و يستخدم أيضا بمعنى جمعيۀ، جماعۀ، مجتمع). هذه الجبانات و الرحبات التى يكثر وجودها فى الكوفۀ، أضفت على المدينۀ شكلا طوبوغرافيا خاصا. و كان لها دور مهم جدا فى اللحظات التاريخيۀ التى عرفتها الكوفۀ، فكان لها، فى الجملۀ، وظيفۀ اجتماعيۀ و سياسيۀ فى آن معا. هذا مثال نسوقه لإظهار التأثير الذى كان للتقاليد اليمنيۀ فى تمدين الكوفۀ. فى ما عدا ذلك، يمكن توقع التأثير الخفى الذى كان لتلك التقاليد فى العقليۀ و السلوك، و الذى يصعب تحديده.

بيد أنه ليس ثمۀ أدنى شك فى أن هذا التأثير كان حاضرا فى ميادين

نشأۀ المدينۀ العربيۀ الإسلاميۀ: الكوفۀ، ص: ۳۹۵

الحضارۀ المختلفۀ و الماديۀ، كالزراعۀ و الصناعۀ و التبادل التجارى. فمن المعلوم الذى لا يمكن إنكاره أن التأثير اليمنى فى الأندلس ظهر فى أساليب الرىّ و فى ذلك الحجم الكبير و المتنوع من المنتجات اليمنيۀ، و أهمها الأسلحۀ و الأقمشۀ.

و لكن اليمنيين لم ينصرفوا إلى الأعمال الزراعيۀ و الحرفيۀ بأكثر من العرب الذين استقروا فى الأمصار العراقيۀ، و ذلك فى القرن الأول على الأقل، و بسبب كونهم يتقاضون رواتب ماليۀ؛ فتركت تلك الأعمال إلى السكان الأصليين (من ذمّيين و موالى و عبيد). و إذا، كانت الهيمنۀ للتقاليد المحليۀ القائمۀ الآراميۀ و الفارسيۀ.

على أن الخبرات و المعارف اليمنيۀ قد تكون تسرّبت على نحو مباشر إلى الحياۀ الاقتصاديۀ، و بخاصۀ فى الرى و التجارۀ، لا سيما بعد ما نزع السلاح من البصرۀ و الكوفۀ و انخرط فى الحياۀ المدنيۀ جميع الذين كانوا يقاتلون و يشاركون فى الفتوحات.

لقد كانت الكوفۀ أحد مهدى الثقافۀ العربيۀ الإسلاميۀ، و هذا أمر واقع متفق عليه. و كان اليمنيو الأصل يسهمون إسهاما نشطا و فعالا فى بلورۀ هذه الثقافۀ.

لكن، يبقى أن المسألة التى ينبغى التحقق منها هى إلى أى مدى تمّ إنجاز ذلك الإسهام تحت عنوان أو فى إطار الهوية اليمنية. استلهمت هذه الثقافة مرجعين أو نظامين أساسيين هما الإسلام من جهة، و العروبة البدوية من جهة ثانية. كما كانت تلك الثقافة على تماسّ مع ثقافات البلدان المغلوبة، فتأثرت بها من خلال سعيها إلى الإجابة عن أسئلة جديدة لم يسبق أن واجهتها قط، فقد طرحتها عليها الظروف التاريخية و الاجتماعية المستجدة. فقراءة القرآن و جمع الأحاديث النبوية و صوغ قانون قضائى و تثبيت قواعد اللغة و الكتابة، و التوق التاريخى إلى أيام الجاهلية و قيم العروبة البدوية، أو على العكس من ذلك، إلى العصر الذى دشنه نزول القرآن، ذلك كله شكل تحديات راح يتصدى لها مؤسسو الثقافة العربية الإسلامية. و فى خضم هذه الأمور التى كانت فى طور التخلق، انحسرت اللغة الحميرية لفظا و كتابة، لما فيه مصلحة اللغة القرآنية و كتابة أهل الحيرة (التى ضبطتها إياد، على ما يقال). و كان تاريخ «أيام العرب» الحديث يفوق مجدا مآثر ملوك حمير. فلم يكن معترفا بشىء من الميراث اليمنى كأساس للوعى العربى الجديد، حتى و لو كان عليه أن يلعب دورا فى الوعى السياسى بوصفه ذاكرة، كما مرّ بنا. انطلاقا من هذا التصحيح

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۹۶

الأولى، ينبغى إذا تقدير الدور الثقافى الذى لعبه اليمنيون حق قدره، و قد تحولوا- بفعل واقع الأمور و اندماجهم بعالم فكرى جديد- جزءا لا يجزّأ من مغامرة حملتهم إلى أبعد مما كانوا يتصورون. فمن الجلى الواضح و المثبت، أنهم كانوا حاضرين مندمجين فى الحركة العامة، و فاعلين حيثما كانوا يشاركون فى هذه الصراعات الفكرية.

إذا أخذنا مثلا ميدان الحديث و الفقه، فإن القراءة المعمّقة للمجلد السادس من طبقات ابن سعد، المخصص للكوفة، تثبت بالتفحص الدقيق أن نسبة اليمنيين فى الطبقات الخمس الأولى من رواة الحديث (طبقة الصحابة ثم الطبقات التى تليها مباشرة من الذين جاؤوا بعدهم، إذا استثنينا منهم قضاعة و الأنصار)، هى على التوالى: ۲۰٪، ۳۳٪، ۴۰٪، ۳۳٪، ۳۰٪، كما هو مبيّن فى الجدول التالى:

اسم الطبقة/ العدد الإجمالى/ عدد اليمنيين/ الشخصيات المرموقة ذات الأصل اليمنى

طبقة الصحابة/ ۱۵۰/ ۳۰/ عمار بن ياسر، أبو موسى الأشعرى، عدى بن حاتم، جرير بن عبد اللّه، الأشعث بن قيس

الطبقة الأولى من التابعين/ ۳۴۵/ ۱۱۰/ مسروق بن الأجدع، علقمة بن قيس، الأسود بن يزيد، شريح، أويس القرنى

الطبقة الثانية من التابعين/ ۶۹ (بينهم ۵ شخصيات مجهولة)/ ۲۷/ الشّعبى، إبراهيم النخعى

الطبقة الثالثة من التابعين/ ۱۲۳/ ۴۲/ أبو إسحق السبيعى، حماد بن أبى سليمان

الطبقة الرابعة من التابعين/ ۸۱/ ۲۴/ مجالد بن سعيد

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۹۷

فى طبقة الصحابة، أى الشخصيات التى يفترض أنها كانت قريبة من النبى، و الذين يذكر الإسناد أسماءهم، لم يكن هناك إلا شخصيتان من أشراف اليمن، هما أبو موسى الأشعرى و عمار بن ياسر الذى كان قرشيا بالولاء. لم تشارك اليمن فى الانطلاقة النبوية الكبرى مشاركة واسعة؛ و تعرضت القبائل لغزوتين، فلجأ الهمدانيون، مثلا، إلى الجبال. لكن بقاء اليمنيين على هامش تلك الانطلاقة، لم تحل أبدا دون دخولهم فى الإسلام بقناعة و إخلاص، و بأعداد واسعة. و لعلهم وجدوا فى الدين الجديد طريقا للخلاص من بؤسهم السياسى و المعنوى، و من انحلال النظام القديم، و من حالة الضياع التام. كان أبو موسى و عمار نموذجا للإنسان المسلم، قبل كل شىء؛ و قد حاول عمر أن يعتمد عليهما لتنظيم الفتح؛ و نحن نعلم تأييد عمار غير المشروط لعلى فى سبيل إقامة نظام إسلامى. و ضمّ الجيل الأول من التابعين ثلاثة يمنيين ضمن أصحاب ابن مسعود الستة: القاضى شريح

و أويس القرنى، أحد أوائل الزهّاد المسلمين. و قد غدا أويس وجها بارزا بين وجوه الأتقياء فى العصر الإسلامى الأول. و على الرغم من أن هذا الرجل لم يكن لديه أى امتياز فى الإسلام، فإن الموروث جهد كى يصنع له مثل هذا الامتياز و أن يقرّبه، بصورة أو بأخرى، من النبى محمد و من الخليفة عمر. و لربما كان يكمن وراء ذلك رغبة جامحة لدى اليمنيين فى التعويض عن النقص الناشئ لديهم عن بعد المسافة التى تفصلهم عن الشرعية التاريخية فى سباق الوصول إليها. فى الطبقة الثانية، هناك الشعبى و إبراهيم النخعى، و فى الطبقة الثالثة حماد بن أبى سليمان، و هو وجه غير معروف كثيرا.

و كان الشعبى أحد رجال الكوفة المعروفين، و صاحب سطوة و نفوذ فى ميادين شتى. أما حماد و إبراهيم فقد لعبا دورا أساسيا؛ فقد وضع إبراهيم تعريفا دقيقا للشعائر، و وضع حماد أسس الحديث و الفقه.

حاول جوزف شاخت فى كتابه أن يبيّن أن الفقه ولد فى مكان واحد هو الكوفة لا المدينة، و أن عددا كبيرا من العقائد تنسب إلى إبراهيم النخعى، و أن

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۹۸

هذا العمل تمّ على يد رجل من الجيل اللاحق هو حماد. غير أن هذه الفرضية لم يتم إثباتها بما فيه الكفاية، لكنها تبرز الدور المركزى الذى اضطلعت به الكوفة، و تبرز على أية حال الدور الذى تواصل من حماد إلى إبراهيم إلى ابن مسعود، و هو دور تقرّ الأحاديث بأنه كان أساس المدرسة العراقية. و يرى شاخت أن الجهد الفقهى الحقيقى بذله الجيل الذى كان مجتهدا بين العامين ۱۰۰ و ۱۲۵ للهجرة، أى جيل حماد و الأعمش. غير أننا نرى أن ذلك الجهد قد أعدّ له الجيل السابق (بين العامين ۷۵ و ۱۰۰) الذى يمكن تسميته بالجيل المؤسّس، و هو جيل الشعبى و سعيد بن جبير و إبراهيم النخعى. فهؤلاء الثلاثة هم الذين وضعوا أسس معرفة إسلامية لم تكن قد توزعت بعد فى الفروع التى تشعبت إليها لاحقا (قراءة القرآن، تفسير القرآن، الفقه، الحديث، و التاريخ) و أطلقوا وجهة البحث، وعيّنوا خطوات المستقبل، و أرسوا من خلال ذلك كله أسس سلطة معنوية متصلة بالعلم. بين هؤلاء الآباء الثلاثة، اثنان من أصل يمنى محض. كثيرون هم الكوفيون اليمنيون الذين تركوا بصماتهم على الإرهاصات العلمية الأولى، سواء منها الدينية أم الدنيوية: طلحة بن مصرّف و عيسى بن عمر الهمدانى فى قراءة القرآن، مجالد بن سعيد و أبو مخنف و محمد بن السائب الكلبى (الذى يمكن نسبته إلى مجموعة اليمن) فى التاريخ. أما فى الشعر فيكفى أن نذكر اسم أعشى همدان، حتى ندرك مستوى التثاقف الذى بلغه اليمنيون القدماء، و مدى إسهامهم فى الثقافة العربية الإسلامية الكونية.

و حيث إن السلطة كانت تهمّش اليمنيين، فقد وضعوا عاطفتهم السياسية فى الآمال الشيعية التى كانت نوعا من الكونية. و حيث إنهم كانوا مقطوعين عن ماضيهم الثقافى الخاص، فقد أسهموا إسهاما بالغا، و فى الأعماق، فى بناء مستقبل ثقافى للعرب المسلمين جميعا، كما فى بناء ماض لهم.

نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۳۹۹

فهرس المصادر و المراجع

۱- المصادر

- الأزرقى، أخبار مكة، بيروت، [بدون تاريخ].
- الأصفهانى، كتاب الأغانى، بيروت، ۱۹۵۵؛ القاهرة، ۱۹۲۸.

- الأصفهانی، مقاتل الطالبیین، بیروت، [بدون تاریخ].
- الألوسی، بلوغ الأرب فی معرفة أحوال العرب، بغداد، ۱۳۱۴ ه.
- ابن أبی حدید، شرح نهج البلاغة، القاهرة، [بدون تاریخ].
- ابن الأثیر، الکامل فی التاریخ، بیروت، ۱۹۶۵.
- ابن الأعثم الکوفی، کتاب الفتوح، حیدرآباد، ۱۹۶۸.
- ابن بطوطة، الرحلة، بیروت، ۱۹۶۰.
- ابن جبیر، الرحلة، بیروت، ۱۹۵۵.
- ابن حبیب السکّری، المحبّر، حیدرآباد، ۱۹۴۲.
- ابن حجر، الاصابة فی تمییز الصحابة، القاهرة، ۱۳۲۸ ه.
- ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، القاهرة، ۱۹۶۲.
- ابن خرداذبه، کتاب المسالک و الممالک، طبعة جدیدة، لیدن، ۱۹۶۷.
- ابن خلدون، مقدمة، بیروت، ۱۹۶۱.
- ابن خلّکان، وفیات الأعیان، بیروت، [بدون تاریخ].
- ابن درید، الاشتقاق، بغداد، ۱۹۷۹.
- ابن رسته، الأعلاق النفیسة، لیدن، ۱۸۹۲.
- ابن سعد، کتاب الطبقات الکبری، بیروت، ۱۹۵۷.
- ابن عساکر، التاریخ الکبیر، دمشق، ۱۳۲۵ ه.
- ابن الفقیه الهمذانی، مختصر کتاب البلدان، لیدن، ۱۸۹۲.
- ابن الفقیه الهمذانی، بغداد مدینة السلام، تحقیق صالح أحمد العلی، باریس، ۱۹۷۷.
نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۴۰۰
- ابن قتیبة، عیون الاخبار، القاهرة، ۱۹۲۵- ۱۹۳۰.
- ابن مزاحم، کتاب وقعة صفّین، القاهرة، ۱۹۸۱.
- ابن منظور، لسان العرب، بیروت، ۱۹۵۵.
- ابن الندیم، الفهرست، طبعة فلوغل، طبعة جدیدة، بیروت؛ ۱۹۶۴؛ طبعة ر. تجدّد، طهران، ۱۹۷۱.
- ابن هشام، سیرة سیدنا محمد، غوتنغن، ۱۲۷۶ ه.
- أبو داود، سنن، القاهرة، ۱۹۳۵.
- أبو عبید بن سلّام، کتاب الاموال، القاهرة، ۱۳۵۳ ه.
- أبو عبیدة، کتاب الخیل، حیدرآباد، ۱۳۵۸ ه.
- أبو یوسف، کتاب الخراج، القاهرة، ۱۳۵۲ ه.
- البحتری، کتاب الحماسة، القاهرة، ۱۹۲۹.
- بحشل الواسطی، تاریخ واسط، بغداد، ۱۹۶۷.
- البخاری، التاریخ الکبیر، حیدرآباد، ۱۳۶۱ ه.

- البغدادی (عبد القادر)، خزانة الأدب، بولاق، ۱۲۲۹ ه.
- البکری، معجم ما استعجم، القاهرة، ۱۹۴۵.
- البلاذری، أنساب الأشراف، ج ۳، تحقیق محمودی، بیروت، ۱۹۷۷.
- البلاذری، أنساب الأشراف، ج ۳، تحقیق عبد العزیز الدوری، بیروت، [بدون تاریخ].
- البلاذری، أنساب الأشراف، ج ۴، تحقیق احسان عباس، بیروت، ۱۹۷۹.
- البلاذری، أنساب الأشراف، ج ۴، تحقیق شلوسینغر، ۱۹۳۸.
- البلاذری، أنساب الأشراف، ج ۵، تحقیق غویتین، القدس، ۱۹۳۶.
- البلاذری، أنساب الأشراف، مخطوطة المکتبة الوطنیة/ باریس و مخطوطة مصوّرة عن نسخة مکتبة السلیمانیة و مودعة فی جامعة باریس الثالثة.
- البلاذری، فتوح البلدان، القاهرة، ۱۹۳۲.
- الجاحظ، البیان و التبیین، القاهرة، ۱۹۲۶.
- الجاحظ، رسائل، القاهرة، ۱۹۶۴.
- الجاحظ، کتاب البلدان، تحقیق صالح أحمد العلی، بغداد، ۱۹۷۰.
- الحمدانی، کتاب الإکلیل، ج ۱۰، القاهرة، ۱۳۶۸ ه.
- الخطیب البغدادی، تاریخ بغداد، القاهرة، ۱۹۳۱.
- خلیفة بن خیاط، التاریخ، بغداد، ۱۹۶۷.
- الدینوری، الأخبار الطوال، القاهرة، ۱۹۶۰.
نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة، ص: ۴۰۱
- الرازی، تاریخ مدینة صنعاء، الطبعة الثانیة، صنعاء، ۱۹۸۱.
- الزبیدی، تاج العروس، القاهرة، ۱۳۰۶ ه.
نشأة المدینة العربیة الإسلامیة: الکوفة؛ ص۴۰۱
السراخسی، المبسوط، القاهرة، ۱۳۲۴- ۱۳۳۱ ه.
- السمرقندی، تحفة الفقهاء، دمشق، ۱۹۵۸.
- السّمهودی، وفاء الوفا للتعریف بدار المصطفی، بیروت، ۱۹۵۵.
- الشابشتی، کتاب الدیارات، بغداد، ۱۹۶۶.
- الصولی، أدب الکتّاب، القاهرة، ۱۳۴۱ ه.
- الطبری، تاریخ الرسل و الملوک، القاهرة، ۱۹۶۰- ۱۹۶۹.
- قدامة بن جعفر، کتاب الخراج، لیدن، ۱۹۶۷.
- الکلبی (هشام)، کتاب النسب، مخطوطة فی الاسکوریال.
- المبرّد، الکامل، القاهرة، [بدون تاریخ].
- المسعودی، مروج الذهب، بیروت، ۱۹۶۵- ۱۹۷۰.
- المقدّسی، أحسن التقاسیم فی معرفة الاقالیم، لیدن، ۱۸۹۲.

- وكيع بن خلف، أخبار القضاة، القاهرة، ۱۹۴۷- ۱۹۵۰.
- ياقوت الحموی، معجم البلدان، بيروت، [بدون تاريخ].
- ياقوت الحموی، معجم الأدباء، القاهرة، [بدون تاريخ].
- اليعقوبی، التاريخ، بيروت، ۱۹۶۰.
- اليعقوبی، كتاب البلدان، ليدن، ۱۸۹۲.

۲- المراجع

۱) المراجع باللغة العربية
- الأفغانی (سعيد)، أسواق العرب فی الجاهلية و الاسلام، بيروت، ۱۹۷۴.
- أمين (أحمد)، فجر الاسلام، القاهرة، ۱۹۲۸.
- أمين (أحمد)، ضحی الاسلام، القاهرة، ۱۹۳۸.
- البراقی (الحسن بن أحمد)، تاريخ الكوفة، الطبعة الثانية، النجف، ۱۳۵۶ ه.
- الجنابی (كاظم)، تخطيط مدينة الكوفة عن المصادر التاريخية و الأثرية، بغداد، ۱۹۶۷.
- الحديثی (نزار)، أهل اليمن فی صدر الاسلام، بغداد، ۱۹۷۸.
- الدوری (عبد العزيز)، «الاسلام و انتشار اللغة العربية و التعريب» فی: القومية العربية و الاسلام، بيروت، ۱۹۸۱.
نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۴۰۲
- الدوری (عبد العزيز)، التكوين التاريخی للأمة العربية، بيروت، ۱۹۸۴.
- العلی (صالح أحمد)، «منطقة الحيرة- دراسة طوبوغرافية»، مجلة كلية الآداب، ۵/ ۱۹۶۹، بغداد.
- العلی (صالح أحمد)، «منطقة الكوفة»، سومر، ۲۱/ ۱۹۶۵، العددان ۱، ۲.
- العلی (صالح أحمد)، «مصادر دراسة تاريخ الكوفة فی القرون الاسلامية الاولی»، مجلة المجمع العلمی العراقی، ۲۴/ ۱۹۷۴.
- كحالة (عمر رضا)، معجم قبائل العرب، الطبعة الثانية، بيروت، ۱۹۷۸.
- المخزومی (مهدی)، مدرسة الكوفة و منهجها فی دراسة اللغة و النحو، بغداد، ۱۹۵۵.
- المعجم الوسيط، القاهرة، ۱۹۷۲.
۲) المراجع باللغات الأجنبية:
نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۴۰۶

فهرس

الباب الأول:
الفتح العربی للعراق و تأسيس الكوفة ۵
۱- إشكالية الفتح ۶
۲- من الأيام إلی القادسية ۱۷

٣- إنهاء فتح العراق و تنظيم السواد ۴۸
۴- إنشاء الكوفة ۶۷
الباب الثانى:
المخطط المدنى الأول ۷۳
۵- تشابك المشاكل ۷۴
۶- الكوفة الأولى: هل كانت مجرد معسكر أم مدينة حقيقية؟ ۸۴
۷- بنية المجال الداخلى: المدار المركزى ۹۲
۸- بنية المجال الداخلى: الحزام السكنى أو الخطط ۱۲۱
۹- التخطيط و التطوّر اللاحق ۱۳۹
الباب الثالث:
الاستشراق و المدينة الإسلامية ۱۴۳
۱۰- من النظام إلى الخلل ۱۴۴
۱۱- مدينة بلا وجه ۱۴۷
۱۲- المدينة العفوية و المدينة المنشأة ۱۵۰
الباب الرابع:
التأثيرات و الجذور: من بابل إلى مكة ۱۵۹
نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۴۰۷
۱۳- قوة الماضى: الشرق و الهلينية و امتداداتهما ۱۶۰
۱۴- قوة الماضى: الإرث العربى القديم ۱۸۰
الباب الخامس:
التمدن و الاستقرار، الذروة التاريخية ۲۱۳
۱۵- المجهود المعمارى فى عهد زياد ۲۱۸
۱۶- التمدن و التنظيم ۲۲۴
۱۷- الكشف عن الكوفة: ثورة المختار ۲۳۵
۱۸- شبيب: استطلاع ثان ۲۶۲
الباب السادس:
التطوّر و الاستكمال ۲۷۵
۱۹- أجيال جديدة، عصور أخرى ۲۷۶
۲۰- الاستمرارية، الإضافات و الابتكارات ۲۸۵
۲۱- رجوعا إلى التقاليد العربية: الجبّانات و الصحارى ۲۹۷
۲۲- مساجد الكوفة ۳۱۲
۲۳- وضع السكك: السور و الخندق ۳۱۹

الباب السابع:
الكوفة كنموذج للمدينة الإسلامية؟ ۳۲۳
۲۴- الكوفة و المدن المنشأة بالعراق قبل بغداد ۳۲۴
۲۵- الكوفة و بغداد ۳۳۴
خاتمة:
الوجه المدنى للكوفة: مصير الكوفة و هويتها ۳۴۲
ملاحق:
ملحق (۱): الكوفة فى تاريخ الإسلام ۳۴۷
ملحق (۲): اليمنيون فى الكوفة فى العهد الأموى ۳۶۶
فهرس المصادر و المراجع ۳۹۹
نشأة المدينة العربية الإسلامية: الكوفة، ص: ۴۰۸
الجداول و القوائم:
- جدول القبائل العربية التى شهدت القادسية ۳۲- ۳۳
- قائمة مساجد الكوفة ۳۱۳
- قائمة إضافية فى أسماء مساجد قبيلة كندة ۳۱۵
الرسوم و الخرائط:
- التخطيط الأول للصحن حسب رواية سيف ۱۰۰
- التخطيط الثانى للصحن حسب رواية سيف ۱۰۴
- التخطيط الثانى للصحن حسب رواية سيف و الشواهد الأثرية ۱۱۷
- الخطط القبلية حسب رواية سيف ۱۲۸
- خريطة العراق العربى فى العصر الكلاسيكى ۱۶۷
- خريطة الكوفة فى أوجها خلال الخلافة الأموية ۳۱۸
مطبعة دار الكتب- منطقة بئر حسن- مقابل ال
BHV
- بناية البارادايز- ۸۵۳۷۵۳/ ۰۱ /۱۳۹۰/ ۰۵/ ۱۵۰۰

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).
قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنا وَ يُعَلِّمُهَا النّاسَ؛ فَإِنَّ النّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلامِنا لَاتَّبَعُونا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابِذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بِساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یومٍ.

مرکز "القائمیّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ مِن خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثقافة الثّقلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جِهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتجات العرضیّة، الخطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد"/ ما بینَ شارع"پنج رَمَضان" ومُفترَق"وفائی"/بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com
الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)
الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)
مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)
التِّجاریّهٔ و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹
امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظهٔ هامّهٔ:

المیزانیّهٔ الحالیّهٔ لهذا المرکز، شعبیّهٔ، تبرّعیّهٔ، غیر حکومیّهٔ، و غیر ربحیّهٔ، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا توافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّهٔ و العلمیّهٔ الحالیّهٔ و مشاریع التوسعهٔ الثّقافیّهٔ؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّهٔ) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحهٔ بقیّهٔ الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التمکن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.

مركز القائمية اصبهان للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩